

دكتور رمضان عبدالنور



الناشر مكتبة النخاس بالفاخرة

STUDENTS-HUB.com

Uploaded By: anonymous

فصول في

فقير العربيه

تأليف
الدكتور رمضان عبد الثواب

العميد السابق لكلية الآداب
جامعة عين شمس

الطبعة السادسة
١٤٢٠ هـ = ١٩٩٩ م

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويري

مكتبة الخانجي

للطباعة والنشر والتوزيع

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

رقم الإيداع

٩٩/١٣٠٠٩

الترقيم الدولي

I.S.B.N. 977 - 5046/57 - 2

الشركة الدولية للطباعة

مدينة السادس من أكتوبر - المنطقة الصناعية الثانية

٠١١ - ٣٣٨٢٤٠ : 

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى سنة ١٩٧٣ م ، فتلقفه القراء والمتخصصون ، في شتى أنحاء الوطن العربي ، بيد الرضا والقبول ، ونفدت تلك الطبعة ، في أقل مما قدر لها من الوقت ، وحالت ظروف انشغالي ببعض الأعمال العلمية الأخرى ، دون التفكير في إعادة طبعه من جديد .

غير أن اشتداد الطلب على الكتاب ، جعلني أسمح للناشرين بتيسير الانتفاع به ، عن طريق التصوير (بالأوفست) ، فصورته مكتبة دار التراث مرة في عام ١٩٧٧ ، كما صورته مكتبة الخانجي مرة أخرى في عام ١٩٧٩ م .

ونفدت مصوراته هذه وتلك بسرعة ، وطلب مني المرحوم الحاج نجيب الخانجي ، قبل أن يتوفاه الله إلى رحمته بشهور ، أن أعد له طبعة جديدة من الكتاب ، ليتولى هو إخراجها ونشره على نفقته ، فلبيت رغبته الكريمة . وهذه الطبعة الجديدة مهداة إلى روحه الطاهرة ، رحمه الله رحمة واسعة .

وتمتاز هذه الطبعة ، بزيادات مهمة في كل فصل من فصول الكتاب ، وإفادة جمّة من المصادر الجديدة ، التي ظهرت بعد صدور الطبعة الأولى ، وإعادة النظر في كثير من قضاياها ، في ضوء تلك المصادر . وقد أضفت إلى الكتاب فصلاً جديداً ، عن مشكلة « تعليم العربية » في الباب الخامس ، الخاص « بقضايا اللغة ومشكلات العربية » .

كما أن فيها إضافات أخرى ، هنا وهناك ، عن الموطن الأصلي

للساميين ، ومعرفة العرب القدامى باللغات السامية ، والاستشهاد بالحديث الشريف ، وبعض المعاجم العربية ، وظاهرة العلاقة بين اللفظ والمعنى وغير ذلك .

وإنه لما يثلج الصدر حقا ، أن هذا الكتاب ، بما تضمنه من آراء ونظريات في اللغة ، كان ذا صدق كبير في المؤلفات اللغوية ، والرسائل العلمية في الوطن العربي ، في السنوات الماضية . وإني لأرجو أن تنال هذه الطبعة من الرضا والقبول ، ما نالته أختها من قبل ، والله الموفق .

ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب .

د . رمضان عبد التواب

مقدمة الطبعة الأولى

عنى اللغويون والنحويون ، منذ أواخر القرن الأول الهجرى ، بدراسة الفصحى ، وهى اللغة الأدبية المشتركة ، بين مختلف القبائل فى الجزيرة العربية ، تلك اللغة التى سجل بها الشعراء خواطرهم ، ومظاهر الحياة من حولهم ، كما استخدمها الخطباء فى محافلهم وأسواقهم الأدبية ، ثم تَوَّجها القرآن الكريم ، فأنزله الله تعالى ، بأعلى ما تصبو إليه هذه اللغة من مستوى . ومنذ ذلك الحين ، ارتبطت هذه اللغة بالقرآن الكريم ، واجتهد النحاة واللغويون فى دراستها ، وتحديد معالمها ، من نواحى الأصوات ، والصيغ والأبنية ، والدلالة ، وتركيب الجملة ، ووظيفة الكلمة فى داخل هذه الجملة .

ليس معنى هذا كله أن الناس كانوا فى الجاهلية ، لا يتحدثون فيما بينهم إلا بهذه اللغة ؛ فقد كانت هناك لهجات كثيرة ، لم ترق إلى هذا المستوى الأدبى ، ولم يحفل بها الشعراء والخطباء . وقد روى لنا اللغويون العرب ، مقتطفات مبتورة من هذه اللهجات ، فحدثونا عن فحفة هذيل ، وعنعة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وتلتة بهراء ، كما ذكروا لنا طرفا من خصائص لهجة بلحارث بن كعب وطبىء وغيرهما .

غير أن الهدف الأساسى عند هؤلاء اللغويين ، كان هو محاولة رسم معالم اللغة الأدبية ، لغة القرآن الكريم والشعر والخطابة ، وغير ذلك من الفنون الأدبية ، وهى تلك اللغة التى اصططحنا على تسميتها بالفصحى .

ومن القواعد المقررة عند علماء اللغة ، أنه يستحيل على مجموعة بشرية تعيش فى مساحة أرضية شاسعة ، أن تصطنع فى حديثها اليومى ،

لغة موحدة تخلو من اختلاف صوتي ، أو دلالي ، أو اختلاف في البنية أو التراكيب ، إن هذه قضية ليست في حاجة إلى برهنة ؛ فاللغات التي تعيش بيننا الآن ، تعاني من هذه الظاهرة ، ولا يمكن تجنبها في أية لغة من اللغات مع الأسف الشديد ، وإذا أردت مثالا على هذا ، فأمامك لغة الحديث في مصر ، تختلف من منطقة إلى منطقة ، ومن محافظة إلى أخرى ، وإنكار ذلك ضرب من العبث .

الازدواج اللغوي إذن ، ظاهرة موجودة في جميع اللغات منذ القديم ، ولا سبيل إلى إنكارها ، غير أن انتشار تعليم اللغة الأدبية ، مما يخفف من حدة هذا الازدواج عند الشعوب ، التي ترتفع فيها نسبة التعليم إلى درجة كبيرة ، ومع ذلك يظل هذا الازدواج موجودا ، غاية ما هنالك أنه يحدث نوع من التقارب ، بين لغة الحديث واللغة الأدبية ، بحدوث التفاعل بينهما ، فتتأثر كل واحدة منهما بالأخرى ، وعندئذ تقوم قيامة المحافظين المتشددین الغيورين على اللغة الأدبية ، العارفين بخصائصها ، فيعيون هذا التأثير العامي ، في كتابات الكتاب وشعر الشعراء ، ويحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الحديث ، ويكون الانتصار في النهاية للشكل الحديث — تلك هي حياة اللغات جميعا ، وعن هذا الطريق تتولد لغة من لغة ، وتموت لغة وتحيا أخرى .

أما إذا انخفضت نسبة تعليم اللغة الأدبية ، عند أمة من الأمم ، فإن الهوة تتسع بينها وبين لغة الحديث اليومي ، اتساعا يباعد بينها في النواحي الصوتية والدلالية ، وغير ذلك مما أشرنا إليه من قبل . وهذا هو الحال في اللغة العربية الأدبية وعامياتها في البلاد العربية ، شأن كل أمة ترتفع فيها نسبة الأمية ، إلى هذا الحد الذي وصلت إليه الشعوب العربية .

من كل هذا نرى أن الازدواج اللغوي قائم لا مفر منه ، وكان من الممكن أن يترك للتفاعل أثره ، بين العربية الفصحى وعامياتها المختلفة ، فتتولد من هذا التفاعل لغة أدبية جديدة ، تتفاعل مع العاميات مرة

أخرى ، لتنشأ لغة أدبية جديدة مرة أخرى . . . إلى ما شاء الله ، غير أن ذلك يمكن أن يحدث في أية لغة من اللغات – وهو يحدث بالفعل – فيما عدا العربية التي كان يحدث فيها مثل ذلك بالطبع ، إلى أن ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرناً ، ودُوِّن بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم ، فى كثير من مظاهره .

هذا هو السر الذى يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات فى شكلها الحاضر ، لا يتعدى قرنين من الزمان ، فهى دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطى ، ولا تجد فى ذلك حرجاً ؛ لأنها لم ترتبط فى فترة من فترات حياتها بكتاب مقدس ، كما هو الحال فى العربية .

هذه مقدمة ، أردت بها أن أبين عدة أمور ، منها أن الدرس اللغوى ، عند اللغويين القدماء ، ارتبط فى أذهانهم بقدسية العربية ، وارتفاع شأنها على ما عداها من اللغات واللهجات ، ومن هنا انصرفوا عن الدرس المقارن للعربية ، فى إطار فصيلتها السامية من جانب ، ولهجاتها المحلية من جانب آخر ؛ ولذا نرى براعتهم الفائقة فى تسجيل الظواهر اللغوية فى العربية ، بمقدار ما نرى أوهامهم الكثيرة ، فى البحث عن أسرار هذه الظواهر وتعليلها .

كما أن منهج القدماء ، اضطرب بين الغض من شأن اللهجات العربية القديمة ، والخلط بينها وبين الفصحى ، فى متن اللغة وقواعدها فى كثير من الأحيان ، مما أدى إلى كثرة الشذوذ ، والالتجاء إلى التأويل ، وتحكيم المنطق العقلى فى كثير من الظواهر اللغوية ، التى تخضع كل واحدة منها ، لمنطق لغوى خاص .

ومن العجيب أن نرى جمهرة شواهد اللغة عندهم ، تعتمد على الشعر بمعانيه وأخيلته ، وموازنه وضروراته ، ولا شك أن هناك قدراً

مشتركا في اللغة ، بين البناء النثرى ، والبناء الشعري في العربية ، غير أن الاعتقاد في التطابق بين هذين الجنسين فيها ، كان أساسا لاعتماد اللغويين على الشعر في غالب الأحيان ، لاستنباط قواعد الكلام العربى ، ودلالات ألفاظه ، وتصنيف صيغه وأوزان مفرداته .

كما كانوا يرون في العربية أمرا سحريا ، جعلهم يربطون بين الصوت ومدلوله اللغوى ، ربطا حتميا ، مع أنه في واقع الأمر ليس إلا رمزا اصطلاحيا لما يدل عليه ، وبلغ من إعجابهم بالعربية ، أن ادعوا عروبة ما فيها من ألفاظ ، اقترضها العرب من لغات الأمم المجاورين لهم ، شأنهم في ذلك شأن سائر الأمم ، التى تحيا لغاتهم ، بهذا التفاعل اللغوى بينهم وبين جيرانهم .

ورغم عنايتهم الشديدة بالصوت اللغوى ، وكشفهم الحجب عن كثير من خصائصه ومكوناته ، فقد وقعوا في وهم الخلط ، بين النطق والكتابة في بعض الأحيان ، وأسسوا بعض قواعدهم على هذا الوهم ، ولم يفتنوا إلى الازدواج في وظيفة بعض الرموز الكتابية ، وظنوا الحركة عرضا للحرف ، وغفلوا عن التطور التاريخى للخط العربى ، وغير ذلك من الأمور ، التى زعزعت كثيرا من أسس الدرس اللغوى عند العرب .

وهذا الكتاب محاولة متواضعة ، للكشف عن هذه المشكلات جميعها ، وتقليب وجهات النظر القديمة والحديثة فيها ، والبحث عن الأسس التى تقوم عليها ، فى ضوء المناهج اللغوية الحديثة ، والإفادة من الدرس اللغوى المقارن ، كلما أمكن ذلك .

فإن أك أصبت ، فالخير أردت ، والله تعالى أسأل أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به العربية وعشاقها . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

د . رمضان عبد التواب

تمهيد

١- بين فقه اللغة وعلم اللغة

تطلق كلمة « فقه اللغة » عندنا الآن على العلم الذى يحاول الكشف عن أسرار اللغة ، والوقوف على القوانين التى تسير عليها فى حياتها ، ومعرفة سر تطورها ، ودراسة ظواهرها المختلفة ، دراسة تاريخية من جانب ، ووصفية من جانب آخر .

وهو بهذا المعنى يضم كل الدراسات اللغوية ، التى تبحث فى نشأة اللغة الإنسانية ، واحتكاك اللغات المختلفة بعضها ببعض ، ونشأة اللغة الفصحى واللهجات ، وكذلك تلك التى تبحث فى أصوات اللغة ، ودلالة الألفاظ وبنيتها ، من النواحي التاريخية المقارنة ، والنواحي الوصفية ، وكذلك فى العلاقات النحوية بين مفرداتها ، كما تبحث أخيرا فى أساليبها ، واختلاف هذه الأساليب ، باختلاف فنونها من شعر ونثر ، وغير ذلك .

وهذا هو ما يطلق عليه فى الغرب اسم Philology ، وإن كانت هذه الكلمة : Philologie قد تحدت عند الألمان ، بدراسة النصوص اللغوية ، دراسة تاريخية مقارنة^(١) ، لمحاولة فهمها ، والاستعانة بذلك فى دراسة الفروع اللغوية الأخرى ، التى يبحث فيها علم آخر عندهم هو « علم اللغة » Sprachwissenschaft .

ويرى « ماريو باي » Mario Pei « أن موضوع فقه اللغة Philology لا يختص بدراسة اللغات فقط ، ولكن يجمع إلى ذلك ،

(١) انظر أيضا : دور الكلمة فى اللغة ، ص ٤ هامش المترجم .

دراسات تشمل الثقافة والتاريخ ، والنساج الأدي للغات موضوع الدراسة .
أما علم اللغة Linguistics فيركز على اللغة نفسها ، ولكن مع إشارات عابرة
أحيانا ، إلى قيم ثقافية وتاريخية^(٢) .

وكل علم من هذين العلمين ، لا ينفصل في الواقع عن الآخر ،
انفصالا حادا ، ولا يمكن لأحدهما أن يستغنى عن الآخر مطلقا . وفي
هذه المسألة يقول « لومل » Lommel في رسالة له بعنوان : Wie studiert
man Sprachwissenschaft ؟ « كيف يدرس علم اللغة ؟ » : « إن علم
اللغة من أهم الوسائل المساعدة للدراسات الفيلولوجية من جانب ،
ومن جانب آخر فإنه علم قائم بذاته ، له وظيفة معينة ، وطرق وميادين
معروفة ، ولا يستغنى علم اللغة عن الفيلولوجيا ، لأن أهم مصادره
هي النصوص اللغوية . والعلاقة وثيقة بين العلمين ، إلى درجة أن
الاستعمال الشائع للكلمتين ، لا يكاد يفرق بينهما » .

وقد ظهرت كلمة « فقه اللغة » في العالم العربي الحديث ،
في الجامعة المصرية ، وبخاصة عندما استقدم جماعة من المستشرقين ،
ليعاونوا في التدريس^(٣) ، كما « ذكر السنيور جويدي Guidi في محاضراته
الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ م ، أن كلمة Philologie
تصعب ترجمتها بالعربية ، وأن لها في اللغات الغربية معنى خاصا ، لا يتفق
عليه أصحاب العلم والأدب ؛ فمنهم من يرى أن هذا العلم ، مجرد درس
لقواعد الصرف والنحو ، ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يرى أنه
ليس درس اللغة فقط ، ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها ،
وإذا صح ذلك ، فمن الممكن أن يدخل في دائرة الفيلولوجي ، علم اللغة
وفنونها المختلفة ، كتاريخ اللغة ، ومقابلة اللغات ، والنحو ، والصرف ،
والعروض ، وعلوم البلاغة ، وعلم الأدب في معناه الأوسع ؛ فيدخل تاريخ

(٢) أسس علم اللغة ٣٥

(٣) مقدمة لدراسة فقه اللغة ، للدكتور محمد أحمد أبو الفرج ١٢

الأدب ، وتاريخ العلوم من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه في المجماميع والمجلات ، وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة ، وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل إلى معرفة كنه هذه الحياة العقلية ، إلا بدرس أحوال المركز ، الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية^(٤) .

وقد تخصص « فقه اللغة » فى الجامعات العربية ، بدراسة « فقه اللغة العربية » ، وإن اختلفت مناهجه فيها ، بين الدراسة التقليدية القديمة ، ومحاولات لتطبيق المناهج الحديثة فى الدرس اللغوى .

أما « علم اللغة » Linguistics ويطلق عليه أحيانا اسم : « علم اللغة العام » General Linguistics فقد دخل بعض الجامعات العربية حديثا ، وتعالج فيه عادة قضايا اللغة ، مجردة عن الارتباط بأية لغة من اللغات^(٥) ؛ فاللغة التى يبحث فيها هذا العلم ، ليست هى اللغة العربية ، أو الإنجليزية ، أو الألمانية ، وإنما هى « اللغة فى ذاتها ومن أجل ذاتها » كما يقول دى سوسير^(٦) ، هى اللغة التى تظهر وتحقق فى أشكال لغات كثيرة ، ولهجات متعددة ، وصور مختلفة من صور الكلام الإنسانى ، فمع أن اللغة العربية تختلف عن الإنجليزية ، وهذه تختلف عن الألمانية ، فإن هناك أصولا وخصائص جوهرية ، تجمع بين هذه اللغات من جانب ، كما تجمع بينها وبين سائر اللغات ، وصور الكلام الإنسانى ، من جانب آخر ، وهو أن كلا منها لغة ، أو نظام اجتماعى معين تتكلمه جماعة معينة ، بعد أن تتلقاه عن المجتمع ، وتحقق به وظائف معينة ، وينتقل من

(٤) النثر الفنى فى القرن الرابع ، للدكتور زكى مبارك ٣٧/٢

(٥) فى المكتبة العربية كتابان ، لواحد من كبار علماء اللغة فى مصر ، هو الدكتور على عبد الواحد وافى ، أحدهما بعنوان : « فقه اللغة » ، والآخر عنوانه : « علم اللغة » . والكتابان يعالجان مسائل اللغة عموما ، غير أن الأول منهما ، يتعلق بما يتصل باللغة العربية بالذات ، تعلقا كبيرا .

(٦) انظر : علم اللغة ، رأى ومنهج ، للدكتور محمود السعران ٥١

جيل إلى جيل ، فيمر بأطوار من التطور ، متأثرا في ذلك بسائر النظم الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والدينية ، وغير ذلك .

وهكذا نرى أن « علم اللغة » يستبقى مادته من النظر في اللغات على اختلافها ، وهو يحاول أن يصل إلى فهم الحقائق والخصائص ، التي تجمع اللغات الإنسانية كلها ، في إطار واحد .

★ ★ ★

٢ - جهود علماء العربية في فقه اللغة

اسم « فقه اللغة » قديم عند العرب ، وإن لم يكن شاملا لكل فروعه ، التي نهتم بها الآن ، في « فقه اللغة العربية » . ولدنا بهذا الاسم كتاب لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) ، المسمى : « فقه اللغة وسر العربية » . وفي تسمية هذا الكتاب بهذا الاسم ، شيء من التجوز في الواقع ؛ إذ ليس فيه من مسائل فقه اللغة ، التي تحدثنا عنها فيما مضى ، سوى باب : « سر العربية » في آخره ، وما عداه عبارة عن معجم للغة العربية ، رتبته على حسب الموضوعات ، تماما كما فعل من قبله أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) في كتابه : « الغريب المصنف في اللغة » وكما فعل في عصره ابن سيده الأندلسي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) في كتابه الضخم : « المخصص في اللغة » . وسنعود لذلك بالتفصيل ، عند حديثنا عن « المعاجم العربية » فيما بعد .

ولدنا كتاب آخر اسمه : « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) ، ضمنه كثيرا من مسائل فقه اللغة العربية ، مثل نشأة اللغة ، وخصائص اللسان العربي ، واختلاف لغات العرب ، ولغات العامة من العرب ، والقياس والاشتقاق في اللغة العربية ، وآثار الإسلام في اللغة العربية (وهذا الموضوع ألف فيه أبا حاتم الرازي كتابه : الزينة في الكلمات الإسلامية) ، والمترادف ، وحروف الهجاء العربية ، وحروف المعنى ، وأسماء الأشخاص وما أخذها ، وغير ذلك . وقد ألف في الموضوع الأخير عبد الملك بن قريب الأصمعي (المتوفى سنة ٢١٦ هـ) كتاب : اشتقاق

الأسماء ، وهو يحاول في هذا الكتاب ، أن يعثر لكل اسم عربى ، من أسماء الأشخاص أو القبائل ، على مأخذ يشتق منه من مواد اللغة العربية . وقد تابعه على ذلك مجموعة من العلماء ، كابن دريد الأزدي (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) في كتابه : الاشتقاق ، وأبى القاسم الزجاجي (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) في كتابه : اشتقاق أسماء الله .

ولابن فارس كتاب آخر اسمه : « مقاييس اللغة » ، وهو معجم لألفاظ اللغة العربية ، مرتب على الحروف الهجائية ، إلى حد ما ، غير أن فيه فكرتين جديدتين على حركة التأليف في المعاجم في عصره ، وتعدّان في الواقع من صميم « فقه اللغة » ، وهما فكرتا : « الأصول » و « النحت » ؛ فهو يحاول بالفكرة الأولى أن يدرج مفردات المادة اللغوية الواحدة ، تحت أصل أو أصلين ؛ مثل قوله : « الظاء والفاء والراء : أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على القهر والفوز والغلبة ، والآخر على قوة في الشيء ، ولعل الأصلين يتقاربان في القياس ، فالأول : الظُّفَر ، وهو الفوز بالشيء .. والأصل الآخر : الظُّفَر ، ظفر الإنسان ... إلخ^(١) » .

أما فكرة النحت ، فخلاصتها أن ابن فارس جمع ما زاد على الثلاثي ، من كل مادة ، تحت أبواب معينة ، وحاول تفسير بعضها بما يسمى النحت ، مثل قوله : « بُحُثِرَ ، وهو القصير المجتمع الخلق ، فهذا منحوت من كلمتين : الباء والتاء والراء ، وهو من بَتَرْتِه فَبُتِرَ ، كأنه حُرِمَ الطول فَبُتِرَ خَلْقُه . والكلمة الثانية : الحاء والتاء والراء ، وهو من حَتَرْتُ وَأَحْتَرْتُ ، وذلك ألا تُفْضِلَ على أحد ؛ يقال : أحتر على نفسه وعياله ، أى ضَيَّقَ عليهم ؛ فقد صار هذا المعنى في القصير ؛ لأنه لم يُعْطَ ما أعطيه الطويل^(٢) » .

ويذهب ابن فارس إلى هذه النظرية كذلك ، في كتابه :

(١) مقاييس اللغة ٢/٤٦٥

(٢) مقاييس اللغة ١/٣٢٩

« الصاحبى فى فقه اللغة » ؛ فىقول : « هذا مذهبنا فى أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف ، فأكثرها منحوت ؛ مثل قول العرب للرجل الشديد : ضَبَطَ ، من ضبط وضبر ، وفى قولهم : صَهْصَلَق ، أنه من : سهل وصلق ، وفى الصِّلْدَم أنه من : الصِّلْد والصَّدْم (٣) » .

ولا تقتصر جهود علماء العربية فى فقه اللغة ، على ما ألفه الثعالبى وابن فارس ، فهناك أبو الفتح عثمان بن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) ، الذى ألف كتابه : « الخصائص » ، وضمنه كثيرا من البحوث اللغوية القيمة ، كببحثه فى أصل اللغة ، ومقاييس العربية ، وتعليل اللغة ، والقياس ، والاشتقاق ، وغير ذلك .

وهناك بعض البحوث ، التى ضمنها ابن سيدة الأندلسى كتابه : « المخصص » ، الذى أشرنا إليه من قبل ، كالبحوث التى تناول بها الترادف ، والاشتراك ، والتعريب ، والاشتقاق ، والتذكير والتأنيث ، والمقصود والمدود ، وغير ذلك .

وهناك أيضا تلك البحوث القيمة ، التى أودعها جلال الدين السيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) كتابه : « المزهر فى علوم اللغة وأنواعها » ، وهو كتاب ضخم فى مجلدين ، مليء بالبحوث اللغوية المختلفة ؛ مثل البحث فى نشأة اللغات ، والمصنوع ، والفصيح والحوشى والغريب ، والمستعمل والمهمل ، وتوافق اللغات ، وتداخلها ، والمولد والمعرب ، والاشتقاق ، والترادف والاشتراك والتضاد ، والإبدال ، والقلب ، والنحت ، وغير ذلك . وهو دائرة معارف واسعة ، اعتمد فيها على الكثير من المؤلفات اللغوية المتخصصة ، التى فقد معظمها ، وبقي منها تلك الاقتباسات ، التى أدخلها السيوطى فى كتابه : المزهر .

★ ★ ★

هذا ، وللمحدثين من العرب جهود مشكورة ، في التأليف في موضوعات فقه اللغة العربية ، وعلم اللغة العام ، والترجمة فيهما من اللغات الأجنبية المختلفة ، وهذه قائمة بأهم المصادر العربية في الدرس اللغوي ، مرتبة على حسب أسماء أصحابها :

الدكتور إبراهيم أنيس :

- ١ - الأصوات اللغوية .
- ٢ - في اللهجات العربية .
- ٣ - دلالة الألفاظ .
- ٤ - من أسرار اللغة .
- ٥ - مستقبل اللغة العربية المشتركة .
- ٦ - طرق تنمية الألفاظ في اللغة .
- ٧ - اللغة بين القومية والعالمية .

الدكتور إبراهيم السامرائي :

- ٨ - دراسات في اللغة .
- ٩ - الفعل ، زمانه وأبنيته .
- ١٠ - التطور اللغوي التاريخي .
- ١١ - التوزيع اللغوي الجغرافي .
- ١٢ - العربية بين أمسها وحاضرها .
- ١٣ - مقدمة في تاريخ العربية .
- ١٤ - مباحث لغوية .

أحمد حسين شرف الدين :

- ١٥ - اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام .
- ١٦ - لهجات اليمن قديماً وحديثاً .

الدكتور أحمد محمد الضبيب :

- ١٧ - دراسات في لهجات شرق الجزيرة العربية ، لجونستون (ترجمة) .

الدكتور أحمد علم الدين الجندى :

١٨ - اللهجات العربية في التراث .

الدكتور أحمد عيسى :

١٩ - التهذيب في أصول التعريب .

الدكتور أحمد مختار عمر :

٢٠ - من قضايا اللغة والنحو .

٢١ - دراسة الصوت اللغوى .

الدكتور أحمد نصيف الجنابى :

٢٢ - الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ، حتى القرن الرابع الهجرى .

الدكتور إسرائيل ولفنسون :

٢٣ - تاريخ اللغات السامية .

الشيخ أمين الخولى :

٢٤ - مشكلات حياتنا اللغوية .

الأب أنستاس مارى الكرملى :

٢٥ - نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها .

أنيس فريجة :

٢٦ - اللهجات وأسلوب دراستها .

برجشتراسر :

٢٧ - التطور النحوى للغة العربية .

الدكتور تمام حسان :

٢٨ - مناهج البحث فى اللغة .

٢٩ - اللغة بين المعيارية والوصفية .

٣ - اللغة العربية ، معناها ومبناها .

جرجى زيدان :

٣١ - الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية .

٣٢ - اللغة العربية كائن حي .

٣٣ - العرب قبل الإسلام .

الدكتور جواد على :

٣٤ - تاريخ العرب قبل الإسلام (الجزء اللغوى) .

الدكتور حسن ظاظا.:

٣٥ - اللسان والإنسان .

٣٦ - الساميون ولغاتهم .

٣٧ - كلام العرب .

الدكتور حسن عون :

٣٨ - اللغة والنحو .

الدكتور حسين نصار :

٣٩ - المعجم العربى ، نشأته وتطوره .

حفنى ناصف :

٤٠ - مميزات لغات العرب .

٤١ - تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة العربية .

الدكتور خليل يحيى نامى :

٤٢ - دراسات فى اللغة العربية .

الدكتور داود عبده :

٤٣ - أبحاث فى اللغة العربية .

الدكتور ربحى كمال :

٤٤ - التضاد فى ضوء اللغات السامية .

الدكتور رمضان عبد التواب :

- ٤٥ - لحن العامة والتطور اللغوى .
- ٤٦ - التذكير والتأنيث فى اللغة .
- ٤٧ - فصول فى فقه العربية .
- ٤٨ - التطور اللغوى وقوانينه .
- ٤٩ - اللغة العبرية ، قواعد ونصوص ومقارنات باللغات السامية .
- ٥٠ - نصوص من اللغات السامية ، مع الشرح والتحليل والمقارنة .
- ٥١ - اللغات السامية ، لنولدكه (ترجمة) .
- ٥٢ - فقه اللغات السامية ، لبروكلمان (ترجمة) .
- ٥٣ - العربية ، ليوهان فك (ترجمة) .

الدكتور السيد يعقوب بكر :

- ٥٤ - دراسات فى فقه اللغة العربية .
- ٥٥ - دراسات مقارنة فى المعجم العربى .

الدكتور صبحى الصالح :

- ٥٦ - دراسات فى فقه اللغة .

الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) :

- ٥٧ - لفتنا والحياة .

الدكتور عبده الراجحي :

- ٥٨ - اللهجات العربية فى القراءات القرآنية .

عبد الحميد الدواخلى :

- ٥٩ - العرب فى سوريا قبل الإسلام ، لرينية ديسو (ترجمة) .

الدكتور عبد الرحمن أيوب :

- ٦٠ - محاضرات فى اللغة .

- ٦١ - العربية ولهجاتها .

- ٦٢ - اللغة والتطور .

- ٦٣ - أصوات اللغة .

- ٦٤ - دراسات نقدية في النحو العربى .
الدكتور عبد السميع محمد أحمد :
- ٦٥ - المعاجم العربية .
الدكتور عبد الصبور شاهين :
- ٦٦ - دراسات لغوية .
٦٧ - فى التطور اللغوى .
٦٨ - المنهج الصوتى للبنية العربية .
٦٩ - العربية الفصحى ، لهنى فلىش (ترجمة) .
عبد الله أمين :
- ٧٠ - الاشتقاق .
الدكتور عبد الله دروىش :
- ٧١ - المعاجم العربية ، مع اعتناء خاص بكتاب العين .
عبد الله العلاىلى :
- ٧٢ - مقدمة لدرس لغة العرب .
الدكتور عبد المجىد عابىدىن :
- ٧٣ - المىءل إلى دراسة النحو العربى على ضوء اللغات السامىة .
٧٤ - من أصول اللهجات العربية فى السودان .
عبد الوهاب حمودة :
- ٧٥ - القراءات واللهجات .
الدكتور عىءنان الخطىب :
- ٧٦ - المعجم العربى بىن الماضى والحاضر .
على عبد الواحد وافى :
- ٧٧ - علم اللغة .
٧٨ - فقه اللغة .
٧٩ - نشأة اللغة عند الإنسان والطفلى .
الدكتور على القاسمى :

- ٨٠ - علم اللغة وصناعة المعجم .
الدكتور فؤاد حسنين على :
- ٨١ - التاريخ العربى القديم ، لهومل وآخرين (ترجمة) .
غالب فاضل المطلبى :
- ٨٢ - لهجة تميم وأثرها فى العربية الموحدة .
الدكتور كمال بشر :
- ٨٣ - قضايا لغوية .
- ٨٤ - دراسات فى علم اللغة .
- ٨٥ - علم اللغة العام (الأصوات) .
الدكتور محمد أحمد أبو الفرج :
- ٨٦ - مقدمة لدراسة فقه اللغة .
محمد الأنطاكى :
- ٨٧ - الوجيز فى فقه اللغة .
محمد حسين آل ياسين :
- ٨٨ - الأضداد فى اللغة .
محمد الخضر حسين :
- ٨٩ - دراسات فى العربية وتاريخها .
الدكتور محمد خلف الله أحمد :
- ٩٠ - معالم التطور الحديث فى اللغة العربية .
الدكتور محمد عوفى عبد الرؤوف :
- ٩١ - القافية والأصوات اللغوية .
محمد المبارك :
- ٩٢ - فقه اللغة وخصائص العربية .
الدكتور محمود حجازى :
- ٩٣ - علم اللغة العربية .
- ٩٤ - مدخل إلى علم اللغة .

- ٩٥ - اللغة العربية عبر القرون .
 الدكتور محمود السمران :
 ٩٦ - علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي .
 الأب مرمرجي الدومنيكي :
 ٩٧ - المعجمية العربية في ضوء الثنائية الألسنية السامية .
 الدكتور مصطفى جواد :
 ٩٨ - المباحث اللغوية في العراق .
 الدكتورة نجاة الكوفي :
 ٩٩ - بناء الجملة بين منطق اللغة والنحو .
 الدكتور هاشم الطعان :
 ١٠٠ - مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية .
 ١٠١ - الأدب الجاهلي بين لهجات القبائل واللغة الموحدة .
 ١٠٢ - تأثير العربية باللغات اليمنية القديمة .

★ ★ ★

الباب الأول في أولية اللغة العربية

Quesada
García

الفصل الأول

اللغة العربية واللغات السامية

اللغة العربية فرع من فصيلة كبيرة ، يطلق عليها فصيلة « اللغات السامية » . وأول من أطلق عليها هذا الاسم ، هو المستشرق « شلوتسر » Schlözer أخذاً من جدول تقسيم الشعوب ، الموجود في التوراة^(١) ، ذلك الجدول الذى يرجع كل الشعوب ، التى عمرت الأرض ، بعد طوفان نوح ، إلى أولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافت .

وهذه التسمية مختصرة ومناسبة ، كما هو الواجب فى التسميات الاصطلاحية . إلا أن العلم الحديث ، يفهم منها الآن ، شيئاً يختلف إلى حد ما ، عما فهمه منها مؤلف جدول الشعوب فى التوراة ؛ لأنه بنى تقسيمه على اعتبارات سياسية ، وحدود جغرافية فحسب ؛ ولذلك جعل العيلاميين واللوديين ، من أبناء سام ؛ لأنهما كانا من رعايا الدولة الآشورية ، على الرغم من أنه لا توجد بين هذين الشعبين قرابة من ناحية ، كما أنه ليس بينهما وبين الآشوريين قرابة من ناحية أخرى . كما جعل الفينيقيين من أبناء حام ؛ بسبب صلاتهم السياسية بالمصريين ، على الرغم من أنهم أقرب الشعوب إلى العبريين^(٢) .

وتنقسم اللغات السامية عموماً إلى : شرقية وغربية ، كما تنقسم السامية الغربية إلى : غربية شمالية ، وغربية جنوبية .

أما السامية الشرقية ، فهى الأكادية بفرعيها : البابلية والآشورية .

(١) الإصحاح العاشر من سفر التكوين .
(٢) انظر : اللغات السامية ، لنولدكه ص ٨

وقد وصلت إلينا في نقوش مختلفة ، مكتوبة بالخط المسماري ، على الطين المجفف . ومن أهم هذه النقوش : النقش الذي دُون به قانون : « حموراني » ، وهو من أقدم الشرائع الأرضية .

وموطن هذه اللغة ، هو بلاد ما بين النهرين ، دجلة والفرات في العراق ، « واللغة الأكادية ، اسم جامع أطلقه البابليون ، في جنوب أرض الرافدين ، على لغتهم البابلية ، ولغة إخوانهم الآشوريين ، في شمال أرض الرافدين . وهي كذلك في اصطلاح العلماء المحدثين ، يطلقونها على اللهجات البابلية والآشورية المختلفة . و (أكاد) في الأصل : اسم المدينة التي بناها (سرجون) في الجزء الشمالي من أرض بابل ، حوالي سنة ٢٣٥٠ ق م ؛ لتكون عاصمة لدولته ، وهي أول دولة سامية ، شهدتها أرض الرافدين^(٣) . »

وقد ماتت هذه اللغة منذ قديم الزمان ، ولم يبق لنا منها إلا النقوش ، التي عرفنا منها تاريخ هذا الشعب الأكادي ، الذي كان على جانب كبير من الحضارة والمدنية ؛ فقبل مائة وأربعين عاما تقريبا ، لم نكن نعرف شيئا عن اللغة الأكادية ، بفرعيها : البابلية والآشورية ، حقا كنا نعرف بعض الشيء عن بابل وآشور ، من خلال قصص كتاب « العهد القديم » ، غير أننا لم نكن نملك وثائق ، بلغة هاتين المملكتين الكبيرتين . وكان أول من بدأ الحفر في بلاد الرافدين ، هو « بوتا » Botta قنصل فرنسا في الموصل ، عام ١٨٤٢ م . وقد أدت حفرياته في قرية : « خرسباد » بالقرب من الموصل ، إلى اكتشاف أجزاء قصر « سرجون الثاني » ، أحد ملوك آشور في القرن الثامن قبل الميلاد . وكان ذلك في مارس سنة ١٨٤٣ م .

وقد توالى الاكتشافات بعد ذلك ، وشارك فيها كثير من علماء الآثار الفرنسيين والإنجليز والأمريكان ، مثل : « باروت » Parot و « لايارد » Layard و « مالون » Mallown . وكانت حصيلة هذه

(٣) دراسات في فقه اللغة العربية ، للسيد يعقوب بكر ٦

الحفريات ، مجموعة ضخمة من النقوش ، المكتوبة على لوحات من الطين المجفف المحروق . وكما حدث في اكتشاف اللغة الهيروغليفية ، أن عثر على « حجر رشيد » المدون بثلاث لغات ، إحداها اليونانية ، التي كانت معروفة للعلماء - حدث هنا كذلك أن عثر على لوحة عليها ثلاث لغات ، كانت إحداها هي اللغة الفارسية القديمة . ويرجع الفضل في حل رموز هذه النقوش ، إلى العالم الإنجليزي « رولنسون » Rawlinson في عام ١٨٤٧ م (٤) .

وأما السامية الغربية الشمالية ، فتنقسم إلى اللغتين : الكنعانية والآرامية . أما الأولى فتنقسم إلى الكنعانية الشمالية ، والكنعانية الجنوبية . والأولى تمثلها « اللغة الأوجاريتية » ، وهي لهجة كنعانية قديمة ، كانت تتكلم في « أوجاريت » ، وهي مدينة كانت تقع على بعد ١٢ كيلو متراً ، في شمال اللاذقية ، على الساحل السوري . وقد تم اكتشافها في عام ١٩٢٩ م ، وكان اكتشافها بطريق الصدفة المحضة ؛ ففي مارس سنة ١٩٢٨ م ، كان أحد الفلاحين يحرق أرضه بسلام في « مينة البيضة » على الساحل الشمالي لسوريا ، عندما عاق محراثه فجأة عن الحرث ، كتلة ضخمة من الحجر ، وما إن رفعها حتى ظهر مدخل تحت الأرض ، في نهايته مقبرة مقبوة السقف ، وجد بها الفلاح فخاراً من الطين المحروق ، وزهريرات صغيرة لم تصب بسوء . وقد بلغ خبر هذا الحادث ، إلى إدارة الآثار الفرنسية في بيروت ، فعين علماءها المقبرة ، ورجحوا أنها ليست وحدها في المنطقة ، وإنما تكون جزءاً من جبانة كبيرة ، وإذا كانت هناك جبانة ، فمعنى هذا أنها تابعة لمدينة ما ، لا تبعد كثيراً عن هذه الجبانة .

وكان بالقرب من المنطقة ، تل مرتفع على بعد حوالي كيلو متراً واحداً ، يسمى : « رأس شمرا » ، بسبب نبات السَّمار البرّي ، الذي ينمو كثيراً في هذه المنطقة . وقد عثر الناس هناك من قبل ، على أشياء

أثرية ، كالأطباق والخناجر ، حتى شاع بين سكان المنطقة ، أنه كانت هناك مدينة كبيرة ، يقضى المرء في الطواف حول سورها أياما عديدة .

وبدأ الحفر في ذلك التل بسرعة ، في عام ١٩٢٩ م فُعِّيت مقبرة « مينة البيضة » تماما ، ووجدت بالقرب منها مقابر أخرى ، وظهرت تحت التل مدينة قديمة ، تلك هي « أوجاريت » التي كانت بتاريخها ، الذي يبعد عنا بآلاف السنين ، مركزا لدولة عظيمة ذات حضارة مزدهرة ، وعثر فيها على مئات النقوش ، التي استطاع العلماء قراءتها بسهولة ، لمشابهتها لنقوش اللغة الأكادية ؛ إذ كتبت بالخط المسماري ، الذي كتبت به النقوش الأكادية ، غير أنه هنا يسير على النظام الأبجدي ، بعكسه في الأكادية ، التي كان يسير فيها على النظام المقطعي^(٥) .

وأما الكنعانية الجنوبية ، فتشمل اللغة العبرية . وأهم نص كتب بها ، هو كتاب : « العهد القديم » ، ويشمل : التوراة ، وهي أسفار موسى الخمسة (التكوين ، والخروج ، واللاويين ، والعدد ، والتثنية) ، وكتب الأنبياء ، والمكتوبات كمزامير داود ، وأمثال سليمان ، وغيرها .

وأقدم مصادرها في اللغة العبرية ، هي : « قصيدة دُبُورَة^(٦) » ، التي ترجع إلى عصر الفتح ، أي الألف الثانية قبل ميلاد المسيح . وعصر ازدهار الأدب ، الذي وصل إلينا عن الأنبياء ، وأخبار الأيام ، هو عصر الملوك المتأخر . ولدينا من هذا العصر مصدر نقشي كذلك ، وهي اللوحة التذكارية ، التي وجدت في مدخل نفق « قنال السلوان » ، بالقرب من بيت المقدس ، وهي عبارة عن ستة أسطر ، تتحدث عن انتهاء حفر تلك القنال ، ويرجع تاريخها إلى القرن السابع قبل الميلاد .

وكان السبي البابلي ، وتخریب بيت المقدس ، على يد « بُحْتَنَصَّر »

(٥) انظر : S.Moscati, Die altsemitischen Kulturen 81 - 83.

(٦) انظر : الإصحاح الخامس من سفر القضاة .

سنة ٥٨٦ ق م ، تجربة قاسية للغة العبرية كذلك . حقا إن المنفيين في بابل ، لم يتخلوا عن لغتهم هناك ، بل إنهم أصبحوا في ضائقهم الدينية ، أشد تمسكا بها أكثر من ذي قبل ؛ ولذلك كتبت في فترة السبي أيضا ، بعض روائع الأدب العبري ، ولاسيما « رؤيا إشعيا^(٧) » . وعندما رجع العبريون من منفاهم في بابل سنة ٥٣٨ ق م ، وجدوا اللغة العبرية ، وهي لا تزال ناضرة في فلسطين ، فظلت لغة الشعب زمنا ليس بالقصير ، ولكن القرن الرابع والقرون التي تلتها ، حملت إليها عوامل التحلل والفساد . وساعد على ذلك ، انتشار عادة الزواج من غير اليهوديات ، اللواتي يجهلن اللسان العبري .

وقد أدى انتشار اللغة الآرامية على الألسنة ، إلى تقلص ظل العبرية ، فاضطر رجال الدين إلى ترجمة ما يحتاجون إليه من أدعية « العهد القديم » إلى الآرامية ، وظلت هذه الترجمة مدة طويلة شفوية ، تلقى عقب قراءة النص في العبرية ، ثم دونت وسميت « التَّرجُوم » .

ومع ابتداء العصر الهليني ، انتهت حياة اللغة العبرية ؛ إذ لم يستطع ذلك العدد الضخم من اليهود ، الذين رحل معظمهم حينذاك ناحية الغرب ، أن يحتفظ بلغته الأصلية ، في وسط يتكلم الإغريقية . كذلك كان الحال مع بني جلدتهم ، الذين ظلوا في موطنهم الأصلي ؛ إذ وجدوا أنفسهم حينذاك ، وجها لوجه أمام تلك اللغة الشعبية ، التي اكتسحت كل صدر آسيا ، وهي الآرامية ، فكان من السهولة أن يتعاملوا بهذه اللغة ، بدلا من لغتهم الأصلية ؛ لأن كل واحدة من اللغتين ، قريبة من الأخرى قريبا شديدا .

وقد ظلت العبرية بعد ذلك لعدة قرون ، لغة الدين والمدرسة ، وكتب بها الكثير من النصوص ، حتى بعد موتها على ألسنة الناس بزمان

(٧) الإصحاح الأربعون وما بعده من سفر : إشعيا .

طويل . وتتوقف خصائص هذه اللغة الأدبية ، على مدى إلمام المؤلف بالأدب العبري القديم ؛ فكتاب « ابن سيرة » المكتوب في حوالى سنة ٢٠٠ ق م ، ألف بلغة عبرية خالصة ، وجيدة للغاية ، على حين أن الكتب التى تكاد تكون معاصرة له ، أو كتبت بعده بقليل ، يظهر فيها تأثر العبرية الشديد بالآرامية ، مثل كتاب : « إستير » وكتاب : « الجامعة » وبعض مزامير داود .

وكان هذا التأثير بالآرامية ، ينمو يوما بعد يوم ، فالجدل القانوني والشعائرى بين مدارس الفقه اليهودى ، فى القرن الأول الميلادى ، والمحفوظ فى « التلمود » البابلى والفلسطينى ، كتب بالعبرية ، غير أن جمهرة مفرداته مستعارة من الآرامية .

وكان زوال ملك اليهود السياسى ، وتدمير بيت المقدس ، وحرق الهيكل عام ٧٠ م ، على أيدي الرومان ، من أعظم الحوادث التى أثرت فى تاريخ اليهود الدينى واللغوى ، وغيّرت مجراه ؛ فقد أدى تشتتهم فى بلاد العالم ، إلى تأثرهم بلغات تلك البلاد ، وكان أكثرها أثرا فى لغتهم ، هى اللغة العربية ، بعد الفتح الإسلامى ، وقد بلغ هذا التأثير درجة ، جعلت اليهود ينظمون قواعد نحوهم ، على غرار قواعد النحو العربى ، كما اتخذ شعراؤهم من أوزان الشعر العربى ، قوالب يصبون فيها أشعارهم . وتسمى العبرية فى هذه الفترة بالعبرية « الوسيطة » ، وهى بالطبع غير عبرية العصر الحديث ، التى تأثرت تأثرا كبيرا باللغات الأوربية ، وغيرها فى كثير من المفردات والأساليب .

ومن لهجات الكنعانية الجنوبية كذلك ، ما يسمى « بخطابات تل العمارنة » ، وهى خطابات وجدت فى منطقة « تل العمارنة » ، وترجع إلى حوالى عام ١٤٢٥ - ١٣٥٠ ق م ، أرسل بها أمراء سوريا وفلسطين ، إلى فراعنة مصر فى ذلك الوقت ، باللغة الآشورية ، وبها تعليقات بالكنعانية .

كما يعد من الكنعانية الجنوبية أيضا : « اللغة المؤابية » ، ويمثلها
النقش المعروف بنقش : « ميشع » ملك مؤاب ، وهو عبارة عن
نُصْب ، عثر عليه في عام ١٨٦٨ م في « ديان » بأرض مؤاب القديمة .
ويحكى هذا النقش حروب الملك « ميشع » مع ملك إسرائيل ،
المسمى : « عُمري » ، كما يعدّ مآثره على مملكته . ويرجع تاريخ هذا
النقش باتفاق معظم الآراء إلى سنة ٨٤٢ ق م . وهو الآن محفوظ
في متحف « اللوفر » بباريس .

ومن الكنعانية الجنوبية كذلك : « اللغة الفينيقية » ، التي وصلت
إلينا في عدة نقوش ، من بينها نقوش ملوك بيلوس (جيل الحالية) مثل
نقش : « شَافُطُ بَعْلُ (من القرن الثالث عشر قبل الميلاد) وأخيراً
(حوالى ١١٠٠ ق م) وأخيميلك (حوالى ١٠٠٠ ق م) . وأهم
نقش دُون بهذه اللغة ، هو نقش الملك « كَلْمُو » (حوالى ٩٠٠ ق م)
أحد أمراء « سَمَال » . وقد اكتشف في « تل زنجيرلى » بسوريا ، وهو
الآن محفوظ في متحف برلين الشرقية .

وقد نشر الفينيقيون لغتهم ، عن طريق مستعمراتهم ، في أهم بلاد
شاطيء البحر المتوسط ، غير أنها لم تريح أرضاً ثابتة في الواقع ،
إلا في شمالي إفريقية ، في نواحي « قرطاجنة » ، وتسمى هناك : « اللغة
البونية » . ونحن لا نعرف هذه اللغة ، إلا من مسرحية شعرية فكاهية ،
للشاعر الروماني « بَلُوت » Plautus (حوالى ٢٠ بيتاً في الفصل الخامس ،
باللهجة البونية ، مع ترجمة باللاتينية ، في بعض الأحيان) .

أما القسم الثانى ، من أقسام السامية الغربية الشمالية ، وهو :
« اللغة الآرامية » فمن نقوشها القديمة : نقش « تل حلف » على نهر
الخابور (حوالى ٩٠٠ - ٨٥٠ ق م) ونقش الملك « بَنَمُو الأول »
(حوالى ٨٠٠ - ٧٥٠ م) ونقش الملك « بَنَمُو الثانى » وابنه « بَرَرَكَب »

(حوالى ٧٥٠ - ٧٠٠ ق م) . وقد تلا هذه الفترة القديمة ، فترة أخرى ، عرفت فيها اللغة الآرامية « بآرامية الدولة » ؛ فقد أدخل الأخمينيون من الفـرس ، وعلى الأخص . الملك « دَارْيُوسُ الأول » (٥٢١ - ٤٨٥ ق م) اللغة الآرامية ، لكتابة الدواوين فى دولة الفرس ، كما يظهر من نقش : « بيهستون » ، الذى اكتشف فى إيران ، فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ويعد من « آرامية الدولة » كذلك ، تلك الأجزاء المكتوبة بالآرامية ، من كتاب : « العهد القديم » (سفر دانيال ٤/٢ - ٢٨/٧ وسفر عزرا ٨/٤ - ١٨/٦ ؛ ١٢/٧ - ٢٦ وسفر إرميا ١١/١٠ وكلمتان فى سفر التكوين ٤٧/٣١) والتي سميت خطأ « بالكلدانية » متابعة لما ورد فى سفر دانيال (٤/٢) من قوله : « فكلّم الكلدانيون الملك بالآرامية » .

وقد كتب باللغة الآرامية كذلك : « أوراق البردى » التى عثر عليها فى « جزيرة الفيلة » بأسوان (حوالى مائة بردية ، ترجع إلى سنة ٤٩٥ - ٤٠٠ ق م) .

وقد دُوِّن بهذه اللغة كذلك ما يسمى : « بالترجوم » ، وهو - كما ذكرنا من قبل - عبارة عن ترجمة « العهد القديم » من العبرية إلى الآرامية ؛ إذ إنه عندما اندثرت اللغة العبرية ، ولم يعد الشعب يفهمها ، جرت العادة عند تلاوة « العهد القديم » بصوت عال فى المعابد اليهودية ، أن تتبع كل آية منه فى الحال ، بترجمة لها فى اللغة الآرامية . وقد ظلت تلك الترجمة شفوية لمدة طويلة ، ولم تدوّن إلا بعد أن أصبحت عادة ودستورا مقدسا ، بسبب قدمها . وأقدم ترجموم دُوِّن ، هو ترجموم « أنكلوس » Onkelos ، ولم يتم قبل القرن الخامس الميلادى .

وكان السامريون يتكلمون بالآرامية كذلك ، وهم طائفة من اليهود ،

لا يؤمنون إلا بالتوراة فقط (وهى أسفار موسى الخمسة) ، وقد ترجموها إلى لغتهم ، غير أنها ترجمة رديئة تتمسك بحرفية النص العبرى ، ولا تخل من حشو النص بكلمات عبرية غريبة جدا عن الآرامية .

وقد كتبت بالآرامية كذلك ، تلك النقوش النبطية ، والتدمرية ، ونقوش صحراء سيناء ، التى ترجع إلى الفترة من القرن الأول قبل الميلاد ، إلى القرن الرابع الميلادى .

ومن لهجات الآرامية كذلك ، ما يسمى : « باللغة المنداعية » ، وهى لهجة طائفة « العارفين » المسيحية ، التى لا تزال توجد فى جنوبى العراق إلى اليوم . وهى لهجة آرامية خالصة ، لم تتصل كلماتها ، وتراكيبها ، بالعبرية أو بغيرها من اللغات الأخرى .

وأهم لهجات الآرامية هى : « السريانية » . وقد سُمى الآراميون أنفسهم بالسريان ، بعد اعتناقهم الدين المسيحى ؛ لأن الاسم الشعبى القديم ، صار عيبا يدل على الكفر ، تماما كالاسم : « هلىنى » عند اليونان .

وتنقسم السريانية ، تبعا لانقسام الكنيسة المسيحية ، إلى سريانية شرقية ، وهى سريانية المسيحيين التابعين لتعاليم « نسطوريوس » ، ويسمون بالنسطوريين ، وسريانية غربية ، وهى سريانية المسيحيين التابعين لتعاليم « يعقوب البردعى » ويسمون باليعاقبة .

وقد تسبب الفتح العربى ، فى استئصال شأفة الآرامية ، من البلاد التى كانت تتكلمها ، ولم يفلت من ذلك القدر المحتوم ، إلا بعض الجهات الجبلية النائية ، مثل قرية : « المعلولة » بالقرب من دمشق ، و « طور عابدين » بالعراق ، وغيرهما من الأماكن التى لا تزال تتكلم

الآرامية الحديثة ، الممتزجة بالكثير من التعبيرات العربية والتركية والكردية ، وغيرها .

ونصل الآن إلى القسم الغربى الجنوى ، من اللغات السامية ، ويضم لغتين هما : العربية والحبشية . أما الحبشية ، فهى لغة ذلك الشعب السامى ، الذى خرج من جنوبى الجزيرة العربية ، إلى البلاد المقابلة لهم ، وهى الحبشة ، واستعمروها واختلطوا بأهلها القدامى من الحاميين ، اختلاطا شديدا .

ونحن لا نعرف متى هاجرت هذه الأقوام السامية إلى هناك ، ويرجح أن ذلك تم على فترات ، قبل ميلاد المسيح ، بوقت طويل . وتسمى لغتهم : « الجعزية » نسبة إلى اسم الشعب القديم ، كما تسمى باسم أخذه الأحباش أنفسهم ، من اللغة الإغريقية ، وهو : « الإثيوبية » . وأقدم نصوص هذه اللغة ، التى بين أيدينا ، يرجع إلى سنة ٣٥٠ م .

ولم يقدر للغة الجعزية أن تعمر طويلا ، فما إن حل القرن الثانى عشر الميلادى ، حتى دبّت الفتن السياسية بين الشعب الجعزى ، وتفرقت بذلك لغته إلى لهجات ، أبرزها « اللهجة الأمهرية » ، وهى لهجة يغلب عليها العنصر الحامى غلبة شديدة . ويظهر هذا التأثير الحامى ، أقوى ما يكون ، فى بناء الجملة ، الذى تغيرت فيه تقريبا ، كل قوانين اللغة السامية الأصلية . وكذلك الضمائر - التى لا يبدو فيها بين اللغات السامية المختلفة ، إلا القليل من الاختلاف - توجد كلها هنا فى أبنية ثانوية . وفى الاسم اندثر البناء القديم ، للمؤنث والجمع ، إلا فى بقايا متجمدة من الصيغ . وأما المفردات ، فإن نصفها على الأقل مستعار من الحاميين ، أما النصف الثانى السامى الخالص ، فقد بعد كثيرا عن أصله ؛ بسبب التغيرات التى طرأت عليه .

أما العربية ، فتنقسم إلى قسمين هما : « العربية الجنوبية » و « العربية الشمالية » . أما الأولى فتعرف عند اللغويين العرب « باللغة الحميرية » . وموطنها اليمن وجنوب الجزيرة العربية ، وتنقسم إلى لهجتين هما : السبئية والمعينية . وقد وصلت إلينا منهما الكثير من النقوش ، التي تتراوح مدتها من القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، والقرن السادس الميلادي .

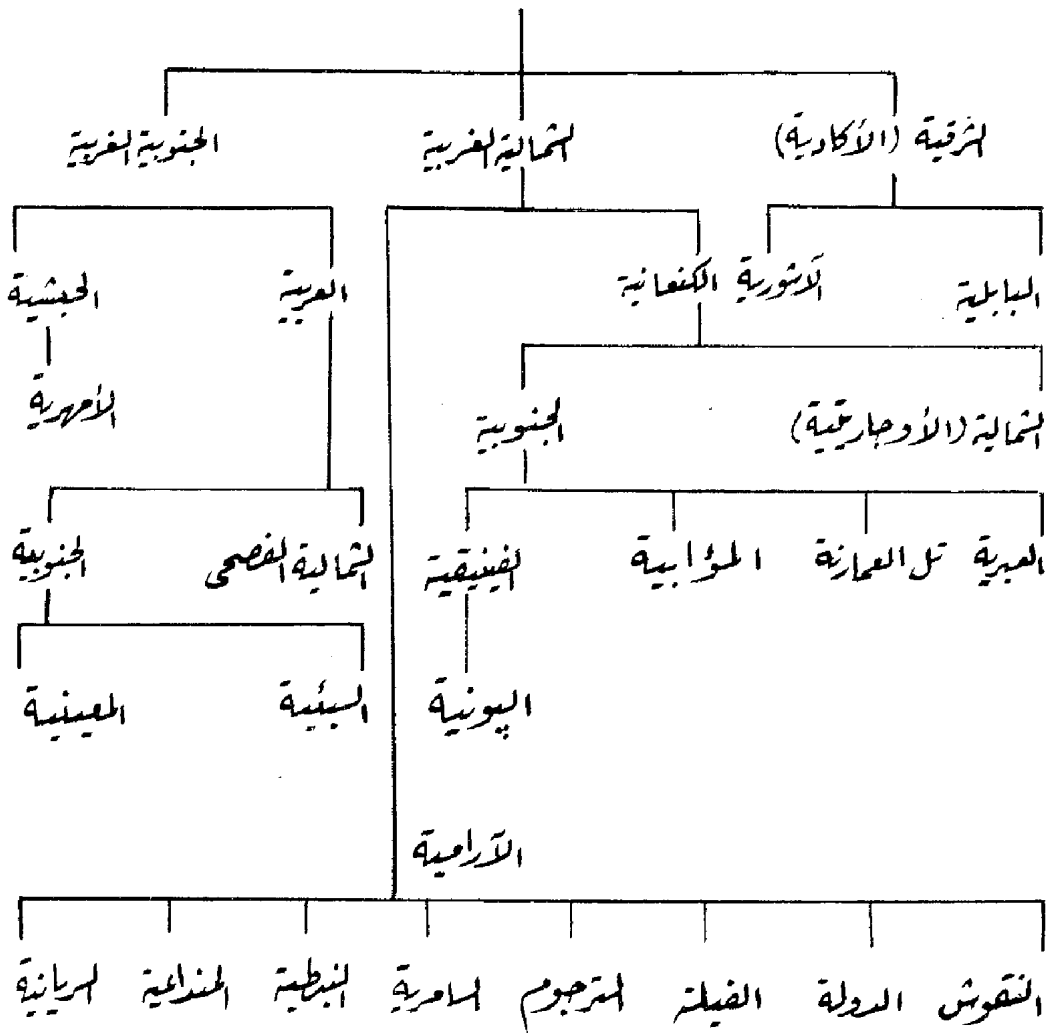
أما العربية الشمالية ، فهي لغة وسط الجزيرة العربية وشمالها ، وهي التي تسمى في عرفنا باللغة العربية الفصحى . وقد كتب لهذه اللغة الخلود ، بسبب نزول القرآن الكريم بها ، فانتشرت لذلك انتشاراً واسعاً ، كما لم تنتشر أى لغة أخرى من لغات العالم ، فهي لكل المسلمين اللغة الوحيدة ، الجائزة في العبادة ؛ ولهذا السبب تفوقت العربية الشمالية ، تفوقاً كبيراً ، على كثير من اللغات ، التي كان يتكلمها المسلمون .

وكان إلى جانب هذه العربية الفصحى ، لهجات عربية مختلفة بالجزيرة العربية ، غير أن معرفتنا بها غير كبيرة ، بسبب عزوف اللغويين العرب عنها ، وعدم اهتمامهم بدراساتها^(٨) .

(٨) انظر تفصيلاً أكثر في : اللغات السامية لنولدكه ، وفقه اللغات السامية لبروكلمان .

وفيما يلي تخطيط عام ، يبين علاقة اللغات السامية ، بعضها ببعض :

اللغات السامية



نماذج من خطوط اللغات السامية وأبجدياتها :

الأوگاريتية	الحبشية	العربية الجنوبية	العربية	السريانية	العبرية	اللاتينية
𐤀 (a)	አ	א	א	ܐ	א	,
𐤁 (b)		ב	ב	ܒ	ב	b
𐤂 (g)	ג	ג	ג	ܓ	ג	g
𐤃 (d)	ד	ד	ד	ܕ	ד	d
𐤄 (h)	ה	ה	ה	ܚ	ה	h
𐤅 (w)	ו	ו	ו	ܘ	ו	w
𐤆 (z)	ז	ז	ז	ܙ	ז	z
𐤇 (h)	ח	ח	ח	ܚ	ח	h
𐤈 (h)	ט	ט	ט	ܚ	ט	h
𐤉 (l)	ל	ל	ל	ܠ	ל	l
𐤊 (t)	מ	מ	מ	ܡ	מ	t
𐤋 (d)		נ	נ	ܢ	נ	d
𐤌 (y)	ס	ס	ס	ܣ	ס	y
𐤍 (k)	ק	ק	ק	ܩ	ק	k
𐤎 (l)	ל	ל	ל	ܠ	ל	l
𐤏 (m)	מ	מ	מ	ܡ	מ	m
𐤐 (n)	נ	נ	נ	ܢ	נ	n
𐤑 (s)	ס	ס	ס	ܣ	ס	s
𐤒 (c)	צ	צ	צ	ܥ	צ	c
𐤓 (g)	ק	ק	ק	ܩ	ק	g
𐤔 (p)	פ	פ	פ	ܦ	פ	p
𐤕 (f)	פ	פ	פ	ܦ	פ	f
𐤖 (s)	ס	ס	ס	ܣ	ס	s
𐤗 (d)	ד	ד	ד	ܕ	ד	d
𐤘 (q)	ק	ק	ק	ܩ	ק	q
𐤙 (r)	ר	ר	ר	ܪ	ר	r
𐤚 (s)	ס	ס	ס	ܣ	ס	s
𐤛 (t)	ט	ט	ט	ܚ	ט	t
𐤜 (l)	ל	ל	ל	ܠ	ל	l

الموطن الأصلي للساميين :

تعددت آراء العلماء ونظرياتهم ، حول الموطن الأصلي للساميين القدماء ، وتفرّع بهم البحث العلمي إلى عدة مذاهب ؛ أهمها :

١ - المذهب الإفريقي : وصاحبه هو المستشرق : « تيودور نولدكه » ، الذى يقول : « والقاربة الكائنة بين اللغتين : السامية والحامية ، تدعو إلى الاعتقاد بأن الموطن الأصلي للساميين ، كان فى إفريقيا ؛ لأنه من النادر أن يظن أن الحاميين ، كان لهم موطن أصلى ، غير القارة السوداء^(٩) » . وقد بنى « نولدكه » رأيه هذا على التشابه الخلقى بين الحاميين والساميين ، وعلى الأخص سكان جنوبى الجزيرة العربية ، وقال : « إن عضلة الساق فى الأقوام السامية هزيلة ، تماما كما هو الحال فى سكان إفريقيا الأصليين ، كما يشترك الشعبان فى مشابهة شعر الرأس للصوف ، وكذلك فى بروز الفكّين^(١٠) » . غير أنه يعود فيذكر أن نظريته تلك ، ليست إلا فرضا قابلا للنقض ؛ إذ يقول : « ويجب مع ذلك أن يؤخذ فى الاعتبار أن كلا من الساميين والحاميين ، قد اختلطا بشعوب أجنبية اختلاطا كبيرا ، قلّل من أوجه الشبه بينهما . وبالطبع لم أذكر كل هذا ، على أنه نظرية ثابتة ، ولكن على أنه فرض محتمل^(١١) » .

ولم يسلم هذا المذهب من النقد ؛ إذ « كيف اختلفت من إفريقية إذن ، جميع اللغات السامية ، بحيث لا تعود إلى الظهور ، إلا فى المستعمرات الفينيقية على الساحل ، لا سيما المستعمرة البونية فى قرطاجنة بتونس ، ثم مع الفتح العربى ، فى القرن السابع الميلادى^(١٢) » ، وهذه حجة مقنعة ، لا تجد من يردّها .

(٩) اللغات السامية ٢١

(١٠) اللغات السامية ٢١

(١١) اللغات السامية ٢٢

(١٢) الساميون ولغاتهم ١٢

٢ - المذهب الأرمني : وقد ذهب إلى هذا المذهب ، المستشرق الفرنسي : « رينان » وغيره . وهم يذهبون إلى أن الساميين « قد وفدوا من أماكن معينة ، من شعوب أرمينية . وهذا الرأي مستمد من سفر التكوين (١٠/٢٢ - ٢٤ ؛ ١١/١٢) الذي يعزو كثيرا من هذه الشعوب ، إلى (أرفكشاد) ، وهي تقع على حدود أرمينيا وكردستان^(١٣) » .

ويبدو أن السر في اعتناق هذا المذهب كذلك ، ما تذكره التوراة (سفر التكوين ٤/٨) من أن سفينة نوح ، رست في مكان قريب من أرفكشاد . « والخلل في هذه الفكرة ، يأتي من أنه لو سلمنا بها جَدَلًا ، وبدون مناقشة ؛ فإنه يترتب على ذلك أن تكون مرتفعات كردستان ، مهداً للإنسانية كلها ، لا للساميين وحدهم ؛ فقد نزل من السفينة في هذا المكان المفترض : نوح وأبنائه الثلاثة : سام وحام ويافت^(١٤) » .

هذا إلى أن مؤلف سفر التكوين ، لم يستند إلى أدلة علمية يقينية ، بل كان يأخذ بقول الرواة القصاصيين ، ورأيهم في المكان الذي رست فيه سفينة نوح ، « وهو رأى خيالي تماما ، هذا إلى أنه يتعارض تماما مع رأى آخر ، في سفر التكوين (١١/١) يرجع إلى مصادر أخرى ، ويذكر أن كل الشعوب ، ومن بينها الساميون أيضا ، قد انحدروا أصلا من بابل^(١٥) » .

٣ - المذهب البابلي : ومن ذهب إلى ذلك من المستشرقين : « إجناتسيو جويدى » و « فريتس هومل » وغيرهما ؛ فقد حاول « جويدى » في بحث له نشره في روما ، سنة ١٨٧٨/١٨٧٩ م ، أن يبرهن على أن « الوطن الأصلي للساميين ، يقع أسفل الفرات ، وهو يريد

(١٣) اللغات السامية ٢٢

(١٤) الساميون ولغاتهم ٩

(١٥) اللغات السامية ٢٣

أن يثبت أن المفاهيم الجغرافية والنباتية والحيوانية ، التي عُبر عنها في كل لغة من اللغات السامية ، بكلمات موحدة قديمة ، هذه المفاهيم لا تشير إلا إلى الظروف الطبيعية ، لتلك المنطقة^(١٦) .

ويعتمد هذا المذهب ، على دراسة مفردات اللغات السامية ؛ فقد لاحظ « جويدى » مثلاً ، أن كلمة (نهر) توجد بلفظها هذا على وجه التقريب ، في جميع اللغات السامية ، على حين تختلف الكلمة ، التي تدل على الجبل في هذه اللغات ؛ فهى فى العربية : (جَبَل) وفى العبرية : (هَر) ، وفى الآرامية : (طُورًا) ، وفى الأكادية : (شُد) .

وبعد أن قارن هذا المستشرق ، كثيراً من أسماء المعادن والنباتات والحيوان والتقلبات الجوية ، والتغيرات الجيولوجية ، أثبت أن قدرًا كبيراً منها ، يشبه ما فى اللغة الأكادية . واستخلص من ذلك ، أن سهول العراق ، هى الموطن الأصلي للساميين .

ومع أن « جويدى » قد عالج المسألة برزانة وفطنة ، فإننا لا نستطيع أن نتقبل نتائجه بسهولة ؛ إذ توجد لدينا بعض المفردات ، التى يشترك فيها الساميون الشماليون والجنوبيون ، وهى مع ذلك لا يجوز أن تكون قد نشأت فى منطقة الفرات^(١٧) .

٤ - المذهب العربى : ومن أنصاره : « شَبْرِنَجَر » و « دى غويَه » و « كائتاني » و « مُوسَكَاتى » وغيرهم . ويذهب هؤلاء جميعاً ، إلى أن جزيرة العرب ، هى المهد الأول للساميين . ويستدلون على ذلك بأدلة ، تكاد تكون قاطعة . ومن أهم هذه الأدلة ما يلى :

(أ) يذكر لنا التاريخ ، أن الساميين الذين عاشوا فى غير جزيرة العرب ، إنما ذهبوا إليها مغيرين ، أو مهاجرين ؛ فقد « لوحظ فى العصور

(١٦) اللغات السامية ٢٥

(١٧) انظر : اللغات السامية ٢٥

التاريخية ، كيف أن بلاد الحضارة ، فيما بين النهرين وسوريا ، كانت تكتسحها دائماً وأبداً ، موجات من القبائل البدوية ، القادمة من الصحراء العربية ، حتى غمرت أخيراً إحدى هذه الموجات القوية ، وهى المسماة بالموجة العربية ، كل صدر آسيا ، وشمالي إفريقيا^(١٨) . وتحركات الساميين منذ القدم واحدة ، و « كل الدلائل ، تشير إلى أنهم خرجوا من الجزيرة العربية ، إلى ما جاورها من البلاد ، وبعبارة أخرى : من الصحراء القاحلة ، إلى أرض الحضارة المحيطة بها ؛ ولذلك جاز لنا أن نبحت في الجزيرة العربية وصحرائها ، عن الموطن الأصلي للشعوب السامية^(١٩) » .

(ب) منذ فجر التاريخ ، كانت كل المواطن المقترحة الأخرى ، مسكونة بشعوب غير سامية ، ما عدا جزيرة العرب ، فلم يذكر التاريخ مثلاً ، أن الأكاديين كانوا السكان الأصليين لبلاد الرافدين ، بل يذكر أنهم أجانب وفدوا عليها ، وأخضعوا سكانها الأصليين المعروفين بالسومريين ؛ وقد كتب أحد ملوك الساميين الأول في العراق ، وهو الملك « سرجون الأول » (حوالى سنة ٢٦٠٠ ق م) ، في أحد النقوش « ما يفهم منه صراحة ، أنه هو وعشيرته ، قد نزحوا إلى العراق ، من شرقى جزيرة العرب^(٢٠) » .

(ج) عثر المنقبون على بعض النقوش ، المدونة باللغة السومرية ، تفيد أن بلادهم كانت دائماً فى خطر ، من إغارة قبائل تسمى : « أريبو » تأتيهم من الجهات الغربية ، أو الجنوبية الغربية .

(د) دلت الحوادث التاريخية السياسية ، ولا تزال تدل ، على أن سكان الصحارى والجبال المجدة ، يطمحون دائماً إلى التحضر وسكنى المدن ، والإقامة بالبلاد الخصبة ، المجاورة

(١٨) فقه اللغات السامية ١٢

(١٩) انظر : S. Moscati , Die altsemitischen Kulturen 14

(٢٠) الساميون ولغاتهم ١٠

للأنهار ، حيث يقيمون ويتخذون الزراعة مهنة لهم . وهذا هو ما يدعوهم إلى الغارات ، ومهاجمة الممالك المجاورة لهم . وليس هناك مثل واحد واضح ، يذكر لنا عكس هذه القضية ، وهو هجرة الحضريين إلى البادية والصحراء .

فهجرة الساميين من الجزيرة العربية إذن ، مما « يتفق تماما ، مع القوانين الاجتماعية ، والاقتصادية ؛ فظروف الحياة القاسية في الصحراء ، هي التي تجعل البدو القاطنين فيها ، يتطلعون إلى الحياة المستقرة ، في البلاد المجاورة المتحضرة ... ويحدث ذلك أمام أعيننا اليوم ، كما حدث في الماضي ؛ لأن الحياة في الصحراء ، لم تتغير اليوم تَغْيُراً جوهرياً ، عما كانت عليه قبل خمسة آلاف سنة^(٢١) .

(هـ) جميع سكان بلاد العرب اللذين لم يختلطوا بغيرهم من الأجناس البشرية ، لهم مميزات الجنس السامي الخلقية والخلقية ، ولغتهم على ما يرى المحققون من علماء الساميات ، من أمثال : بروكلمان ، ورايت ، ونولدكه ، أقرب اللغات إلى السامية الأم .

لكل هذه الأدلة ، تسيطر في العصر الحاضر ، تلك النظرية التي تقول بأن شبه الجزيرة العربية ، هي الموطن الأصلي للساميين ، ومنها انطلقوا عبر التاريخ ، إلى بلاد الرافدين ، وسوريا ، وفلسطين ، والحبشة ، وشمالي إفريقيا ، ومصر ، وكوّنوا الدول والممالك التي عرفناها من قبل .

★ ★ ★

اللغويون العرب واللغات السامية :

لم يكن جميع القدامى من اللغويين العرب ، على جهل باللغات السامية ، بل كان بعضهم يعرف العلاقة بين العربية وبعض هذه اللغات ،

(٢١) انظر : S. Moscati , Die altsemitischen Kulturen 14

وإن لم تثمر هذه المعرفة عندهم ، في الدرس اللغوى ، ومقارنة العربية باللغات السامية .

فقد عثرت على نص خطير في كتاب « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدى (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) يقول : « وكنعان بن سام بن نوح ، ينسب إليه الكنعانيون ، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية^(٢٢) » .

كما عرف أبو عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) اللغة السريانية ، وأداة التعريف فيها ، وهى الفتحة الطويلة فى أواخر كلماتها ؛ قال أبو حاتم الرازى : « قال أبو عبيد القاسم بن سلام : للعرب فى كلامها علامات ، لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه ؛ منها : إدخال الألف واللام فى أول الاسم ، وإلزامهم إياه الإعراب فى كل وجه ، فى الرفع والنصب والخفض ، كما أدخلوا فى (الطور) ، وحذفوا الألف التى فى الآخر ، فألزموه الإعراب فى كل وجه ، وهو بالسريانية : (طورًا) على حال واحد ، فى الرفع والنصب والخفض . وكذلك : (اليم) ، هو بالسريانية : (يَمًا) ، فأدخلت العرب فيه الألف واللام ، وصرفته فى جميع الإعراب ، على ما وصفت^(٢٣) » .

وكذلك أدرك ابن حزم الأندلسى (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) علاقة القرى بين العربية والعبرية والسريانية ؛ فقال : « إن الذى وقفنا عليه ، وعلمناه يقينا ، أن السريانية والعبرانية والعربية ، التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير ، واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها ، فحدث فيها جرس ، كالذى يحدث من الأندلسى ، إذا رام نغمة أهل القيروان ، ومن القيروانى إذا رام لغة الأندلس ، ومن الخراسانى إذا رام نغمتها . ونحن نجد مَنْ سمع لغة أهل (فَحْص البَلُوط) وهى على ليلة واحدة من قرطبة ، كاد يقول : إنها لغة أخرى ، غير لغة أهل قرطبة . وهكذا فى كثير من البلاد ، فإنه بمجاورة أهل

(٢٢) العين للخليل بن أحمد ٢٣٢/١

(٢٣) الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية ٧٧/١

البلدة لأمة أخرى ، تبدّل لغتها تبدُّلاً لا يخفى على من تأمله . ونحن نجد العامة قد بدّلت الألفاظ في اللغة العربية تبديلاً ، وهو في البعد عن أصل تلك الكلمة ، كلغة أخرى ولا فرق ؛ فنجدهم يقولون في (العنب) : (العِينَب) ، وفي (السَّوْط) : (اسْطَوْط) ، وفي (ثلاثة دنانير) : (ثلثدًا) . وإذا تعرّب البربري ، فأراد أن يقول : (الشجرة) قال : (السجرة) ، وإذا تعرّب الجليلقي ، أبدل من العين والحاء : هاء ؛ فيقول : (مهمّدا) ، إذا أراد أن يقول : (محمّدا) ، ومثل هذا كثير . فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ، أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا ، من تبديل ألفاظ الناس ، على طول الأزمان ، واختلاف البلدان ، ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل^(٢٤) .

كما يقول الإمام السهيلي (٥٨١ هـ) ، في العلاقة بين العربية والسريانية : « وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي ، أو يقاربه في اللفظ^(٢٥) » .

وكذلك عرف أبو حيان الأندلسي (المتوفى سنة ٧٥٤ هـ) اللغة الحبشية ، وأدرك العلاقة بينها وبين العربية ، وألّف فيها تأليفاً مستقلاً . وقد أشار إلى ذلك في تفسيره الكبير ، المسمى « بالبحر المحيط » ؛ فقال : « وأما قولهم : هندي وهندي في معنى واحد ، وهو المنسوب إلى الهند . . . فخرّجه أصحابنا ، على أن الكاف ليست زائدة ؛ لأنه لم تثبت زيادتها في موضع من المواضع ، فيحمل هذا عليه ، وإنما هو من باب : سبط وسبطر . والذي أخرّجه عليه ، أن من تكلم بهذا من العرب - إن كان تكلم به - فإنما سري إليه من لغة الحبش ؛ لقرب العرب من الحبش ، ودخول كثير من لغة بعضهم ، في لغة بعض . والحبشة إذا نسبت ، ألحقت آخر ما تنسب إليه ، كافاً مكسورة ، مشوبة بعدها ياء ؛ يقولون في النسب إلى الفُرس : الفرسكي ، وربما أبدلت تاء

(٢٤) الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم ٣٠/١

(٢٥) التعريف والإعلام ١١

مكسورة ؛ قالوا فى النسب إلى جَبْر : جَبَرْتى . وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش ، فى كتابنا المُترجم عن هذه اللغة ، المسمى : بجلاء الحبش عن لسان الحبش . وكثيرا ما تتوافق اللغتان : لغة العرب ، ولغة الحبش ، فى ألفاظ ، وفى قواعد من التراكيب نحوية ، كحروف المضارعة ، وتاء التانيث ، وهمزة التعدية^(٢٦) .

خصائص اللغات السامية ومميزاتها :

أهم ما يميز فصيلة اللغات السامية ، عن غيرها من فصائل اللغات الأخرى ، أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على الأصوات الصامتة (Consonants) ، لا على الأصوات المتحركة (Vowels) أو بمعنى آخر : يرتبط المعنى الرئيسى للكلمة ، فى ذهن الساميين ، بالأصوات الصامتة فيها ، أما الأصوات المتحركة ، فهى لا تعبر فى الكلمة ، إلا عن تحوير هذا المعنى وتعديله ، ويكفى أن تنظر إلى كلمات مثل : كَتَبَ ، وَكُتِبَ ، وَكُتِبَ ، وَكُتِبَ ... إلخ ؛ لتدرك أن المعنى الأصلى فيها ، مرتبط بالكاف والتاء والباء .

وفى عدد كبير جدا من الكلمات ، يحمل المعنى ثلاثة أصوات صامتة فيها ، ويدخل عليها إضافات فى أولها أو وسطها ، لتحوير هذا المعنى وتعديله ؛ مثل : كَاتَبَ ، وَأَكْتُبَ ، وَأَنْكُتَبَ ، وَأَكْتُتَبَ ، وَاسْتُكْتُبَ ، وَمَكْتُبَ ، وَمَكْتُوبَ ، وَكَاتَبَ .. إلخ .

ولهذا السبب ، يمتاز الفعل فى اللغات السامية ، بسلسلة من الأوزان المزیدة ، التى تعبر عن معان مشتقة من المعنى الأساسى ، وتصاغ بتغيير الجذر تغييرات ثابتة ؛ للتعبير عن شدة الفعل أو تكراره ، وعن السببية ، وعن المطاوعة ، والمشاركة فى الفعل ، والبناء للمجهول ، وغير ذلك^(٢٧) .

(٢٦) انظر : البحر المحیط ١٦٢/٤ - ١٦٣

(٢٧) انظر فى تفصیل ذلك : أبنية الفعل فى اللغات السامية ، للدكتور رمضان عبد التواب .

هذا ، وتغلب على اللغات السامية الأصوات الحلقية ، كالعين ،
والحاء ، والهاء ، والأصوات المفخمة ، كالصاد ، والطاء^(٢٨) .

كما أنها في الصيغ الفعلية ، لا تهتم بالأزمنة الثلاثة وفروعها ، وهى :
الماضى ، والحاضر والمستقبل ، بقدر ما تهتم فى هذه الصيغ ، بالحدث
المنتهى والحدث الذى لم ينته بَعْدُ ؛ ولذلك نجد فى العربية صيغتين للفعل ،
وهما : الماضى للحدث المنتهى ، والمضارع للذى لم ينته ؛ ولذلك يصلح
للحال والاستقبال ، وهناك أدوات تجعله للمستقبل خالصا ؛ مثل السين ،
أو سوف ، أو لن ، وأدوات أخرى تجعله للماضى ، مثل : لم .

هذا ، ولا تعرف اللغات السامية تركيب الكلمات « أسماء وأفعالا ؛
وذلك مثل : describe (de + scribe) « وَصَفَ » فى الإنجليزية =
beschreiben (be + schreiben) فى اللغة الألمانية ، وكذلك :
circumstance (circum + stance) « حالة » فى اللغة الإنجليزية =
Umstand (Um + Stand) فى اللغة الألمانية . وإن كان المضاف
والمضاف إليه ، فى اللغات السامية ، يرتبطان بعضهما ببعض ، ارتباطا
وثيقا ، يكاد يحيلهما فى بعض الأحيان كلمة واحدة^(٢٩) ؛ ولذلك نراها
فى فروعها الحديثة ، توثق أحيانا بين أجزاء التراكيب الإضافية ، بحيث
تصير كلمة واحدة ؛ مثال ذلك فى العربية الحديثة : (مَاوَرَد)
(وَرِسْمَال) وأصلهما : ماءٌ وَرَدٍ ، ورأسُ مَالٍ ، وغير ذلك^(٣٠) . ومثل
ذلك فى القديم قول العرب : « حَبَقُرٌّ » للبرد (= حَبٌّ + قُرٌّ) .

★ ★ ★

أهمية الدراسات السامية للعربية :

لا شك أن هناك فوائد كثيرة ، تعود على الدرس اللغوى ، من معرفة

(٢٨) انظر فى تفصيل ذلك : اللغة العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب ١٢٠ - ١٣٣

(٢٩) دراسات فى فقه اللغة العربية ، للدكتور السيد يعقوب بكر ١٢

(٣٠) انظر : فقه اللغات السامية ١٤ - ١٥ واللغات السامية لنولدكه ص ١٠

الدارس باللغات السامية ؛ فإنه فضلا عما تفيده هذه المعرفة ، بتاريخ الشعوب السامية ، وحضاراتها ، ودياناتها ، وعاداتها ، وتقاليدها - تؤدي مقارنة هذه اللغات باللغة العربية ، إلى استنتاج أحكام لغوية ، لم نكن نصل إليها ، لو اقتصرنا على العربية فحسب . ونفسر بهذا الأمر سِرَّ تقدّم المستشرقين ، في دراستهم للغة العربية ، ووصولهم فيها إلى أحكام لم يسبقوا إليها ؛ لأنهم لا يدرسون العربية ، في داخل العربية وحدها ، بل يدرسونها في إطار اللغات السامية . وفيما يلي بعض الأمثلة ، التي تبين لنا قيمة هذه الدراسات بالنسبة للعربية :

١ - قال الله تعالى : « فاذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ ، مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا » . وقرأ ابن مسعود : « وثومها وعدسها » ، وروى ذلك عن ابن عباس أيضا . فهل أصل الكلمة في العربية بالثاء أم بالفاء ؟ إن في معرفتنا باللغات السامية الإجابة على ذلك ؛ فإن الشين العبرية ، التي تقابل تاء في الآرامية ، تقابل ثاء في العربية ، وتلك قاعدة مطردة ، في مقارنات أصوات اللغات السامية^(٣١) ؛ فمثلا : كلمة : (شُورُ) šōr في العبرية ، تقابل : (ثُورَا) tawrā في الآرامية ، وتقابل كلمة : (ثُور) في العربية . وكذلك كلمة : (شُومُ) sūm في العبرية ، هي : (ثُومَا) tawmā في الآرامية ، و (ثُوم) في العربية .

ومعنى هذا أن أصل هذه الكلمة في العربية بالثاء ، وأما الفاء فهي تطوّر عنها . وقد جاءت كلمات كثيرة في العربية ، وقد تعاقبت فيها الثاء والفاء ، مثل : اللثام ، واللّفام ، وجَدَثَ وجَدَفَ للقبر ، وحشالة وحفالة للردىء من كل شيء^(٣٢) . وفي لهجة « القَطِيف » المعاصرة ، في شرق الجزيرة العربية ، يبدل الناس في كلامهم ، الثاء فاء ؛ فيقولون مثلا : « يوم الفَلَاة » في : يوم الثلاثاء ، و « عِنَبَ الفَعْلَب » في : عنب الثعلب ، و « الفار » في : الثار ، وغير ذلك .

(٣١) انظر : أصوات اللغات السامية ، في كتابنا : اللغة العبرية ١٢٢ - ١٢٧

(٣٢) انظر في سبب هذه المعاقبة : لحن العامة والتطور اللغوي ٣٦

وإذا طبقنا القاعدة السابقة ، على الفعل : (ثاب) بمعنى : رجع ، نعرف أن الفعل الآخر : (تاب) بمعنى : رجع عن الذنب ، ليس أصيلاً في العربية ، وإنما هو مستعار من الآرامية ، من النصوص الدينية ، التي استعمل فيها هذا الفعل بكثرة ، في هذا المعنى الخاص ، فالفعل في العبرية : (شَابَ) šāb ، والآرامية (تَابَ) tāb بمعنى : (رجع) مطلقاً ، كالفعل : (ثَابَ) في العربية .

٢ - كلمة : « ليس » في العربية ، يعدّها النحاة العرب ، فعلاً جامداً لا يتصرف ، من أخوات : « كان » . غير أننا إذا نظرنا إلى ما يقابلها ، في اللغات السامية الأخرى ، عرفنا أنها مركبة من (لا) وكلمة : (أَيْسَ) ، التي لا وجود لها الآن في اللغة العربية ، إلا في بعض التعبيرات القديمة ؛ كقول العرب : « ائتنى به من حيثُ أَيْسَ وَلَيْسَ » ومعناه : من حيث هو ولا هو ، وكذلك في قولهم : « الأَيْسَ وَاللَّيْسَ » ، بمعنى : الوجود والعدم . وهذه الكلمة تقابل في العبرية : (يَشْ) yēš بمعنى : يوجد ، ونفيها : (أَلْ يَشْ) ʾāl yēš = ليس . وكذلك في الآشورية : (إِشُو) išu ونفيها : (لَشُو) laššu ، وهكذا^(٣٣) .

٣ - يرى النحويون العرب ، أن الأفعال المعتلة العين أو اللام ؛ مثل : قال وباع ، وتلا ، وقضى ، وما إلى ذلك ، أصلها : قَوْلٌ ، وَبَيْعٌ ، وَتَلَوٌ ، وَقَضَى . غير أنهم يعودون فيؤكدون أن هذا الأصل ، لم يستخدم في العربية في يوم ما . ولكن معرفتنا بالحشية ، من بين اللغات السامية ، تقودنا إلى الإيمان بأن هذا الأصل ، مرحلة أقدم مما وصل إلينا في العربية ؛ ففي الحبشة يقولون : (بَيْنَ) بمعنى : تحقق ، و (دَيْنَ) بمعنى : دان ، و (رَمَى) بمعنى : رمى ، و (تَلَوَ) بمعنى : تلا ، وهكذا^(٣٤) .

(٣٣) انظر في تفصيل ذلك : لحن العامة والتطور اللغوي ٣٧٣

(٣٤) انظر لطريقة تطور هذه الأفعال في العربية : لحن العامة والتطور اللغوي ٣٧٤ ومقالتنا : الركام

اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة ٥٨ - ٥٩

٤ - واعتقادهم أن الهمزة في كلمة مثل : (اطمأن) أصلية ، يكذبه أن المادة في العبرية : (طَمَنَ) taman ليس فيها الهمز . والتعليل العلمى لوجود الهمز فيها في العبرية ، أن الكلمة أصلها : (اطمأن) ، على وزن : احمارّ واصفارّ ، ثم استخدمت الكلمة في الشعر بكثرة ، فاضطر الشاعر إلى التخلص من التقاء الساكنين - على قول النحاة - بإقحام همزة ، كما قال كثير عزة :

وأنت ابن ليلي خير قومك مشهدا إذا ما احمأرت بالعبيط العوامل
وسنعالج هذه الظاهرة ، بالتفصيل فيما بعد .

٥ - يرى النحاة أن كلمة : (اسم) ثلاثية الأصل ، وأن همزة الوصل فيها ، بدل من لام الكلمة المحذوفة ، والأصل : (سَمَو) فيما يرى البصريون ، أو بدل من فاء الكلمة المحذوفة ، والأصل : (وَسَم) فيما يرى الكوفيون . غير أن مقارنة اللغات السامية ، تدل على أن هذه الكلمة ، مع كلمات أخرى كثيرة ؛ مثل : « يد » و « دم » ذات أصل ثنائى ، فهذه الكلمة في العبرية : (شِم) šēm وفي الآرامية : (شَمَا) šmā والألف الأخيرة فيها أداة التعريف ، وفي الحبشية : (سِم) sem وفي الأكادية : (شُم) šumu .

٦ - بل إن دراسة اللغات السامية ، قد تفسر لنا ظواهر في العامية العربية ، كظاهرة ضياع صيغة المبني للمجهول في العامية ، وهى صيغة : « فَعِلَ » و « يُفَعْلُ » ؛ إذ نابت عنها في العامية : (انْفَعَلَ) مثل : انكتب ، وانفهم ، وينفلق ، وينعمل ، بدلا من : كُتِبَ ، وفُهِمَ ، وَيُفْلَقُ ، وَيُعْمَلُ ، أو صيغة : (انْفَعَلَ) ؛ مثل : انقتل ، واترمى ، بدلا من : قُتِلَ ، ورُمِيَ ؛ ففي اللغة العبرية توجد الصيغة الأولى ، وهى هناك على وزن : (نَفَعَلَ) مثل : نَقَتَلَ ، بمعنى : قُتِلَ ، وفي الآرامية توجد الصيغة الثانية ، وهى هناك على وزن : (انْفَعَلَ) مثل : انْقَتَلَ ، بمعنى : قُتِلَ .

وهناك أمثلة أخرى ، لا حصر لها ، تؤكد الفائدة التى تعود على الدراسات العربية ، من بحثها بحثا جديدا ، فى ضوء اللغات السامية .

★ ★ ★

الفصل الثاني

النقوش العربية الشمالية

إننا حين نبحث عن نصوص ، موغلة في القدم ، للغة العربية ، فإننا لا نكاد نعثر على شيء ذي قيمة . وأقدم ما بين أيدينا من نصوص عربية ، هي تلك الآثار التي نسميها بالأدب الجاهلي ، وهي لا تكاد تتجاوز قرنين من الزمان قبل الإسلام .

أما العربية التي كانت مستعملة قبل ذلك ، فلا نكاد نعرف عنها شيئاً ، وكنا نودّ أن نعثر على نصوص ، ترجع إلى ما قبل المسيحية مثلاً ، لنقارن بينها وبين الأدب الجاهلي ، ونعرف شيئاً عن خصائص اللغة في ذلك الحين ، ولكننا للأسف لم نعثر على شيء .

وأما تلك النقوش ، التي عُثر عليها في شمال الجزيرة العربية ، وحاول بعض المستشرقين قراءتها ، واستخراج بعض المعلومات منها ، وسموها باللغة العربية القديمة ، فسنعرض لها هنا بشيء من الإجمال ، ثم نرى فيها رأينا . وزمن هذه النقوش يتراوح بين القرن الخامس قبل الميلاد والرابع الميلادي .

وأقدم هذه النقوش ، هو ما اشتهر بين العلماء ، باسم النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية^(١) ، نسبة إلى قبائل ثمود ولحيان ، وهي قبائل عربية قديمة ، استوطنت شمال الجزيرة العربية . وقد عثر على الكتابات الثمودية ، في أعالي الحجاز ، وتيماء ، ومدائن صالح (الحجر) ، والعُلا (وهي دَدَان القديمة) ، وشرق الأردن ، وشبه جزيرة سيناء ، وغيرها .

(١) انظر بعض هذه النقوش ، في كتاب : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٧٨ - ١٨٧ . وانظر كذلك : اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام ، لأحمد حسين شرف الدين ٥٧ - ٦٧ .

أما النقوش الصفوية ، فإنها اكتشفت في المنطقة الواقعة بين جبل الدروز ، وتلال أرض الصفاء . وقد اعتاد المستشرقون أن ينسبوا هذه الكتابات للصفاء ؛ اختصاراً في التعبير ، مع أنها اكتشفت في المنطقة القريبة منها .

وقد ساح في منطقة الصفاء ، مستشرقون كثيرون ، فجلبوا منها كتابات كثيرة ، وحلّوا نظام الأبجدية لهذه الكتابات ، ومع ذلك ظلت هذه النقوش ، غامضة المعنى ، حتى ذهب إلى هناك ، المستشرق الألماني « إنو ليمان » Enno Littmann وجمع من منطقة الصفاء ، أكثر من ١٤٠٠ نقش ورجع إلى بلاده ، حيث درسها درساً عميقاً ، استطاع به أن يحلّ حلاً واضحاً ، حروف الأبجدية الصفوية ، وألف في لغة النقوش الصفوية كتاباً سنة ١٩٠١ م .

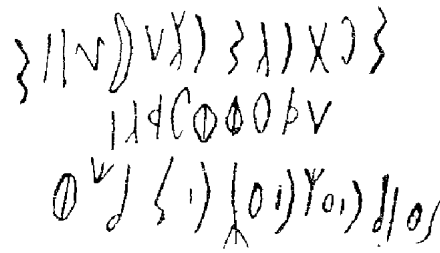
ونخطوط النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية ، تشبه خطوط اللغة السبئية والمعينية ، أو بعبارة أخرى : خطوط اللغة العربية الجنوبية القديمة ، التي كانت تسمى عند اللغويين العرب باللغة الحميرية ، وتكتب من الشمال إلى اليمين في الغالب ، وهي خالية من رموز الحركات وحروف المد واللين ؛ فكلمة : (أنا) مثلاً ، تكتب هكذا : (أن) وكلمة : (زيد) تكتب : (زد) . . إلى غير ذلك . والحال هكذا في الخط السبئي والمعيني ، المسمّى بخط المسند ، كما هو ظاهر في النقوش التي اكتشفها المستشرقون في العصر الحديث^(٢) .

وكان ذلك أمراً معروفاً لدى القدماء كذلك ؛ فهذا هو أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) ، يقول وهو يتحدث عن لوحة كتبت بخط المسند ، وورد فيها كلمتان هما : « علهان » و « نهفان » من أسماء الملوك : « كذلك يكتبون ، بحذف الألف إذا وقعت

(٢) انظر بعض نقوش العربية الجنوبية في كتاب : « في تاريخ اليمن » ، لمطهر علي الإبراهيمي القاهرة ١٩٧٣ م .

في وسط الحروف ، وقفاهم المسلمون في كتابة المصاحف ، فطرحوا ألف :
الرحمن ، وألف : الإنسان ، وألف : السموات . وكذلك : (علهن)
منقوص من : (علهان) و (نهفن) منقوص من : (نهفان) و (همدن)
من : (همدان) و (بنين) من : (بنيان) . وهذا ما تؤديه أحرف الكتاب
فأما اللفظ فعلى التمام ، وكذلك يحذفون الواو الساكنة من وسط
الحروف ؛ مثل : مبعوث ، والياء الساكنة ؛ مثل : شميل ، والألف
الساكنة ؛ مثل : هلال ، وبلال ، وأميال^(٣) .

وفيما يلي صورة أحد النقوش الصفوية^(٤) ، وهو نقش عثر عليه
في منطقة الصفاة ، بين غدير الدرب والشبكة :



ويلاحظ أن سطور النقش ، مرتبة من أسفل إلى أعلى ، من اليمين
إلى الشمال ، ثم من الشمال إلى اليمين ، ثم من اليمين إلى الشمال . وعبارته :
« لولى بن عد بن عد بن غث وحل هدر ووجد سفر خله فباسم
ظلل ف . . . » .

ومعناه ، كما قرأه المستشرقون : لولى بن عوذ بن عوذ بن غوث ، لقد
حل في هذه الدار ، ووجد نقش خاله ، فأقام بين وسم و . . . » .

وقد لاحظ « ليمان » أن الخطوط الصفوية ، مركبة من ثمانية وعشرين
حرفا ، كما هي في العربية ، وخلص من هذا إلى أن كاتبها كانوا من العرب ،

(٣) الإكليل للهمداني ١٠/١٦

(٤) عن كتاب : « العرب في سوريا قبل الإسلام » لرنيه ديسو ٩٧

ليس بينهم وبين قبائل العرب في الجزيرة فروق كبيرة ، وقد وجد في كتاباتهم ألفاظ تدل على حياتهم الصحراوية ؛ ففيها ذكر للغنائم والغزو^(٥) .

وإذا كان هذا النقش قريباً إلى اللغة العربية ، فهناك الكثير من النقوش الثمودية ، واللحيانية ، والصفوية ، قد امتلأت بالكلمات الآرامية والنبطية والعبرية . ونقشنا هذا ، قد استعمل أداة التعريف ، التي تستعملها العبرية ، في كلمة : (هدر) . وهذه النقوش جميعها لها طابع واحد ، هو أنها مكتوبة بخط يشبه الخط السبئي والمعيني ، مما جعل بعض المستشرقين ، يرى أن أصحابها عرب من جنوبي الجزيرة ، استوطنوا شمالها ، وجلبوا معهم هذا الخط هناك .

ومن الثابت عند نولدكه^(٦) أن « هذه النقوش تمثل لهجة عربية » ، ويدل على ذلك عنده ، ما فيها من الأصوات الأسنانية ، والتفريق الذي لا نراه إلا في العربية ، بين صوتي العين والغين ، وكذلك بين صوتي الحاء والحاء .

ويرى الدكتور عبد الرحمن الأنصاري ، أن ما يسمى بالخط الثمودي ، ليس إلا مخربشات من خطوط البادية ، قلد فيها أصحابها خط المسند ، فيقول : « أطلق العلماء على بعض المخربشات ، الموجودة في منطقة العلا ومدائن صالح ، والمنتشرة في معظم أنحاء الجزيرة : اسم الخط الثمودي ، ولكن الذي أعتقده ، أنه إنما هو خط البادية . ماذا أقصد بخط البادية ؟ أقصد أن هذه القبائل المتموجة في الجزيرة العربية ، كانت تذهب إلى ديدان والحجر ، وترى هذه الخطوط الجميلة ، ثم تحاول تقليدها عندما تعود إلى مضاربها . وهذا ما كنا نشاهده ، منذ زمن ليس بالقصير ؛ يأتي أحد أبناء البادية ، ومعه ابنه ، إلى الحاضرة ، فيترك ابنه في أحد الكتاتيب ، لمدة

(٥) انظر : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٨٣

(٦) اللغات السامية ٧١

أسبوع أو أسبوعين ، ريثما يبيع ما لديه ، ويشتري ما يريد ، ثم يأخذ ابنه معه إلى البادية ، وقد علقت بذهنه صور بعض الحروف ، أو بعض الكلمات ، ثم يطلب الأب من ابنه ، كتابة رسالة إلى عمه في مكان آخر ، أو إلى التاجر الذي اشترى منه بعض السلع ، وهكذا يحاول الابن تقليد ما علق بذهنه ، من حروف وكلمات . فالكلمات الثمودية في اعتقادي ، هي من هذا النوع ، نوع كتابات البادية ، ولذا لا نجد فيها معلومات تاريخية قيمة ، إنما هي عبارة عن : فلان بن فلان نزل في هذا المكان ، أو : فلان بن فلان اشترى جَمَلًا من فلان ؛ كتابات لا يمكن أن تعطى حقائق تاريخية واضحة ، ذات حوادث ، أو ذات طابع حضاري^(٧) . وقد عانى المستشرقون في قراءتها كثيرا « وغاية ما وقفوا عليه ، بعد هذا العناء ، قراءة بعض الأعلام ، ومنها أسماء الأشخاص أو الآلهة أو الأماكن ، في معرض الدعاء أو الوقف أو نحو ذلك ، وقلما قرعوا نقشا فيه فائدة تاريخية صريحة^(٨) » .

وقد عثر المنقبون من المستشرقين على أربعة نقوش ، قديمة جاهلية قريبة إلى العربية ، من حيث المادة اللغوية والأسلوب ، أكثر من قرب النقوش الثمودية والصفوية إليها . ومن الغريب في الأمر أنها كشفت في منطقة ، غير بعيدة من منطقة الصفاة ، ومع ذلك فإن التأثير الآرامي فيها ، أقل مما في النقوش ، التي تحدثنا عنها من قبل .

وتمتاز تلك النقوش الأربعة ، بأنها كتبت - على عكس النقوش السابقة - بالخط النبطي المتأخر ، الذي يشبه الخط الكوفي ، والحروف فيها مرتبط بعضها ببعض ؛ وذلك أمر لا نعرفه في الخط النبطي القديم ، ولذلك يرى بعض الباحثين في هذه النقوش ، من الناحية الشكلية ، حلقة اتصال بين الخط النبطي القديم ، والخط العربي في أول عهد الإسلام .

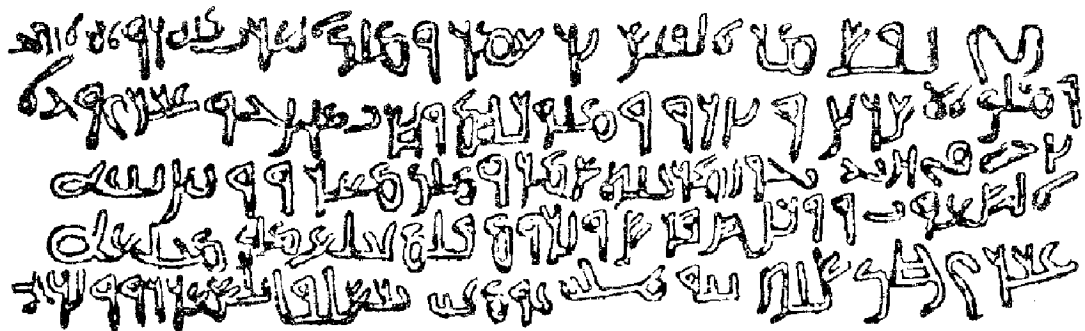
(٧) من محاضرة بعنوان : « لغات عن القبائل البائدة في الجزيرة العربية » منشورة في كتاب : « محاضرات في التاريخ والآثار » ص ٩٠

(٨) العرب قبل الإسلام ، لجرجى زيدان ٢٥٠

والنقوش الأربعة هي : نقش الثمارة ، ونقش زبد ، ونقش حرّان ،
ونقش أم الجمال^(٩) .

والأول هو أقدمها ؛ إذ دُوّن في عام ٣٢٨ بعد الميلاد . والثمارة هي
قصر صغير ، كان للروم في الجهة الشرقية من جبل الدروز ، وبه سميت البلد
الموجود بها . وقد ورد اسمها في شعر النابغة الذبياني ، في قوله :
وما رأيتك إلا نظرةً عَرَضَتْ
يومَ الثمارة والمأمورُ مأمورُ^(١٠)

وقد اكتشف هذا النقش ، في مدافن امرئ القيس بن عمرو^(١١) ،
ملك العرب ، الذي كان يملك الحيرة ، ويمتد نفوذه حتى بادية الشام ، وهو
غير امرئ القيس الشاعر الجاهلي المشهور ، وقد اكتشف هذا النقش
« رينيه ديسو^(١٢) » René Dussaud وفيما يلي صورة النقش :



(٩) انظر في وصف هذه النقوش الأربعة وقراءاتها ومصادرها ونشراتها المختلفة :

Repertoire Chronologique d Epigraphie Arabe, Tome I, 1 - 5 .

وانظر في النقوش الثلاثة الأولى كذلك : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٨٩ - ١٩٤ وفقه
اللغة لعل عبد الواحد وافي ٩٩ - ١٠٣ وتاريخ الأدب لحنفي ناصف ٥٩ - ٦٠

(١٠) ديوان النابغة ق ٢/٤٦ ص ٢٠٣

(١١) هو امرؤ القيس بن عمرو بن عدى ، وكان يسمى بامرئ القيس البدء ، وهو أول من تنصر
من ملوك الحيرة من آل الحخم . انظر تاريخ الطبري ٥٣/٢ والعرب قبل الإسلام ٢٢٦
(١٢) انظر كذلك : التاريخ العربي القديم ٤٩

وقراءتہ کا یلی :

- ١ - قى نفس مراقيس برعمرو ملك العرب كله ذو أسراتج .
 - ٢ - وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو
عكدى وجا .
 - ٣ - بزجى فى جبح نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .
 - ٤ - الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
 - ٥ - عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .
- وترجمته على النحو التالى :

- ١ - هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ، ملك العرب كلهم ،
الذى حاز التاج .
- ٢ - وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم ، وهزم مذحجا اليوم ، وجاء
بغنائم في مجتمع نجران مدينة شمر ، وملك معداً ، وأنزل بنيه
- ٣ - الشعوب ، ووكله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه .
- ٤ - اليوم هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ، فليسعد الذين
ولدهم .

أما نقش « زَبَد » ، فهو مكتوب بثلاث لغات :
 باليونانية والسريانية والعربية ، ويرجع تاريخ كتابته إلى عام
 ٥١٢ - ٥١٣ بعد الميلاد . و « زيد » مكان خرب في المنطقة
 الواقعة بين قنسرين ونهر الفرات . وفيما يلي صورة القسم
 العربى من هذا النقش ، وهو لا يشتمل على أكثر من أسماء
 الرجال ، الذين اجتهدوا فى بناء الكنيسة ، التى وضعت فيها
 الكتابة :

12/11/2019 10:10:10 AM

(Handwritten signature)

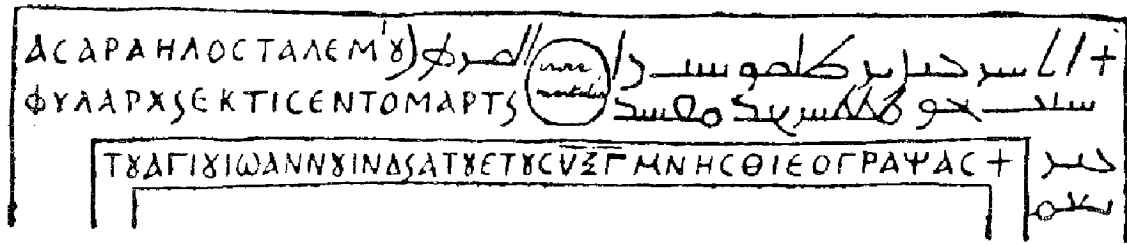
وقراءته غير مؤكدة ، بسبب الكسر الذى فى أوله ، وغموض بعض كلماته . وفيما يلى أرجح القراءات :

١ - (بنص -) بر الإله سرجو بر أمت منفو وهليا بر مر القيس .

٢ - وسرجو بر سعدو وسترو وشريحو بتميمى .

والكلمة الأخيرة فى هذا النقش ، وهى كلمة : (بتميمى) مكتوبة بحروف سريانية .

أما نقش « حَرَّان » فكتب باللغتين : اليونانية والعربية ، فى سنة ٥٦٨ ميلادية ، أى قبل مولد النبى محمد ﷺ بثلاث سنوات ، وقد اكتشف فى المنطقة التى تقع شمالى جبل الدروز . وهو منقوش على حجر ، فوق باب إحدى الكنائس هناك . وفيما يلى صورته :



وقراءة النص العربى فيه على النحو التالى :

١ - أنا شر حيل بر ظلمو بنيت ذا المرطول .

٢ - سنة ٤٦٣ بعد مفسد

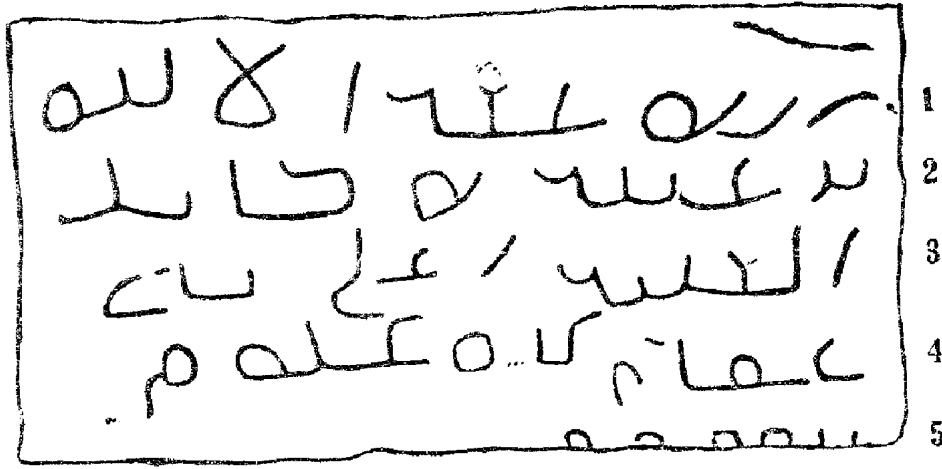
٣ - خير

٤ - بعام

ومعناه : « أنا شراحيل بن ظالم ، بنيت هذه الكنيسة ، سنة ٤٦٣ بعد مفسد خير بعام » وكان المستشرق « إتو ليتان » هو الذى حل رموز الكلمات : (مفسد خير بعام) فى هذه الكتابة ؛ إذ كانت قبل ذلك مبهمة ، ويقول ليتان : إن مفسد خير إنما يشير إلى غزوة أحد أمراء بنى غسان لخير^(١٣) .

(١٣) انظر : تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون ١٩٢

أما النقش الرابع ، فقد وجد في قرية : « أم الجمال » وهي قرية عربية مسيحية كبيرة ، في الجنوب من « بُصْرَى » بالقرب من « عَمَّان » . وقد اكتشفه المستشرق « إثنو ليمان » في عام ١٩٠٥ م ، وظل يدرسه مع غيره من العلماء ، ثم نشر نتيجة دراسته تلك في : « مجلة الساميات »^(١٤) ، في عام ١٩٢٩ م . وهذه هي صورته :



ويرى « ليمان » أن هذا النقش ، يرجع إلى أوائل القرن السادس الميلادي . ويلاحظ أن السطر الأخير منه مكسور . وفيما يلي قراءة « ليمان » للنقش :

- ١ - الله غفرا لأليه
- ٢ - بن عبدة كاتب
- ٣ - الخبير أعلى بنى
- ٤ - عمرو صلو عليه من
- ٥ - يقرؤه

ويذهب إلى أن معناه : « يارب اغفر لأليه بن عبدة ، الكاتب الخبير ، أشرف بنى عمرو ، ادع له أيها القارئ » .

(١٤) انظر : Littmann, Vorislam. - arab. Inschrift, Zeitschrift für Semitistik VII 203 .

ونحن وإن كنا نتفق مع « ليمان » في قراءة الأجزاء الأولى ، من هذا النقش فإننا لا نوافق على قراءة الجملة الأخيرة منه ، وهى : (صلو عليه من يقرؤه) ، ولعلها تقرأ هكذا : (كله علو من يتفقده) ، ويكون المعنى : « أنه أعلى بنى عمرو كلهم كعلو من يتفقده بزيارة قبره » !

★ ★ ★

والآن ، وقد قضينا وقتا ليس بالقصير مع هذه النقوش ، التى عثر عليها فى شمالى الجزيرة العربية ، واصطلح المستشرقون على تسميتها بالنقوش العربية القديمة ، وسموا كل نقش باسم المكان ، الذى عثر عليه فيه ، نرى هذه النقوش مزيجا من اللغة العربية ، كما نعرفها ، ومن لغات أخرى كانت شائعة ، فى بلاد الشام والعراق ، فى ذلك الحين ، كالآرامية مثلا .

ويقول إسرائيل ولفنسون : « لا شك أن أصحاب النقوش الثمودية والصفوية ، من العرب ، أو هم أقوام لهم اتصال متين بلغة العرب ، ولكن العناصر الأعجمية الكثيرة البارزة فيها ، شوّهتها وحرّفتها كثيرا ، إلى أن محت منها شيئا غير قليل من الروح العربية ، والأسلوب العربى ، حتى إن اللغة العربية تضاءلت ، أمام الحضارات الأخرى ، البارزة فى تلك النقوش ^(١٥) » .

كما يقول عن نقش التمارة إنه : « آرامى أكثر منه عربيا ، فالاصطلاح : (قى نفس) يذكّرنا بنقوش النبط ، وأهل تدمر ، التى تعبر عن معنى القبر ، بكلمة : (نفسو) ، ثم يقول : « على أننا نعتقد أن كاتب هذا النقش ، كان عالما باللغة العربية فى بلاد الحجاز ؛ إذ نقش فى كتابته جملة عربية فصيحة ، صحيحة الذوق فى الأسلوب العربى ، وهى جملة : فلم يبلغ ملك مبلغه ^(١٦) » .

وقد صدق « ولفنسون » ؛ فإننا نجد فى هذه النقوش ، على سبيل المثال ، أنها تستخدم أداة التعريف ، لا كما تستخدمها اللغة العربية ، ولكن

(١٥) تاريخ اللغات السامية ١٨٨

(١٦) تاريخ اللغات السامية ١٩٣

كما تستخدمها اللغة العبرية ، فنحن نعرف أنها في العبرية « الهاء والنون » ، التي تقابل في العربية « الألف واللام » ، غير أنها تطورت فيما بعد في اللغة العبرية ، فأدغمت النون فيما عدا حروف الحلق والراء ؛ لأنها لا تقبل الإدغام فيها ؛ ولذلك يشدد الحرف الأول من الكلمة ، عوضا من النون ، فإذا كان حرف حلق أو راء أطيلت حركة الهاء . وقد تطورت كذلك في العربية ، فأدغمت اللام فيما يسمى بالحروف الشمسية ، وهي : (ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن) ، وإن كانت العربية تختلف عن العبرية ، في أن أثر هذا التطور ، لم يظهر في الأولى إلا في النطق ، ولم يظهر في الخط ، بخلاف العبرية .

فالنصوص التي عثر عليها في شمالى الجزيرة العربية - كما رأينا - كانت تستخدم أداة التعريف ، كما تستخدمها اللغة العبرية ، في بعض الأحيان .

كذلك وجدناها تشتمل على ظاهرة شائعة في الآرامية ، فهي تستخدم كلمة : « بر » ، وهي في الآرامية بمعنى كلمة : « ابن » في اللغة العربية .

وأخيرا ، فإننا نجد في هذه النقوش ، بعض الكلمات التي لا تعرفها اللغة العربية ؛ فمثلا كلمة : « مرطول » بمعنى الكنيسة ، لا وجود لها في المعاجم العربية .

ومن كل هذا يظهر لنا أن هذه النقوش ، ليست عربية خالصة ، والذي دعا هؤلاء المستشرقين ، إلى نسبة هذه النقوش ، إلى اللغة العربية ، هو أنهم وجدوا فيها بعض خصائص العربية ؛ مثل بعض الأصوات التي شاعت في العربية ، ولم تشع في غيرها من اللغات السامية الأخرى ، كالأصوات الأسنانية (ث ذ ظ) والضاد ، والتفريق بين صوتى العين والغين ، وصوتى الحاء والخاء .

كذلك وجدنا في هذه النقوش ، ظاهرة لم تشع في غير العربية ،

إلا في الأكادية ، وهي ظاهرة الإعراب ، وقد وجد المستشرقون في أواخر بعض كلمات هذه النقوش ، رموزا للحركات الطويلة ؛ مثل : « وهرب مذحجو » في نقش الثمارة ، و « أعلى بنى عمرى » في نقش أم الجمال ، فاستنبطوا أنها حركات إعراب .

كما يوجد بهذه النقوش كذلك ، صيغة (أفعل التفضيل) ، التي هي من خصائص اللغة العربية ، أما غيرها من اللغات السامية ، فيستخدم الوصف الأصلي ، مع زيادة كلمة : (من) أو (على) ، كما في اللغة العبرية مثلا : $\text{לְיָמָיו הָיָה} =$ أحسن منه .

تلك هي أهم ما استنبطه المستشرقون ، من أوجه شبه ، بين هذه النقوش واللغة العربية . وإذا سلمنا معهم جدلا ، بأنها نصوص عربية ، وأن الذين كتبوها ، قد كتبوها بلغة العرب ، فإننا نسائل أنفسنا : هل هي واضحة ، بحيث تلقى ضوءا كافيا على اللغة العربية ، نعرف منه شيئا عن طفولتها ؟

نقول نحن إنها غير كافية ؛ لأسباب أهمها أنها مزيج من ظواهر عربية ، وأخرى غير عربية ، وثانيا لأن مادة هذه النقوش ضحلة ؛ لأنها عبارة عن لوحات على حجارة ، وضعت فوق المقابر ، وفوق بعض الأبنية ، التي شيدت قبل الإسلام ، كالكنائس مثلا . ولكي تعلم مقدار ما في هذه المادة من ضآلة ، تصور نفسك وقد ذهبت إلى إحدى (القرافات) ، وأخذت تجمع النقوش ، من على شواهد القبور ، فإنك سترى المادة اللغوية ، قدراً ضئيلاً لا يكاد يتجاوز صفحة .

وقد سبقنا إلى هذه الملاحظة أستاذنا « شبيتالر » A. Spitaler فقال في مقال له عن العربية : « إنه على الرغم من وجود النقوش المتعددة ، فإن قراءتها في كثير من الأحوال غير مؤكدة ، ونتائجها عديمة الجدوى ؛ لأن مادتها اللغوية ، على جانب كبير من الضآلة^(١٧) » .

كما يقول أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس : « وحين نسلم جدلا أن لغة هذه النقوش ، تمثل مرحلة من مراحل اللغة العربية ، يجب أن نعترف أن نصوصها ضحلة ، لا تقنع الباحث ، لتلقى ضوءاً كاشفاً على حال اللغة العربية ، في تلك العهود ، فهي في مجموعها لا تكاد تعادل سفراً صغيراً ، من أسفار العهد القديم ، هذا إلى أن كثيراً من كلماتها ، عبارة عن أعلام لأشخاص ، ولا تكاد تجدى مثل هذه الأعلام في البحث اللغوي ، وفوق هذا وذاك تعرض هذه النقوش لأمر متشابهة ، كتسجيل تاريخ كنيسة أو قبر ، مما جعل كثيراً من عباراتها وألفاظها يتكرر ، ويجعل نصوصها قليلة القدر ، لا تكفي في بحث لغوي جدّي^(١٨) » .

فهذه النقوش غير كافية إذن ، لمعرفة طفولة اللغة العربية ، فإذا قورنت هذه النقوش بالنقوش الأكادية ، أو بالنصوص العبرية القديمة مثلاً ، وجدنا أنها كالقطرة في البحر ، ونحن حين نريد أن نحكم حكماً نطمئن إليه ، لابد أن تكون أمامنا نصوص كثيرة متنوعة .

وأخيراً ، هل معنى هذا أن العربية القديمة ، وقفت مكتوفة اليدين ، أمام تلك اللغات الأخرى ، أو التراجم الكثيرة المعروفة ، عن العبرية وغير العبرية ، ولم يكتب بها أصحابها في القديم شيئاً ؟ وهل معنى ذلك أن الأمية كانت شائعة في جزيرة العرب ، بحيث لا نجد رجلاً يكتب ، ولو نصاً دينياً ؟ شيء عجيب جداً !!

إننا نعرف الشيء الكثير ، عن جاليات مسيحية ، وأخرى يهودية ، كانت تعيش في جزيرة العرب ، ونعرف أن المسيحيين كانوا يتعبدون بالإنجيل ، واليهود يتعبدون بالتوراة ، ونعرف أن اللغة الفطرية ، لهذه الجاليات ، كانت العربية . فلم لم يكتبوا نصوصاً دينية باللغة العربية ؟ هل دَوَّنوا شيئاً لم نعثر عليه حتى الآن ؟

(١٨) في اللهجات العربية ٣٥

يقول إسرائيل ولفنسون عن هذا الموضوع : « ومن حيث إننا لم نعثر إلى الآن على نقوش ، في مراكز بلاد الحجاز الأصلية ، مثل : الطائف ومكة ويثرب ، فإننا أمام أمرين : إما أن نحتمل أن العرب لم يتركوا آثاراً منقوشة ، قبل ظهور الإسلام ، وإما أن أوان كشف هذه الآثار لم يئن بعد . أما الأمر الأول فغير محتمل ، حسب رأينا ؛ إذ لا يعقل أن العرب في مكة ويثرب ، لم يكونوا يستعملون الكتابة ، في عصر ظهور الإسلام ، ولدينا روايات تاريخية يقينية ، عن وجود كتاب ، كانوا قد مارسوا فن الكتابة في ذلك العهد ؛ لذلك يحتمل أن تكون هناك بعض نقوش ، على الأحجار والصخور ، أو كتابات على الرق لم تكشف بعد . والمستقبل كفيل بحل أحد هذين الاحتمالين^(١٩) . »

والآن ، نضرب صفحاً عن هذه النقوش ، في استنباط شيء منها ، عن طفولة اللغة العربية ، ونقنع ببحث تلك اللغة ، التي وردت لها نصوص صحيحة ، وهي ما تسمى في اصطلاحنا « بالأدب الجاهلي » وهي نصوص لا تكاد تتجاوز - كما سبق أن قلنا - قرنين من الزمان ، قبل الإسلام .

★ ★ ★

الفصل الثالث مشكلة توثيق النصوص

ذكرنا في الفصل السابق ، أن أقدم نصوص العربية ، التي يمكن الاعتماد عليها في الدرس اللغوي ، هي النصوص المعروفة بالأدب الجاهلي ، غير أن هذه النصوص لم تسلم من الطعن فيها ، والشك في صحتها .

وأول ما يقابلنا هنا ، هو قضية الشك في الشعر الجاهلي ، ولسنا بصدد تفصيل القول في هذه القضية ، وإنما نشير إلى أهم أعلامها ، متحدثين عن آرائهم بإيجاز :

وقد كان المستشرق « مَرْجُلِيُوث » Margoliouth من أوائل من شك في صحة الشعر الجاهلي ، في مقال له نشر في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية JRAS في عدد يولية سنة ١٩٢٥ م ، وعنوانه : « أصول الشعر العربي » صفحة ٤١٧ - ٤٤٩ ، انتهى فيه إلى أن ما يسمى بالشعر الجاهلي ، لم يقله شعراء جاهليون حقا ، وإنما نظمه بعض المزييفين في العصور الإسلامية ، ونخلوه الجاهليين .

وقد رد على هذا الرأي بعض المستشرقين ، من أمثال : « لِيَال » Lyall في مقدمة تحقيقه لشرح ابن الأنباري للمفضليات^(١) ، كما تحدث عن قضية صحة الشعر الجاهلي مرة أخرى ، في مقدمة تحقيقه لديوان عبيد ابن الأبرص .

وتناول هذا الموضوع من العرب : الدكتور طه حسين ، فأفاض فيه

(١) انظر المفضليات بشرح ابن الأنباري ١٦/٢ من المقدمة .

في كتابه المشهور : « في الشعر الجاهلي » ؛ إذ شك في هذا الشعر ، وانتهى إلى « أن الكثرة المطلقة ، مما نسميه أدبا جاهليا ، ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية ، تمثل حياة المسلمين ، وميولهم ، وأهواءهم ، أكثر مما تمثل حياة الجاهليين (٢) » .

كما يذهب إلى أن مرآة الحياة الجاهلية ، يجب أن تلتمس في القرآن ، لا في الأدب الجاهلي ؛ فيقول : « ذلك أني لا أنكر الحياة الجاهلية ، وإنما أنكر أن يمثلها هذا الأدب ، الذي يسمونه الأدب الجاهلي ، فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية ، فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس ، والنابغة ، والأعشى ، وزهير ، وقس بن ساعدة ، وأكثم ابن صيفي ، لأنني لا أثق بما ينسب إليهم ، وإنما أسلك إليها طريقا أخرى ، وأدرسها في نص ، لا سبيل إلى الشك في صحته ، أدرسها في القرآن ، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي ، ونص القرآن ثابت ، لا سبيل إلى الشك فيه (٣) » .

وقد أثار هذا الكتاب في أيامه ، موجة شديدة من السخط ، على الدكتور طه حسين ، لا لأنه شك في الشعر الجاهلي ، وأنكره فحسب ، بل لأنه تشكك في أخبار القرآن الكريم ، في كتابه هذا ، حيث يقول : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن ، لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن إثبات هذه القصة ، التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة . . . ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة ، نوعا من الحيلة ؛ لإثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية ، والقرآن والتوراة ، من جهة أخرى (٤) » .

(٢) في الأدب الجاهلي ٧١

(٣) في الأدب الجاهلي ٧٧

(٤) في الشعر الجاهلي ٢٦

وقد تزعم حملة النقد التي وجهت إليه ، المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، في عدة مقالات عنيفة ، جمعها بعد ذلك مع غيرها في كتاب سماه : « تحت راية القرآن » ، كما ألّفت كتب أخرى للرد على الدكتور طه حسين ، منها : « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » للسيد محمد الخضر حسين ، و « الشهاب الراصد » للأستاذ محمد لطفي جمعة ، و « نقد كتاب في الشعر الجاهلي » للأستاذ محمد فريد وجدى ، و « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، و « محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية ، التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي » للأستاذ الشيخ محمد الخضري .

وقد كان لهذه الحملات كلها ، أثر في رجوع الدكتور طه حسين ، عن بعض آرائه ، وعلى الأخص تلك التي كانت تتعرض لأخبار القرآن الكريم ، بالتشكيك والطعن ، وصدرت للكتاب طبعة أخرى بعنوان : « في الأدب الجاهلي » ، هي التي لا تزال متداولة إلى اليوم . وقد كتب الدكتور طه حسين في مقدمتها : « هذا كتاب السنة الماضية ، حذف منه فصل ، وأثبت مكانه فصل ، وأضيفت إليه فصول ، وغير عنوانه بعض التغيير » .

وقد عرض الدكتور ناصر الدين الأسد ، لهذه القضية^(٥) ، فملخص الآراء السابقة ، وعرض لرأى المستشرقين ، من المتشككين والمعارضين ، كما تناول رأى الدكتور طه حسين بالتحليل والمناقشة ، وعقد فصلا عن الرواة وتوثيقهم ، وتضعيفهم ، دافع فيه عن هؤلاء الرواة ، وحاول أن يثبت أن الأخبار ، التي وصلت إلينا عنهم ، والتي ترميهم بالكذب والوضع ، مزيفة ، سببها الخصومات ، والمنافسات ، والعصبيات ، التي كانت تدور بين علماء العصور الإسلامية الأولى ، ثم يقول^(٦) : « ومع

(٥) في كتابه القيم : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ٣٥٢ - ٤٧٨

(٦) مصادر الشعر الجاهلي ٤٦٥

ذلك ، فنحن لا نذهب - ولا يصح لأحد أن يذهب - إلى أن جميع ما في تضاعيف الكتب العربية ، من شعر منسوب إلى الجاهلية ، صحيح مبرأ من الوضع والنحل . . . وقد قادنا البحث إلى أن هذا الشعر ، المنسوب إلى الجاهلية ، على ثلاثة ضروب :

١ - فضرب موضوع منحول ، إما على وجه اليقين القاطع ، وإما على وجه الترجيح الغالب ، وأكثر شعر هذا الضرب ، ما وضعه القصاص ليحلوا به قصصهم ، أو يكسبوه في نفوس السامعين والقارئین شيئاً من الثقة ، وما وضعه هؤلاء القصاص على لسان آدم وغيره من الأنبياء ، أو على لسان بعض العرب البائدة ، وما وضعه بعض الرواة ، ليثبتوا به نسباً ، أو يدلوا به على أن لبعض العرب قُدمة وسابقة .

٢ - وضرب صحيح لا سبيل إلى الشك فيه ، أو الطعن عليه ، وذلك هو الذى أجمع العلماء الرواة على إثباته ، بعد أن تدارسوا هذا الشعر ، وفحصوه ومحصوه .

٣ - وضرب هو المختلف عليه ، الذى قال عنه ابن سلام : « وقد اختلف العلماء فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى بعض الأشياء » ، وهو يعنى بهذا الضرب : الشعر الذى ينسب لأكثر من شاعر ، فى بعض الأحيان ، ويرى أن هذا الضرب قليل ، وأن الخلاف فى نسبته إلى أكثر من شاعر جاهلى ، لم يخرج عن نطاق الشعر الجاهلى ، فجاهلية هذا الشعر إذن ، ثابتة لا شك فيها ، عند هؤلاء الرواة العلماء ، وإن كانوا قد اختلفوا فى الشعر الجاهلى نفسه .

وهكذا نرى أن الشك فى بعض الشعر ، الذى يروى من العصر الجاهلى ، لا يصح أن يقودنا إلى إنكار الشعر الجاهلى ، الذى وصل إلينا

بعامة ، فإن أكثر هذا الشعر مقطوع بصحته ، وهو لهذا يصلح عندنا
لاستنباط القوانين اللغوية ، التي تحكم لغة العرب في الجاهلية ، تلك
القوانين التي كتب لها الخلود ، حتى عصرنا الحاضر ، بعد أن نزل القرآن
الكريم بهذه اللغة ، لغة العرب في الجاهلية .

★ ★ ★

الباب الثاني

في العربية الفصحى واللهجات

تمهيد

ذهب بعض العلماء ، إلى أن اللهجات لا وجود لها ، بمعنى أنه لا توجد حدود فاصلة واضحة ، بين لهجة وأخرى ، أو بينها وبين اللغة المشتركة ، التي تنتمي إليها تلك اللهجة . ويقول « جاستون بارى » أحد الذين يذهبون هذا المذهب : « ليس هناك أى حد حقيقى ، يفصل بين فرنسى الشمال ، وفرنسى الجنوب ، فصور التكلم الشعبى عندنا ، تمتد على أرض الوطن ، من طرف إلى آخر ، كأنها بساط نضحت ألوانه المتنوعة ، فى كل نقطة منه ، بعضها على بعض ، وأصبحت درجات ، لا يكاد يتميز بعضها من بعض^(١) » .

وهذا أيضا هو رأى ، الذى تنادى به « نظرية الأمواج » ليوهان شميت ، التى تقرر « أن كل ظاهرة لغوية ، تمتد على سطح القطر امتداد الأمواج ، وأن كل موجة فى تقدمها التدريجى غير المحسوس ، ليس لها حد معين » . ويستند « شميت » فى نظريته ، على دراسة اللغات الهندوأوربية ، حيث الخطوط التى تفصل بين كل خاصية لغوية وأخرى ، لا تنطبق على الخطوط التى تفصل بين خاصيتين لغويتين أخريين ، وذلك كما هو الحال فى اللغات الرومانية^(٢) .

غير أن بعض العلماء ، دافع عن إمكان التقسيم اللهجى للغات . ويقول « أنطوان ميه » أحد المدافعين عن تلك القضية : « من حقنا أن نتكلم عن وجود لهجات ، كلما رأينا عددا من الخطوط ، التى تفصل بين الخصائص ، ينطبق بعضها على بعض ، ولو بشكل تقريبي ، فهناك لهجة محددة فى كل منطقة ، يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة . وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة ، للفصل بين منطقتين متجاورتين ، فإنه يبقى أن كلا منهما ، تتميز فى مجموعها ببعض السمات العامة ، التى

(١) اللغة لفندريس ٣١٢

(٢) اللغة لفندريس ٣١٢

لا توجد في الأخرى ، فالبروفنسالية والفرنسية ليستا في حقيقة الأمر ، إلا لهجتين من لغة واحدة ، وإذا لم يكن في وسعنا أن نرسم على الخريطة خطأ محددًا ، يبين أين تنتهى الفرنسية وتبدأ البروفنسالية ؛ فإن كلا من اللهجتين في مجموعهما ، قد اشتملت على خصائص عديدة واضحة ، إلى حد يجعلنا في مأمن من الخلط بينهما^(٣) .

فالتقسيم اللهجى ، يرجع إلى إحساس حقيقى ، لدى سكان الإقليم الواحد ، إحساس بأنهم يتكلمون بصورة ما ، ليست هى الصورة التى يسير عليها سكان الإقليم المجاور . وعلى هذا الأساس ، عرّف بعض العلماء اللهجة ، بأنها : « مجموعة من الصفات اللغوية ، تنتمى إلى بيئة خاصة ، ويشترك فى هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة^(٤) » .

أما العلاقة بين اللهجة واللغة ، فهى علاقة الخاص بالعام ؛ لأن « بيئة اللهجة هى جزء من بيئة أوسع وأشمل ، تضم عدة لهجات ، لكل منها خصائصها ، ولكنها تشترك جميعاً فى مجموعة من الظواهر اللغوية ، التى تيسر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما قد يدور بينهم من حديث ، فهما يتوقف على قدر الرابطة ، التى تربط بين هذه اللغات ، وتلك البيئة الشاملة ، التى تتألف من عدة لهجات ، هى التى اصطلح على تسميتها باللغة ، فاللغة تشتمل عادة على عدة لهجات ، لكل منها ما يميزها ، وجميع هذه اللهجات تشترك فى مجموعة من الصفات اللغوية ، والعادات الكلامية ، التى تؤلف لغة مستقلة عن غيرها من اللغات^(٥) » .

ومع ذلك ، فإن « الخط الفاصل بين اللغة واللهجة ، يصعب فى غالب الأحيان تتبعه ورسمه . والتفاهم المشترك ، لا يعرض إلا جزءاً من الإجابة ؛ إذ إنه من المشاهد أن الاتصال بين أبناء مجموعتين ، يتكلمون

(٣) اللغة لفندريس ٣١٢

(٤) فى اللهجات العربية ١٦

(٥) فى اللهجات العربية ١٦

لغتين مشتركتين رسميتين ، ذواتي أصل واحد ؛ مثل : الإيطالية والأسبانية ، قد يكون أسهل منه ، بين أبناء لهجتين تنتسبان إلى لغة رسمية واحدة^(٦) .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن كل لغة ، كانت يوماً ما لهجة من لهجات كثيرة للغة من اللغات ، ثم حدثت عوامل كثيرة ، أدت إلى موت اللغة الأم أو اندثارها ، وانتشار كل بنت من بناتها في بقعة من الأرض ، مكونة لغة لها خصائصها ومميزاتها ، التي تنفرد بها عن أخواتها . وقد حدث ذلك في اللغات السامية المختلفة ، وكلها كانت في الأصل لهجات للآم التي ماتت ، واندثرت من قديم الزمان . وهذه هي اللاتينية ، تعدُّ أمًّا لللهجات الرومانية المختلفة ، التي أصبحت بعد اندثار اللاتينية ، لغات لها كيائها وخصائصها ، وهي : الإيطالية والفرنسية والأسبانية ، وكل واحدة من هذه اللغات ، شملت مساحات واسعة من الأرض ، فانقسمت بدورها إلى لهجات ، تماماً كما حدث للغات السامية ، ومنها العربية التي انقسمت كذلك إلى لهجات مختلفة ، في الماضي والحاضر .

ولم تكن العلاقة بين اللغة واللهجة واضحة ، في أذهان اللغويين العرب ؛ ولذلك نجد بعضهم يخلط بينهما خلطاً فاحشاً ، ويعد اللهجات العربية لغات مختلفة ، وكلها حجة^(٧) ، ومع ذلك فإنهم لم يرووا لنا من هذه اللهجات ، إلا مقتطفات مبتورة . وقد تنبه المحدثون من اللغويين ، إلى أهمية دراسة اللهجات العربية القديمة ، لما يأتي :

١ - البحث في اللهجات العربية الحديثة ، يتبين منه أنها ترجع في كثير من الحالات ، إلى اللهجات العربية القديمة ، أكثر من رجوعها إلى اللغة الفصحى .

٢ - تفيد دراسة اللهجات القديمة ، في الإجابة على السؤال العويص التالي : هل العربية الفصحى ولغة الشعر ، عبارة عن حصيلة لهجات

(٦) انظر : أسس علم اللغة ، لماريوباي ٢١١

(٧) انظر مثلاً : الخصائص ١٠/٢

عدة ، أم أنها لهجة قبيلة معينة ، سادت واتخذها الشعراء قالبا ، ينظمون فيه أشعارهم ؟

٣ - تفيد دراسة اللهجات ، في معرفة مصادر القراءات القرآنية المختلفة ، التي رويت لنا بلا عزو إلى لهجة معينة .

غير أن هناك صعوبات كثيرة ، تصادف دارس اللهجات العربية القديمة . وأهم هذه الصعوبات :

١ - أن هذه الدراسة تتطلب تصفح جميع المؤلفات العربية ؛ لأن اهتمام العرب بالمسائل اللغوية ، لم يقتصر على اللغويين والنحويين ؛ فإننا نجد هذا الاهتمام عند الجغرافيين والمؤرخين ، بل عند الفلاسفة والأطباء والرياضيين ، بمناسبة وغير مناسبة ؛ ولذلك فإننا كثيرا ما نعثر على ملاحظات مهمة ، عن اللهجات العربية ، في غير كتب اللغويين كذلك .

٢ - عدم ذكر اللغويين للقبائل التي تنتمي إليها اللهجات ، واكتفائهم بعبارة : « وهى لغة » مثلا ، كقول الفراء : « والعرب تقول : مهيل ومهيل ، ومكيل ومكيول . قال الشاعر :

وَنَاهَزُوا الْبَيْعَ مِنْ تَرْعِيَّةٍ رَهَقٍ
مَتَأَرَّبَ عِضَّةِ السُّلْطَانِ مَدْيُونٌ^(٨) »

فلغة التصحيح في مثل : مهيل ومكيل ومديون ، غير معزوة هنا إلى قبيلة من القبائل ، وهى تنسب في كثير من المصادر إلى تميم^(٩) .

وكذلك الحال في اختلاف اللغويين ، في تعيين القبيلة صاحبة اللهجة المذكورة ؛ فلا بد من محاولة لعزو اللهجات المجهولة ، والتوفيق بين

(٨) معاني القرآن ١٩٨/٣ وفي فعلت وأفعلت لأبى حاتم ١٦٤ : « ويجوز مبيوع على الأصل » .

(٩) انظر مثلا : شرح التصريف الملوكي ٣٥٣ .

أوجه الخلاف السائدة بين اللغويين العرب ، فى نسبة لهجة من اللهجات إلى قبائل عدة .

٣ - اصطلاحات اللغويين العرب ، غير واضحة تماماً ؛ فإن كلمة : « لغة » تعبر فى بعض الأحيان عندهم ، عن لهجة قبيلة من القبائل ، كما تعبر فى أحيان أخرى عن عيوب النطق « اللثغة » .

٤ - عدهم لغة قريش أفصح اللغات ، جعلهم يخلعون على اللهجات الأخرى أوصافاً ؛ مثل : لغة فصيحة ، أو قبيحة ، أو رديئة ، أو ضعيفة ، أو شاذة ، وغير ذلك .

٥ - التصحيف والتحريف ، اللذان ابتليت بهما الكتابة العربية ، طمسا كثيراً من المعالم الصحيحة ، لبعض اللهجات العربية ، التى رويت لنا^(١) .



(١) انظر : H.Kofler, Reste altarabischer Dialekte, WZKM 47,61

الفصل الأول

ظروف تكون اللغة الفصحى وخصائصها

يشوب العلاقة بين العربية الفصحى ، ولهجاتها القديمة ، غموض واختلاط ، عند جمهرة الدارسين للعربية ، من المستشرقين وغيرهم ؛ وذلك بسبب اهتمام اللغويين العرب القدماء ، اهتماما بالغا بدراسة الفصحى ، لغة القرآن الكريم ، وإهمالهم الدرس الكامل لللهجات العربية القديمة ، أو ذكرهم لروايات مبتورة ، عن بعض خصائص هذه اللهجة أو تلك ؛ ليفسروا بها قراءة قرآنية ، أو شذوذا في ظاهرة من الظواهر اللغوية في شعر أو نثر .

ولذلك نرى أن « كل ما يقال عن العلاقة بين اللهجات العربية القديمة ، والعربية الفصحى ، فروض أو تخمينات ؛ بسبب نقص معلوماتنا عن تلك اللهجات ؛ فيرى نولدكه Nöldeke أن الفروق صغيرة ، بين اللهجات العربية الشائعة في جزء كبير من الجزيرة العربية (الحجاز ونجد ومنطقة الفرات) ، وأن الفصحى تعتمد على هذه اللهجات على سواء . ويرى جويدي Guidi أن العربية الفصحى خليط من لهجات نجد والمناطق المجاورة ، ولا تمثل لهجة بعينها من هذه اللهجات . أما نلليو Nallino الذي يربط ظهور العربية الفصحى بمملكة كندة ؛ فإنه كان يرى أن عاميات قبائل معدّ ، توحدت وكونت العربية الفصحى . ويرى فيشر Fischer كذلك أن العربية الفصحى ، تمثل لهجة معينة ، غير أنه لم يعينها . ويمائله تقريبا رأى هارتمان Hartmann أما فوللرز Vollers فقد خرج علينا بنظريته التي يرى فيها أن العربية الفصحى ، تعتمد على لغة البدو ، في نجد واليمامة ، غير

أن الشعراء غيروها كثيراً ، على حين تتكلم باقى الجزيرة لغة مختلفة تماماً ، تعد سلفاً للعواميات الحضرية الحديثة ، كما يدعى بروكلمان Brockelmann ومثله فتسشتاين Wetzstein وغيرهما من قبل ، أن العربية الفصحى بصورتها التى نعرفها ، لم تكن لغة كلام أبداً ، غير أنه لم يناقش علاقتها باللهجات . أما لاندبرج Landberg فيرى أنها كانت لغة عصر غير محدد ، وأن قوالها النحوية يغلب أن تكون من صنع الشعراء . ويقارنها مارسيه Marçais بلغة هومير المصنوعة !

وهناك اتفاق جوهري بين علماء العرب ، على عكس هذا الرأى تماماً ، فالعربية الفصحى عندهم هى لغة البدو ؛ فالعربى البدوى هو الحكم الفصل فى العربية الصحيحة ، وهو لا يخطئ فى التحدث بها عندهم ، ولا يطاوعه لسانه - إن أراد - على الخطأ " .

وقد وصلت إلينا اللغة العربية ، فى صورة أدبية حيناً ، وصورة شعبية حيناً آخر ؛ أما الصورة الأولى ، فإنها تتمثل فيما نسميه بالأدب الجاهلى ، أو الآثار الأدبية الجاهلية ، من الأشعار والخطب والأمثال والحكم ، وهو ما نسميه باللغة العربية الفصحى . أما الصورة الثانية ، فلم تصل إلينا منها أعمال متكاملة ، وإنما نلاحظها فيما روى لنا فى بطون كتب اللغة والنحو والأدب ، متناثراً عن لهجات القبائل العربية الخاصة بها .

وحينما ندرس نصوص الصورة الأولى ، نجدها تمثل - إلى حد كبير - لغة موحدة منسجمة ، لا تكاد تتضمن شيئاً ، عن تلك الروايات المنسوبة إلى لهجات العرب . هذه اللغة التى اصطنعها الشاعر والأديب ، هى بمثابة اللغة المشتركة ، التى انتظمت جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ؛ فقد كان يتخذها الشاعر وسيلة للتعبير عما يجول فى خاطره ، كما كان يتخذها الخطيب للتأثير فى سامعيه ، سواء أكان

الشاعر أو الخطيب من قريش ، أو تميم ، أو غيرها من قبائل العرب ؛ فإن « خاصية اللغة المشتركة الأساسية ، أنها لغة وسطى ، تقوم بين لغات أولئك الذين يتكلمونها جميعاً » .

وقد نشأت هذه اللغة المشتركة ، ونمت وازدهرت قبل مجيء الإسلام ، ويرى الدكتور أنيس أن « أقدم ما نستطيع تصويره في شأن شبه الجزيرة العربية ، هو أن نتخيلها وقد انتظمتها لهجات محلية كثيرة ، انعزل بعضها عن بعض ، واستقل كل منها بصفات خاصة ، ثم كانت تلك الظروف ، التي هيأت لبيئة معينة ، في شبه الجزيرة ، فرصة ظهور لهجتها ثم ازدهارها ، والتغلب على اللهجات الأخرى » . وهذا يعنى أنه قد جددت عوامل مختلفة ، حملت أهل هذه اللهجات على التقارب والاختلاط ، فأدى ذلك إلى نشأة اللغة المشتركة ، التي يتفاهم بها الناس جميعاً ، وإن انتموا إلى قبائل مختلفة .

وفي كل بلاد العالم ، لا بد للغة المشتركة ، من مكان متميز تنشأ فيه ، وأسباب وظروف معينة تساعد على تكونها وازدهارها ، وحياتها بجانب اللهجات الأخرى . فما هى يا ترى تلك الأسباب ، التي ساعدت على نشأة اللغة المشتركة ، في الجزيرة العربية قبل الإسلام ؟ وفي أى مكان من تلك الجزيرة ، تكونت هذه اللغة المشتركة ؟

لقد نشأت هذه اللغة العربية المشتركة ، في مكة أم القرى ، وبلد الله الحرام ؛ لظروف دينية ، وسياسية ، واقتصادية .

أما الظروف الدينية ؛ فذلك لأن بيئة مكة ، كانت منذ عهود سحيقة قبل الإسلام ، بيئة مقدسة ، يفد إليها العرب من كل فج ليحجوا إليها ، ويؤدى هذا بالطبع إلى اجتماع فريق كبير من العرب ، في هذه البقعة المباركة ، ويختلطون بأهلها ، ويختلط أهلها بهم . ومن هذا

(٢) اللغة لقنارىس ٣٤١

(٣) مستقبل اللغة العربية ٧

الاختلاط ينشأ ما يسمى باللغة المشتركة . وليس الأمر اصطلاحاً شعورياً بين القبائل ، على اختيار لغة معينة ، كلغة قریش مثلاً ، لغة مشتركة ، وإنما ذلك أمر لا شعورى ، كما يحدث للريفى ، الذى يحضر إلى القاهرة ، ويعيش فيها مدة مثلاً ، فإنه سرعان ما يتأثر باللهجة القاهرية قهراً عنه ، ودون شعور منه .

هذه القبائل لم تفد إلى مكة ، للحج والعبادة فقط ، وإنما ليشهدوا كذلك تلك الأسواق ، التى تقام حول مكة للبيع والشراء ، وكانت تعقد فى تلك الأسواق ، ندوات أدبية للخطباء والشعراء ، ويسمع فيها عيون الشعر وجيد القول ، كما كانت الحال فى سوق عكاظ المشهورة ، التى كانت تدوم فيها الندوات ، ما يقرب من الشهرين . وفى هذه الأسواق ، كان أهل مكة يختلطون بالوافدين ، فيسمعون منهم ، كما يسمع منهم هؤلاء ، وهناك نبتت البذرة الأولى للغة المشتركة ، بين هؤلاء القبائل جميعاً ، ونمت وازدهرت بتوالى وفود القبائل إلى هذه الأسواق . وقد حملت هذه الوفود ، تلك اللغة المشتركة ، إلى مواطن قبائلها ، فانتشرت بين أنحاء الجزيرة العربية ، ولكنها لم تنتشر - على ما نرجح - إلا بين الخاصة فقط ، من أبناء القبائل المختلفة ، وهم أولئك الشعراء والخطباء .

وقد ازدادت هذه اللغة نمواً وازدهاراً ، بنزول القرآن الكريم بها . ولسنا نوافق القائلين بأن نزول القرآن ، هو الذى وحد العربية ، وأوجد اللغة المشتركة ؛ لأن هذه اللغة نمت وازدهرت - كما قلنا - قبل نزول القرآن الكريم بها ؛ ولذا تخيرها القرآن ونزل بها ؛ ليفهمه جميع الناس فى شتى القبائل العربية . هذا هو العامل الدينى .

وهناك عامل آخر اقتصادى ، له أهميته فى تكوين اللغة المشتركة ؛ فإن أهل مكة كانوا تجاراً ، ينتقلون بتجارهم فى أماكن مختلفة ، ويرتحلون بها إلى اليمن فى الشتاء ، وإلى الشام فى الصيف ، ولا يستقرون فى مكان ،

إلا بمقدار الزمن ، الذى يحدده لهم البيع والشراء . هذا النشاط التجارى الضخم قد أتاح لهم الغنى والثراء ، ومن ملك المال واحتضن الدين ، فقد تحقق له سلطان سياسى قوى ، وكان أكثر حضارة ، وأقوى نفوذا من غيره . ولهذا كله ، كانت اللهجة القرشية ، من أقوى اللهجات أثرا ، فى تكوين اللغة العربية الفصحى . وتتميز تلك العربية الفصحى المشتركة ، بصفات معينة ، شأنها فى ذلك شأن كل لغة مشتركة ^(٤) .

فالصفة الأولى ، هى أنها فوق مستوى العامة ، بمعنى أن العامة لا يصطنعونها فى خطابهم ، وأنهم إذا سمعوا متكلما بها ، رفعوه فوق مستوى ثقافتهم ، فاللغة المشتركة العربية ، التى وردت بها الآثار الأدبية ، والتى نظم بها الشعراء ، وخطب بها الخطباء ، لم تكن فى متناول جميع العرب ، بل كانت فى مستوى أرق وأسمى ، مما يمكن أن يتناوله العامة ؛ فإنه حتى ذلك الإعراب ، الذى هو أهم مميزات اللغة الفصحى ، لم تكن كل العرب تقدر عليه ؛ فقد عثرت على نص خطير فى كتاب : « نثر الدرر » للوزير أبى سعد الآبى ^(٥) ، يقول :

« قال أبو العيناء : ما رأيت مثل الأصمعى قط ، أنشد بيتا من الشعر ، فاختلس الإعراب ، ثم قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلام العرب الدرج ، وحدثنى عبد الله بن سَوار ، أن أباه قال : العرب تجتاز بالإعراب اجتيازاً ، وحدثنى عيسى بن عمر ، أن ابن أبى إسحاق قال : العرب ترفرف على الإعراب ، ولا تتفهيق فيه ، وسمعت يونس يقول : العرب تشامُّ الإعراب ولا تحقِّقه ، وسمعت الحشخاش بن الحُبَاب يقول : العرب تقع بالإعراب ، وكأنها لم تُرد ، وسمعت أبا الخطَّاب يقول : إعراب العرب الخطف والحذف . قال : فتعجب كل من حضر منه » .

(٤) انظر كذلك : مستقبل اللغة العربية ٩

(٥) مخطوطة كوبر بللى ٧/٧٦٥ وانظر هذا النص مختصراً فى ربيع الأبرار ونصوص الأخبار ، للزمخشري -

مخطوطة دمشق رقم ٣٢٦٣ ص ٤٥ -

وإذا اتخذنا القرآن الكريم نموذجاً للغة المشتركة^(٦) ، وبحثنا في المستوى القرآني أمام العرب ، وجدناهم ينظرون إلى القرآن الكريم ، وإلى أسلوبه نظرة أسمى حتى من آثارهم الأدبية الأخرى ؛ ذلك لأنه تحدّاهم وأعجزهم ، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، وإننا نرى هذا واضحاً في كلام العلماء القدماء ، حين بحثوا إعجاز القرآن ، ووصل ببعضهم القول إلى حد أن أكد لنا ، أن إعجازه لا يدركه إلا من أتقن الشعر والخطابة والكتابة ، وجميع الأساليب اللغوية المعروفة ؛ فالباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ) مثلاً ، يرى في كتابه « إعجاز القرآن » أنه يستحيل على الأعجمي أو العامي ، أن يدرك إعجاز القرآن ؛ لأنه لم تُنح له من الثقافة اللغوية أي قدر ، بل يستحيل على متوسطي الناس أن يدركوا إعجاز القرآن . ويرى الباقلاني - بحق - أن المتناهي في إدراك علم الشعر وحده ، أو الخطابة وحدها ، أو الكتابة كذلك ، لا يدرك إعجاز القرآن إدراكاً تاماً ، فيقول :

« وقد علمنا تفاوت الناس في إدراكه ، ومعرفة وجه دلالاته ؛ لأن الأعجمي لا يعلم أنه معجز ، إلا بأن يعلم عجز العرب عنه ، وهو يحتاج في معرفة ذلك إلى أمور ، لا يحتاج إليها من كان هناك من أهل صنعة الفصاحة ، فإذا عرف عجز أهل الصنعة ، حل محلهم ، وجرى مجراهم في توجه الحجة عليه . وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان من هذا الشأن ، ما يعرفه العالي في هذه الصنعة ، فربما حل في ذلك محل الأعجمي ، في أن لا تتوجه الحجة ، حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة عنه . وكذلك لا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده ، أو الغاية في معرفة الخطب أو الرسائل وحدهما - من غور هذا الشأن - ما يعرف من استكمال معرفة جميع تصاريف الخطاب ، ووجوه الكلام ، وطرق البراعة ،

(٦) لا يمثل القرآن الكريم لغة قريش وحدها ، كما يتردد أحياناً في بعض الكتب والروايات ، وإنما يمثل اللغة المشتركة بين العرب جميعاً ، لغة الأدب من شعر وخطابة وكتابة . انظر : مستقبل اللغة العربية ٩

فلا تكون الحجة قائمة على المختص ببعض هذه العلوم بانفرادها ، دون تحقيقه لعجز البارع في هذه العلوم كلها ، عنه . فأما من كان متناهما في معرفة وجوه الخطاب ، وطرق البلاغة ، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة ، فهو متى سمع القرآن ، عرف إعجازه^(٧) .

نحن لا نغالي إذن ، حين نقول إن أسلوب القرآن الكريم ، وهو يمثل قمة اللغة العربية المشتركة – كان فوق مستوى العامة من العرب ، كما كان في بعض الأحيان فوق مستوى الخاصة . ويروى الباقلاني وغيره ، قصصاً وحوادث ، توضح بجلاء ، كيف كان ينظر فصحاء العرب ، إلى عظمة أسلوب القرآن ؛ ففي حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن عمر بن الخطاب قرأ قول الله تعالى : « وفاكهة وأباً » وقال : « فما الأب ؟ » ثم قال : « ما كلفنا ، أو ما أمرنا بذلك » .

تلك هي الصفة الأولى ، من صفات اللغة المشتركة ، وقد رأينا آثارها فيما نسميه بالعربية الفصحى . أما الصفة الثانية ، فهي أن اللغة المشتركة ، لا تنتمي صفاتها أو عناصرها إلى بيئة محلية بعينها ، بمعنى أن الخطيب باللغة المشتركة ، لا يكاد السامع يكشف عن بيئته المحلية ، ومعنى هذا أن اللغة المشتركة ، ليست لغة قبيلة بعينها ، أو بعبارة أخرى : أن اللغة المشتركة ، لا تتضمن شيئاً من خصائص اللهجات المحلية ؛ فهي لغة منسجمة موحدة ، لا يمكن أن تنتمي إلى بيئة خاصة ، من بيئات الجزيرة العربية ، فلا يحق لنا أن نقول مثلاً ، إن اللغة المشتركة هي لغة قريش ، أو تميم ، أو غيرها من قبائل العرب ، بل هي مزيج من كل هذا ، تكونت له شخصيته وكيانه ، وأصبح مستقلاً عن اللهجات ، وإن التمس هذا المزيج في نشأته ، بعض صفات هذه اللهجات ، بعد هضمه .

ولنضرب مثلاً لتوضيح ذلك ؛ فنقول : تجمع الروايات القديمة ، على أن البيئة الحجازية (قريش وما جاورها) تسهل الهمز ، والبيئة البدوية

(٧) إعجاز القرآن للباقلاني ٢٥ - ٢٦

(تميم وما جاورها) تحقق الهمز . وقد أخذت اللغة العربية المشتركة ، تحقيق الهمز من تميم ، وأصبح الخطيب والكاتب والشاعر ، يحاول تحقيق الهمز في كلامه ، عندما يصطنع اللغة العربية المشتركة ؛ فقد رُوِيَ عن أبي زيد الأنصاري (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) النص التالي : « قال أبو زيد : أهل الحجاز وهذيل ، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر ، فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب النبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا . قال : وقال أبو عمر الهذلي : قد توضيت ، فلم يهمز وحوّها ياء ، وكذلك ما أشبه هذا من باب الهمز^(٨) » .

والنبر هو الهمز ؛ قال ابن منظور : « والنبر همز الحرف . ولم تكن قريش تهمز في كلامها ، ولما حج المهدي قدّم الكسائي يصى بالمدينة ، فهمز فأنكر أهل المدينة عليه ، وقالوا : تنبر في مسجد رسول الله ﷺ بالقرآن؟! »^(٩) .

كما قال الفراء : « وقوله : (تأكل منسأته) ، همزها عاصم والأعمش ، ولم يهمزها أهل الحجاز ولا الحسن ، ولعلمهم أرادوا لغة قريش ، فإنهم يتركون الهمز^(١٠) » .

و « قال ابن عبد البر في التمهيد : قول من قال : نزل القرآن بلغة قريش ، معناه عندي : في الأغلب ؛ لأن لغة غير قريش موجودة في جميع القرآن ، من تحقيق الهمز ونحوها . وقريش لا تهمز^(١١) » .

وقال صاحب كتاب : المباني في نظم المعاني : « فأما الهمز ، فإن من العرب من يستعمله وهم تميم ومن يوافقها في ذلك ، ومنهم من يقل استعمالهم له ، وهم هذيل وأهل الحجاز^(١٢) » .

(٨) انظر مقدمة لسان العرب ، لابن منظور ١٤/١

(٩) لسان العرب (نبر) ٤٠/٧ وانظر الخبر في كلام عن الهمز كذلك ، في غريب الحديث لابن قتيبة

٦٣٣/٢

(١٠) معاني القرآن ٣٥٦/٢

(١١) انظر : البرهان للزركشي ٢٨٤/١

(١٢) مقدمتان في علوم القرآن ٢٢٦

وهذا كله معناه أن لهجة الحجازيين الأصلية ، تسهيل الهمز .
أما قول عيسى بن عمر الثقفي - فيما تقدّم : « فإذا اضطُّروا نبروا » ،
فيمكن أن يكون معناه أن الحجازيين ، إذا اضطنَعوا اللغة المشتركة ، حققوا
الهمز ، كما يمكن أن يكون عيسى بن عمر ، قد قصد بذلك الهمزة التي
توجد في أول الكلمة .

وبخلاصة ذلك أن اللغة العربية المشتركة ، لم تكن لغة قريش وحدها ،
بدليل وجود الهمز فيها ، وقريش لا تهمز ، كما وردت إلينا الروايات المختلفة
بذلك ، وإنما هي لغة موحّدة^(١٣) ، اعتمدت في نشأتها على بعض الصفات
الطيبة ، في اللهجات العربية المختلفة ، سواء في ذلك لهجة قريش أو غيرها .
حقا يمكن القول بأن لهجة قريش ، أسهمت في تكوين العربية
الفصحى بعناصر كثيرة ، فلا مبالغة إذن ، في إطلاق عبارة : « لغة
قريش » على اللغة العربية الفصحى . وهذا - فيما يبدو - ما كان يقصده
« فندريس » بقوله : « تقوم اللغات المشتركة دائما ، على أساس لغة
موجودة ، حيث تتخذ هذه اللغة الموجودة ، لغة مشتركة من جانب أفراد
مختلفي التكلم^(١٤) » .

ويؤيد الدكتور إبراهيم أنيس هذه القضية ، بما نعرف من أن اللغة
المشتركة بين العرب ، قد خلت من الصفات المحلية ؛ فيقول : « إن شعر
الشعراء من ربيعة ، لا يعرف ما اشتهر عن لهجتها من الكشكشة ، وشعر
الشعراء من تميم لا يعرف العنينة ، بل حين نتتبع صفات لهجة هذيل ، في
ديوان الهذليين ، لا نكاد نعثر على شيء ، اللهم إلا تلك الإشارات
السريعة ، التي نراها في كلام بعض شراح الديوان ، وكلها لا تخلو من
التكلف أو التعسف ، أو ربما كان من صنع الرواة في العصور المتأخرة ،

(١٣) هذه اللغة الموحدة ، هي لغة الشعر في الأعم الأغلب ؛ ولذلك يقول نولدكه : « فالشعر الذي
ازدهر في القرن السادس الميلادي ، في كل وسط الجزيرة العربية وشمالها ، حتى أسفل الفرات وما وراء
ذلك - هذا الشعر يستخدم لغة موحدة » . انظر : اللغات السامية ٧٤

(١٤) اللغة لفندريس ٣٢٨

حين أغرموا بتعدد الروايات ، والجحىء بكل غريب ؛ رغبة في التعامل ، وحباً في التظاهر في مجالس العلم . فكل بيت من أبيات ديوان الهذليين ، زعم الشراح المتأخرون ، أن به صفة من لهجة هذيل ، رويت له رواية أخرى ، لا تكاد تختلف عن النهج المألوف في اللغة المشتركة ؛ ففي البيت :

شَرِيْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ
مَتَى لَجِجَ خُضِرٍ لَهْنٌ نَيْجُ

يروى :

تَرَوْتُ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَنَصَّبَتْ
عَلَى حَبَشِيَّاتٍ لَهْنٌ نَيْجُ

وفي البيت :

بِأَسْفَلِ ذَاتِ الدَّبْرِ أُفْرِدَ جَحْشُهَا
فَقَدْ وَلِهَتْ يَوْمَيْنِ فَهَى خُلُوجُ

يروى :

بِأَسْفَلِ ذَاتِ الدَّبْرِ أُفْرِدَ حِشْفُهَا
فَقَدْ وَلِهَتْ يَوْمَيْنِ فَهَى خُلُوجُ

فليس في ديوان الهذليين ، تلك الصفات التي اشتهرت عن لهجة هذيل ، من فحفة واستنطاء ، ونحو ذلك^(٥) .

ولا يزال هذا الموضوع في حاجة إلى دراسة مستفيضة ، تقفنا على مدى صحة ما يزعمه هؤلاء الشراح !

نعم ، قد يقال لنا : إن هناك كثيراً من الشواهد الشعرية ، تملأ كتب النحو واللغة ، وتتضمن شذوذاً لغوياً أو نحوياً ، ينسب إلى لهجات القبائل العربية المختلفة ! هذه حقيقة لا تنكر ، وقد ألف في شرح هذه الشواهد ، الكثير من الكتب ؛ مثل « شرح أبيات سيبويه » لابن السيرافي (المتوفى سنة

(٥) مستقبل اللغة العربية ١٢ وانظر : في اللهجات العربية ٣٦ - ٤٧

٣٨٥ هـ) و « شرح شواهد كتاب سيبويه » ، المسمى : « تحصيل عين الذهب ، من معدن جوهر الأدب ، في علم مجازات العرب » للأعلم الشنتمرى (المتوفى سنة ٤٧٦ هـ) ، ومثل : « شرح شواهد شروح الألفية » المسمى : « شرح الشواهد الكبرى » للعيني (المتوفى سنة ٨٥٥ هـ) ، و « شرح شواهد المغنى » للسيوطى (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، و « شرح أبيات مغنى اللبيب » لعبد القادر البغدادى (المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ) ، وغير ذلك .

ونحب أن نقف عند هذه الشواهد وقفة قصيرة ؛ فنقول : إما أن نحسن الظن بروايتها ، وإما أن نسيء الظن ، فإذا حسن ظننا بها ، وجب علينا أن نفسرها بأحد التفسيرات الآتية :

الأول : أننا نعدّ هذه الشواهد ، بقايا تسربت إلينا ، مما نسميه بالأدب الشعبى للعرب القدماء (أدب القبيلة) ، فإننا نفترض أن العرب قبل الإسلام ، كان لهم أدبان : هذا الأدب الذى نعرفه ، وأدب آخر شعبى ، يعرض لفكاهاتهم ، ودعاباتهم ، وقصصهم ، وأمورهم العادية ، ويتضمن خصائص لهجة التخاطب فى كل قبيلة . ولكن هذا الأدب لم يُرَوَّ لنا ، فاندثر وباد مع الزمن ؛ لأن الرواة دائماً وفى كل عصر ، ينظرون إلى الأدب الشعبى نظرة احتقار ، فهو عندهم أدب منحط ، لا يستحق الرواية ، والعناية به فى نظرهم ؛ وذلك كالأزجال فى أدبنا المصرى ، تلك الأزجال التى كانت تمثل بحق ، أدبنا الشعبى فى مصر منذ قرون ، ولكن إهمال الرواة لها جعلها تندثر ، ولا تكاد تعثر منها الآن إلا على القليل ، الذى أفلت من الضياع ، بتدوينه على أيدي العرب ، أو المستشرقين !

ولكن على الرغم من إهمال رواة اللغة الأقدمين ، لهذا النوع من الأدب ، تسرّب إلينا بعضه - كما قلنا - وهو هذه الشواهد الشاذة ؛ كقول الشاعر :

تَزُودَ مِنَّا يِنَّ أذْنَاهُ طَعْنَةً
دَعْتُهُ إِلَى هَابِي الثُّرَابِ عَقِيمٍ^(١٦)
وكقول الآخر :

إِنَّ أَبَاهَا وَأَبَا أَبَاهَا
قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ غَايَتَاهَا^(١٧)

والثاني : نذهب إلى القول بأن الشعر القديم ، كان ينظم باللغة المشتركة ، ولكنه كان ينتقل في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، على ألسنة الناس ، حتى العامة منهم ، فانحرف بعضه على ألسنة هؤلاء .

وقد فطن إلى هذا ابن هشام المصري (المتوفى سنة ٧٦١ هـ) فقال :
« كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكلُّ يتكلم على مقتضى سجيته التي فُطر عليها ؛ ومن هاهنا كثرت الروايات في بعض الأبيات^(١٨) » .
أما إذا ساء ظننا برواية هذه الشواهد ، فيمكن أن نتصور أن النحاة هم الذين وضعوا هذه الأبيات ، أو هم الذين غيروا موضع الشاهد منها ؛ ليضعوا القواعد ، حسبما شاء لهم الهوى ، فيمكننا على هذا الأساس أن نحكم بأن أصل البيت السابق :

تَزُودَ مِنَّا يِنَّ أذْنَاهُ طَعْنَةً
دَعْتُهُ إِلَى هَابِي الثُّرَابِ عَقِيمٍ
كما قال أبو حاتم السجستاني ، عن القصيدة التي منها بيتا الرجز السابقين : إن أباه .. إلخ : « سألت عن هذه الأبيات أبا عبيدة ، فقال : انقط عليهن ! هذا من صنعة المفضل^(١٩) » .

وعندنا الكثير من أمثال هذا النحو ؛ فقد جاء في كتاب « النوادر في اللغة » ، لأبي زيد الأنصاري (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) قوله : « وهذا شيء

(١٦) انظر : الدرر اللوامع ، للشنقيطي ١٤/١

(١٧) انظر : شرح شواهد المغنى ، للسيوطي ٤٧

(١٨) المزهري للسيوطي ٢٦١/١ وانظر الاقتراح ٣٠

(١٩) شرح شواهد المغنى ٤٧ والنوادر لأبي زيد ١٦٤

يصنعه النحويون ، ليعرفوك كيف مجراه ، متى وقع في شعر . وأنشد سيويه
لعبد الرحمن بن حسان :

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهَا
وَالشَّرُّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللَّهِ مِثْلَانِ

أراد : فالله يشكرها ، فحذف الفاء لما اضطر . وأخبرنا أبو العباس
عن المازني عن الأصمعي ، أنه أنشداهم : مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ فَالرَّحْمَنُ
يَشْكُرُهُ . قال : فسألته عن الرواية الأولى ، فذكر أن النحويين صنعوها ، ولهذا
نظائر ليس هذا موضع شرحها ^(٢٠) .

كما يقول السيوطي : « وقد وضع المولدون أشعاراً ، ودسوها
على الأئمة ، فاحتجوا بها ظناً أنها للعرب . وذكر (الشيخ عز
الدين بن عبد السلام) أن في كتاب سيويه منها خمسين بيتاً ^(٢١) ، وأن منها
قول القائل :

أَعْرِفُ مِنْهَا الْجَيِّدَ وَالْعَيْنَانَا
وَمَنْخَرَيْنِ أَشْبَهَا ظَبْيَانَا

ومن الأسباب الحاملة على ذلك ، نصره رأى ذهب إليه ، وتوجيه
كلمة صدرت منه ^(٢٢) .

كما يمكن أن نسيء الظن ، بهذه الشواهد كذلك ، فنقول : إنه قد
وقع فيها تحريف أو تصحيف ، كما اعترف بذلك كثير من علماء اللغة .
والتحريف تغيير في شكل الحروف المتشابهة الرسم ، كالبدال والراء ، والبدال
واللام ، والنون والزاي ، والميم والقاف . أما التصحيف فهو تغيير نقط
الحروف المماثلة في الشكل ، كالباء والتاء والثاء ، والجيم والحاء والحاء ،

(٢٠) النوادر في اللغة ٣١ وانظر شيئا من هذا أيضا في : الشعر والشعراء ٩٨/١

(٢١) هي أكثر من ذلك بكثير . وانظر مقالنا : « أسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيويه » في

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٢/٤٩ (سنة ١٩٧٤ م) .

(٢٢) الاقتراح في أصول النحو ٢١

والدال والذال ، والسين والشين ، والصاد والضاد ، والطاء والظاء .
ومن العلماء من يجعل كلمة « التصحيف » مرادفة في المعنى لكلمة :
« التحريف » .

وقد يكون التصحيف أو التحريف ، ناتجا عن خطأ في السماع ،
لا عن خطأ في القراءة ؛ فقد جاء في كتاب « الأضداد » ، لأبي الطيب
اللغوى (المتوفى سنة ٣٥١ هـ) قوله : « وحكى يقال : برّدت الماء ،
من البرّد ، أى جعلته بارداً ، وبرّذته : سخنته . قال : وأنشدنا بعضهم :
شَكَتِ البرْدُ في المِياهِ فَقُلْنَا

برّديه ثَوافِقِيهِ سَخِينَا

قال قطرب : معنى برّديه في هذا البيت : سخنيه . وقال أبو حاتم : هذا
خطأ ، إنما هو : بل رديه ، من الورود ، ولكنه أدغم اللام في الراء ،
كما يقرأ : كلا بل ران على قلوبهم . قال أبو الطيب : وهذا الصحيح ،
وبه يستقيم معنى البيت (٢٣) .

ومن أمثلة التحريف في الشواهد اللغوية ، ما وقع فيه أبو نصر
الجهوري (٢٤) ، حين استشهد على أن « اللجز » مقلوب « اللزج » بيت
ابن مقبل :

يَعْلُونُ بِالْمَرْدُقُوشِ الْوَرْدِ ضَا حِيَّةَ

على سَعَابِيْبِ مَاءِ الضَّالَّةِ اللَّجْزِ

ونسى أن هذا البيت من قصيدة نونية ، في ديوان ابن مقبل (٢٥) ،
وصحة الروي : « الضالة اللجن » . وقد تعقبه في ذلك ابن برى ،
في حواشيه على الصحاح (٢٦) . كما قال عنه الصغاني : « وأما أبو نصر

(٢٣) الأضداد لأبي الطيب ٨٦/١

(٢٤) الصحاح (لجز) ٨٩١/٢

(٢٥) ديوان ابن مقبل ق ٢٣/٣٩ ص ٣٠٧ والمردقوش : الریحان . والورد : الأحمر . وضاحية :
رعوسا بارزة للشمس . وسعابيب : خيوط . والضالة : الآس . واللجن : ماله قوام ، يعنى : يخلطن ماء
المردقوش بماء الآس ، ويعلون به المشط ، ليسرحن به رعوسهن .

(٢٦) انظر : لسان العرب (لجز) ٢٧١/٧

إسماعيل بن حماد الجوهري ، الذى تحرّ له جباه أهل الفضل ، وحُكم له بحيازة سبق والفضل ، فإنه قال فى تركيب (س ع ب) : قال ابن مقبل :

يَعْلُونَ بِالْمَرْدُقُوشِ الْوَرْدِ ضَاحِيَةً

على سَعَابِيْبِ مَاءِ الضَّالَّةِ اللَّجْرِ
ثم قال : أراد اللزج فقلبه ، وذكر فى فصل اللام من باب الزاى :
اللجز قلب اللزج ، وأنشد البيت ، فلو كان هذا المقبل ، اطلع على ديوان شعر ابن مقبل ، لعلم أنه ليست له قصيدة زائية ، وأنها نونية ؛ فقد أخطأ فى اللغة ، حيث قال : اللجز اللزج ، وفى الإنشاد حيث جعل القافية النونية زائية^(٢٧) .

ومن العجيب أن الجوهري ، يروى هذا البيت ، عن كتاب :
« القلب والإبدال » لابن السكيت ، مع أن فى هذا الكتاب الأخير :
« اللجن » على الصواب^(٢٨) .

وقد ألف فى موضوع التصحيف والتحريف فى العربية ، بعض علمائنا ؛ مثل : حمزة بن الحسن الإصفهاني (المتوفى حوالى سنة ٣٦٠ هـ) فى كتابه : « التنبيه على حدوث التصحيف » ، الذى نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين ، ببغداد سنة ١٩٦٧ م ، ومثل أبى أحمد العسكرى (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ) فى كتابه : « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف » ، الذى نشره عبد العزيز أحمد ، بالقاهرة سنة ١٩٦٣ م ؛ فقد روى هذان المؤلفان ، الكثير من تصحيقات العلماء وتحريفاتهم ، ونسبا ذلك للكثير منهم ، حتى الخليل وسيبويه .

اتضح لنا الآن ، أن اللغة العربية المشتركة ، تتصف بأنها لغة فوق مستوى العامة من العرب ، وأنها لغة الآثار الأدبية ، وأنها لغة منسجمة

(٢٧) العباب للصغاني (حرف الهمة) ٣٥ - ٣٦

(٢٨) انظر : القلب والإبدال ، لابن السكيت ٣٩

موحدة خالية من الخواص المحلية ؛ ولذلك لا يصح مطلقاً أن نقول عنها : إنها لغة سليقة لكل العرب ، وهذه هي الصفة الثالثة من صفات اللغة المشتركة ، وهي أنها ليست لغة سليقة ؛ لأن معنى السليقة ، هو أن تتكلم لغة من اللغات ، بغير شعور بما لها من خصائص .

ولعل أوضح الأدلة ، على أن اللغة العربية الفصحى ، لم تكن لغة سليقة لكل العرب ، تلك الروايات الكثيرة ، التي تشير كلها إلى وقوع اللحن من العرب ، قبل الإسلام وبعده ؛ يقول الدكتور إبراهيم أنيس : « إن صاحب اللغة الذي يتكلمها بالسليقة ، يستحيل عليه الخطأ ، في ظواهر تلك اللغة ، دون أن يدرك أنه أخطأ ، فالإنجليز لا يخطئ في كلامه ، إلا إذا قسنا كلامه بمستوى لغوى آخر فوق كلام الناس . ونحن في كلامنا بالعامية لا نخطئ ، فإذا زل اللسان في لحظة ارتباك أو تلعث ، رجعنا عن هذا الزلل في لمح البصر ، وأدركنا أننا قد وقعنا فيه ، ولا يتصور وقوع الخطأ من صاحب السليقة اللغوية ، في أى ظاهرة من ظواهر لغته : في تركيب أصواتها ، أو في ترتيب الكلمات بجملها ، أو في صيغها ، أو في طريقة النفى والإثبات ، أو في طريقة الاستفهام والتعجب ، ونحو ذلك (٢٩) » .

وهذا اللحن الذى يدلنا على أن اللغة العربية المشتركة ، لم تكن لغة سليقة ، قد شاع عند العرب القدماء ، بل عند الخاصة منهم . ويمكننا أن نعدّ من اللحن كذلك ، ما يسمى لدى العروضيين بالإقواء . والإقواء في رأى اللغويين المحدثين ، ليس في الحقيقة من الخطأ في الموسيقى ، كما يريد أصحاب العروض ، أن يحملونا على هذا الفهم ، بل هو في الواقع خطأ نحوى . ولتوضيح ذلك نقول : إن الشاعر يلتزم حركة معينة في روى القصيدة ، فهو يجعل حركة الروى متحدة دائماً ، في جميع أبيات القصيدة ، وهذا شيء لا يمكن أن يتجاهله شاعر ، وهب أذنا موسيقية ،

ولكنه يمكن أن يغفل عن الإعراب ؛ لأنه ليس سليقة له ، فإذا تصادف وجود كلمة في آخر البيت ، يلزم رفعها لموقعها الإعرابي ، ولكن القافية مكسورة مثلاً ، فإن الشاعر قد يغفل عن موقعها الإعرابي ، ولكنه لا يمكن أن يتجاهل أبداً موسيقى القصيدة ، وحركة الروى .

وعلى هذا ، فالإقواء لم يوجد كما يعرفه العروضيون ، وإنما وجد اللحن في الكلام ؛ ففي قصيدة النابغة الذبياني ، التي نظمها في المتجرده ، زوجة النعمان بن المنذر ، والتي مطلعها :

مِنْ آلِ مَيْمَةَ رَائِحُ أَوْ مُغْتَدٍ
عَجْلَانِ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوِّدٍ

يقول فيها النابغة :

زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَدًا
وَبِذَاكَ خَبَرْنَا الْغُرَابُ الْأَسْوَدُ

ويزعم الرواة أن النابغة قال البيت ، بضم الدال من كلمة : (الأسود) ، ولكن المعقول أن يكون كسرهما ؛ لينسجم الروى وموسيقى الأبيات ، ويكون بذلك قد أخطأ في النحو . يقول ابن السكيت شارح ديوان النابغة : « قال ابن الأعرابي والأثرم : بلغنا أن النابغة كان أقوى في قوله : من آل ميمية رائح أو مغتد ، فورد يثرب ، فأنشدها ، فقالوا له : أقوى ، فلم يعرف ما عابوا ، فآلقوا على فم قينة لهم : وبذاك خبرنا الغراب الأسود ، ففطن فلم يعد وكذلك قوله : يكاد من اللطافة يعقد ، فقالوا لها : رثليه ومدّيه ، فقالت : مغتدى ، ثم قالت : الغراب الأسود ، ففطن ، فقال النابغة : وردت يثرب ، وفي شعري صنعة ، وصدرت عنها وأنا أشعر العرب^(٣٠) » .

(٣٠) ديوان النابغة ٢٩ وانظر كذلك : الخصائص ٢٤٠/١ والزينة لأبي حاتم الرازي ١٢٢/١ وطبقات فحول الشعراء ٦٧-٦٨ والموشح ٤٥ وما بعدها .

ويعجبني هنا تعليق القزاز القيرواني ، على ذلك ؛ إذ يقول :
 « خفض ورفع أيضا . وهذا من أقبح العيوب ، ولا يجوز لمن كان مولدا
 هذا ؛ لأنه إنما جاء في شعر العرب على الغلط ، وقلة المعرفة به ، وأنه يجاوز
 طبعه ولا يشعر به ؛ ألا ترى أن النابغة غُنِّيَ له به ، فلما سمع اختلاف
 الصوت بالخفض والرفع ، فطن له ، ورجع عنه^(٣١) » .

وتحدثنا الرواة بأن الإقواء كثر في شعر النابغة ، وبشر بن أبي خازم ،
 وغيرهما من الفحول^(٣٢) ؛ قال ابن السكيت : « وقال الأثرم : حدثنا
 أبو عبيدة ، قال : حدثنا أبو عمرو بن العلاء ، قال : فحلان من العرب
 الشعراء ، كانا يقويان : النابغة ، وبشر بن أبي خازم ، فأما النابغة فمئذ
 دخل يثرب ، غُنِّيَ بشعره ، فلم يَعُدْ إلى الإقواء . وأما بشر ، فقال له
 سَوَادَةُ أخوه : إنك تُقَوِّى ! فقال : وما الإقواء ؟ فأنشده :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ طُولَ الدَّهْرِ يُبْلِي
 وَيُنْسِي مِثْلَ مَا نُسِيَتْ جُدَامُ
 وَكَانُوا قَوْمَنَا فَبَغَا عَلَيْنَا
 فَسُقْنَاهُمْ إِلَى بَلَدِ الشَّامِ
 فرفع البيت الأول ، وخفض الثاني . فلم يَعُدْ إليه^(٣٣) » .

ويقول الفيروزابادي : « وأقوى الشعر : خالف قوافيه ، برفع بيت
 وجر آخر . وقلَّت قصيدة لهم بلا إقواء . أما الإقواء بالنصب فقليل^(٣٤) » .
 وقد يكون الفيروزابادي مغاليا ، في ادعائه قلة القصائد الخالية من الإقواء ،
 ولكنه على كل حال يعطينا فكرة كيف كان الخطأ النحوي ، يقع في شعر
 الفحول !

(٣١) ما يجوز للشاعر في الضرورة ، للقزاز القيرواني ٥٦

(٣٢) انظر : الشعر والشعراء ٩٥/١

(٣٣) ديوان النابغة الذبياني ٢٩ - ٣٠

(٣٤) القاموس المحيط (قوى) ٣٨١/٤ وفي القوافي للأخفش ٤٧ : « وقد سمعت مثل هذا من
 العرب كثيرا مالا يحصى . كل قصيدة ينشدونها ، إلا وفيها الإقواء ، ثم لا يستذكرونه ، وذلك لأنه لا يكسر
 الشعر ، وكل بيت منها شعر على حياله » . وانظر : الخصائص ٢٤٠/١

ولكن ما قيمة كل هذا بالنسبة لموضوعنا ؟ نقول : إن الإعراب صفة من صفات اللغة العربية المشتركة ، والذي يخطيء في هذه اللغة ، وفي بعض خصائصها ، لا تكون له لغة سليقة .

وقد ظل هذا الإقواء شائعاً في عصر صدر الإسلام ، واستمر إلى نهاية العصر الذي احتجوا بنصوصه ، وينتهي بمنتصف القرن الثاني الهجري ، وذلك عند الشاعر العباسي : « بشار بن برد » . وآخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم ، هو : « إبراهيم بن هرمة » - فهذا هو الفرزدق الشاعر العظيم ، كان يُقوى ويخطيء في النحو . ومن ذلك قوله :

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَمَتْ بِنَا
هُمُومُ الْمُنَى وَالْهُوجَلُ الْمُتَعَسِّفُ
وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ
مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ^(٣٥)

وقد سمعه « عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي » ، ينشد ذلك ، فقال له : على أي شيء ترفع : (أو مُجَلَّفُ) ؟! فقال له : على ما يسوءك ويئوئك !

كما أنكر عليه « ابن أبي إسحاق » كذلك قوله^(٣٦) :
مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا
بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ الْقُطْنِ مَثُورِ
عَلَى عَمَائِمِنَا تُلْقَى ، وَأَرْحُلُنَا
عَلَى زَوَاحِفَ تُزْجِي مُحْهَهَا رِيرِ

قال ابن أبي إسحاق : أسأت ، إنما هي : (رِيرُ) ، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع ، فلما ألحوا على الفرزدق ، قال : « على زواحف نرجيها محاسير » ، فترك الناس هذا ، ورجعوا إلى القول الأول . وكان ابن

(٣٥) ديوان الفرزدق ٥٥٦

(٣٦) ديوان الفرزدق ٢٦٢

أبى إسحاق يكثر الردّ على الفرزدق ، فقال فيه الفرزدق :
 فَلَوْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى هَجَوْتُهُ
 وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ مَوْلَى مَوَالِيَا
 فقال له ابن أبى إسحاق : وقد لحنت في هذا أيضا . وصوابه : مَوْلَى
 مَوَالٍ (٣٧) .

ونخلص من هذا كله ، إلى أن اللغة العربية المشتركة ، ليست لغة
 سليقة لكل العرب ، بدليل وقوع اللحن ، حتى من خاصة العرب ، كما
 ذكرنا سابقا ، وضرينا على ذلك الأمثلة .

السليقة اللغوية ومصادر الاحتجاج :

يرى اللغويون العرب القدماء ، أن « السليقة » مرتبطة بالجنس
 والوراثة ، أى أنه لا يتصور أن يسيطر على اللغة العربية غير العربى ، كما أنه
 لا يمكن أن يتقنها إتقان العربى لها ، وهم بذلك كأنما قد تصوروا أن هناك
 أمرا سحريا ، هو سر السليقة ، ذلك هو الجنس ، فكأن الأمهات يرضعن
 السليقة في ألبانهم ، وكأن تلك السليقة تتصل اتصالا وثيقا ، برمالهم
 وآثارهم وأطلاهم ودمهم .

أما « السليقة » في رأى المحدثين ، فهي « لا تعدو أن تكون مرحلة
 من مراحل إتقان اللغة ، عندها لا يكاد يشعر المتكلم بخصائص كلامه ،
 من حيث الأصوات ، وأبنية الألفاظ ، وتراكيب الجمل ، فهو يؤدى الكلام
 بصورة آلية ، دون أن يكون له أى اختيار في هذه النواحي ، بل تصدر منه
 دون تكلف أو تعمد ، وإنما على حسب ما سمع في صغره ، ممن حوله من
 الكبار ، وعلى نفس النهج الذى يسلكونه ، فالمرء يبدأ حياته مقلداً للغة
 أبويه ، وتصادفه عقبات وعثرات في هذا التقليد ، ويمرّ بمراحل كثيرة ، قبل
 أن يصل إلى تلك التى تسمى بمرحلة السليقة . أى أن اكتساب اللغة يبدأ

(٣٧) انظر : طبقات فحول الشعراء ١٦ - ١٧ والشعر والشعراء ٨٩/١

بالتقليد وكثرة المران ، ولا يقال للطفل فى أثناء تعلمه لغة أهله ، وقبل أن يسيطر عليها : إنه يتكلمها بالسليقة ؛ فلا وراثة فى السليقة اللغوية ، وإنما الأمر كله رهن بالاكساب والتقليد والمران ، وعلى حسب ما تشكله البيئة ، فاللغة ملك من يتعلمها ، لا أثر فيها للوراثة أو الجنس ؛ فالطفل الذى يولد من أبوين مصريين ، ثم ينشأ بعيدا عنهما فى بيئة انجليزية ، يشب وينمو كالانجليز تماما من حيث اللغة ... وليس فى السليقة اللغوية ، لدى المحدثين ، شىء غامض أو أمر سحرى ، كما كان علماء العربية القدماء يظنون ، حين ربطوا بينها وبين البدواة حيناً ، أو الجنس العربى حيناً آخر ؛ إذ لم يتصوروا أن الأجنبى عن العربية ، يمكن أن يتقنها كأبناء العرب ، مهما بذل من جهد ، أو صرف من زمن^(٣٨) .

وقد فطن إلى مثل هذا من القدماء ، العلامة ابن خلدون ، فقال : « اعلم أن اللغات كلها ملكات ، شبيهة بالصناعة ؛ إذ هى ملكات فى اللسان ، للعبارة عن المعانى ، وجودتها وقصورها ، بحسب تمام الملكة أو نقصانها ... والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ؛ لأن الفعل يقع أولاً ، وتعود منه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالاً ، ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة ، أى صفة راسخة^(٣٩) » .

ولأن القدماء قد ذهبوا إلى أن اللغة العربية ، تجرى فى دماء العرب ، فقد أخذوا اللغة عن العرب ، حتى عن الأطفال والمجانين والنساء^(٤٠) ، ولكنهم - والحق يقال - شعروا بوجود مستويات مختلفة فى اللغة ، فتحدثوا عن الفصيح والأفصح والأقل فصاحة ، والردىء والمذموم ، والشاذ ، والحوشى والغريب ، والنادر . وكانت المعايير التى استندوا إليها فى ذلك

(٣٨) مستقبل اللغة العربية ١٣ - ١٤ ويقول فندريس (اللغة ٢٩٨) : « فالزنجى أو اليابانى الذى يربى فى فرنسا ، فى ظروف واحدة مع الأطفال الفرنسيين ، يتكلم الفرنسية كأحد أبنائها . وهذه الحقيقة تكفى لجعل كل محاولة تعمل للتوحيد بين اللغة والجنس ، عبثاً لا طائل وراءه » .

(٣٩) مقدمة ابن خلدون ٦٤٨

(٤٠) انظر : المزمهر للسيوطى ١٤٠/١

غامضة ، فكثيرا ما تقابلنا في المعاجم عبارات مثل : « وهى اللغة العليا »
بلا علة واضحة لهذا الحكم !

وعندما بدأ قدامى اللغويين العرب ، فى تدوين اللغة ، مع غموض
معاييرهم ، وجدناهم يقسمون تلك اللغة إلى أقسام : القرآن الكريم ،
والحديث الشريف ، والشعر ، ونثر العرب .

أما القرآن الكريم ؛ فقالوا : إن كل رواياته فصيحة ، حتى الشاذ
منها ، ولو أنه لا يقاس عليها ، فهذا هو ابن جنى يقول : « غرضنا أن نرى
وجه قوة ما يسمى الآن شاذا ، وأنه ضارب فى صحة الرواية بجرائه ، آخذ
من سمت العربية مهلة ميدانه^(٤١) » . كما يقول البغدادى : « كلامه -
عز اسمه - أفصح كلام وأبلغه ، ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه^(٤٢) » .
ويقول الفراء : « والكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر^(٤٣) » .

وأما الحديث ؛ فيرفضون الأخذ به فى الاستشهاد على مسائل
النحو ، محتجين بأنه قد سمحت الرواية فيه ، بمعناه لا بلفظه ، كما أن بعض
رواته كانوا من المولدين .

وهذه حجة واهية بالطبع ، فإن رواة الأحاديث كانوا يعيشون ،
فى حيز عصور الاحتجاج . وحتى لو سلمنا جدلا ، بأنهم رووا الأحاديث
بالمعنى ، وصاغوها بعباراتهم ، فإنهم ممن يحتج بلغتهم .

ولعل السبب الحقيقى فى بعد النحويين الأوائل ، عن الاستشهاد
بالحديث ، إيثارهم الابتعاد عن موطن تزل فيه الأقدام ، بعد شيوع الوضع
فى الحديث ، فى العصور الإسلامية الأولى ، وكثرة اتهام بعض الناس
لبعض ، بهذا الوضع .

(٤١) المختص ، لابن جنى ٣٢/١

(٤٢) خزانة الأدب ٤/١ وانظر الاقتراح ، للسيوطى ١٥

(٤٣) معانى القرآن ، للفراء ١٤/١

وليس معنى هذا ، أن المؤلفات النحوية الأولى ، تخلو من ذكر الحديث تماماً ، فعند سيبويه^(٤٤) ، والفراء^(٤٥) ، وأبي علي الفارسي^(٤٦) ، مثلاً ، بعض الأحاديث . غير أن أول من أكثر من الاستشهاد^(٤٧) بالحديث ، كان هو النحوي الأندلسي : ابن خروف (المتوفى سنة ٦٠٩ هـ) ، وتابعه على ذلك ابن مالك ، صاحب الألفية (المتوفى سنة ٦٧٢ هـ) .

ومن أعلام المانعين من الاستشهاد به : ابن الضائع (المتوفى سنة ٦٨٠ هـ) ، وأبو حيان (المتوفى سنة ٧٥٤ هـ)^(٤٨) . أما ابن مالك ، فقد أخذ مثلاً قول الرسول ﷺ : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار » شاهداً على لغة : « أكلوني البراغيث » ، وهي اللغة التي تلحق الفعل ضمير تشنية أو جمع ، إذا كان الفاعل مثنى أو مجموعاً . وقد عرفت هذه اللغة بذلك الاسم ؛ لأن سيبويه أول من مثّل لها في كتابه ، فاخترار هذا المثال ، فقال : « في قول من قال : أكلوني البراغيث »^(٤٩) ، كما قال : « ومن قال : أكلوني البراغيث ، قلت على حد قوله : مررت برجل أعورين أبواه »^(٥٠) ، وإن كان قد ضرب لهذه الظاهرة أمثلة أخرى في كتابه ، فقال : « واعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قومك ، وضرباني أخواك ، فشبهوا

(٤٤) انظر : فهرس شواهد سيبويه ، للنفاخ ٥٧ - ٥٨ وفهارس كتاب سيبويه ، لعبد السلام هارون ٣٢/٥ وللشيخ عزيمة ٧٦٢

(٤٥) انظر : أبو زكريا الفراء ٢٤٢

(٤٦) انظر : أبو علي الفارسي ٢٠٤

(٤٧) ذكر ذلك ابن الضائع في شرح الجمل ؛ فقال : « وابن خروف يستشهد بالحديث كثيراً » . انظر : خزانة الأدب ٥/١ وعلى ذلك ، ليس ابن خروف أول من استشهد بالحديث ، كما ذكر يوهان فث (العربية ٢٣٥) ، بل كان أول من أكثر من الاستشهاد به .

(٤٨) انظر : خزانة الأدب ، للبغدادى ٩/١ والاقتراح ، للسيوطى ١٧ - ١٨

(٤٩) كتاب سيبويه ١ : ١٣/٥ ؛ ١ : ٦/٦

(٥٠) كتاب سيبويه ١ : ٦/٢٣٧

هذه بالتاء ، التي يظهرونها في : قالت فلانة ، فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة ، كما جعلوا للمؤنث ، وهي قليلة ^(٥١) .

وقد حكيت هذه اللغة عن قبيلة « بلحارث بن كعب » ، كما حكاها البصريون عن قبيلة طيء ، وبعض النحويين يحكونها عن قبيلة أزد شنوءة . والأصل في اللغات السامية ، أن يعامل الفعل فيها معاملته في لغة : « أكلوني البراغيث » ^(٥٢) . وقد بقي من هذا الأصل في العربية ، أمثلة في اللهجات المختلفة ، كما توجد منه بعض الأمثلة ، في القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والأشعار .

فمما جاء منه في القرآن الكريم ، قوله تعالى : « وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » ^(٥٣) وقوله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » ^(٥٤) . ومما جاء في الحديث الشريف ، قوله ﷺ : « يَعْتَزِلْنَ الْحَيْضُ الْمُصَلَّى » وقوله : « مَا اغْبَرَّتَا قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . ومما جاء في الشعر ، قول عمرو بن ملقظ الطائي الجاهلي :

أَلْفَيْتَا عَيْنَاكَ عِنْدَ الْقَفَا
أُولَى فَأُولَى لَكَ ذَا وَاقِيَه ^(٥٥)

وقول أُحَيِّحَةَ بن الجُلَاح :

يَلُومُونَنِي فِي اشْتِرَاءِ النَّخِيلِ (م)
أَهْلِي فَكُلُّهُمْ يَغْزِلُ ^(٥٦)

(٥١) كتاب سيويه ١ : ١١/٢٣٦

(٥٢) انظر : نصوص من اللغات السامية ٧ : ٧٩ ؛ ١٢١

(٥٣) سورة الأنبياء ٣/٢١

(٥٤) سورة المائدة ٧١/٥

(٥٥) شرح شواهد المغنى ١١٣

(٥٦) شرح شواهد المغنى ٢٦٥

وقول مجنون ليلي :

وَلَوْ أَحَدَقُوا بِي الْإِنْسُ وَالْجُنُّ كُلُّهُمْ
لَكَيْ يَمْنَعُونِي أَنْ أَجِيكَ لِحَيْثُ^(٥٧)

وقول ابن قيس الرقيات :

تَوَلَّى قَتَالَ الْمَارِقِينَ بَنَفْسِهِ
وَقَدْ أَسْلَمَاهُ مُبَعَّدُ وَحْمِيمٍ^(٥٨)

وهذه الظاهرة هي الشائعة في كلامنا ، في اللهجات العربية الحديثة ، كقولنا مثلا : « ظلموني الناس » . وقد جعل الحريري ذلك من لحن العامة^(٥٩) ، ورد عليه الشهاب الخفاجي ، فقال : « وليس الأمر كما ذكره ؛ فإن هذه لغة قوم من العرب ، يجعلون الألف والواو حرفي علامة للتثنية والجمع ، والاسم الظاهر فاعلا ، وتعرف بين النحاة ، بلغة أكلوني البراغيث ؛ لأنه مثالها الذي اشتهر به ، وهي لغة طيء ، كما قال الزمخشري ، وقد وقع منها في الآيات والأحاديث ، وكلام الفصحاء ، ما لا يحصى »^(٦٠) .

وكما عني ابن مالك بالاستشهاد بالحديث ، فقد عني به كذلك الإمام الرضى ، وزاد عليه الاحتجاج بكلام أهل البيت ، رضى الله عنهم^(٦١) .

ومن علماء العصور المتأخرة ، أمثال « الإمام الشاطبي » (المتوفى سنة ٧٩٠ هـ) من قسم الأحاديث إلى قسمين : قسم يظن أن العناية قد وُجِّهت إلى ألفاظه لغرض خاص ، كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته

(٥٧) ديوان مجنون ليلي ق ٤/٥٨ ص ٧٤

(٥٨) ديوان ابن قيس الرقيات ق ٢/٣٥ ص ١٩٦ وشرح شواهد المغنى ٢٦٦

(٥٩) انظر : درة الغواص في أوهم الخواص ٦٥

(٦٠) انظر : شرح درة الغواص ، للشهاب الخفاجي ١٥٢

(٦١) انظر : خزانة الأدب ٦/١

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ ، ككتابه لهما ، وكتابه لوائل بن حُجْر ، والأمثال النبوية ، فهذا يصح الاستشهاد به في العربية . وقسم يظن أن العناية وُجِّهَتْ فيه إلى المعنى ، وقد رأى الشاطبي أنه لا يصح الاستشهاد به مطلقاً^(٦٢) .

هذا بالنسبة للقرآن والحديث . أما بالنسبة للشعر ، فقد قسم اللغويون الشعراء ، إلى أربع طبقات :

- ١ - طبقة الجاهليين : كزهير ، وطرفة ، وعمرو بن كلثوم .
- ٢ - طبقة المخضرمين : وهم الذين شهدوا الجاهلية وصدر الإسلام ، كالخنساء ، وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير .
- ٣ - طبقة الإسلاميين : كجرير ، والفرزدق ، والأخطل .
- ٤ - طبقة المولدين ، أو المحدثين : وهم يبدعون في العصر العباسي ، بيشار بن برد ، وأبي نواس .

وقد أجمع علماء اللغة ، على أن شعراء الطبقتين الأوليين ، يحتج بشعرهم ، بغير نزاع . أما الطبقة الثالثة ، فمعظم اللغويين يرون صحة الأخذ بشعر هذه الطبقة ، غير أن بعضهم كان يأبى الاحتجاج به ، وأما الطبقة الرابعة ، فقد رفض اللغويون الاحتجاج بشيء من شعرها ، فيما عدا الرّمحشري الذي أجاز ذلك .

يقول البغدادى : « فالطبقتان الأوليان ، يستشهد بشعرهما إجماعاً . وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها . وقد كان أبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن أبي إسحاق ، والحسن البصري ، وعبد الله بن شبرمة ، يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وأضربهم ... في عدة أبيات ، أُخِذَتْ عليهم ظاهراً ، وكانوا يعدونهم من المولدين ؛ لأنهم كانوا في عصرهم ، والمعاصرة حجاب »^(٦٣) .

(٦٢) انظر : خزنة الأدب ٦/١

(٦٣) خزنة الأدب ٦/١

وقال ابن رشيقي : « كل قديم من الشعراء ، فهو محدث في زمانه ، بالإضافة إلى من كان قبله . وكان أبو عمرو يقول : لقد أحسن هذا المولّد ، حتى لقد هممت أن آمر صبياننا برواية شعره - يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق - فجعله مُولّدًا ، بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعدّ الشعر إلا ما كان للمتقدّمين . قال الأصمعي : جلست إليه عشر حجج ، فما سمعته يحتاج بيت إسلامي » (٦٤) .

كما يقول ابن قتيبة : « كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم ، يعدّون محدثين . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثّر هذا المحدث وحسن ، حتى لقد هممت بروايته » (٦٥) .

وكان تلميذه الأصمعي ، لا يوثق كثيرا من شعراء هذه الطبقة ، كالكميت ، والطرماح ، (٦٦) وإن روى عن أستاذه أبي عمرو بن العلاء ، أن عمر بن أبي ربيعة حجة ، قال : « سمعت أبا عمرو بن العلاء ، يحتاج في النحو بشعره ، ويقول : هو حجة » (٦٧) .

وأما الطبقة الرابعة ، فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقا ، وقيل : يستشهد بكلام من يوثق به منهم ، واختاره الزمخشري ، فاستشهد في تفسير أوائل سورة البقرة ، في « الكشف » بيت من شعر أبي تمام ، وقال : « وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقنعون بذلك ، لوثقهم بروايته وإتقانه » (٦٨) .

واعترض عليه (٦٩) ، بأن قبول الرواية مبني على الضبط والوثوق ،

(٦٤) انظر : العمدة لابن رشيقي ٥٦/١

(٦٥) الشعر والشعراء ٦٣/١

(٦٦) فعلت وأفعلت ، لأبي حاتم ١٥٧ ؛ ١٧٢ وفحولة الشعراء ٣٩ - ٤٠ .

(٦٧) فحولة الشعراء ٣٢

(٦٨) الكشف ٢٢٠/١ في تفسير قوله تعالى : « وإذا أظلم عليهم قاموا » . وانظر : الاقتراح ٢٦ - ٢٧

(٦٩) حاشية الشريف الجرجاني على الكشف ٢٢١/١

واعتبار القول مبنى على معرفة أوضاع اللغة العربية ، والإحاطة بقوانينها .
ومن البين أن إتقان الرواية ، لا يستلزم إتقان الدراية .

وأجمع العلماء على أن « أول الشعراء المحدثين بشار بن برد ... ونقل
ثعلب عن الأصمعي قال : ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة ، وهو آخر
الحجج » (٧٠) .

ويتبين لنا من ذلك ، أنهم لم يقسموا الشعر على أساس القبائل ،
بل ارتضوا كل ما نظم من شعر ، في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية .

ولكنهم حين تعرضوا للنثر ، رأيناهم يسلكون مسلكا مخالفا
لذلك ، فهم يختلفون في الفصيح منه ، وغير الفصيح ، ويضعون قوائم
بأسماء القبائل ، التي يصح أخذ النثر عنها ؛ ففي القرن الرابع الهجري ، نجد
أبا نصر الفارابي (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) يضع قائمة بأسماء قبائل معينة .
وقد جاء بعده من هذا حذوه ، أو نقل عنه ، حتى جاء ابن خلدون ، الذي
سار على هديه في ذلك .

يقول « الفارابي » ، في أول كتابه ، المسمى : الألفاظ
والحروف (٧١) : « كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ ،
وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا وإبانة عما في النفس .
والذين عنهم نقلت اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعندهم أخذ اللسان العربي ،

(٧٠) الاقتراح ٢٧ وانظر شرح شواهد الشافية ٢٥/٤

(٧١) عن الاقتراح ١٩ والمزهر ٢١١/١ والنص مختصر جدا ، في كتاب « الحروف » لأبي نصر الفارابي ،
الذي نشره : محسن مهدي ، في بيروت سنة ١٩٦٩ . يقول الفارابي ، وهو يتحدث عن اللغويين العرب (ص
١٤٧) : « وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم ، أهل الكوفة والبصرة ، من أرض العراق ، فتعلموا لغتهم
والفصيح منها ، من سكان البراري منهم ، دون أهل الحضر ، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ،
ومن أشدهم توحشا وجفاء ، وأبعدهم إدعانا وانقيادا ، وهم : قيس ، وقيس ، وأسد ، وطيب ، ثم هذيل ؛ فإن
هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب ، والباقي فلم يؤخذ عنهم شيء ؛ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم ،
مخالطين لغيرهم من الأمم ، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم ، لألفاظ سائر الأمم المطيعة بهم ، من الحبشة
والهند والفرس والسريانيين ، وأهل الشام ، وأهل مصر » .

من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الإعراب والتصريف . ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين . ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم .

« وبالجملة ، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البرارى ، ممن يسكن أطراف بلادهم ، التى تجاور سائر الأمم الذين حولهم ؛ فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام ؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط ، ولا من قضاة ، ولا من غسان ، ولا من إياد ؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون فى صلاتهم بغير العربية ، ولا من تغلب ولا النمر ؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر ؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس ؛ لأنهم كانوا سكان البحرين ، مخالطين للهند والفرس ، ولا من أزد عُمَان ؛ لمخالطتهم للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلاً ؛ لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولولادة الحبشة فيهم ، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكان الطائف ؛ لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز ؛ لأن الذين نقلوا اللغة ، صادفوه حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب ، قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم . والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء ، وأثبتها فى كتاب ، وصيرّها علماً وصناعة ، هم أهل الكوفة والبصرة فقط ، من بين أمصار العرب » .

كما يقول « ابن خلدون » فى مقدمة كتابه : « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، تحت فصل عنوانه : (فصل فى أن اللغة ملكة صناعية) : « ولهذا كانت لغة قريش ، أفصح اللغات وأصرحها ؛ لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ، ثم من اكتنفهم من ثقيف ، وهذيل ، وخزاعة ، وبنى كنانة ، وغطفان ، وبنى أسد ، وبنى تميم . وأما من بُعد عنهم ، من ربيعة ، ولخم ، وجذام ، وغسان ، وإياد ، وقضاة ، وعرب اليمن

المجاورين للأمم الفرس والروم والحبيشة ، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم ، وعلى نسبة بعدهم من قريش ، كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد ، عند أهل الصناعة العربية» (٧٢) .

وإننا حين نستعرض كل ذلك ، نستطيع أن نرى فيه أساسين ، أو عاملين ، كانا في ذهن أصحاب هذه الروايات :

الأول : كلما قربت القبيلة من بيئة قريش ، كانت أقرب إلى الفصاحة ، وإلى الأخذ بكلامها .

الثاني : على قدر توغل القبيلة في البدواة ، تكون فصاحتها .

وعلى هذا الأساس ، نجد ابن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) يضع فصلاً في كتابه : « الخصائص » بعنوان : « باب في ترك الأخذ عن أهل المدر ، كما أخذ عن أهل الوبر » (٧٣) . والمدر والوبر ، تقابلان : الحضر والبدو ؛ لأن المدر جمع مدرة ، وهى : القرية . وهذا يعنى أن العلماء أخذوا يقسمون اللغة ، إلى لغة حضرية ، وأخرى بدوية ، ويعتنون بالثانية ، ويحتكمون إلى أهلها .

ومما يصدق هذا ، ما رواه السيرافى من قوله : « حدثنا أبو بكر بن دريد ، قال : رأيت رجلاً في الوراقين بالبصرة ، يفضل كتاب (المنطق) ليعقوب بن السكيت ، ويقدم الكوفيين ؛ فقليل للرياشى ، وكان قاعداً في الوراقين ، ما قال ؛ فقال : إنما أخذنا اللغة عن حرسه الضباب ، وأكله اليرابيع ، وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد ، أصحاب الكواميخ ، وأكله الشَّوَارِيز ، أو كلام يشبه هذا » (٧٤) .

ويروى السيوطى عن الأندلسى في شرح المفصل ، أن « الكوفيين

(٧٢) مقدمة ابن خلدون ٦٤٩

(٧٣) انظر : الخصائص ٥/٢

(٧٤) أخبار النحويين ٦٨ ونقله عنه ابن النديم في الفهرست ٩٢ وانظر : الاقتراح ٨٤

لو سمعوا بيتاً واحداً ، فيه جواز شيء مخالف للأصول ، جعلوه أصلاً ، وبَوَّبُوا عليه ، بخلاف البصريين » . كما يروى عنه كذلك أنه قال : « ومما افتخر به البصريون على الكوفيين ، أن قالوا : نحن نأخذ اللغة ، عن حَرْشَةِ الضَّبَابِ ، وأَكَلَةِ الْيَرَّابِيعِ ، وأنتم تأخذونها عن أَكَلَةِ الشَّوَارِيزِ ، وبِاعَةِ الْكَوَاخِ » (٧٥) .

ومن العجيب أن هؤلاء البدو ، لم يكونوا في ثقافة هؤلاء العلماء ، الذين يأخذون اللغة عنهم ، ولكن هؤلاء كانوا يعتقدون أن اللغة تجرى في دمائهم ، ويجهلون أن اللغة أمر مكتسب ، يمكن أن يتقنها غير أهلها ، إذا مارسوها طويلاً منذ المولد .

يقول نولدكه : « ويصلح كل بدو الجزيرة العربية ، باستثناء الأماكن المتطرفة منها ، لأن يُعَدُّوا أصحاب هذه اللغة العربية الصافية ، حتى بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، بمائتي عام . وإن أعلم علماء النحو ، ليجعل من أول شخص قادم من البادية بإبله ، ذلك البدوي الذي لم يتعلم ، والذي لا يحفظ عشرين آية كاملة من القرآن الكريم ، ولا يعرف شيئاً عن مفاهيم النحو النظرية - ذلك البدوي ، يجعل منه النحاة حكماً فاصلاً ، في هل يجوز أن يقال كذا أو كذا في العربية » (٧٦) .

وأعجب من هذا ، أن هؤلاء اللغويين ، خلطوا في جمعهم للنثر ، بين اللغة العربية الفصحى واللهجات ، خلطاً عجيباً . ويقول « أبو حاتم السجستاني » عن « الكسائي » رأس مدرسة الكوفة في النحو واللغة : « وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل ، إلا حكايات عن الأعراب مطروحة ؛ لأنه كان يلقيهم ما يريد » (٧٧) . كما يقول أبو زيد الأنصاري : « قدم علينا الكسائي البصرة ، فلقي عيسى والخليل وغيرهما ، وأخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم

(٧٥) الاقتراح ٨٤

(٧٦) اللغات السامية ٧٦

(٧٧) مراتب النحويين ٧٤ ومعجم الأدباء ١٣/١٩٠

صار إلى بغداد ، فلقى أعراب الحُطَمَة ، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن ، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله ^(٧٨) . وقال ابن درستويه : « كان الكسائي يسمع الشاذ ، الذى لا يجوز إلا فى الضرورة ، فيجعله أصلاً ، فيقيس عليه ، واختلط بأعراب الأبلّة ، فأفسد بذلك النحو » ^(٧٩) .

ومعلوم أن هذه الآراء كلها ، هى آراء البصريين ، الذين يختلفون عن الكوفيين فى منهج البحث ، والمقياس الذى يوضع أساساً للأخذ عن العرب ؛ فقد اختار البصريون قبائل معينة ، للأخذ عنها ، وتركوا ما عداها ، محتجين بفساد لغتها ، وكانوا يسمون لغات هذه القبائل ، باللغات الشاذة التى لا يعمل بها . أما الكوفيون ، فإنهم كانوا يوثقون كل العرب على السواء ، ويعتدون كل ما جاء عنهم حجة ، فيعتدون بأقوالهم ، ويؤسسون عليها نحوهم وقواعدهم .

والواقع أن كلا الفريقين مخطىء فى نظرتهم هذه ، إذا كان الهدف هو وضع قواعد للغة الفصحى ، أو بعبارة أخرى : للغة الأدبية المشتركة بين العرب جميعاً ؛ فلم يكن الفرق بين اللغة المشتركة واللهجات ، واضحاً فى أذهان اللغويين ، فى هذه الحقبة من التاريخ ، وضوحاً تاماً ؛ ولذلك سعى البصريون للأخذ عن قبائل معينة ، وهدفهم هو الوصول إلى تقعيد اللغة الأدبية المشتركة ، غير أنهم لم يفرقوا فيما أخذوه عن هذه القبائل ، بين تلك اللغة المشتركة ، ولهجات الخطاب . ومن هنا جاء الخلط والاضطراب ، ورأيانهم يؤولون كل مثال شذ عن قواعدهم . ولم يكن الكوفيون أقل منهم حظاً فى الاضطراب والخلط ؛ لأنهم أخذوا اللغة عن كل العرب ، ولم يفرقوا كذلك بين اللغة المشتركة ، ولهجات الخطاب

★★★

(٧٨) معجم الأدباء ١٨٢/١٣ وإنباه الرواة ٢٧٤/٢

(٧٩) بغية الوعاة ١٦٤/٢

الفصل الثاني

لولا القرآن ما كانت عربية

نشأت الدراسات العربية بفروعها المختلفة ، متعلقة بالقرآن الكريم ، كتاب الله العزيز ، فكأن القرآن هو المحور ، الذى دارت حوله تلك الدراسات المختلفة ، سواء منها تلك الدراسات ، التى تتعلق تعلقا مباشرا بتفسير القرآن ، وتوضيح آياته ، وتبيين معناه ، واستنباط أحكام الشريعة منه ، أو تلك التى تخدم هذه الأغراض جميعها ، بالبحث فى دلالة اللفظ ، واشتقاق الصيغ ، وتركيب الجمل ، والأسلوب والصور الكلامية ، واختلافها باختلاف المقام ، حتى تلك الدراسات التى تتعلق بالرسم الإملائى ، والفلك ، والرياضة ، واستكناه أسرار الطبيعة . كل هذه الدراسات قامت أساسا ، لخدمة الدين الإسلامى ، ولغرض فهم القرآن الكريم ، مصدر التشريع الإسلامى ، ودستور المسلمين .

فقد « اتصل الدين باللغة ، اتصالا وثيقا فى العصور الإسلامية كلها ، وكان الباعث على اهتمام علماء اللغة ، بجمع الشواهد اللغوية ، وتقعيد اللغة ، باعثة دينيا ، هو ضبط نصوص القرآن الكريم ، وتعليم الطلاب لغة القرآن ، وجرت مناهج التعليم منذ أقدم العصور الإسلامية ، على المزج بين المعارف الدينية واللغوية ، فى الكتابات والمساجد والمجتمعات ، ثم فى المدارس المنظمة فيما بعد . ومن ثم كان اللغوى غالبا رجلا دينيا ، ولا ترى عالما من علماء اللغة القدامى ، إلا كان مقرئا ، أو مفسرا ، أو محدثا ، أو متكلميا ، أو فقيها »^(١) .

(١) المدخل إلى دراسة النحو العربى ١٠٢

ولقد كان هذا الأمر واضحاً ، في نظر كثير من المستشرقين ؛ ففي رأى نولدكه مثلاً « أن العربية ، لم تصر لغة عالمية حقاً ، إلا بسبب القرآن والإسلام ؛ إذ تحت قيادة قريش ، فتح البدو سكان الصحراء ، نصف العالم لهم وللإيمان ؛ وبهذا صارت العربية لغة مقدسة كذلك »^(٢) ، فأجهد العلماء أنفسهم في دراستها ، واستكناه أسرارها ؛ ليقفوا على مواطن الإعجاز في كتاب الله العزيز .

وقد عرفنا من قبل أن القرآن الكريم ، نزل بلغة فصحي ، تعلو عن مستوى العامة من العرب ؛ ولذلك أخذ الناس في الصدر الأول للإسلام ، يسألون كبار الصحابة ، عن تفسير آياته ، وغريب ألفاظه . وتحدثنا الروايات الإسلامية ، بأن الصحابي المشهور « عبد الله بن عباس » ، كان يُسأل عن معنى ألفاظ معينة من القرآن الكريم ، فيفسرها للناس ، ويستشهد على تفسيرها بأبيات من الشعر العربي .

وقد جمعت هذه الأسئلة وإجاباتها ، في كتاب مستقل ، باسم : « سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس » ، نشره الدكتور إبراهيم السامرائي ، ببغداد سنة ١٩٦٨ م ، كما ذكرها السيوطي ، في النوع السادس والثلاثين ، من كتابه : « الإتيقان في علوم القرآن »^(٣) .

ويبدأ الكتاب بالعبارات التالية : « بينا عبد الله بن عباس ، جالس بفناء الكعبة ، قد أسدل رجله في حوض زمزم ؛ إذ الناس قد اكتنفوه من كل ناحية ، يسألونه عن تفسير القرآن ، وعن الحلال والحرام ، وإذا هو لا يتعابى بشيء يسألونه عنه ، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر : قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن ، والفتيا بما لا علم له به ، فقاما إليه فقالا ... نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله عز وجل ، فتفسره

(٢) اللغات السامية ٧٩

(٣) وانظر بعضها في الكامل للمبرد ٢٢٢/٣ - ٢٢٨ وإيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنباري

لنا ، وتأتينا بمصداقه من كلام العرب ؛ فإن الله عز وجل ، إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين . قال ابن عباس : سلاني عما بدا لكما ، تجدا علمه عندي حاضرا ، إن شاء الله تعالى . فقالا : يا ابن عباس ، أخبرنا عن قول الله عز وجل : (عن اليمين وعن الشمال عزين) ! قال : عزين : حلق الرفاق . قالوا : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص ، وهو يقول :

فجاءوا يُهَرَّغُونَ إليه حتى

يكونوا حَوْلَ مِنْبَرِهِ عَزِينَا ؟

قال نافع : يا ابن عباس ، أخبرني عن قول الله عز وجل : (وابتغوا إليه الوسيلة) ! قال : الوسيلة : الحاجة . قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عنتره العبسي ، وهو يقول :

إِنَّ الرُّجَالَ لَهُم إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ

إِنْ يَأْخُذُوكِ تَكْحَلِي وَتَخْضَبِي ؟

وهكذا يمضى نافع يسأل ، وابن عباس يفسر ، ويستشهد على تفسيره بيت من الشعر ، على النحو الذى أسلفنا ، فى حوالى مائتين وخمسين موضعا من القرآن الكريم .

وبذلك يمكننا أن نعد تفسير ابن عباس للقرآن ، على هذا النحو ، نواة للمعاجم العربية ؛ فقد بدأت الدراسة فى هذا الميدان ، من ميادين اللغة ، بالبحث عن معانى الألفاظ الغريبة فى القرآن الكريم ؛ ولذلك نجد التأليف الأولى فى المعاجم ، كانت تحمل اسم : « غريب القرآن » . وأقدم مؤلف يحمل هذا الاسم ، هو لأبى سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكرى (المتوفى سنة ١٤١ هـ) ؛ يقول عنه ياقوت : « وصنف كتاب الغريب فى القرآن الكريم ، وذكر شواهد من الشعر » (٤) .

وقد شعر العلماء ، منذ الصدر الأول للإسلام ، بحاجتهم إلى الشعر العربي ، للاستعانة به ، في فتح مغاليق الألفاظ ، والأساليب الغريبة الموجودة في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، فأكبوا عليه يروونه ، ويحفظونه ، ويدرسون أساليبه ومعانيه ، وما يدور فيه من ذكر لأيام العرب ووقائعهم . ولولا هذا الباعث الديني ، لاندثر الشعر الجاهلي ، ولم يصل إلينا منه شيء .

وهذا أبو حاتم الرازي يقول ، مصداقا لذلك : « ولولا ما بالناس من الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن ، وأحاديث رسول الله ﷺ ، والصحابة والتابعين ، والأئمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء ، ولعفى الدهر على آثارهم ، ونسى الناس أيامهم »^(٥) .

ويقول ابن عباس : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن ، الذي أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه »^(٦) ، كما يقول : « إذا سألتوني عن غريب القرآن ، فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب »^(٧) ، ويقول كذلك : « إذا قرأتم شيئا ، فلم تدروا ما تفسيره ، فالتمسوه في الشعر ، فإنه ديوان العرب »^(٨) ، ويقول أيضا : « إذا أشكل عليكم الشيء من القرآن ، فارجعوا فيه إلى الشعر ، فإنه ديوان العرب »^(٩) .

وهكذا نرى أن دراسة القرآن الكريم ، كانت من دواعي الاهتمام بالشعر ، كما كانت أحد الأسباب التي أسهمت في نشأة المعاجم العربية .

(٥) الزينة ، للرازي ١١٦/١

(٦) إيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنباري ١٠٠ والإتقان ، للسيوطي ١١٩/١

(٧) الإتقان ، للسيوطي ١١٩/١

(٨) أدب الإملاء والاستملاء ، للسمعاني ٧١

(٩) الفاضل ، للمبرد ١٠

أما إذا نظرنا إلى النحو العربى ، فإننا نجد أن الغيرة على القرآن الكريم ، وصونه من التحريف على ألسنة الأعاجم ، كانت السبب فى وضع قواعده . وتروى لنا الأخبار أن أبا الأسود الدؤلى ، كان أول من وضع النحو ، وأن السبب فى ذلك أنه سمع قارئاً يقرأ : « أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » ، بكسر اللام من : « رسوله » ، فغضب لذلك ، وكان هذا حافزاً له على وضع مبادئ النحو^(١٠) .

ويقول ابن خلدون فى ذلك : « وخشى أهل العلوم منهم ، أن تفسد تلك الملكة رأساً ، ويطول العهد بها ، فينغلق القرآن والحديث على الفهم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم ، قوانين لتلك الملكة مطردة ، شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام »^(١١) ، كما يقول : « فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتابة والتدوين ، خشية الدروس ، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ؛ فشمروا كثير من أئمة اللسان لذلك ، وأملوا فيه الدواوين »^(١٢) ، ويقول كذلك : « وإنما وقعت العناية بلسان مضر ، لما فسد بمخالطتهم الأعاجم ، حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب ، وصارت ملكته على غير الصورة التى كانت أولاً ، فانقلب لغة أخرى ، وكان القرآن متنزلاً به ، والحديث النبوى منقولاً بلغته ، وهما أصلاً الدين والملة ، فخشى تناسيهما ، وانغلاق الأفهام عنهما ، بفقدان اللسان الذى تنزلاً به ، فاحتيج إلى تدوين أحكامه ، ووضع مقاييسه ، واستنباط قوانينه »^(١٣) .

أما دراسة الأسلوب ، أو ما عرف عند العلماء فيما بعد ، بعلوم

(١٠) انظر فى هذا الخبر : مراتب النحويين ، لأبى الطيب ٨ وأخبار النحويين البصريين للسيرافى ١٢ ونور القيس المختصر من المقتبس ، للمرزبانى ٤ والفهرست لابن النديم ٦٦ ونزهة الألباء ٣ وإنباه الرواة للقفطى ٥/١

(١١) المقدمة ، لابن خلدون ٦٣٩

(١٢) المقدمة ، لابن خلدون ٦٤١

(١٣) المقدمة ، لابن خلدون ٦٥١

البلاغة ، وهي علوم البيان والمعاني والبديع ، فتذكر المصادر العربية ، أن أبا عبيدة معمر بن المثنى ، كان من أوائل من ألف فيها ، وغايته توضيح الأساليب القرآنية ؛ يقول ياقوت : « قال أبو عبيدة : أرسل إلى الفضل بن الربيع ، إلى البصرة ، في الخروج إليه ، سنة ثمان وثمانين ومائة ، فقدمت إلى بغداد ، واستأذنت عليه ، فأذن لي فدخلت عليه ... ثم دخل رجل في زِيَّ الكُتَّاب ، له هيئة ، فأجلسه إلى جانبي ، وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه ، فدعا له الرجل وقرّظه لفعله هذا ، وقال لي : إني كنت إليك مشتاقا ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرفك إياها ؟ فقلت : هات . قال : قال الله عز وجل : (طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) ، وإنما يقع الوعد والإيعاد ، بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف ! فقلت : إنما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي
وَمَسْنُونَةُ زُرْقٍ كَأَيَّابٍ أَغْوَالِ

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم ، أوعدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن ، في مثل هذا وأشباهه ، وما يحتاج إليه من علمه ، فلما رجعت إلى البصرة ، عملت كتابي الذي سميته : المجاز ^(١٤) .

والرسم الإملائي لا شك قديم ، وسابق للوقت الذي أنزل فيه القرآن ، غير أن العناية بالقرآن الكريم ، وصيانته من اللحن ، هي التي دعت العلماء في الصدر الأول ، إلى البحث عن طريقة ، تعصم من يتلو القرآن الكريم ، من الوقوع في اللحن ، حين القراءة من المصحف ، بسبب خلوه من رموز الحركات . وتنسب الروايات الإسلامية ، إلى أبي الأسود الدؤلي ، أنه كان أول من فكر في وضع رموز للحركات ، يضبط بها الرسم

القرآنى ، الذى كان يخلو من هذه الرموز ؛ فيروى عن المبرد أنه قال : « لما وضع أبو الأسود الدؤلى النحو ، قال : ابغوا لى رجلا ، وليكن لقنأ ، فطلب الرجل ، فلم يوجد إلا فى عبد القيس ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتنى لفظت الحرف ، فضممت شفتى ، فاجعل أمام الحرف نقطة ، فإذا ضممت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتنى قد كسرت شفتى ، فاجعل أسفل الحرف نقطة ، فإذا كسرت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتنى قد فتحت شفتى ، فاجعل على الحرف نقطة ، فإذا فتحت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين » (١٥) .

وكانت نقط الشكل هذه ، تكتب بصبغ يخالف لون المداد ، الذى كتبت به الحروف ونقطتها ، فكان ذلك يشق على الكاتب ؛ إذ كان يتحتم أن يكتب بقلمين ومدادين مختلفين ، حتى جاء الخليل بن أحمد ، فوضع الشكل الذى يكتب به حتى الآن ؛ يقول المبرد : « الشكل الذى فى الكتب من عمل الخليل ، وهو مأخوذ من صور الحروف ، فالضمة واو صغيرة الصورة فى أعلى الحرف ؛ لئلا تلتبس بالواو المكتوبة ، والكسرة ياء تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف » (١٦) .

ومع أن الخليل بن أحمد ، قد وضع هذا الشكل المريح ، فإن العلماء غبروا زماناً طويلاً ، لا يجرون على استخدامه فى ضبط النص القرآنى ، ويفضلون عليه النقط اتباعاً للسلف ، ويسمون ضبط الخليل شكل الشعر ، وكل ذلك لصيانة القرآن الكريم ، عن أن يتعاوره المتعاورون بالتبديل والتغيير ؛ يقول أبو عمرو الدانى : « وترك استعمال شكل الشعر ، وهو الشكل الذى فى الكتب ، الذى اخترعه الخليل ، فى المصاحف الجامعة من الأمهات وغيرها ، أولى وأحق ، اقتداء بمن ابتدأ النقط من التابعين ، واتباعاً للأئمة السالفين » (١٧) .

(١٥) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٦ وإيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنبارى ٤٠ - ٤١

(١٦) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٧

(١٧) المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٢٧

كل هذه العلوم وغيرها ، مما تفرع عنها ، قام أساساً لخدمة الدين الإسلامي ، ولغرض فهم القرآن الكريم ، فإذا كان القرآن يأمر بالصلاة والصيام والحج ، وهذه العبادات لها أوقات محددة ، تحكمها مسيرة الكواكب في الفلك ، فلا بد من متابعة الاهتمامات الفلكية ، التي ضرب فيها العرب بسهم وافر في الجاهلية . وإذا كان الميراث ، وشرعيته في الإسلام ، يقتضى معرفة بالحساب ، وإماما بالمسائل الرياضية المختلفة ، فلا غرو إذا وجدنا هذا العلم ، ضمن العلوم ، التي اهتم بها علماء المسلمين .

وإذا كان القرآن الكريم ، يحض المسلمين على النظر في الكون ، وآياته المتعددة ، فإن الاشتغال بالعلوم الطبيعية وما يتصل بها ، مما يزيد المسلم وعقيدته ثباتاً ورسوخاً ، حين يرى في كل وقت ، آيات الله الباهرة ، تنطق بعظمة الخالق وقدرته . وصدق الله تعالى ، حيث يقول : « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ » .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم ، كان محوراً لجميع الدراسات العربية ، التي قامت في الأساس لخدمته ، ومن بينها الدراسات اللغوية ، ولولاه لاندثرت اللغة العربية الفصحى ، وأصبحت لغة أثرية ، تشبه اللاتينية ، أو السنسكريتية . وقد صدق العلامة ابن خلدون ، حين قال : « تختلف لغة العرب لعهدنا ، مع لغة مضر ، إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما قلنا ، حمل على ذلك الاستنباط والاستقراء ، وليس عندنا لهذا العهد ، ما يحملنا على مثل ذلك ، ويدعوننا إليه » (١٨) .

الفصل الثالث

ألقاب اللهجات العربية

عرفنا فيما مضى أن اللغة العربية الفصحى ، ليست لغة قريش ، ولا لغة غيرها من القبائل العربية ، وإنما هي اختيار لا شعورى من لغة هؤلاء وهؤلاء ، حدث من احتكاك كثير من أفراد هذه القبائل ، فى مواسم الحج والتجارة ، والأسواق الأدبية المختلفة ، فنتج عن هذا الاحتكاك الكبير بين القبائل ، ذلك الكيان اللغوى ، الذى عرفناه باسم اللغة الفصحى ، وهى اللغة المشتركة بين أدباء هذه القبائل جميعا ، ينظمون بها شعرهم ، ويعبرون بها عما يجيش فى صدورهم فى ساعات الجد ، كمواقف الخطابة مثلا .

ومع كل هذا ، يمكننا القول بأن لهجة قريش ، تضرب فى مميزات هذه اللغة الفصحى ، بسهم وافر ؛ إذ لم يُرَوَ لنا عن هذه اللهجة ، شىء يخالف ما نعرفه عن العربية الفصحى ، إلا القليل ، ومنه أنها لم تكن تهمز فى كلامها . وقد اختارت الفصحى ظاهرة الهمز ، من اللهجات النجدية كلهجة تميم وغيرها .

ولذلك لا نعجب ، حين نرى بعض اللغويين العرب ، يجعل العربية الفصحى مرادفة للهجة قريش ؛ فيقول ابن فارس مثلا : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم ، أن قريشا أفصح العرب السنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه ، اختارهم من جميع العرب ، واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمدا ﷺ ، فجعل قريشا قُطَّانَ حرمة ، وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب ، من حجاجها وغيرهم ، يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون

إلى قريش في أمورهم ... وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب ، تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات ، إلى نحائزهم وسلائقهم ، التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب «^(١) .

كما يروى السيوطي عن الفراء أنه قال : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحج البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات جميع العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغاتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ »^(٢) .

وقد درج اللغويون العرب ، على تلقيب كثير من اللهجات العربية ، بلقب يدور في مؤلفاتهم ، ويحاولون شرح تلك الألقاب ، فيغمض بعضهم ، ويختلفون فيما بينهم في عزو هذا اللقب أو ذاك ، إلى هذه القبيلة أو تلك .

وأغلب الظن ، أن العرب لم تكن تعرف هذه الألقاب للهجاتها في الجاهلية ، وأن المسئول عن تلقيب كل لهجة بلقب معين ، هو رجل من « جَرْم » لم تذكر المصادر اسمه ، وكان ذلك في مجلس من مجالس معاوية ابن أبي سفيان . وأقدم أخبار هذا المجلس ، يرويه الجاحظ ؛ فيقول : « وقال معاوية يوما : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات ، وتيامنوا عن كسكسة بكر ، ليست لهم غمغمة قضاة ، ولا طمطمانيه حمير . قال : من هم ؟ قال : قريش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جرم . قال : اجلس »^(٣) .

وتختلف المصادر بعد ذلك في رواية الخبر ، من حيث عدد القبائل

(١) الصاحبى ٥٢ وعنه باختصار في الزهر ٢١٠/١

(٢) الاقتراح ٨٣ والزهر ٢٢١/١

(٣) البيان والتبيين ٢١٢/٣

التي ذكرت فيه ، والألقاب التي نسبت إليها ؛ فهذا ابن عبد ربه مثلاً ، يروى عن الأصمعي أنه قال : « قال معاوية : أى الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط : يا أمير المؤمنين ، قوم ارتفعوا عن رُثَّة العراق ، وتياسروا عن كسكسة بكر^(٤) ، وتيامنوا عن شنشنة تغلب ، ليست لهم غمغمة قضاة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال : صدقت ، فممن أنت ؟ قال : من جرم . قال الأصمعي : وجرم فصحي العرب^(٥) . »

كما يروى الحريري عن الأصمعي « أن معاوية قال ذات يوم لجلسائه : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط ، فقال : قوم تباعدوا عن عننة تميم ، وتلتله بهراء ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة بكر ، وليس فيهم غمغمة قضاة ، ولا طمطمانية حمير . فقال : من أولئك ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين^(٦) . »

كما يقول أبو الحجاج البلوى : « ويروى أن معاوية قال يوماً : أى الناس أفصح ؟ فقام رجل من السماط ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قوم ارتفعوا عن فرائية العراق ، وتياسروا عن كسكسة بكر^(٧) ، وتيامنوا عن عننة تميم ، وليس فيهم غمغمة قضاة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قومك قريش^(٨) . »

ومع اختلاف هذه الروايات السابقة ، في عدد القبائل والألقاب ، ونسبة هذه الألقاب إلى القبائل ، فإنها تتفق جميعاً في أن قريشا هي القبيلة الفصحى ، وهى التي تباعدت عن الاتصاف بهذه الألقاب المذكورة ، في تلك الروايات .

(٤) في الأصل : « كشكشة بكر » وهو تصحيف .

(٥) العقد الفريد ٤٧٥/٢ ، ٣٢٠/٣

(٦) درة الغواص ١١٤ وعنهما في خزنة الأدب ٥٩٦/٤

(٧) في الأصل : « كشكشة بكر » وهو تصحيف .

(٨) ألف باء للبلوى ٤٣٢/٢

ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا المبرد ، الذى روى فى هذا الخبر ، أن جرماً - قبيلة الرجل المتحدث أمام معاوية - هى الفصحى ، ولم يرد فى روايته ذكر لقريش مطلقاً ؛ فيقول : « وحدثنى من لا أحصى من أصحابنا عن الأصمعى ، عن شعبة ، عن قتادة ، قال : قال لى معاوية يوماً : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السماط ، فقال : قوم تباعدوا عن فراتية العراق ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكسة بكر ، ليس فيهم غمغمة قضاة ، ولا طمطمانيه حمير . فقال له معاوية : من أولئك ؟ فقال : قومى يا أمير المؤمنين ، فقال له معاوية : من أنت ؟ قال : أنا رجل من جرم . قال الأصمعى : وجرم من فصحاء الناس^(٩) . »

ولكن من يدري ؟ فلعلها رواية واحدة ، أصابها التحريف ، فى قوله : « قومى يا أمير المؤمنين » ، بدلا من : « قومك يا أمير المؤمنين » !

وقد روى ثعلب هذا الخبر ، ملخصا إياه مما دار فى مجلس معاوية - فيما يبدو - فقال : « ارتفعت قريش فى الفصاحة عن عننة تميم ، (وتلتله بهراء) ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ، وتضعج قيس ، وعجرفية ضبة^(١٠) . »

ونلاحظ فى كلام ثعلب زيادة فى هذه الألقاب ، وخلافا فى نسبة بعضها إلى القبائل ، كما حدث فى الروايات السابقة تماما ، وكما هى عادة كثير من كتب اللغة والأدب ، فى عدّ هذه الألقاب وتفسيرها .

وقد جمعنا ما عثرنا عليه فى بطون الكتب اللغوية والأدبية ، ونسقناه وعرضناه على ما توصل إليه علم اللغة الحديث من نتائج ، كما عرضناه

(٩) الكامل للمبرد ٢٢٣/٢ وعنه فيما يبدو فى شرح المفصل لابن يعيش ٤٨/٩

(١٠) مجالس ثعلب ٨٠/١ وعنه فى سر صناعة الإعراب ٢٣٤/١ والخصائص ١١/٢ والمزهر ٢١١/١

وخزانة الأدب ٤٩٥/٤

على ما وصل إلى علمنا من خصائص اللهجات العربية الحديثة ، في شتى البلاد العربية .

ونبادر هنا فنقول : إن نسبة هذا اللقب أو ذاك ، إلى قبيلة من القبائل ، في أحد المراجع العربية ، ونسبته إلى قبيلة أخرى في مرجع آخر ، لا تعنى بالضرورة أن هناك تعارضا بين المرجعين ، في هذه النسبة ؛ إذ قد تنتشر الظاهرة اللغوية أحيانا ، بين مجموعة من القبائل ، فيرى كل لغوى ما بلغه منها ، تماما كما لو قلت الآن : إن ظاهرة الكشكشة ، موجودة في بعض قرى محافظة الشرقية في مصر ؛ لأننى سمعت ذلك بنفسى . وقال مؤلف آخر : إن هذه الظاهرة توجد في جنوبى العراق والكويت ؛ لأنه سمع ذلك بنفسه هناك ، فلا تعارض بين قولى وقوله ، بل إن كل واحد منهما يكمل الآخر .

وفيما يلى نعالج هذه الألقاب ، مرتبين إياها ترتيبا هجائيا :

١ - الاستنطاء : روى هذا اللقب عن لهجة « سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار^(١١) » ، كما روى أنه « لغة أهل اليمن^(١٢) » . وهو عبارة عن جعل العين الساكنة نونا ، إذا جاورت الطاء ، هكذا تقول المصادر ، غير أنها لم تمثل له إلا بمثال واحد ؛ وهو : « أنطى » بدلا من : « أعطى » .

ومن شواهده : القراءة القرآنية : « إنا أنطيناك الكوثر^(١٣) » ، وحديث الدعاء : « لا مانع لما أنطيت ، ولا منطى لما منعت » ، وحديث : « اليد المنطية خير من اليد السفلى^(١٤) » . ومنه قول الأعشى :

(١١) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢٢/١ وانظر مميزات لغات العرب ١٣

(١٢) النهاية لابن الأثير ٧٦/٥ والفائق للزنجشیری ٨/١ ولسان العرب (نطا) ٢٠/٢٠٦

(١٣) سورة الكوثر ١/١٠٨ وهى قراءة الحسن وطلحة بن مصرف . انظر تفسير القرطبي ٢٠/٢١٦

(١٤) النهاية لابن الأثير ٧٦/٥

جِيَادُكَ فِي الْقَيْظِ فِي نَعْمَةٍ
تُصَانُ الْجِلَالُ وَتُنْطَى الشَّعِيرُ^(١٥)

وهذا الإبدال شائع في كلمة : « أعطى » ، حتى اليوم في العراق ، وقد سمعت ذلك من كثير من طلبتي العراقيين ، كما أنه « شائع في لغة الأعراب بصحارى مصر^(١٦) » .

« والتوزيع الجغرافى لمواطن النطق بالصيغة : (أنطى) قديما وحديثا ، يبين أنها كانت توجد على طرق القوافل ، من الجنوب إلى الشمال ، ومن ثم فإن احتمال انتقال هذه الصيغة من الجنوب ، أى من بلاد اليمن ، على طول طريق رحلتى الشتاء والصيف ، احتمال مقبول^(١٧) »

والحقيقة أن « الاستنطاء » ليس ظاهرة عامة ، عند القبائل التى رُوى عنها ، فى كل عين ساكنة تجاور طاء ، كما تقول المصادر العربية ، وإنما هو خاص بكلمة : « أعطى » وحدها .

وتفسير هذه الظاهرة ، بأن العين قلبت نونا ، تفسير لا تؤيده الدراسات الصوتية الحديثة ؛ لأن العين تختلف اختلافا كبيرا ، من الناحية الصوتية ، عن النون . ومن المعروف أن الصوت لا يقلب إلى صوت آخر ، إلا إذا كان بين الصوتين نوع من القرابة الصوتية فى المخرج والصفة . وقد فطن إلى هذا اللغويون العرب أنفسهم ؛ يقول ابن جنى : « القلب فى الحروف ، إنما هو فيما تقارب منها ؛ وذلك : الدال والطاء والتاء ، والدال والظاء والتاء ، والهاء والهمزة ، والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت مخارجهما فأما الحاء فبعيدة عن التاء ، وبينهما تفاوت يمنع من قلب إحداهما إلى أختها^(١٨) » .

(١٥) الإبدال لأبى الطيب ٣١٨/٢ وفى ديوانه ق ٤٩/١٢ ص ٩٩ : « وتعطى » !

(١٦) مميزات لغات العرب ١٣

(١٧) العربية ولهجاتها ٥١

(١٨) سر صناعة الإعراب ١٩٧/١

ولولا هذا البعد الصوتي ، لحدث الإبدال عند القبائل ، التي روى عنها الاستنطاء ، في كلمات كثيرة ، وقعت فيها العين ساكنة قبل الطاء ؛ مثل « يَعْطِب » و « مَعْطِير » و « يَعْطُس » و « يَعْطَش » و « يَعْطَل » و « يَعْطَن » و « يَعْطُو » ، وغير ذلك من الأمثلة .

ولكن المصادر العربية ، لم ترو لنا إلا كلمة : « أنطى » في « أعطى » وهو ما نعرفه اليوم في اللهجات الحديثة ، كما سبق أن عرفنا . فما السر الحقيقي إذن في ورود هذه الكلمة عن بعض القبائل العربية ؟ إننا إذا رجعنا إلى اللغات السامية ، لنبحث فيها عن مقابلة كلمة : « أعطى » ، وجدنا في العبرية אָטַח أى نون وتاء ونون . وفي السريانية في المضارع ܐܬܚܐ مع إدغام النون الأولى في التاء ، والنون الثانية في لام الجر . ولعل ما حدث في لغة هذه القبائل ، التي روى عنها الاستنطاء ، هو عملية نحت لما في هاتين اللغتين واللغة العربية ، فأخذ فاء الفعل من العبرية والسريانية ، وبقيت عينه ولامه كما هما في العربية . وقد حدث مثل ذلك في كلمة : « يمامة » العربية ، فهي منحوثة من كلمة : ܝܡܡܐ السريانية ، وهي تبدأ بالياء ، وكلمة : « حمامة » في العربية .

ويريد « راين » أن يربط هذا الفعل : « أنطى » بالفعل אָטַח في العبرية ، في عبارات مثل אָטַח בְּיָדוֹ بمعنى مده يده إلى = أخذ ، أو يوجد علاقة بينه وبين الفعل العربى : « أمطى الظهر » ، بمعنى : أعطاه مطية ، وما يماثل ذلك في الحبشية والأمهرية^(١٩) .

ويفسر الدكتور إبراهيم السامرائى هذه الظاهرة ، تفسيراً عربياً خالصاً ؛ فيقول : « وملاك الأمر في هذه النون ، أنها لم تكن مقابلة للعين في : أعطى ؛ وإنما جاءت من أن الفعل كان : (آتى) ، بمعنى : (أعطى) ، ثم ضعف الفعل فصار : (أتى) بتشديد التاء . ومعلوم

(١٩) Ancient West Arabian, p. 32 وعنه بغير تصريح في : العربية ولهجاتها ٥١

أن فك الإدغام في العربية وفي غيرها من اللغات السامية ، يقتضى إبدال النون بأحد الحرفين المتجانسين ، كما نقول في العربية : (جَنْدَل) ، وهى من : (جَدَل) ، بتشديد الدال . وهذا كثير معروف^(٢٠) .

٢ - التَضْجَع : يعزى هذا اللقب إلى قبيلة : « قيس » في خبر الرجل الجرمي السابق ، في رواية انفرد بها ثعلب ، ورواها عنه بعض من جاء بعده من اللغويين^(٢١) ، ولم يفسره أو يشرح المراد به واحد منهم .

والتَضْجَع في اللغة : مصدر « تَضْجَع في الأمر ، إذا تَقَعَّد ولم يقم به^(٢٢) » . ولعل المراد بتضجع قيس على هذا : تباطؤها أو تراخيها في الكلام ، وتَقَعُّدها فيه ، كما يفهم من المعنى اللغوي لكلمة التَضْجَع^(٢٣) .

وفي اللغة : الإِضْجَاع في الحركات ، بمعنى : الإِمالة فيها^(٢٤) ؛ وهو بهذا المعنى من اصطلاحات كتب النحو^(٢٥) ، والقراءات^(٢٦) . غير أن الإِمالة لا تعزى في كتب اللغة إلى « قيس » وحدها ؛ حتى يمكن تفسير « تضجع قيس » بإِضْجَاع الحركات ، وإنما يشاركها فيه تميم وأسد ، وعامة أهل نجد^(٢٧) .

(٢٠) دراسات في اللغة للسامرائى ٢١٧ وانظر كذلك عنده الهامش رقم ٨ في صفحة ٧٧

(٢١) مجالس ثعلب ٨٠/١ وعنه في سر صناعة الإعراب ٢٣٤/١ والخصائص ١١/٢ والمزهر ٢١١/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤

(٢٢) انظر : لسان العرب (ضجع) ٨٩/١٠

(٢٣) وانظر أيضا : Ch.Rabin,Ancient West Arabian 104,36 ويظن أنستاس الكرملى

أن المراد بالتضجع ، هو كسر حرف المضارعة ، وهو ما يسمى كذلك بالتثنية . انظر مقاله عن : « اللغات واللشعات » ص ٥٣

(٢٤) لسان العرب (ضجع) ٩٠/١٠ : « والإِضْجَاع في باب الحركات ، مثل الإِمالة والحفض » .

ولكن انظر : مفاتيح العلوم ١٤/٣٠

(٢٥) انظر شرح الأشمونى على الألفية ٢٢٠/٤ والإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجى ٢٧

(٢٦) انظر : النشر في القراءات العشر ٣٠/٢ وإتحاف فضلاء البشر ٤٧

(٢٧) انظر مثلاً : همع الهوامع للسيوطى ٢٠٤/٢

٣ - التثنية : هذه الظاهرة عبارة عن كسر حرف المضارعة ؛
 فيقال : أنا أعلم ، ونحن نعلم ، وأنت تعلم ، وهو يعلم ، وما إلى ذلك .
 وهى لقب لقبيلة : « بهراء » ، كما يذكر كثير من المصادر العربية^(٢٨) .
 وعزاها صاحب لسان العرب ، إلى كثير من القبائل العربية ؛ فقال :
 وتعلم ، بالكسر ، لغة قيس ، وتميم ، وأسد ، وربيعة ، وعامة العرب . وأما
 أهل الحجاز ، وقوم من أعجاز هوازن ، وأزد السراة ، وبعض هذيل ؛
 فيقولون : تعلم ، والقرآن عليها . وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من
 الأعراب ، لم يقل إلا تعلم ، بالكسر^(٢٩) . ويقول الفراء : إن النون في
 نستعين « مفتوحة في لغة قريش ، وأسد وغيرهم يكسرها^(٣٠) » .

وقد جاءت هذه الظاهرة ، في رجز الحكيم بن مَعِيَّة الرُبْعِي ، وهو :
 لَوْ قُلْتُ مَا فِي قَوْمِهَا لَمْ تَيْثَمِ
 يَفْضُلُهَا فِي حَسَبٍ وَمِيسَمِ^(٣١)
 أى « لم تأثم » ، التى صارت بعد كسر حرف المضارعة : « تَيْثَمِ » ،
 وخففت الهمزة فصارت : « تَيْثَمِ » ، كما فى البيت .

وقد روى ابن جنى بيتا عن أعرابى ، من بنى عُقَيْل ، كسر فيه الهمزة
 فى الفعل : « أخاف » ؛ فقال : وأنشدنى عُقَيْلِي فصيح لنفسه :
 فَقَوْمِي هُمْ تَمِيمٌ يَا مُمَارِي
 وَجُوثَةُ مَا إِخَافُ لَهُمْ كِتَارَا
 فكسر الهمزة من : إَخَافُ^(٣٢) .

(٢٨) مجالس ثعلب ٨١/١ وعنه فى الخصائص ١١/٢ وسر صناعة الإعراب ٢٣٥/١ ودرة الغواص ١١٤
 وخزانة الأدب ٥٩٦/٤ ومميزات لغات العرب ٢١

(٢٩) لسان العرب (وقى) ٢٨٣/٢٠

(٣٠) الصاحبى لابن فارس (نشرة الشويبى) ٤٨ وفيه : « فى لغة قيس » وهو تحريف . والصواب ما فى
 نشرة السيد صقر ٢٨ والمزهر ٢٥٥/١ عن ابن فارس . وقد وقع راين (Ancient, p.61) فى وهم آخر ، حين
 عطف « أسدا » على « قريش » فى هذا النص !

(٣١) خزانة الأدب ٣١١/٢ وتهذيب الألفاظ ٢٠٧

(٣٢) المنصف ٣٢٢/١

كما روى ابن الأنباري بيتا للمرار ، كسر فيه التاء من « تعلم » ،
في قوله :

قَدْ تَعْلَمُ الْخَيْلُ أَيَّاماً تُطَاعِنُهَا

مِنْ أَى شِنْشِنَةٍ أَنْتَ ابْنُ مَنْظُورٍ
وقال بعده : « قال أبو بكر : قال أبي : أنشدني أبو جعفر : قد تعلم ،
بكسر التاء ، وقال : هي لغة بني أسد ؛ يقولون : يعلم وإعلم ونعلم .
ومثله كثير (٣٣) » .

وهذه الظاهرة سامية قديمة ، توجد في العبرية (٣٤) ، والسريانية (٣٥) ،
والحبشية (٣٦) . والفتح في أحرف المضارعة ، حادث في رأيي ، في العربية
القديمة ؛ بدليل عدم وجوده في اللغات السامية الأخرى ، وبدليل ما بقي
من الكسر في بعض اللهجات العربية القديمة .

وهناك دليل ثالث ، على أصالة الكسر في حروف المضارعة ، وهو
استمراره حتى الآن في اللهجات العربية الحديثة كلها ؛ إذ نقول مثلاً :
« مين يقرأ ومين يسمع » بكسر حرف المضارعة ، في لغة التخاطب
اليومية . ولم يبق فتح حرف المضارعة في اللهجات الحديثة ، فيما أعلم ،
إلا في لهجة نجد ، إذا كانت فاء المضارع ساكنة ، مثل : يرمى ،
ويَلْعَب ، ويرْكُض . ولا يكسر حرف المضارعة ، في هذه اللهجة ، إلا إذا
كان ما بعده متحركاً ؛ مثل يسُوق ، ويسَاق ، ويلَكم ، ويهاوش ، وغير
ذلك .

وقد بقيت بعض آثار هذا القديم ، في العربية الفصحى نفسها ،
في بعض الأمثلة ؛ إذ يكسر في الفصحى حرف المضارعة في : « إخال »

(٣٣) الفضليات ٢٠

(٣٤) انظر : Gesenius, Hebräische Grammatik, S. 133

(٣٥) انظر : Brockelmann, Syrische Grammatik, S. 85

(٣٦) انظر : Praetorius, Aethiopische Grammatik, S. 48

بمعنى : « أظن » في كثير من النصوص التي وصلت إلينا . ومن شواهد
قول أبي ذؤيب الهذلي :

فَعَبَّرْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيثِ نَاصِبٍ
وَإِخَالُ أَلَى لَاحِقٌ مُسْتَبِيعٌ^(٣٧)

وقول العباس بن مرداس :

قَدْ كَانَ قَوْمُكَ يَحْسَبُونَكَ سَيِّدًا
وَإِخَالُ أَنْكَ سَيِّدٌ مَعِينٌ^(٣٨)

وقول زهير بن أبي سلمى :

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَذْرِي
أَقْـوَمُ آلِ حِصْنِ أُمِّ نِسَاءٍ^(٣٩)

وقول كعب بن زهير :

أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَذُنُو مَوَدَّتِهَا
وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ^(٤٠)

وهذا ما أسميه أنا : « الركام اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة »^(٤١) . ومعناه
أن الظاهرة اللغوية ، قبل أن تموت ، قد تبقى منها أمثلة ، تعين على معرفة
الأصل .

٤ - الرُّتَّة : لم يرد هذا اللقب ، في خبر الرجل الجرمي ،
إلا في رواية العقد الفريد ، وهو فيه منسوب إلى العراق .

والرُّتَّة في معاجم اللغة^(٤٢) ، تطلق على أحد أمرين ؛ أحدهما عام ،
وهو : « عجلة في الكلام وقلة أناة » . والثاني : عيب من عيوب النطق
وأعراض الكلام ، وهو : « أن يقلب المتكلم اللام ياء » ، وهو أمر فردي

(٣٧) ديوان الهذليين ٨/١ والمنصف لابن جني ٣٢٢/١

(٣٨) ديوانه ق ٢/٣٨ ص ١٠٨ ولسان العرب (عين) ١٨٦/١٧

(٣٩) ديوانه ٧٣ ولسان العرب (قوم) ٤٠٨/١٥

(٤٠) ديوانه ٩

خاص ، لا يمكن أن يكون عاما شائعا في لهجة كاملة ، فهو ليس إلا لُثْغَة من اللُثْغ ، التي حدثنا عنها الجاحظ ، حين قال : « وأما اللُثْغَة التي تقع في اللام ، فإن من أهلها من يجعل اللام ياء ؛ بدل قوله : (اعتللتُ) : (اعتييت) ، وبدل : (جَمَل) : (جَمَى) وغير ذلك^(٤٣) » .

فالمقصود بالرُّتَّة إذن هو : العجلة والسرعة في الكلام . وهو بهذا يطابق بعض ما رُوي في تفسير « اللخلخانية » ، بأنها تقصير الحركات ، وحذف الهمزة من عبارة : « ما شاء الله كان » ، التي تصير : « مشا الله كان » ، كما سيأتي هنا .

وقد مر في حديث الرجل الجرمي ، في بعض الروايات عبارة : « فراتية العراق » و « لخلخانية العراق » ، بدلا من : « رُتَّة العراق » . ولعل هذه الألقاب كلها تعنى شيئا واحدا .

٥ - الشَّنْشَنَة : روت المصادر هذا اللقب منسوباً إلى لغة اليمن^(٤٤) . ورواه ابن عبد ربه^(٤٥) لقبيلة تغلب . وهو عبارة عن جعل الكاف شينا مطلقا ، فقد سمع بعض أهل اليمن في عرفة يقول^(٤٦) : « لَبَّيْشَ اللهم لَبَّيْشَ » أى : لَبَّيْكَ .

ولا يزال هذا النطق شائعا في بعض الأمثلة ، في عامية « حضرموت » ؛ إذ يقولون : « عَلِيشُ » بدلا من : « عليك^(٤٧) » .

(٤١) راجع مقالتنا : الركام اللغوي للظواهر المندثرة في اللغة ، بالمجلة العربية ١/٢ ص ٥٥ - ٦٠

وكتابتنا : نحن العامة والتطور اللغوي ٣٧٦

(٤٢) اللسان (رت) ٣٣٨/٢

(٤٣) البيان والتبيين ٣٥/١ وانظر كذلك ١٢/١

(٤٤) الاقتراح ٨٤ والمزهر ٢٢٢/١

(٤٥) العقد الفريد ٤٧٥/٢ ؛ ٣٢٠/٣

(٤٦) مميزات لغات العرب ١٣

(٤٧) انظر : Rabin,Ancient,P.50

وتتفق هذه الظاهرة من بعض الوجوه ، مع ظاهرة « الكشكشة » .
وسوف نتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد .

٦ - الطمطمائية : ينسب هذا اللقب إلى طيء والأزد ،
وإلى قبائل حمير في جنوبى الجزيرة العربية . وهو عبارة عن إبدال لام التعريف
« ميمًا » ، فيقال مثلا : « طاب أمهواء وصفًا أمجُو » ، أى طاب الهواء
وصفًا الجو (٤٨) .

ويروون من شواهد هذه الظاهرة « ما جاء فى الآثار ، فيما رواه التمر
ابن تولى أنه صلى الله عليه وسلم ، نطق بهذه اللغة فى قوله : ليس من أمبر أمصيام
فى أمسفر ، يريد : ليس من البر الصيام فى السفر (٤٩) » .

ومن شواهد ما قول بُجير بن عَنَمَة الطائى ، أحد بى بُولان :
ذَاكَ خَلِيلِي وَذُو يُعَاتِينِي
يَرْمِي وَرَأَى بِأَمْسَهُمْ وَأَمْسَلَمَهُ (٥٠)
وسمع الأنخفش من يقول : « قام أمرجل ، يريد : الرجل . قال
أبو العباس (ثعلب) : هذه لغة للأزد مشهورة (٥١) » .

كما وردت فى كلام قاله ذو الكلاع الحميرى : « عليك امرأى وعلينا
أمفعال (٥٢) » أى عليك الرأى وعلينا الفعال .

(٤٨) محاضرات الأدباء ٦٣/١ والمزهر ٢٢٣/١ وفقه اللغة للثعالبي ١٧٣ ومميزات العرب ١٢ وقد
أبهمت بعض المصادر فى تعريف الطمطمائية ، كالمرید الذى قال (فى الكامل ٢٢١/١) : « والطمطمة : أن
يكون الكلام مشبها لكلام العجم » ، ونقله عنه فى العقد الفريد ٤٧٦/٢ وخزانة الأدب ٥٩٦/٤ كما قال المرید
(فى الكامل ٢٢٥/٢) مرة أخرى : « وأما الطمطمائية ، ففيها يقول عنتره :
تبرى له حول النعام كأنها حرق بمانية لأعجم طمطم .
وانظر كذلك : العقد الفريد ٤٧٧/٢ والنهاية لابن الأثير ١٣٩/٣ وشرح المفصل لابن يعيش ٤٩/٩
(٤٩) دورة الغواص ١١٤ ومغنى اللبيب ٤٨/١ والصاهل والشاحج ٤٨٥
(٥٠) لسان العرب (ذو وذوات) ٣٤٧/٢٠ ومغنى اللبيب ٤٨/١ والصاهل والشاحج ٤٨٥
وانظر شعرا آخر فيه لبعض شعراء اليمن ٤٨٦
(٥١) مجالس ثعلب ٥٨/١ وقال محققه : « المعروف أنها لغة لطيء ! »
(٥٢) شرح نهج البلاغة ٩٦/٣

وقد سمع ابن دريد هذه اللهجة في عصره باليمن ؛ فقال : « وَكُبَّارُ
في وزن فُعَال . وهي لغة يمانية ، أهل اليمن يسمون الرجل الكبير كُبَّاراً .
وذو كُبَّار رجل منهم . وسمعت رجلاً يقول : أَمْ شَيْخُ أَمْ كُبَّارُ ضَرْبُ رَأْسِهِ
بِالْعَصَوِّ ، أَيْ بِالْعَصَا^(٥٣) » .

كما سمعها الهمداني في أماكن مختلفة من الجزيرة العربية ؛ فقال :
« سَرُّوْ حَمِيرٌ وَجَعْدَةٌ ، لَيْسُوا بِفَصَحَاءَ ، وَفِي كَلَامِهِمْ شَيْءٌ مِنَ التَّحْمِيرِ ،
وَيَجْرُونَ فِي كَلَامِهِمْ وَيَحْذِفُونَ فَيَقُولُونَ : يَا ابْنَ مَعَمَّ ، فِي يَا ابْنَ الْعَمِّ^(٥٤) » .
وقال كذلك : « وَبِلَدِ سَفِيَّانَ بْنِ أَرْحَبٍ فَصَحَاءَ ، إِلَّا فِي مِثْلِ :
أَمْ رَجُلٌ ، وَقَيِّدٌ بِعَيْرَاكَ ، وَرَأَيْتُ أَخَوَاكَ . وَيَشْرِكُهُمْ فِي إِبْدَالِ الْمِيمِ مِنَ اللَّامِ
فِي الرَّجْلِ وَالْبَعِيرِ وَمَا أَشْبَهَهُ : الْأَشْعَرُ وَعَعَكَ ، وَبَعْضُ أَهْلِ تَهَامَةٍ^(٥٥) » .

وفي كل هذه الأمثلة السابقة ، تستوى أَلُ الشمسية ، وأَلُ القمرية ،
في إبدال لامها ميمًا . وقيل إن هذه اللغة مختصة بالأسماء التي لا تدغم لام
التعريف في أولها ، نحو غلام وكتاب ، بخلاف رجل وناس ولباس . قال ابن
هشام النحوي : « وَحَكَى لَنَا بَعْضُ طَلَبَةِ الْيَمَنِ ، أَنَّهُ سَمِعَ فِي بِلَادِهِمْ
مَنْ يَقُولُ : خَذِ الرِّمْحَ وَارْكَبِ امْفَرَسَ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ لُغَةً لِبَعْضِهِمْ لَا
لِجَمِيعِهِمْ ؛ أَلَا تَرَى إِلَى الْبَيْتِ : (يَرْمِي وَرَأَى بِأَمْسِهِمْ وَأَمْسَلَمَهُ) ، وَأَنَّهَا فِي
الْحَدِيثِ : (لَيْسَ مِنْ أَمِيرٍ أَمْصِيَامَ فِي أَمْسَفَرٍ) دَخَلَتْ عَلَى
النُّوعَيْنِ^(٥٦) » .

والتفسير الصوتي لهذه الظاهرة ، هو أن اللام والميم من فصيلة
واحدة ، وهي فصيلة الأصوات المتوسطة أو المائعة Liquida وهي

(٥٣) جمهرة اللغة ٢٧٤/١ وفي الاشتقاق لابن دريد ٥٤ : « وَقَوْمٌ مِنَ أَهْلِ الْيَمَنِ يَسْمُونُ الْعَصَا :

عَصَوٌ » .

(٥٤) صفة جزيرة العرب ١٣٤

(٥٥) صفة جزيرة العرب ١٣٥

(٥٦) مغنى اللبيب ٤٨/١

مجموعة : « اللام ، والميم ، والنون ، والراء » . وهذه الأصوات يبدل بعضها من بعض كثيرا في اللغات السامية .

ولا تزال هذه الظاهرة شائعة في بعض جهات اليمن ، كما أن منها كلمة في اللهجة المصرية ، وهى كلمة : « البارحة » التى ينطقها المصريون : « امبارح » !

٧ - العجرفية : ورد هذا اللقب فى كلام ثعلب السابق : « ارتفعت قريش فى الفصاحة ، عن عننة تميم (وتلتله بهراء) وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوزان ، وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة^(٥٧) » . وقد نسبته ثعلب كما نرى لقبيلة « ضبة » ، ولم يفسره أو يشرح المراد منه ، وكذلك سكت كل من نقل هذا النص عنه^(٥٨) ، فلم يتحدثوا عنه بكلمة واحدة ، فيما عدا صاحب محاضرات الأدباء ، الذى عمم فى شرحه بقوله : « والعجرفية جفاء فى الكلام^(٥٩) » .

٨ - العجعة : ينسب هذا اللقب إلى « قضاة » ؛ فقد حكى الأزهري ، عن أبى زيد أنه قال : « والعجعة فى قضاة ، كالعننة فى تميم ، يحولون الياء جيما ؛ كقوله :

المُطْعِمُونَ اللَّحْمَ بِالْعَشِجِّ
وبالْعَدَاةِ كِسَرَ الْبَرْنِجِّ
يَقْلَعُ بِالْوَدِّوِ الصَّيْصِجِّ^(٦٠)

أراد : بالعشي ، والبرنى ، وبالصيصى^(٦١) »

ولم يقيد أبو زيد فى هذا النص « الياء » بالتشديد ، وإن كانت الياءات فى الأبيات التى استشهد بها مشددة . وقد نص على تشديد الياء

(٥٧) محالس ثعلب ٨٠/١

(٥٨) سر صناعة الإعراب ٢٢٤/١ والخصائص ١١/٢ والمزهر ٢١١/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤

(٥٩) محاضرات الأدباء ٦٣/١

(٦٠) تهذيب اللغة ٦٨/١ وانظر : الإبدال لأبى الطيب ٢٥٧/١ وشرح المفصل لابن يعيش ٥٠/١٠

السيوطي ؛ فقال : « ومن ذلك : العجعة في لغة قضاة ، يجعلون الياء المشددة ، جيما يقولون في تيمى : تيمج^(٦١) » .

غير أن الباحث في كتب اللغة ، يعثر على أمثلة كثيرة ، أبدلت فيها الياء المخففة جيما ؛ يقول ثعلب : « أبدلت من الياء الجيم في التشديد ؛ لقرب مخرجها ، ولا بأس أن تجيء في الياء المخففة ؛ مثل : حجتى . وأنشد :

يَارَبِّ إِن كُنْتُ قَبِلْتُ حَجَّتَج
فَلَا يَزَالُ شَاحِجٌ يَأْتِيكَ بَجْ^(٦٢) »

وزاد الفراء على هذين البيتين قوله :
أَقْمَرُ نَهَاتٍ يُنْزَى وَفَرْتَجْ^(٦٣)

يريد هذا الراجز : حجتى ، ويأتيك بى ، وينزى وفرقى . وكلها أمثلة لياء المتكلم ، وهى ليست ياء مشددة .

وقال أبو عمرو : « وهم يقلبون الياء الخفيفة أيضا إلى الجيم . قال الفراء : وذلك في بنى دبير ، من بنى أسد خاصة^(٦٤) » .

ونص البغدادى على أن « بعض بنى سعد ، يبدلون الياء شديدة كانت أو خفيفة ، جيما في الوقف^(٦٥) » .

ولعل عبارة : « في الوقف » في هذا النص الأخير ، مما يزيل الخلاف بين هذه الآراء ؛ فمن أنواع الوقف عند العرب : الوقف بالتضعيف ، أى تشديد آخر الكلمة عند الوقف عليها ؛ فيقال مثلا : « جاء

(٦١) المزهر ٢٢٢/١ والاقتراح ٨٣

(٦٢) مجالس ثعلب ١١٧/١ والشعر والشعراء ١٠١/١

(٦٣) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩ والإبدال لأبى الطيب ٢٦٠/١ وشرح المفصل ٥٠/١٠

وشرح الملوكة ٣٣١ والنوادر لأبى زيد ١٦٤

(٦٤) الإبدال لأبى الطيب ٢٦٠/١

(٦٥) شرح شواهد الشافية ٢١٢/٤

خالد^(٦٦) . فلعل هذه الأمثلة السابقة ، لشاعر من هؤلاء الذين يقفون بالتضعيف ؛ فيقولون : « حجتى » و « بى » و « وفرتى » ، حتى يمكن الحديث عن قلب الياء جيما ؛ لأن ياء المتكلم ، وهى ياء المد فى الأمثلة السابقة وغيرها ، ليست صوتا صامتا ، كالذى فى مثل : « يقع » مثلا ؛ وإنما هى كسرة طويلة . وقد سبقنا إلى هذه الملاحظة ، أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ؛ فقال : « ويظهر أن الياء فيما ساقوه من أمثلة ، لم تكن فى نطق القضاعيين ياء مد ، بل كانت صوتا ساكنا ، حتى يمكن أن نتصور قلبها إلى جيم^(٦٧) » .

وهذا صحيح ؛ لأن الذى يقلب إلى الصوت الصامت ، هو صوت صامت مثله ، ولم نعهد ذلك فى حركة قصيرة كانت أو طويلة .

والذى يسهل إبدال الياء جيما ، هو اتحادهما فى المخرج ، وهو الغار أو سقف الحنك الصلب ، وكونهما مجهورين ، أى تهتز معهما الأوتار الصوتية . والفارق الوحيد بينهما ، هو أن الجيم من الأصوات التى تجمع فى نطقها بين الشدة والرخاوة ، أو بعبارة أخرى بين الانفجار والاحتكاك ، أما الياء فهى من الأصوات المتوسطة ، التى فيها بعض الرخاوة ، أو بمعنى آخر تنطق بشيء من الاحتكاك .

ولهذا السبب ، لا نعجب حين نرى الصوتين ، يتبادلان فى اللهجات العربية القديمة والحديثة ؛ فهذه هى : « العجمجة » عند قضاة ، وهى إبدال الياء جيما . وهناك عكس هذه الظاهرة ، وهو إبدال الجيم ياء ؛ فقد روى أن بنى تميم يقولون فى : « الصهريج » ، وفى جمعه : « الصهاريج » ، وهو الذى يجتمع فيه الماء : « الصهرى والصهارى^(٦٨) » . كما روى عن أبى عبيدة أنه قال : « يقال : لا أفعله جَدَا

(٦٦) انظر : شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ٢١٠/٤

(٦٧) فى اللهجات العربية ١٢٦

(٦٨) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩ والإبدال لأبى الطيب ٢٦١/١

الدهر ، مفتوح الأول منقوص ، في معنى : لا أفعل ذلك يدّ الدهر^(٦٩) » ،
 أى لآخر الدهر ، كما روى أبو زيد أن بعض بني تميم قال : « شيرة »
 للشجرة^(٧٠) . وعلى ذلك أنشدت أم الهيثم :

إِذَا لَمْ يَكُنْ فَيَكُنْ ظِلٌّ وَلَا جَنِيٌّ
 فَأَبْعَدُكُنَّ اللَّهُ مِنْ شِيَرَاتِ^(٧١)
 تريد : « شجيرات » .

وهذه الظاهرة تشيع في عصرنا الحاضر ، في بعض قرى جنوبى
 العراق ، وبعض بلدان الخليج العربى ؛ إذ يقولون في « مسجد » مثلاً :
 « مَسِيد » ، وفي : « دجاج » : « دياى » ، وغير ذلك .

وتنسب ظاهرة « العجعة » كذلك إلى بعض بنى حنظلة ؛ فقد
 روى عن أبى عمرو بن العلاء ، أنه قال : « قلت لرجل من بنى حنظلة :
 ممن أنت ؟ فقال : فقيمج . قال : فقلت : من أيهم ؟ فقال : مُرَجَّج ؛
 يريد : فقيمى ، ومُرِّي^(٧٢) » .

كما تنسب هذه الظاهرة كذلك إلى : « بعض بنى سعد » ، كما رأينا
 في نص البغدادى السابق . ويقول سيبويه كذلك : « وأما ناس من بنى
 سعد ، فإنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف ؛ لأنها خفيفة فأبدلوا
 من موضعها أبين الحروف ، وذلك قولهم : هذا تميمج ، يريدون : تميمى ،
 وهذا علج ، يريدون : على . وسمعت بعضهم يقول : عَرَبَانَج ، يريد :
 عَرَبَانِي . وحدثني من سمعهم يقولون :

خَالِي عُؤَيْفٌ وَأَبُو عَلَجٍ
 الْمُطْعِمَانِ اللَّحْمَ بِالْعَشِجِ

(٦٩) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩ ونسب في الإبدال لأبى الطيب ٢٦١/١ إلى اللحياني .

(٧٠) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٩ والإبدال لأبى الطيب ٢٦١/١

(٧١) الإبدال لأبى الطيب ٢٦١/١ وكان القياس أن تقول : « ولاينى » بدلا من : « ولاجنى » !

(٧٢) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٨ ولسان العرب (حرف الجيم) ٢٦/٣ والإبدال

لأبى الطيب ٢٥٩/١ وشرح المنفصل لابن يعيش ٥٠/١٠ وشرح الملوكي ٣٣٠

وبالعَدَاةِ فَلَقَ الْبَرْزَجِ

يريد : بالعشي والبرني ، فرعم أنهم أنشدوه هكذا^(٧٣) .

وقد أبدل راجزهم : « هُمَيَانُ بْنُ قَحَافَةَ السَّعْدِي » الياء المشددة

جيما ، ثم اضطر إلى تخفيف الجيم في قوله :

يُطِيرُ عَنْهَا الْوَبَرَ الصُّهَابِجَا^(٧٤)

يريد : « الصهابي » .

وزعم الفراء أنها لغة لطبيء . وأنشد :

نِعَمَّـا وَلَـدَتْ رَضَوَى

لِرَبَّـانِ بْنِ كِنْدَجِ

وَحـُوصَاءَ وَرَأْلَانَ

لِلذِي دَلَّ عَلَى الْحَجِّ

أراد ابن كندى ، واللذى ، يريد : اللذين . دلا على الحج ،

أى على الحى ، أى بشرفهما نبها على حيتيها^(٧٥) .

كما وردت في حديث لعبد الله بن مسعود ، في قوله : « فلما

وضعت رجلى على مذمر أبى جهل ، قال : أَعْلِ عَنَجٌ^(٧٦) » ، أى : أعل

عنى ، يعنى : تَنَجَّ عنى . و« قال سليمان بن المغيرة : عَنَجٌ حجازية ،

يريد : عنى^(٧٧) » .

ويقيد « حفنى ناصف » الياء التى تبدل جيما ، بوقوعها بعد

العين ، فيقول : « تبدل الياء الواقعة بعد عين جيما ، فى لغة قضاعة ؛

(٧٣) كتاب سيويه ٣٦١/١ وانظر : الصاهل والشاحج ٦٠٠ - ٦٠١ وشرح الملوكي ٣٣٠

(٧٤) انظر : جيمية هميان بن قحافة ص ٢٠٣

(٧٥) الإبدال لأبى الطيب ٢٥٨/١

(٧٦) النهاية لابن الأثير ٢٩٤/٣

(٧٧) فعلت وأفعلت لأبى حاتم ١٩٨

فيقولون : الرَّاعِجُ خرج مَعِجْ ، أى : الراعى خرج معي^(٧٨) . ولست أدري من أين نقله ؟ على أن هذا القيد ، ليس له ما يبرره من الناحية الصوتية ، اللهم إلا تبرير اللقب الذى وصفت به تلك الظاهرة : « العجعة » !

٩ - العننة : يعزى هذا اللقب إلى تميم وقيس وأسد ، ومن جاورهم ، وإن اشتهر بإضافته إلى « تميم » ، من بين هذه القبائل جميعها^(٧٩) .

ويختلف اللغويون العرب ، فى تحديد المراد بهذا اللقب ؛ فأما الفراء وثعلب ، فيجعلانه خاصا بالحرف أن (أو أن) المفتوح الهمزة . وينص الفراء على ذلك صراحة ، فيقول : « لغة قريش ومن جاورهم : أن ، وتميم وقيس وأسد ، ومن جاورهم ، يجعلون ألف أن ، إذا كانت مفتوحة عينا ؛ يقولون : أشهد عَنَّا رسول الله ، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف^(٨٠) » .

ويقولون الفراء كذلك : « كما جعلوا مكان الهمزة عينا فى قوله : لِعَنَّا قائم ، وأشهد عَنَّا رسول الله ، وهى لغة فى تميم وقيس كثيرة^(٨١) » .

أما ثعلب ، فإنه وإن لم ينص على ذلك صراحة ، فإن أمثله كلها تدور حول « أن » المفتوحة الهمزة ؛ إذ يقول : فأما عننة تميم ، فإن تميما تقول فى موضع أن : عَن ، تقول : ظننت عن عبد الله قائم . قال (الأصمعى) : وسمعت ذا الرمة ينشد عبد الملك :

أَعَنُ تَرَسَّمْتُ مِنْ حَرْقَاءَ مَنَزِلَةً
ماءُ الصَّبَابَةِ مِنْ عَيْنَيْكَ مَسْجُومٌ

(٧٨) مميزات لغات العرب ١٠

(٧٩) لم يضيفها إلى « قيس » سوى البلوى فى قوله : « وأراد عن أن ، وهى لغة معروفة فى قيس ، وهى

التي يقال لها عننة قيس ، على وجه الهمزة لها . وقرأ قارئهم : فعسى الله عن يأتى بالفتح ، يريد : أن يأتى بالفتح »

(انظر : ألف باء للبلوى ٤٣٢/١)

(٨٠) تهذيب اللغة ١١١/١

(٨١) القلب والإبدال لابن السكيت ٢٤

قال : وسمعت ابن هرمة ، ينشد هارون (الرشيد) ، وكان ابن هرمة
رُبِّي في ديار تميم :

أَعْنُ تَعَنْتَ عَلَى سَاقٍ مُطَوَّقَةً
وَرَقَاءُ تَدْعُو هَدِيلاً فَوْقَ أَغْوَادٍ (٨٢) «

ومن ذلك أيضا قول جرّان العود :
فَمَا أَبْنَى حَتَّى قُلْنَ يَا لَيْتَ عَنَّا
تُرَابٌ وَعَنْ الْأَرْضِ بِالنَّاسِ تُخْسَفُ (٨٣)

وبينما يحدّد الفراء وثعلب لهذه الظاهرة (أن) المفتوحة ، نجد
السيوطي لا يخصصها بأن وحدها ، وإنما يشترط أن تكون الهمزة مبدوءا بها
فحسب ؛ يقول : « ومن ذلك العننة ، وهي في كثير من العرب ، في لغة
قيس وتميم ، تجعل الهمزة المبدوء بها عينا ، فيقولون في إنك : عِنك ،
وفي أسلم : عَسلم ، وفي أذن : عُذن (٨٤) » .

ومثل هذا الاضطراب في الرواية « ليس له من سبب ، سوى أن
استقراء الرواة لأمثلة هذه الظاهرة الصوتية كان ناقصا ، وأن الأمر في كل
رواية ، لا يعدو أن يكون حكما خاصا ، مبنيا على مثال خاص ، سمعه
الراوي دون استقراء لباقي الحالات ، فاشتراط البدء بالهمزة ، أو أن تكون
في (أن) مفتوحة ، ليس له ما يبرره من الناحية الصوتية (٨٥) »

وأغلب الظن أن تخصيصه بأن المفتوحة ، تبرير لهذا اللقب الذي
وصفت به الظاهرة : « العننة » . والحقيقة أن هذا الإبدال عام في كل

(٨٢) مجالس ثعلب ٨١/١ وعنه في خزانة الأدب ٤٩٥/٤ وسر صناعة الإعراب ٢٣٤/١
والخصائص ١١/٢ وانظر : الصاحبى لابن فارس ٥٣ وفقه اللغة للثعالبي ١٧٣ ودرة الغواص ١١٤
ومحاضرات الأدباء ٦٣/١ وبيت ذى الرمة في ديوانه ق ١/٧٥ ص ٥٦٧ وبيت ابن هرمة في ديوانه ق ١/٣٥
ص ١٠٥

(٨٣) تهذيب اللغة ١١١/١ وديوانه ٢٢ فيه : (أننا) و (أن) ! .

(٨٤) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١ وتابعهما على ذلك حفنى ناصف في مميزات لغات العرب ١١

(٨٥) في اللهجات العربية ١١٠

همزة ، عند تميم ومن جاورهم ؛ والدليل على هذا قول الخليل بن أحمد الفراهيدي : « والخَبُوعُ : الخَبُّءُ ، في لغة تميم ، يجعلون بدل الهمزة عينا^(٨٦) » .

وقال ابن دريد : « ونَجَعَ الرجل في المكان ، إذا دخل فيه ، وأحسب أن هذه العين همزة ؛ لأن بنى تميم يحققون الهمزة ، فيجعلونها عينا ، فيقولون : هذا خَبَاعُنَا ، يريدون : خباؤنا^(٨٧) » . كما قال المبرد : « ويقال في معنى أسيف : عَسِيف أيضا^(٨٨) » ، والأسيف هو : الأجير .

وإبدال الهمزة عينا هنا ، نوع من المبالغة في تحقيق الهمز ، كما يستفاد من نص ابن دريد ، وذلك على طريقة نطق بعض أهالي صعيد مصر : « لَع » في : « لَأ » مثلا . وأهل النوبة والسودانيون ، يقع في كلامهم هذا الإبدال كثيرا في أيامنا هذه ؛ فقد سمعت بعضهم يقولون مثلا : « فلان سَعَلَ عليك » يعني : « سأل »

وقد رويت لنا في العربية القديمة ، أمثلة كثيرة ، لانقلاب الهمزة عينا ، وأغلب الظن أنها من عننة تميم كذلك ؛ مثل قولهم : « صَبَّأت على القوم ، وصَبَّغت عليهم ، وهو أن تدخل عليهم غيرهم » ، وقولهم : « انجأفت النخلة وانجعت ، إذا انقلعت من أصلها » ، وقولهم : « الأسن : قديم الشحم ، وبعضهم يقول : العُسن^(٨٩) » ، وغير ذلك .

١٠ - الغمغمة : ينسب هذا اللقب إلى « قضاة » ، وهو من الألقاب التي أبهم اللغويون العرب في تحديدها ؛ فقالوا في تعريفه كلاما عاما لا يفيدنا ؛ يقول المبرد ، وهو يشرح كلام الرجل الجرمي السابق أمام معاوية : « والغمغمة أن تسمع الصوت ولا يتبين لك تقطيع

(٨٦) العين للخليل بن أحمد ١٤٠/١

(٨٧) جهمرة اللغة ٢٣٧/١ وانظر أمثلة أخرى في جهمرة اللغة ٧٦/٣

(٨٨) الكامل للمبرد ٢٥/١

(٨٩) انظر : الإبدال لأبي الطيب ٥٥٥/٢ وما بعدها .

الحروف (٩٠) . ويقول الحريري وأما غمغمة قضاة ، فصوت لا يفهم تقطيع حروفه (٩١) . ويقول ابن يعيش : « والغمغمة أن لا يتبين الكلام . وأصله أصوات الثيران عند الذعر ، وأصوات الأبطال عند القتال (٩٢) » .

وفي النفس شيء من هذا اللقب ، وأكاد أميل إلى أنه تحريف قديم لكلمة : « عجعجة قضاة » ، وقع فيه الجاحظ ، ومن جاءوا بعده ، ممن روي خبر الرجل الجرمي أمام معاوية ، وحاولوا تفسيره !

وقد قرر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في دورته الخامسة والأربعين (١٩٧٩ م) بناء على اقتراح مني في « لجنة اللهجات » به ، حذف هذا اللقب من ألقاب اللهجات العربية . ونص القرار هو : « لعل الغمغمة المنسوبة لقضاة ، هي عجعجة قضاة عينها ، أصابها التحريف ، في خبر الرجل الجرمي . وبناء على ذلك تحذف الغمغمة ، من ألقاب اللهجات ، بحيث لا ينسب لقضاة إلا العجعجة (٩٣) » .

١١ - الفحفة : ينسب هذا اللقب إلى قبيلة هذيل ، باتفاق جميع اللغويين ، وهم يقولون : إنه عبارة عن قلب الحاء عينا (٩٤) . وقد قرئ به في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : « حَتَّى حِينَ (٩٥) » ؛ يقول ابن جنى : « روى عن عمر أنه سمع رجلاً يقرأ : (عتَى حِينَ) ، فقال : من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود ، فكتب إليه : إن الله عز وجل أنزل هذا القرآن ، فجعله عربياً ، وأنزله بلغة قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام (٩٦) » .

(٩٠) الكامل للمبرد ٢/٢٢١ وعنه في العقد الفريد ٢/٤٧٦ وخزانة الأدب ٤/٥٩٦

(٩١) درة الغواص للحريري ١١٥

(٩٢) شرح المفصل لابن يعيش ٩/٤٩

(٩٣) انظر : مجموعة المصطلحات - المجلد ٢١ (١٩٧٩ م) ص ١٤٢

(٩٤) الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/٢٢٢ ومميزات لغات العرب ١١

(٩٥) سورة يوسف ١٢/٣٥

(٩٦) المحتسب ١/٣٤٣ وانظر : إيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنباري ١٣

ويبدو من هذه الرواية ، إن صحت ، أن هذه الظاهرة لم تكن عامة في كل « حاء » عند قبيلة هذيل^(٩٧) ؛ إذ لم تقلب الحاء عينا في كلمة : (حين) المجاورة لكلمة : (حتى) في الآية القرآنية ، أى أن هذا الإبدال خاص بكلمة : (حتى) . ومما يقوى هذا الظن قول أبى عبيدة : « قوم يحولون حاء حتى ، فيجعلونها عينا ؛ كقولك : قم عتي آتيك^(٩٨) » . وقال أبو الطيب اللغوى : « ويقال : اصبر حتى آتيك ، وعتي آتيك^(٩٩) » .

وهذا يذكر بما يقابل كلمة : « حتى » في العبرية والآرامية ؛ فهى في الأولى **לַח** وفي الثانية **חַם** أى : العين والذال ، أى أنه كما جهرت الحاء في لغة هذيل ، فأصبحت عينا ، فإن هذا هو ما حدث في هاتين اللغتين ، وزاد الأمر فيهما أن تماثلت التاء مع العين ، فجهرت هى الأخرى ، فصارت دالا .

ويرى « رابين^(١٠٠) » أن (عتي) في لغة هذيل ، منحوتة من : (حتى) العربية ، و (عد) أو (عدى) التى توجد في السبئية كذلك .

١٢ - الفراتية : ورد هذا اللقب ، في بعض روايات خبر الرجل الجرمي ، بدلا من : « رُتّة العراق » و « لخلخانية العراق » . ولم يتحدث عنه سوى ابن يعيش ، الذى قال : « والفراتية : لغة أهل الفرات ، الذى هو نهر أهل الكوفة . والفراتان : الفرات ودجيل^(١٠١) » .

ولعل المقصود بهذا اللقب ، هو نفسه المقصود من : « الرُتّة » و « اللخلخانية » من السرعة في الكلام ، وما يترتب على ذلك من سقوط الحروف ، وتقصير الحركات !

(٩٧) لست أدرى من أين نقل حفنى ناصف (مميزات لغات العرب ١١) عن هذيل أنها كانت تقول : « اللعم الأعمر أعسن من اللعم الأبيض » بدلا من : اللعم الأحمر أحسن من اللعم الأبيض !؟

(٩٨) القلب والإبدال ، لابن السكيت ٢٣

(٩٩) الإبدال لأبى الطيب ٢٩٥/١

(١٠٠) Ancient, p.40; p.85

(١٠١) شرح المفصل لابن يعيش ٤٩/٩ وعنه في خزنة الأدب ٥٩٦/٤

١٣ - القُطعة : هذا اللقب يعزى إلى قبيلة طيء ، وهو عبارة عن قطع اللفظ قبل تمامه ؛ قال الخليل بن أحمد الفراهيدى : « والقُطعة فى طيء كالعنينة فى تميم ، وهى أن يقول : يا أبا الحَكَا ، وهو يريد : يا أبا الحَكَم ، فيقطع كلامه عن إبانة بقية الكلمة (١٠٢) » .

فالقُطعة على هذا نوع من ترخيم اللفظ ، كما نقول نحن الآن فى مصر : « يَاوَل » فى : « يا ولد » ، و « سَلَخِي » فى : « مساء الخير » ، وهى « لغة كثير من البلاد المصرية الآن ، كالمحلة الكبرى وما حولها ، وجزيرة بنى نصر ، وأبيار ، وكثير من مديرتى البحيرة وبنى سويف ؛ يقولون : النهار طلا ، أى طلع ، والنور ظها ، أى ظهر ، وخمدت لنا ، أى النار ، وهلمَّ جَرًّا (١٠٣) » . ومما يُنبِز به فى بنى سويف قولهم : « العَيِّ والبَيِّ والبَلَا لَحَمَر » ، والمراد : العيش والبيض والبلح الأحمر !

١٤ - الكسكسة : يعزى هذا اللقب إلى قبيلة : « بكر (١٠٤) » ، كما يعزى إلى : « هوازن (١٠٥) » وعن الفراء أنه فى لغة « ربيعة ومُضَرَ (١٠٦) » . وفى القاموس المحيط أن « الكسكسة لغة لقيم لا لبكر (١٠٧) » !

واختلف اللغويون فى تحديد المقصود بالكسكسة ، فذهب المبرد إلى أن قوما من بكر ، يبدلون من الكاف سينا ، ولكن أكثر القبيلة لا يجرون هذا الإبدال على الكاف ، وإنما يتبعون كاف المؤنثة فى الوقف سينا ؛ يقول المبرد : « وأما بكر فتختلف فى الكسكسة ، فقوم منهم يبدلون من الكاف

(١٠٢) العين للخليل بن أحمد ١٥٦/١

(١٠٣) مميزات لغات العرب ٢٩

(١٠٤) انظر : شرح المفصل ٤٩/٩ ودرة الغواص ١١٥ والنهاية لابن الأثير ١٧٤/٤ والكامل للمبرد

٢٢٣/٢ وخزانة الأدب ٥٩٦/٤ والعقد الفريد ٤٧٧/٢ ومحاضرات الأدباء ٦٣/١ وفقه اللغة للثعالبي ١٧٣

(١٠٥) الخصائص ١٢/٢ وسر صناعة الإعراب ٢٣٥/١ وخزانة الأدب ٤٩٥/٤ وألف باء للبلوى ٤٣١/٢

(١٠٦) الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١ والصاحح ٥٣ ومميزات لغات العرب ٢٨

(١٠٧) تاج العروس (كسى) ٢٣٤/٤

سينا ... وهو أقلهم ، وقوم يبينون حركة كاف المؤنث في الوقف بالسين ، فيزيدونها بعدها ؛ فيقولون : أعطيتكِس^(١٠٨) .

واقتصر بعض اللغويين على القول بأن « الكسكسة » هي إبدال كاف المخاطبة سينا^(١٠٩) ، كما اقتصر بعضهم على القول بأنها زيادة سين ، على كاف المخاطبة في الوقف^(١١٠) .

والأصل في هذا قول سيويه : « واعلم أن ناسا من العرب ، يلحقون الكاف السين ، ليبينوا كسرة التأنيث ، وإنما ألحقوا السين ؛ لأنها قد تكون من حروف الزيادة في استفعل ؛ وذلك : أعطيتكِس وأكرمكِس ، فإذا وصلوا لم يجيئوا بها ، لأن الكسرة تبين^(١١١) .

كما يزعم الفراء أن « الكسكسة » عبارة عن إلحاق كاف المذكر سينا ، في لغة ربيعة ومضر ، فرقا بين خطاى المذكر والمؤنث عند الوقف^(١١٢) !

ولارتباط هذا اللقب ، بلقب « الكشكشة » ، الذى يأتى عقب هذا ، وخالط اللغويين أحدهما بالآخر ، نعالجهما علاجاً واحداً ، بعد عرض آرائهم فى « الكشكشة » فيما يلى :

١٥ - الكشكشة : يُعزى هذا اللقب إلى « ربيعة ومضر^(١١٣) » ،

(١٠٨) الكامل للمبرد ٢/٢٢٣ وخزانة الأدب ٤/٥٩٦ وانظر العقد الفريد ٢/٤٧٧ والنهاية لابن الأثير ٤/١٧٦ والصاحبى ٥٣ وألف باء للبلوى ٢/٤٣١

(١٠٩) انظر : النهاية لابن الأثير ٤/١٧٤ والإبدال لأبى الطيب ٢/٢٠٧ ومحاضرات الأدباء ١/٦٣

(١١٠) الخصائص ٢/١٢ وسر صناعة الإعراب ١/٢١٤ ؛ ١/٢٣٥ وخزانة الأدب ٤/٤٩٥

وشرح المفصل لابن يعيش ٩/٤٩ ودرة الغواص ١١٥ وفقه اللغة للثعالبي ١٧٣ ومجالس ثعلب ١/١١٦

(١١١) كتاب سيويه ٢/٢٩٥

(١١٢) الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/٢٢١ ومميزات لغات العرب ٢٨

(١١٣) انظر : الاقتراح ٨٣ والمزهر ١/٢٢١ والخصائص ٢/١١ وسر صناعة الإعراب ١/٢٣٥

وخزانة الأدب ٤/٤٩٥ ومادة (كشش) من اللسان ٨/٢٣٣ وتاج العروس ٤/٣٤٥ ودرة الغواص

للحريرى ١١٥ وألف باء للبلوى ٢/٤٣١

كما يُعزى إلى « بكر^(١١٤) » و« بنى عمرو بن تميم^(١١٥) » و« ناس من أسد^(١١٦) » .

وهذه الظاهرة عند اللغويين ، عبارة عن إبدال كاف المؤنثة في الوقف شينا ، أو إلحاقها شينا . وقد ذكر سيبويه هذين المذهبين من مذاهب العرب في الكشكشة ، فقال : « فأما ناس كثير من تميم ، وناس من أسد ، فإنهم يجعلون مكان الكاف للمؤنث الشين ، وذلك أنهم أرادوا البيان في الوقف ؛ لأنها ساكنة في الوقف ، فأرادوا أن يفصلوا بين المذكر والمؤنث ، وأرادوا التحقيق والتوكيد في الفصل ؛ لأنهم إذا فصلوا بين المذكر والمؤنث بحرف ، كان أقوى من أن يفصلوا بحركة ... وذلك قولك : إئنش ذاهبة ، ومالش ؛ يريد : إنك ومالك ... وقوم يلحقون الشين ، ليبينوا بها الكسرة في الوقف ، كما أبدلوا مكانها للبيان ؛ وذلك قولهم : أعطيتكِشْ ، وأكرمكِشْ ، فإذا وصلوا تركوها^(١١٧) » .

وفهم من هذا الكلام لسبويه ، أن الكشكشة خاصة بكاف المؤنث في الوقف ، وإن كانت أمثله في إبدالها شينا ؛ وهى : « إئنش ذاهبة » و« مالش ذاهبة » لا تصلح فيما يبدو إلا للوصل .

وقد أورد اللغويون بعض الشواهد ، على إبدال كاف المؤنث شينا في الوقف ؛ منها قول رؤبة :

تضحكُ مِنِّي أنْ رَأَيْتَنِي أَحْتَرِشُ
وَلَوْ حَرَشْتَ لَكَشَفْتَ عَنْ حَرِشُ

(١١٤) جمهرة اللغة ١/١٥٣ وألف باء للبلوى ٢/٤٣١

(١١٥) الكامل للمبرد ٢/٢٢٣ وخزانة الأدب ٤/٥٩٤ والعقد الفريد ٢/٤٧٧ وسيبويه ٢/٢٩٥ وفقه اللغة للثعالبي ١٧٢ والنهاية لابن الأثير ٤/١٧٦ والإبدال لأبي الطيب ٢/٢٣٠ وشرح شواهد الشافية ٤/٤١٩ وشرح الفصل لابن يعيش ٩/٤٨

(١١٦) سيبويه ٢/٢٩٥ ومادة (كَشَش) من اللسان ٨/٢٣٣ وتاج العروس ٤/٣٤٥ وشرح المفصل

لابن يعيش ٩/٤٨ والصاحبي ٥٣ وخزانة الأدب ٤/٥٩٤

(١١٧) سيبويه ٢/٢٩٥

عَنْ وَاسِعٍ يَغْرُقُ فِيهِ الْقَنْفَرِشُ^(١١٨)

أى عن حرك ، فحوّل كاف المخاطبة شيئا فى الوقف ؛ لأنها فى القافية .
وكذلك قول الراجز :

هَلْ لَكَ أَنْ تَنْتَفَعَى وَأَنْتَفَعَشْ
فَتُدْخِلِينَ اللَّذَّ مَعِيَ فِي اللَّذْمَعَشِ^(١١٩)

كما أورد المبرد قولهم للمرأة : « جعل الله البركة فى دارش » ،
وقولهم : « وَيَحْكُ مَالَشُ^(١٢٠) » . والمثال الأخير ، تظهر فيه كافان
للمؤنث ، إحداهما فى : « ويحك » فى الوصل ، وقد بقيت كافا ،
والأخرى فى : « مالك » فى الوقف ، وقد قلبت شيئا : وقد ذكر المبرد
ذلك صراحة ؛ فقال : « والتى يدرجونها يدعونها كافا ، والتى يقفون
عليها يبدلونها شيئا^(١٢١) » .

غير أن هناك شواهد كثيرة على قلب كاف المؤنث شيئا فى
الوصل كذلك ؛ منها : قول مجنون ليلى :

فَعَيْنَاشَ عَيْنَاهَا وَجِيْدُشَ جِيْدَهَا وَلَكِنَّ عَظَمَ السَّاقِ مِنْشَ دَقِيْقُ^(١٢٢)
وقول الراجز :

يَا دَارُ حَيِّتِ وَمَنْ أَلَمَمَ بِشْ
عَهْدِي وَمَنْ يَحْلُلُ بِوَادِيشَ يَعِشُ^(١٢٣)

(١١٨) شرح شواهد الشافية ٤/٤١٩ والإبدال والمعاقبة للزجاجى ١٠٥ والإبدال لأنى الطيب
٢٣٠/٢ وجمهرة اللغة ١/٥ ولسان العرب (كشش) ٨/٢٣٣ وتاج العروس (كشش) ٤/٢٤٥
(١١٩) العقد الفريد ٢/٤٧٧

(١٢٠) الكامل للمبرد ٢/٢٢٣ وخزانة الأدب ٤/٥٩٥ وفى درة الغواص ١١٥ : « ويحك مايش » .

(١٢١) الكامل للمبرد ٢/٢٢٣ وخزانة الأدب ٤/٥٩٥

(١٢٢) سر صناعة الإعراب ١/٢١٦ ودرة الغواص ١١٥ وجمهرة اللغة ١/٥ والإبدال لأنى الطيب
٢٣٠/٢ ومادة (كشش) من اللسان ٨/٢٣٣ وتاج العروس ٤/٣٤٥ وشرح المفصل لابن يعيش ٩/٤٨
وألف باء للبلوى ٢/٤٣٢ ومحاضرات الأدباء ١/٦٣ والبيت بلا كشكشة فى ديوانه ق ١٩٨/٩ ص ٢٠٧
(١٢٣) الإبدال لأنى الطيب ٢/٢٣١

وقول الشاعر :

فَعَيْنَاشَ عَيْنَاهَا وَجِيدُشَ جِيدُهَا وَلَوْشَ إِلَّا أَنَّهَا غَيْرُ عَاطِلٍ^(١٢٤)
ومن شواهد القلب في الوصل : قراءة من قرأ : « قَدْ جَعَلَ رَبُّشَ
تَحْتَشَ سَرِيًّا » ، لقوله تعالى : « قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا^(١٢٥) » ،
وكذلك قراءة من قرأ : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَشِ » لقوله تعالى :
« إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ^(١٢٦) » .

كما رووا أن أعرابية نادت جارية ، فقالت : « تعالني إلى مَوْلَاشِ
يناديش^(١٢٧) » . ومن كلامهم أيضا : « إذا أعياش جارائش ، فأقبل
على ذي بَيْتَشِ^(١٢٨) » .

بل لقد رووا بعض الشواهد ، التي نرى فيها ظاهرة الكشكشة ،
بقلب الكاف شيئا ، في غير كاف المؤنث ، مثل قول الراجز^(١٢٩) :

عَلَى فِيمَا أَبْتَغَى أَبْغِشِ
بَيْضَاءَ تُرْضِينِي وَلَا تُرْضِيشِ
وَتَطْبِي وَدَّ بِنِي أَبِيشِ
إِذَا دَنَوْتُ جَعَلْتُ تُنْئِيشِ
وَإِنْ نَأَيْتُ جَعَلْتُ تُذْنِيشِ
وَإِنْ تَكَلَّمْتُ حَثْتُ فِي فِيشِ
حَتَّى تَنْقِي كَنْقِيَقِ الدِّيشِ

أما إلحاق كاف المؤنثة شيئا ، فلم يوردوا له شواهد من الشعر ،

(١٢٤) الصحابي لابن فارس ٥٤

(١٢٥) سورة مريم ٢٤/١٩ وانظر : فقه اللغة للثعالبي ١٧٢ وشرح المفصل ٤٨/٩

(١٢٦) سورة آل عمران ٤٢/٣ . وانظر : ألف باء للبلوي ٤٣١/٢

(١٢٧) تاج العروس (كشش) ٣٤٥/٤

(١٢٨) سر صناعة الإعراب ٢١٦/١ وألف باء للبلوي ٤٣٢/٢ وشرح المفصل ٤٨/٩

(١٢٩) محاليس ثعلب ١١٦/١ وخزانة الأدب ٥٩٤/٤ وسر صناعة الإعراب ٢١٦/١ ولسان العرب

(كشش) ٢٣٣/٨ وألف باء للبلوي ٤٣٢/٢ وتاج العروس (كشش) ٣٤٥/٤

أو من النثر ، وإنما اكتفوا بالتمثيل لذلك بقولهم : « فيقولون : رأيتكِشْ ، وبِكِشْ ، وعليكِشْ »^(١٣٠) .

والآن ، وبعد أن انتهينا من سرد الروايات الخاصة بالكسكسة والكشكشة ، في بطون كتب اللغة والأدب في العربية ، نلاحظ ما يلي :

١ - تعزو الروايات التي بين أيدينا ، ظاهرقي الكسكسة والكشكشة ، أحيانا إلى قبيلة واحدة ، كنسبة الفراء « الكسكسة » إلى ربيعة ومضر ، والشائع هو نسبة « الكشكشة » إليهما ، كما أنه انفرد بتفسير الكسكسة عندئذ ، بأنها « إلحاق كاف المذكر سينا » ! ولم يقل أحد غيره بمثل ذلك - كما أن ابن دريد والبلوى ، ينفردان بنسبة « الكشكشة » إلى بكر ، والشائع هو نسبة « الكسكسة » إليها . ويبدو أن المسئول عن هذا الخلط ، هو قبول الكلمة للتصحيح ، في السين والشين !

٢ - يبدو من مجموع الروايات ، أن ظاهرقي : « الكسكسة » و « الكشكشة » تنحصران في أمرين : إلحاق الكاف المكسورة سينا (في الكسكسة) وشينا (الكشكشة) أو إبدالها سينا أو شينا كذلك . والظاهر أن الأمر الأول تفسير من اللغويين لما سمعوه ، ولم يستطيعوا كتابته ؛ إذ إن هذه الكاف لم تلحق بسين أو شين ، كما ظنوا ، وإنما تحولت إلى صوت من الأصوات المزدوجة ، المسماة باللاتينية : Affricata ؛ فقد « وصل العلماء في مقارنتهم اللغة السنسكريتية ، باللغتين اليونانية واللاتينية ، إلى قانون سمّوه : (قانون الأصوات الحنكية) ، في أواخر القرن التاسع عشر ، ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أمامية ، حين يليها صوت لين أمامي كالكسرة ؛ لأن صوت

(١٣٠) انظر مثلاً : الاقتراح ٨٣ والمزهر ٢٢١/١ وسر صناعة الإعراب ٢٣٥/١ وخزانة الأدب

٤٩٥/٤ والخصائص ١١/٢

اللين الأمامى فى مثل هذه الحالة ، يجتذب إلى الأمام قليلا ، أصوات أقصى الحنك ، فتقلب إلى نظائرها ، من أصوات وسط الحنك^(١٣١) .

وهذا معناه أن الكاف المكسورة ، تتحول فى هذه اللهجات إلى صوت مزدوج ، هو : « تُسْ » وهذه هى الكسكسة ، أو « تُشْ » وهذه هى الكشكشة . والصوت الأول يوجد فى الألمانية فى مثل : Leipzig « لييتسج » . والثانى يوجد فى الإنجليزية ، فى مثل : children بمعنى : « أولاد » .

ويبدو أن ابن دريد ، قد أحسّ بهذا النطق ، وإن لم تتهياً له الدقة فى وصفه ، حين قال : « وإذا اضطر الذى هذه لغته ، قال : جيدش وغلامش ، بين الجيم والشين ، إذا لم يتهياً له أن يفرد^(١٣٢) » ! كما يقول البلوى : « ومن العرب من يلفظ بهذه الكاف ، بين الجيم والشين ، وذلك من اللغات المرغوب عنها ، لما لم يتهياً له أن يفرد الجيم ، ولا الشين^(١٣٣) » .

وما تزال هذه الكسكسة ، بتلك الصورة ، حية فى مناطق نجد من الجزيرة العربية ؛ فقد سمعتم يقولون مثلاً : (تُسيّف حالك ؟) فى : (كيف حالك ؟) ، كما أن الكشكشة لا تزال مسموعة فى جنوبى العراق والكويت والبحرين ، وبعض قرى محافظة الشرقية فى مصر ؛ إذ تسمعهم هناك يقولون : (تُشَلِّب) فى : (كلب) مثلاً .

وهذه الازدواجية ، التى حدثت للكاف العربية فى هذه اللهجات ، حدثت للجيم السامية فى العربية الفصحى^(١٣٤) ، أى أن الأصل فى صوت الجيم ، هو عدم التعطيش . وقد تطور صوت الجيم فى

(١٣١) فى اللهجات العربية ١٢٣ وانظر : التطور اللغوى وقوانينه ١٦٣ - ١٦٤

(١٣٢) جهمرة اللغة ٥/١

(١٣٣) ألف باء للبلوى ٤٣٢/٢

(١٣٤) انظر : اللغة العربية ، للدكتور رمضان عبد التواب ١٢٧

الفصحى ، عن نطق يشبه نطق المصريين لهذا الصوت ، فنحن نعرف من مقارنة اللغات السامية ، « أن نطق هذا الحرف الأصلي ، كان كما هو الآن في مصر ، وكما كان ويكون في اللغات السامية الباقية ؛ فمثلا كلمة : (جمل) في العبرية gāmāl وفي السريانية gamlā وفي الحبشية gamal . وتاريخ هذا النطق كما يأتي : في الابتداء تغير نطق : gīm فصار : gīm قبل حركة الكسرة فقط ، ثم لفظت عند أهل الحجاز : gīm إذا وقعت قبل كل الحركات ، أى الفتحة والضمّة والكسرة ، وكان هذا النطق للفصحى في زمان النبي ﷺ ، فصار نطق القرآن الشريف (١٣٥) » .

٣ - يبدو أن ظاهرى : « الكسكسة » و « الكشكشة » كانتا مقيدتين في الأصل بكاف مكسورة ، حتى يمكن لقانون : (الأصوات الحنكية) أن يلعب دوره . أما تقييد القدماء ذلك بكاف المؤنثة ، فهو مبنى - فيما يظهر - على استقراء ناقص ، وعندما عثروا على مثال يعارض قواعدهم ، وهو : « الدّيش » ، فى الرجز الذى سقناه من قبل ، لجئوا فى تفسيره إلى نظرية القياس ؛ فقالوا : « شبه كاف الديك ، لكسرتها ، بكاف ضمير المؤنث (١٣٦) » . ويبدو أن « ثعلبا » قد فطن إلى ذلك ، حين تحدث فى الكشكشة والكسكسة عن « الكاف المكسورة لاغير (١٣٧) » ، ولم يقيدها بكاف المؤنث كغيره من اللغويين .

٤ - تقييد اللغويين لظاهرى : « الكسكسة » و « الكشكشة » بالوقف ، ليس له ما يبرره من الناحية الصوتية ، حتى وإن قالوا بأن « الكسرة الدالة على التأنيث تخفى فى الوقف ، فزادوا على هذه الكاف فى الوقف شيئا ، حرصاً على البيان » ؛ لأن هذا الحرص على البيان ،

(١٣٥) من مقالة عن اللهجات ، للمستشرق إينو ليتان ، بمجلة كلية الآداب/جامعة القاهرة ؛ المجلد العاشر سنة ١٩٤٨ م .

(١٣٦) سر صناعة الإعراب ٢١٦/١ وانظر : مادة (كشش) من اللسان ٢٣٤/٨ والتاج ٣٤٥/٤ وألف باء للبلوى ٤٣٢/٢

(١٣٧) مجالس ثعلب ١١٦/١ وخزانة الأدب ٥٩٤/٤

سيكون في هذه الحالة قصداً للمتكلم ، وليس ضرورة صوتية تحتمها أعضاء النطق في الوقف . والدليل على ذلك أيضا ، تلك الشواهد الكثيرة التي ساقها اللغويون ، لهذه الظاهرة في حالة الوصل ، وإن تحايل بعضهم على ذلك بالعلة المشهورة ، وهي : إجراء الوصل مجرى الوقف .

٥ - بقى بعد هذا ، تفسير النصف الثانى ، من ظاهرتى : « الكسكسة » و « الكشكشة » بأنها إبدال الكاف سينا (فى الكسكسة) ، وشينا (فى الكشكشة) . ومن الممكن القول بأن اللغويين القدماء ، سمعوا الازدواجية فى الكاف ، ولم يستطيعوا كتابتها بالضبط ، فدلوا عليها مرة بالكاف والشين ، ومرة أخرى بالشين وحدها ، لولا أن هذه الظاهرة لا تزال موجودة فى بعض مناطق الجزيرة العربية ، كمنطقة عسير ، التى يقول أهلها مثلاً : « أبوش » و « أمش » فى : « أبوك » و « أمك » . وما الظاهرة المعروفة (بشنشنة اليمن) التى سبق ذكرها هنا ، إلا شىء من هذا ؛ فقد قالوا عنها إنها عبارة عن جعل الكاف شينا . وتفسير ذلك سهل ؛ فإن الملاحظ فى التطور اللغوى ، أن الأصوات المزدوجة ، تميل فى تطورها ، إلى أن تنحل إلى أحد الصوتين المكونين لها ؛ وهذا هو صوت الجيم ، وهو - كما عرفنا من قبل - من الأصوات المزدوجة فى الفصحى ، نراه وهو المكون من دال مخرجها من الغار ، يعقبها شين مجهورة ، ينحل فى اللهجات العامية ، إلى أحد هذين الصوتين ؛ فمثال تطوره إلى الدال : « دشيش » فى جشيش ، و « دَشع » فى : « جَشع »^(١٣٨) ، ومثال تطوره إلى الشين المجهورة : النطق الشامى للجيم فى الوقت الحاضر . وقد ضاع الجهر فى بعض الكلمات ، وصارت الجيم شينا مهموسة ، كالشين القديمة ؛ مثل : « فَشَر » فى : « فجر »^(١٣٩) و « اشْتَرَّت الدابة » فى : « اجْتَرَّت »^(١٤٠) . وقد روى لنا هذا

(١٣٨) تهذيب الألفاظ العامية ٦٧

(١٣٩) أصول الكلمات العامية ٢٩

(١٤٠) لحن العوام للزبيدى ٣٠٣ وتهذيب الألفاظ العامية ٦٨

التطور الأخير ، عن قبيلة تميم التى تقول : « شُرُّ ما يُشِيئُكَ إلى مُحَّةِ عُرقوب » بمعنى : « يجيئُكَ » . ويقول زهير بن ذؤيب العدوى :

فَيَال تَمِيمٍ صَابِرُوا قَدْ أَشِئْتُمْ
إِلَيْهِ وَكُونُوا كَالْمُحَرَّبَةِ الْبُسْلِ

أى : قد أَجِئْتُمْ^(١٤١) . كما قال الراجز :
إِذْ ذَاكَ إِذْ حَبْلُ الْوَصَالِ مُدْمَشُ^(١٤٢)

أى : مدمج .

وعلى ذلك ، يمكن القول بأن الكسكسة بإبدال الكاف سينا ، والكشكشة بإبدال الكاف شينا ، ليستا إلا تطوراً على هذا الطريق من الصوتين المزدوجين : ثَسْ < س ؛ ثَشْ < ش .

ولكانتینو رأى غريب فى تفسير « الكسكسة » و « الكشكشة » ، بمعنى إلحاق الكاف سينا أو شينا ؛ إذ يريد إرجاعهما إلى عجعجة قضاة ؛ فيقول : « ويبدو أنه يجب ردّ إتباع كاف المخاطبة عند الوقف بشين ، عند مضر وريعة ، وبسين عند بنى بكر ، إلى هذه الخاصة . ومن المحتمل أنه ينبغى تفسير ذلك ، بتخيل صيغة أولى لهذه الكاف ، أى (كى) بكسرة طويلة ، ثم تصير إلى : (كى) ثم إلى : (كج) ، وأخيراً إلى : (كش) أو (كس) ، بانتقال الجيم من الجهر إلى الهمس . وقد خلط العرب هذه الظاهرة الغربية ، بظاهرة أخرى هى إبدال كاف المخاطبة شينا أو سينا مكسورتين ، وأطلقوا على الظاهرتين اسم : الكشكشة والكسكسة^(١٤٣) .

هذا ، ومن الخطأ البين ، خلط هذه الشين ، بالشين المقتطعة

(١٤١) انظر : الصحاح (شياً) ٥٩/١ ومعانى القرآن للفراء ١٦٤/٢

(١٤٢) انظر : سر صناعة الإعراب ٢١٥/١ وألف باء للبلوى ٤٣٢/٢

(١٤٣) دروس فى علم أصوات العربية ١٤٠

من كلمة : (شيء) للدلالة على النفي ، في اللهجات العامية الحديثة .
وقد وقع في هذا الأستاذ عز الدين التبوخني في قوله : « ولا تزال العامة في
فلسطين ومصر يزيدون الشين بعد الكاف ، للمذكر والمؤنث معا ،
فيقولون ما أعطيتكش ، بلغة أسد وتميم^(١٤٤) » .

١٦ - اللخلخانية : هذا لقب لم يعرف القدماء معناه على وجه
التحديد ، فأطلقوا معناه إطلاقا ، وقالوا : هو اللكنة في الكلام والعجمة .
والمستول عن هذا التفسير ، فيما يبدو ، هو أبو عبيد القاسم بن سلام
الهروي (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) ؛ فهو يقول : « سمعت محمد بن الحسن
بإسناد له لا أحفظه ، عن رجل سماه أو كناه — أحسبه أبا الرباب —
قال : كنا بموضع كذا وكذا ، فأتانا رجل فيه لخلخانية . قال أبو عبيد :
الخلخانية العجمة ؛ يقال : رجل لخلخاني ، وامرأة لخلخانية ، إذا كانا
لا يفصحان . قال البيهقي بن بشر :

سَيَّرُكُهَا إِنْ سَلَّمَ اللَّهُ جَارَهَا
بُنُو اللَّخْلَخَانِيَّاتِ وَهِيَ رُثُوعُ

أراد : بنى العجميات^(١٤٥) .

وقال ابن سيدة ، بعد أن ذكر تفسير أبي عبيد : « والتختخة
اللكنة ، ورجل تحتخاني ، وهو نحو : اللخلخاني ، إلا أن اللخلخاني
الحضري المتجهور ، المتشبه بالأعراب في كلامه^(١٤٦) » .

وباللكنة في الكلام والعجمة ، فسر ابن الأثير : « قوم ارتفعوا
عن لخلخانية العراق » في حديث معاوية السابق ، ثم قال : « وقيل هو
منسوب إلى لخلخان ، وهي قبيلة ، وقيل : موضع^(١٤٧) » .

(١٤٤) هامش الإبدال لأبي الطيب ٢/٢٣٠ وقد تردد حفني ناصف في قبول مثل هذا الرأي في

كتابه : مميزات لغات العرب ٢٨

(١٤٥) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/٤٨٨ وانظر اللسان (لحن) ٤/٢٠

(١٤٦) المخصص ٢/١٢٣

(١٤٧) النهاية في غريب الحديث ٤/٢٤٤ وانظر اللسان (لحن) ٤/٢٠

وقد مرّ في حديث الرجل الجرمي ، في بعض الروايات ، عبارة :
« رُتّة العراق » و « فراتية العراق » وقد مر تفسيرهما هنا .

وأول من وضع للخلخانية تفسيراً محدداً ، هو أبو منصور الثعالبي
(المتوفى سنة ٤٢٩هـ) فقال : « اللخلخانية تعرض في لغات أعراب الشَّحَر
وعُمان ، كقولهم : مَشَا الله كان ، يريدون : ما شاء الله كان (١٤٨) » .

ولا شك أن السبب في تقصير الحركة هنا ، هو انتقال النبر
إلى المقطع الثاني في هذه الجملة ، والحركات الطويلة تعاني التقصير ،
بسبب تحول النبر عنها ، كما هو مشاهد في تطور اللغات (١٤٩) .

١٧ - الوتم : يعزى هذا اللقب إلى اليمن ، وهو عبارة عن قلب
السين تاء (١٥٠) . وينشد الفراء شاهداً على ذلك ، قول علباء بن أرقم :

يَا قَبَّحَ اللَّهُ بَنِي السَّعْلَةِ
عَمَرُو بَنَ يَرْبُوعَ شِرَارَ النَّاتِ
لَيْسُوا أَغْفَاءَ وَلَا أَكْيَاتِ

يريد بالنات : الناس ، وبالأكيات : الأكياس (١٥١) .

ولو صح ما روى عنهم ، ولم يكن الداعى إليه في هذا الرجز ، هو
ضرورة إقامة القافية على حرف واحد ، كان من السهل تفسير قلب السين
تاء ؛ لأنهما من الناحية الصوتية ، متناظران في الرخاوة والشدّة ، أى أنهما
يتفقان في المخرج ، وهو الأسنان واللثة ، كما يتفقان في الهمس ، وهو عدم
اهتزاز الأوتار الصوتية ، ويتفقان أخيراً في الترقيق ، والفرق الوحيد بينهما ،

(١٤٨) فقه اللغة للثعالبي ١٧٣ وعنه في المزهري ٢٢٣/١ ومميزات لغات العرب ٢٨ وانظر كذلك :

محاضرات الأدباء ٦٣/١

(١٤٩) انظر أمثلة لذلك في : لحن العامة والتطور اللغوي ٥٦ والتطور اللغوي وقوانينه

١٦١ - ١٦٢

(١٥٠) الاقتراح ٨٤ والمزهري ٢٢٢/١

(١٥١) القلب والإبدال لابن السكيت ٤٢

هو أن السين رخوة احتكاكية ، والتاء شديدة انفجارية . والملاحظ أن الصوتين إذا تناظرا ، أمكن قلب أحدهما إلى الآخر بسهولة ، وأمامنا التناظر بين الحاء والعين ، في الهمس والجهر ، وما أدى إليه من حدوث ظاهرة « الفحفحة » التي عرضنا لها من قبل .

١٨ - الوكم : يعزى هذا اللقب إلى ربيعة وقوم من كلب^(١٥٢) ، وناس من بكر بن وائل ، وهو عبارة عن كسر الكاف ، من ضمير المخاطبين المتصل : (كُمْ) ، إذا سبق بكسرة ، أو ياء ؛ فيقولون : « بِكُمْ » في : « بِكُمْ » ، و « عَلَيْكُمْ » في : « عَلَيْكُمْ » .

وتعليل هذه الظاهرة ، يخضع لقانون المماثلة بين الأصوات المتجاورة ؛ إذ تأثرت ضمة الكاف بما قبلها من كسرة أو ياء ، فقلبت كسرة ، لتنسجم مع ما قبلها .

ولم يقف المبرد على سر هذه الظاهرة ، فخطأها بشدة حين قال : « وناس من بكر بن وائل ، يجرون الكاف مجرى الهاء ؛ إذ كانت مهموسة مثلها ، وكانت علامة إضمار كالهاء . وذلك غلط منهم فاحش ؛ لأنها لم تشبهها في الخفاء ، الذي من أجله جاز ذلك في الهاء ، وإنما ينبغي أن يجرى الحرف مجرى غيره ، إذا أشبهه في علته ؛ فيقولون : مررت بِكُمْ^(١٥٣) » .

١٩ - الوهم يعزى هذا اللقب إلى بنى كلب كذلك^(١٥٤) . وهو عبارة عن كسر الهاء من ضمير الغائبين المتصل : (هُمْ) مطلقا ؛ فيقولون : « مِنْهُمْ » و « عَنْهُمْ » و « بَيْنَهُمْ » في : (مِنْهُمْ) و « عَنْهُمْ » و (بَيْنَهُمْ) .

واللغة الفصحى ، تبقى الحركة الأصلية لهذا الضمير ، وهى

(١٥٢) الاقتراح ٨٣ وفي الزهر ٢٢٢/١ : « وهم قوم من كلب » !

(١٥٣) المقتضب ٢٦٩/١

(١٥٤) الاقتراح ٨٣ والزهر ٢٤٢/١

الضم ، إلا إذا وقع بعد كسرة قصيرة أو طويلة أو ياء ؛ فتقول :
« بصاحبهم » و « قاضيهم » و « عليهم » في : (بصاحبهم)
و « قاضيهم » و « عليهم » ؛ بسبب قانون المماثلة بين الحركات ، تماما
كما حدث في : (كُمْ) في ظاهرة : « الوكم » السابقة ، عند ربيعة و كلب
وبكر بن وائل .

ولا يحدث هذا في الفصحى ، في ضمير الغائبين المتصل : (هُم)
فحسب ، بل يحدث كذلك في ضمير الغائب المذكر : (هُ) ، وضمير
الغائبات : (هُنَّ) ، وضمير المشي للغائبين والغائبتين : (هُما) ؛ بشرط
أن تسبق هذه الضمائر جميعها ، بكسرة طويلة أو قصيرة أو ياء (١٥٥) .

أما بنو كلب ، فإنهم يطردون الباب على وتيرة واحدة ، في
الضمير : (هُم) ، فيكسرون هاءه مطلقا ، سواء سبق بكسرة أو ياء ،
أم لم يسبق بواحدة منهما ؛ فهم يجرون قانون المماثلة ، فيما سبق بكسرة أو
ياء كما في الفصحى ، ويجرون القياس على ذلك ، فيما لم يستوف هذا
الشرط .

وخلاصة القول في : « الوكم » و « الوهم » ، أن الأصل في ضميرى
الخطاب والغيبة ، ضم الكاف والهاء ؛ في مثل : « كتابكُم »
و « كتابهُم » ، غير أن قبيلة كلب ، تجرى قانون المماثلة الصوتية في :
« كُمْ » ، فتقلب هذه الضمة كسرة إن سبقت بكسرة أو ياء ، وهذا
هو : « الوكم » . كما أن اللغة الفصحى ، تجرى هذه المماثلة بشرطها السابق
في : « هُم » . وتعمم قبيلة كلب هذه المماثلة هنا ، فيما لم يسبق بكسرة
أو ياء ، عن طريق القياس ، وهذا هو : « الوهم » عندهم .

(١٥٥) يروى عن الحجازيين أنهم لا يستخدمون قانون المماثلة ، في هذه الضمائر جميعها ،
فيحفظون لذلك بالضمة الأصلية فيها ، ويقرعون : فحسنا بهو ويدارهو الأرض . انظر المقتضب
للمبرد ٣٧/١

وأخيرا ، فهناك الكثير من الأخبار ، التي رويت لنا عن خصائص أخرى اللهجات العربية ؛ كاستعمال : « ذو » بمعنى (الذى) لدى طييء ، وتشنية الفعل وجمعه ، عندما يكون الفاعل مثنى أو مجموعا ، فى لغة بلحارث بن كعب ، وهى تلك التى عرفت بلغة : « أكلونى البراغيث » ، وقلب الميم باء والباء ميما عند قبيلة مازن ، وإلزام المثنى الألف ، عند بلحارث بن كعب وخثعم وزبيد وكنانة ، والوقف على المؤنث بالتاء لا بالهاء فى لغة طييء واليمن ... وما إلى ذلك مما تفرق هنا وهناك فى بطون كتب اللغة والأدب ، غير أننا التزمنا هنا أن نعالج تلك اللهجات التى لقبت بألقاب مختلفة ، عند اللغويين العرب .

★ ★ ★

البَابُ الثَّالِثُ بَيْنَ الشَّعْرِ وَالنَّشْرِ

الفصل الأول

خصائص الكلام بين الشعر والنثر

لن نتحدث هنا ، عن اللفظة الشعرية ، وانتقاء الشاعر للكلمات ذات الجرس الموسيقى ، الذى يناسب أغراضه المختلفة ، فليست تلك الصفة من خصائص الشعر وحده ، بقدر ما هى انسجام بين المعنى واللفظ المؤدى إليه ، ويستوى فى ذلك الشعر والنثر .

ولكن الذى يهمنا هنا ، هو أن الشعر ، بما فيه من قيود الوزن والقافية ، قد تمتنع فيه أشياء تجوز فى النثر ، كما قد تؤدى ضرورة الوزن فى بعض الأحيان ، إلى ابتداع نوع من الأسلوب ، الذى لم يألفه النثر ، بل ربما قادت تلك الضرورة ، إلى توليد الصيغ والألفاظ فى أحيان أخرى .

ولهذا السبب ينادى بعض الباحثين ، بضرورة الفصل بين لغتى الشعر والنثر ، فى وضع القواعد للغة من اللغات . ويرى أستاذنا « شبيتالر » A. Spitaler أنه « من أهم الواجبات ، فصل الشعر عن النثر ، عند التحدث عن بناء الجملة ، ووضع قواعد لنظامها ؛ لأنه ما دامت أية ظاهرة نحوية معينة ، لا تعرف إلا فى الشعر ، فإنها لا تصلح ظاهرة عامة ، تنطبق على النثر كذلك ، غير أن هناك صعوبة معينة ، وهى أن بعض التعبيرات الشعرية ، قد انتقلت إلى النثر كذلك ، ولا يمكن الفصل الحاد ، بين الشعر والنثر فى ذلك ^(١) » .

وهناك بداية لمحاولة طيبة ، فى الفصل بين لغة الشعر ولغة النثر ،

(١) انظر : A.Spitaler, Arabisch, S.126,2 .

في كتاب : « بلوخ » Alfred Bloch المسمى : « الشعر واللغة في العربية القديمة » Vers und Sprache im Altarabischen .

فمن أمثلة ما يختص به النثر العربي ، ولا يجوز في الشعر ، أنه يكثر في الأول توالى ثلاثة مقاطع قصيرة ، أو أكثر ، في كلمة واحدة ، أو في كلمات متتالية^(٢) ؛ مثل قول سلمان الفارسي ، لأحد الأساقفة ، قبل إسلامه : « فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك ، فأتعلم منك ، وأصلي معك^(٣) » ، فبعض المقاطع القصيرة المتتالية في هذه العبارة ، بلغ في بعض الأحيان ستة مقاطع في : (سَتِكَ فَاتٌ) ، وهذا لا يمكن أن يحدث في الشعر ؛ إذ لا يمكن أن تتوالى فيه أكثر من ثلاثة مقاطع قصيرة ، في أي بحر من البحور بحالٍ من الأحوال ، كما أنه لا يجوز فيه توالى ثلاثة مقاطع قصيرة ، إلا في البحور التي تقبل فيها التفعيلة ، (مستعلن) تقصير المقطعين الأولين فيها ؛ أو بعبارة العروضيين العرب : إذا دخلها زحاف (الخَبْل) ، وهو اجتماع : (الخَبْن) و (الطِّي) ، أي حذف الثاني الساكن ، والرابع الساكن ، فتصير على : (مُتَعْلُنٌ) ؛ وذلك يكون في بحر الرجز والسريع والبسيط والمنسرح ، ومع ذلك فهو ليس شائعا في الحقيقة ، إلا في الرجز .

ويمكن أن نلمس آثار عدم تقبل الشعر ، لتوالى هذا العدد من المقاطع القصيرة ، فيما يلي :

١ - لا يرد في الشعر العربي ، الصيغ الاسمية التالية ، مضافة إلى ضمير المخاطب : فَعِل ؛ مثل : « كَتِفَ » ، وفَعَلَ ؛ مثل : « قَلَمَ » ، وفَعَلَ ؛ مثل : « قَرَبَ » ، وفُعِلَ ؛ مثل : « فُرُشَ » ، وفُعِلَ ؛ مثل : « حُجَجَ » ؛ فلا يرد في الشعر مثل : كَتِفَكَ وَقَلَمَكَ وَقَرَبَكَ وَفُرُشَكَ وَحُجَجَكَ ، وما إلى ذلك وهو جائز في النثر .

(٢) انظر : A.Bloch, Vers u. Sprache, S.7, 15

(٣) سيرة ابن هشام ٢١٦/١

٢ - يكثر في الشعر العربي ، تسكين لام : « مَلِك » بدلا من تحريكها ؛ فراراً من توالي ثلاثة مقاطع قصيرة . مثال ذلك قول عمرو بن كلثوم :

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسُفًا
أَبَيْنَا أَنْ يُقَرَّ الْخَسْفُ فِينَا^(٤)
وقول الأعشى :

فَقَالَ لِلْمَلِكِ سَرَّحَ مِنْهُمْ مِائَةً
رِسَالًا مِنَ الْقَوْلِ مَخْفُوضًا وَمَا رَفَعًا^(٥)

وقول أبي النجم :

مِنْ مَشْيِهِ فِي شَعَرٍ يُذَيِّلُهُ
تَمَشَّى الْمَلِكِ عَلَيْهِ حُلَّةُ^(٦)

٣ - يقل ورود المفرد : « رَجُل » في الشعر ؛ مثل قول طرفة :
أَنَا الرَّجُلُ الْجَعْدُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ
خَشَّاشُ كَرَأْسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ^(٧)

ويكثر بدلا منها في الشعر كلمة : « مَرء » ، النادرة الورد في النثر ، كقول عمرو بن أحمـر الباهلي :

أَرْجَى شَبَابًا مُطَرِّهًمَا وَصِحَّةً
وَكَيفَ رَجَاءُ الْمَرءِ مَالِيسَ لَاقِيَا^(٨)

وقول الراعي التميمي :

وَلَا تُعْجِلُ الْمَرءَ قَبْلَ الْوُرُو
لِكَ وَهِيَ بِرُكْبَتِهِ أَبْصَرُ^(٩)

(٤) شرح القصائد السبع ٤٢٥

(٥) ديوانه ق ٦٧/١٣ ص ١١١ وشرح القصائد السبع ٤٢٥

(٦) شرح القصائد السبع ٤٢٥

(٧) شرح القصائد السبع ٢١٢

(٨) لسان العرب (طرهم) ٣٥٥/٥

(٩) الإبل للأصمعي ١١٤

٤ - لا يرد في الشعر مثل : « ثلاثمائة » و « أربعمائة » وما أشبه ذلك ؛ لتوالى ثلاثة مقاطع قصيرة أو أكثر فيها ، ويستعوض عنها الشعراء بعبارات مثل : « ثلاث مئتين » و « أربع مئتين » . وقد فر النابغة الذبياني من عبارة : « أربع ليال » المشتملة على ثلاثة مقاطع قصيرة ، وقال بدلا من ذلك :

بَاتَتْ ثَلَاثَ لَيَالٍ ثُمَّ وَاحِدَةً

بِذَى الْمَجَازِ تُرَاعَى مَنْزِلًا زَيْمًا^(١٠)

٥ - يستعمل في الشعر كلمة : « حِجَّة » مع العدد ، فيقال مثلا : « عشرين حجة » ، وهو تعبير نادر في النثر ، ويفر بذلك الشاعر من توالى ثلاثة مقاطع قصيرة ، في عبارة : « عشرين سَنَةً » . مثال ذلك قول لبيد :

رَعَى خَرَزَاتِ الْمُلْكِ عِشْرِينَ حِجَّةً

وَعِشْرِينَ حَتَّى فَادَ وَالشَّيْبُ شَامِلٌ^(١١)

وقول زهير بن أبى سلمى :

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً

فَلَأْيَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ^(١٢)

وقوله :

بَدَا لِي أَنَّى عِشْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً

تَبَاعاً وَعِشْرًا عِشْتُهَا وَثَمَانِيًا^(١٣)

وقوله :

فَغَيَّرَ عَنْهُ رُشْدَ عِشْرِينَ حِجَّةً

مِنَ الدَّهْرِ يَوْمٌ وَاحِدٌ كَانَ غَاوِيًا^(١٤)

(١٠) ديوانه ق ١٧/١٣ ص ١٠٩

(١١) ديوانه ق ٥٠/٣٦ ص ٢٦٦

(١٢) شرح القصائد السبع ٢٤١

(١٣) ديوان زهير ص ٢٨٦

(١٤) ديوان زهير ص ٢٨٩

وقول الخرنق أخت طرفة :
عَدَدْنَا لَهُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ حِجَّةً
فَلَمَّا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمًا^(١٥)

٦ - الشعر العربى ، لا يقبل الفعل الماضى الثلاثى الصحيح ،
وبعض الناقص المسند إلى الغائب ، إذا لم يأت بعده اسم مبدوء بهمزة
الوصل ؛ فلا يرد فى الشعر مثل : « كَتَبَ سَعْدٌ » و « لَقِيَ عَدُوًّا »
و « قُتِلَ فى الحرب » و « قَتَلَهُم » و « ضَرَبَ كَلْبًا » وما إلى ذلك .

وقد فطن كثير من قدامى اللغويين العرب ، إلى اختلاف لغة
الشعر ؛ عن لغة النثر ، فى بعض الأحيان^(١٦) ؛ وهذا هو أبو العلاء المعرى
مثلا ، يقول : « لا يزداد فى المنظوم على جمع بين أربعة أحرف متحركة ، فأما
النثر فيجمع الناطق فيه بين متحركات كثيرة ؛ لأنه يقدر أن يقول :
ضَرَبَ وَفَعَلَ وَصَنَعَ ... إلى أن ينقضى النفس . وأكثر مااجتمع فى
كتاب الله عز وجل ، من الحروف المتحركة ثمانية ؛ وذلك فى موضعين
من سورة يوسف ؛ أحدهما : قوله تعالى : (إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ
كَوْكَبًا) ، فبين واو كوكب ، وياء رأيت ، ثمانية أحرف كلهن متحرك .
والموضع الآخر : قوله تعالى : (حَتَّى يَأْذَنَ لِّى أَبِى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ
لِى) ، على قراءة من حرك الياء فى : لى و أبى . ومثل هذين الموضعين :
(سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ^(١٧)) . »

ومع ذلك ، فإن هؤلاء اللغويين ، « لم يحاولوا مطلقا الفصل بين
الشعر والنثر ، فى تقعيدهم القواعد ، بل خلطوا بينهما ، فأدى مثل هذا
الخلط إلى اضطراب فى بعض أحكامهم ، فليس بينهم من اقتصر

(١٥) ديوان الخرنق ص ١٩

(١٦) انظر : أبو زكريا الفراء ، لأحمد مكى الأنصارى ٣٤٥

(١٧) الصاهل والشاحج ٤٧٢

على الاستشهاد بالنثر ، فى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والخطب
والرسائل ، وكتب السير ، وغير ذلك من نثر ، صحت نسبته إلى القدماء
من الفصحاء ، بل نراهم فى غالب الأحيان يعتمدون على الشواهد
الشعرية ، مع قليل من آيات القرآن الكريم ، فى النادر من الأحيان ، ونراهم
يكتفون فى الكثير من الأحيان ، بتلك الأمثلة التى اصطنعوها اصطناعاً^(١٨)

★ ★ ★

الفصل الثاني

ضرورة الشعر والخطأ في اللغة

الضرورة الشعرية ، عند جمهور علماء العربية ، عبارة عن مخالفة المؤلف من القواعد في الشعر ، سواء أُلجئ الشاعر إلى ذلك بالوزن والقافية ، أم لم يُلجأ^(١) .

وهم بهذا التعريف ، يبعدون بالضرورة الشعرية ، عن معناها اللغوي وهو « الاضطراب » ، مما يجعل قبول رأيهم هذا ضربا من إلغاء التفكير المنطقي ، والتحكم بغير دليل أو برهان ؛ فإن الضرورة الشعرية في نظرنا ، ليست في كثير من الأحيان ، إلا أخطاء غير شعورية في اللغة ، وخروجا على النظام المؤلف في العربية ، شعرها ونثرها ؛ بدليل ورود الآلاف من الأمثلة الصحيحة ، في الشعر والنثر على سواء ، غاية ما هنالك ، أن الشاعر يكون منهمكا ومشغولا بموسيقى شعره ، وأنغام قوافيه ، فيقع في هذه الأخطاء ، عن غير شعور منه .

ويقوى رأينا هذا ما يذكره « أبو هلال العسكري » ، حين يقول عن الضرورة : « وإنما استعملها القدماء في أشعارهم ؛ لعدم علمهم بقبحاتها ؛ ولأن بعضهم كان صاحب بداية ، والبداية مَزَلَّة ، وما كان أيضا تنقد عليهم أشعارهم ، ولو قد نقدت ، وبُهرج منها المعيب ، كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة ، وبهرج من كلامهم ، ما فيه أدنى عيب ، لتجنبوها^(٢) » .

(١) انظر في ذلك : خزانة الأدب ٤/١ والاقتراح ١٢ والأشباه والنظائر ٢٢٤/١

(٢) الصناعتين ١٥٠

وقد عرفنا من قبل ، موقف اللغويين العرب من السليقة اللغوية ،
وأنهم كانوا يرونها مرتبطة بالجنس والوراثة ؛ ولذلك كان كثير منهم ، لا يجزؤ
على تخطئة الشعراء ، الذين كانوا يضطربهم وزن الشعر وموسيقاه ،
إلى مخالفة النظام اللغوي ، في بعض الأحيان ، سواء في بنية الكلمة
أم في الإعراب .

ولم يكن كثير من هؤلاء اللغويين والنحويين ، يعترف بما يسمى :
« ضرورة الشعر » ، فلم يكونوا يتصورون أن يخطيء شاعر في هذه اللغة ؛
لأنه يتكلمها بالسليقة في نظرهم ، فإذا وجدوا في شعر شاعر خروجاً عن
المألوف في القواعد ، راحوا يلتمسون له المعاذير والحيل ، ويتكلفون
في التأويل والتخريج ما لا يحتمل ، فإنه مثلاً على الرغم من أن عبد الله بن
أبي إسحاق الحضرمي ، قد عاب الفرزدق ، وخطأه في قوله :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ

مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجَلَّفًا

فإننا نجد من النحويين المتأخرين ، من يدافع عن الفرزدق ، ويلتمس له
مخرجاً ، كابن الأنباري الذي يقول : « فرفع (مجلف) على الاستئناف ،
كأنه قال : أو مجلف كذلك^(٣) » .

بل إن النحاة سرعان ما غيَّروا في رواية البيت ، لكي يستقيم لهم ما
يريدون ، من وجوه التأويل ؛ فقد « قيل للفراء : إن بعض الرواة يقول :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ مَابِهِ

مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجَلَّفًا

قال : ليس هذا بشيء ... حدثني أبو جعفر الرؤاسي ، عن أبي عمرو بن
العلاء ، قال : مر الفرزدق بعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، فأنشده

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَعْ

مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجَلَّفًا

(٣) الإنصاف في مسائل الخلاف ١٢١

فقال عبد الله للفرزدق : علام رفعت ؟ فقال له الفرزدق : على ما يسوءك !^(٤) .

كما يقول ابن جنى : « فأما قولهم : وَدَعَ الشَّيْءُ يَدْعُ إِذَا سَكَنَ - فَاتَّدَعَ ، فمسموع متبع . وعليه أنشد بيت الفرزدق : وَعَظُ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسَحَّتٌ أَوْ مُجَلَّفٌ

فمعنى : (لم يدع) ، بكسر الدال : أى لم يتدع ولم يثبت ، والجملة بعد : (زمان) فى موضع جرٍّ ، لكونها صفة له ، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه . وتقديره : لم يدع فيه أو لأجله من المال ، إلا مسحت أو مجلف ، فيرتفع (مسحت) بفعله ، و (مجلف) عطف عليه^(٥) .

وعلى ما فى كلام ابن جنى من التكلف الزائد ، وبنائه على رواية مغيرة ، لم يقلها الفرزدق نفسه ، فإنه يقول بعد ذلك : « وهذا أمر ظاهر ، ليس فيه من الاعتذار والاعتلال ، ما فى الرواية الأخرى ! وقد صدق ابن عبد ربه ، حين علق على هذا البيت بقوله : « وقد أكثر النحويون الاحتيال لهذا البيت ، ولم يأتوا فيه بشيء يُرضى^(٦) » .

والدليل عندنا على أن الشاعر ، كان يحفل بموسيقى الشعر والقافية ، ولا يأبه بالنظام اللغوى ، دون شعور منه أحيانا ، ما قاله محمد ابن سلام الجمحى ، فى تعليقه على بيت الفرزدق ، وعبارته : « وقال أبو عمرو بن العلاء : لا أعرف له وجهها . وكان يونس لا يعرف له وجهها .

(٤) معاني القرآن للفراء ١٨٢/٢

(٥) الخصائص لابن جنى ٩٩/١ وعنه فى المحكم لابن سيدة ٢٣٧/٢

(٦) العقد الفريد ٣٦٢/٥ وانظر كذلك : الشعر والشعراء ٨٩/١

قلت : لعل الفرزدق قالها على النصب ولم يأبه . قال : لا ، كان ينشدها على الرفع ، وأنشدنيها رؤية بن العجاج على الرفع ^(٧) .

وقد رأينا من قبل ، أن ما يسمى « بالإقواء » في الشعر ، ليس إلا خطأ في قواعد النحو ، يقع فيه الشاعر ، لكي يحتفظ بموسيقى القافية في شعره ، وإن كان بعض النقاد القدماء ، يرون أن الشاعر كان يخالف موسيقى القافية ، لكي يصحح النحو ، وهذا ما يسمونه « الإقواء » في نظرهم ؛ يقول قدامة بن جعفر ، وهو يتحدث عن عيوب القافية : « ومن عيوبها الإقواء ، وهو أن يختلف إعراب القوافي ؛ فتكون قافية مرفوعة مثلاً ، وأخرى مخفوضة ، وهذا في شعر الأعراب كثير ، وفي من دون الفحول من الشعراء . قال إسحاق : قلت ليونس : عبيد الله بن الحرّ يُقَوِّى ، فقال : الإقواء خير منه . وقد ركب بعض الفحول الإقواء في مواضع ، مثل ما قال سحيم بن وثيل الرياحي :

عَذَرْتُ الْبُزْلَ إِنْ هِيَ خَاطَرْتَنِي
فَمَا بَالِي وَبَالُ ابْنِ اللَّبُونِ
وَمَاذَا يَدْرِي الشُّعْرَاءُ مِنِّي
وَقَدْ جَاوَزْتُ رَأْسَ الْأَرْبَعِينَ

فنون الأربعين مفتوحة ، ونون اللبون مكسورة ، ولكنه كأنه وقف القوافي ، فلم يحركها . وقال جرير :

عَرِيْنٌ مِنْ عُرَيْنَةٍ لَيْسَ مِنَّا
بَرِئْتُ إِلَى عُرَيْنَةٍ مِنْ عَرِيْنِ
عَرَفْنَا جَعْفَرًا وَبَنِي عُيَيْدٍ
وَأُنْكَرْنَا زَعَانِفَ آخِرِنَا ^(٨) .

ويقول ابن رشيقي : « وعند أكثر العلماء ، اختلاف إعراب القوافي

(٧) طبقات فحول الشعراء ١٩ وعنه في الموشح ١٦٠

(٨) نقد الشعر ١٠٩

إقواء ، وهو غير جائز لمولّد ، وإنما يكون في الضم والكسر ، ولا يكون فيه فتح . هذا قول الحامض . وقال ابن جنى : والفتح فيه قبيح جدا^(٩) .

هذا هو اتجاه بعض نقاد الشعر . أما النحويون فإنهم كانوا يرون أن الشاعر يلتزم حركة واحدة في القافية ، ولا يخطيء مع ذلك في النحو ، وحين تزل قدمه في الإعراب ، يلتمسون له الحيل ؛ فيرى ابن هشام أنه يجوز كسر نون جمع المذكر السالم بعد الياء في الشعر ، ويخرج على ذلك الشاهدين السابقين ؛ فيقول : « ونون الجمع مفتوحة ، وكسرها جائز في الشعر بعد الياء ، كقوله : وأنكرنا زعانف آخرين ، وقوله : وقد جاوزت حد الأربعين^(١٠) » .

ويرى الزمخشري والأشموني أنه « قد يجعل إعراب ما يجمع بالواو والنون ، في النون . وأكثر ما يجيء ذلك في الشعر ، ويلزم الياء إذ ذاك^(١١) » ، ويخرجان على ذلك بيت سحيم السابق . وهذا معناه أن كلمة : (الأربعين) في هذا البيت ، مضاف إليه مجرور بالكسرة في النون . ويعقب الأشموني على ذلك بقوله : « والصحيح أنه لا يطرد ، بل يقتصر فيه على السماع » .



وإذا اضطر شاعر إلى تسكين بعض الكلمات ، لضرورة الوزن ، فإنه لا يعدم من النحويين ، منذ أيام سيبويه ، من يطلب له تأويلاً ، ويتكلف له قياساً ؛ فإذا قال الراجز :

فَاحْذَرْ وَلَا تَكْثُرْ كَرِيًّا أَهْوَجَا

عَلَجَا إِذَا سَاقَ بِنَا عَفَنْجَجَا^(١٢)

(٩) العمدة ١٠٩/١

(١٠) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ١٤

(١١) شرح المفصل لابن يعيش ١١/٥ وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٨٦/١

(١٢) شرح شواهد الشافية ٢٢٥/٤

أو إذا قال العذافر الكندي :

قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرُ لَنَا دَقِيقَا

وَهَاتِ حُبْزَ الْبُرِّ أَوْ سَوِيقَا^(١٣)

أو إذا قال أبو نخيلة :

إِذَا اعْوَجَّجْنِ قُلْتُ صَاحِبُ قَوْمٍ

بِالِدُوْ أَمْثَالِ السَّفِينِ الْعَوْمِ^(١٤)

أو إذا قال امرؤ القيس :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْتُ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ

إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاعِلِ^(١٥)

أو إذا قال لبيد بن ربيعة :

تَرَّاكَ أَمْكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا

أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامُهَا^(١٦)

أو إذا قال الأقيشر الأسدي :

رُحْتُ وَفِي رِجْلَيْكَ مَا فِيهِمَا

وَقَدْ بَدَا هُنَاكَ مِنَ الْمِئْزَرِ^(١٧)

أو إذا قال جرير :

سِيرُوا بَنَى الْعَمِّ فَالْأَهْوَاؤُ مَنَزِلُكُمْ

وَنَهْرُ تَيَرَى فَلَا تَعْرِفُكُمْ الْعَرَبُ^(١٨)

(١٣) شرح شواهد الشافعية ٢٢٥/٤

(١٤) سيبويه ٢٩٧/٢ والخصائص ٧٥/١ وشمس العلوم ١٤٦/١ وشرح شواهد الشافعية ٢٢٥/٤

ومعاني القرآن للزجاج ١٠٧/١

(١٥) ديوانه ق ١٠/١٦ ص ١٢٢ والخصائص ٧٤/١ وشمس العلوم ١٤٦/١ ومعاني القرآن

للزجاج ١٠٧/١ والشعر والشعراء ٩٨/١

(١٦) ديوانه ص ٣١٣ والخصائص ٧٤/١ والوساطة ٥ والشعر والشعراء ٩٨/١

(١٧) خزانة الأدب ٢٧٩/٢ وسيبويه ٢٩٧/٢ والوساطة ٧ وينسب إلى الفرزدق في العمدة

٢١١/٢ والشعر والشعراء ١٠٠/١ وأمالى ابن الشجري ٣٧/٢

(١٨) الخصائص ٧٤/١

أو إذا قال نهشل بن حرى :

فَلَمَّا تَيَّنَ غِبَّ أَمْرِي وَأَمْرِهِ

وَوَلَّتْ بِأَعْجَازِ الْأُمُورِ صُدُورُ^(١٩)

أو إذا قال الراعى :

تَأْبَى قُضَاعَةُ أَنْ تُعْرِفَ لَكُمْ نَسَبًا

وَابْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ^(٢٠)

أو إذا قال الشاعر :

وَمَنْ يَتَّقُ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَهُ

وَرَزَقُ اللَّهِ مُؤْتَابٌ وَغَادِي^(٢١)

إذا سكن هؤلاء الشعراء كلمات : لا تكثر ، واشتر ، وصاحب ،
وأشرب ، ويرتبط ، وهنك ، وتعرفكم ، وتبين ، وتعرف ، ويتق ، لضرورة
الوزن ، فإن سيويوه يرى أن ذلك شبيه بتسكين عين نحو : (فخذ)
و (عضد) ، عند من يسكنها فيهما ؛ فيقول : « وقد يجوز أن يسكنوا
الحرف المرفوع والمجرور في الشعر ، شبهوا ذلك بكسرة فخذ ، حيث حذفوا
فقالوا : فخذ ، وبضمة عضد ، حيث حذفوا فقالوا : عضد ؛ لأن الرفع
ضمة ، والجرة كسرة قال الشاعر :

رُحِتَ وَفِي رِجْلَيْكَ مَا فِيهِمَا وَقَدْ بَدَا هَنُكَ مِنَ الْمِئْزَرِ

ومما يسكن في الشعر ، وهو بمنزلة الجرّة ، إلا أن من قال : فخذ لم
يسكن ذلك . قال الراجز :

إِذَا اعْوَجَّجْنَ قُلْتُ صَاحِبُ قَوْمٍ

بِالْدُّوْ أَمْثَالِ السَّفِينِ الْعُومِ

فسألت من ينشد هذا البيت من العرب ، فزعم أنه يريد : (صاحبي) .

(١٩) الخصائص ٧٤/١

(٢٠) الخصائص ٧٤/١

(٢١) الصاحبي ٤٨ وشمس العلوم ١١٠/١ وشرح الشافية ٢٩٩/٢ وشرح شواهد الشافية ٢٢٥/٤

وقد يسكن بعضهم في الشعر ويشتم . وذلك قول الشاعر (امرئ القيس) :

فَالْيَوْمَ أَشْرَبْتُ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ
إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاعِغِلٍ^(٢٢) .

هذا تعليل سيبويه للتسكين في مثل هذه الأبيات ؛ لأن الشاعر عنده لا يخطيء ، ولا يضحى بالإعراب في سبيل موسيقى الشعر ، ذلك ما لم يخطر لسيبويه على بال ؛ ولذلك راح يتأول هذا التسكين ، ويلتمس له نظيرا بين لهجات القبائل .

فإذا اعترض معترض على ذلك ، بأن (كبدا) و (فخذنا) و (عضدا) وما شابهها ، كلمات كاملة ، على حين أن نظائرها في هذه الأبيات ، عبارة عن نهاية كلمة وبداية أخرى ، في كثير من الأحيان ؛ فإن ابن جنى يرى أن ذلك من معاملة المنفصل ، معاملة المتصل في العربية ، فيقول : « ومن إجراء المنفصل مجرى المتصل قوله : وقد بدا هنك من المنزر ، فشبه (هنك) بعضد ، فأسكنه كما يسكن نحو ذلك . ومنه : فالיום أشرب غير مستحقب ، كأنه شبه (ربغ) بعضد . وكذلك ما أنشده أبو زيد : قالت سليمة اشتر لنا دقيقا ، وهو مشبه بقولهم في عِلِمَ : عِلِمَ ؛ لأن (تَرَل) بوزن : عِلِمَ . وكذلك ما أنشده من قول الراجز : فاحذر ولا تكتر كريا أعوجا ؛ لأن (تَرَك) بوزن : عِلِمَ^(٢٣) » .

هذا هو رأى سيبويه وابن جنى . أما عبد القادر البغدادي ، فإنه يرى : « أن الشاعر سكن الراء (في أمثال : اشتر ، ولا تكتر) ، وهي عين الفعل ، وكان حقها الكسر ، كأنه توهم أنها لام الفعل ، فسكن للأمر^(٢٤) » .

(٢٢) سيبويه ٢/٢٩٧

(٢٣) الخصائص ٣/٩٥ وانظر كذلك : ٢/٣٣٩ والأشباه والنظائر ١/٢٧

(٢٤) شرح شواهد الشافية ٤/٢٢٥

ونحن نسأل « البغدادي » صاحب هذا الكلام : لماذا يحدث هذا التوهم في الشعر ، ولا يحدث في النثر ؟ ولماذا لا نقول إن موسيقى الشعر ووزنه ، هي التي اضطرت الشاعر إلى ترك التحريك في المواضع السابقة ؟ ويروى عن الأصمعي ، أنه عارض سيبويه في رأيه ، وردّ عليه شواهد ، يقول حمزة الإصفيهاني : « كان سيبويه يحكي عن الخليل أنه كان يجيز إسكان حرف الإعراب ، في الاسم المرفوع والمجرور في الشعر ، فعارضه الأصمعي ، وقال : ما جاءنا ذلك عن ثبت نعرفه ، فأنشده سيبويه للأقيشر :

رُحْتُ وَفِي رَجْلَيْكَ مَا فِيهِمَا وَقَدْ بَدَا هُنَاكَ مِنَ الْمِثْرِ

فقال الأصمعي : ليس للأقيشر بيت نعرفه ! فأنشده :
إِذَا اغْوَجَجْنَ قُلْنَ صَاحِبُ قَوْمٍ

فقال الأصمعي : ليست الرواية بصحيحة ، وإنما روايتنا : قُلْنَ صَاحِبُ قَوْمٍ^(٢٥) .

وقد رويت بعض هذه الأبيات السابقة ، بروايات أخرى يبدو فيها جهد الرواة ، في محاولة إصلاح الخلل الواقع فيها ، بسبب الوزن وموسيقى الشعر ؛ فبيت امرئ القيس مثلاً يروى في بعض المصادر^(٢٦) :

فَالْيَوْمَ فَاشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ
بصيغة الأمر للمخاطب ، على حين أن امرأ القيس ، يتحدث قبل هذا البيت عن نفسه ؛ فيقول :

حَلَّتْ لِي الْخَمْرُ وَكُنْتُ امْرَأً عَنْ شُرْبِهَا فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ
ولذلك تميل النفس إلى انتظار الفعل المضارع ، في البيت الذي

(٢٥) التنبيه على حدوث التصحيف ١٣٣ - ١٣٤

(٢٦) انظر مثلاً : الفاخر للمفضل بن سلمة ٧٧ وإصلاح المنطق ٢٤٥ ؛ والصحاح (وغل)

بعده ، بدلا من الأمر للمخاطب ؛ ولهذا السبب ورد البيت برواية أخرى ،
فطن فيها راويها ، إلى ما أشرنا إليه هنا على ما يظهر ، وهي :
فَالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ
وهي رواية المبرد والبطلانيوسى^(٢٧) . وقد ردّ على بن حمزة على المبرد هذه

الرواية ؛ فقال : « وروى المبرد بيت امرئ القيس :
فَالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ إِثْمًا مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاعِلٍ
ولم يقل امرؤ القيس إلا : فالיום أشرب . وهو ممن اشتهر به من تغييره
لروايته ... والهرب مما يجيء للشاعر الفصيح في شعره ، مما جاءت أمثله
لغيره من الفصحاء ، جهل من الهارب^(٢٨) » .

ويقول ابن جنى في ردّ رواية المبرد كذلك : « واعتراض أبي العباس
في هذا الموضع ، إنما هو ردّ للرواية ، وتحكم على السماع بالشهوة ، مجردة
من النصفة ، ونفسه ظلم ، لا من جعله خصمه . وهذا واضح^(٢٩) » .
وقد اشتهر المبرد ، بتغيير الروايات التي لا تعجبه ؛ فمن ذلك
ما صنعه في بيت جميل :

أَلَا لَا أَرَى إِثْنَيْنِ أَحْسَنَ شِمَمَةً

عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمَلِ
إذ لم يعجبه قطع همزة : (اثنين) لضرورة الوزن ، فغير الرواية ، وجعل
البيت : أَلَا لَا أَرَى خِلَيْنِ ؛ لكي يخلص من هذه الضرورة ، وادّعى أن
رواية : أَلَا لَا أَرَى إِثْنَيْنِ ، ليست بثبت^(٣٠) .

(٢٧) انظر : الكامل للمبرد ٢٤٤/١ وديوان امرئ القيس (أبو الفضل) ق ١٦/١٠ ص ١٢٢
أما رواية السكري وابن النحاس وأبي سهل والأعلم الشنتمري ، فإنها : « فاشرب » . انظر الديوان
ص ٤١٢ وفي العمدة لابن رشيقي ٢١١/٢ : « ويزعم قوم أن الرواية الصحيحة في قول امرئ القيس :
فاليوم أسقى ، وبذلك كان المبرد يقول . وقال آخرون : بل خاطب نفسه ، كما يخاطب غيره ، فقال : فاليوم
فاشرب » . وانظر كذلك : معاني القرآن للزجاج ١٠٨/١

(٢٨) التنبهات على أغاليط الرواة لعل بن حمزة ١١٦ وانظر كذلك : الشعر والشعراء لابن قتيبة

(٢٩) الخصائص ٧٥/١ وانظر كذلك : خزانة الأدب ٢٧٩/٢

(٣٠) انظر : نوادر أبي زيد ٢٠٤ وتعليق البغدادي على ذلك في : شرح شواهد الشافعية ١٨٤/٤

ومما أصلحه الرواة من الشواهد السابقة كذلك ، قول أبي نخيلة :
إِذَا أَعَوْجَجْنِ قُلْتُ صَاحِبُ قَوْمٍ

بِالدَّوِّ أَمْشَالَ السَّفِينِ الْعُومِ
فقد قال فيه الأعلام الشنتمري : « الشاهد فيه : تسكين الباء ضرورة ، وهو يريد : يا صاحب ، أو يا صاحبي ، تشبيها له في حال الوصل ، به إذا كان الوقف ، وهذا من أقبح الضرورة . ومن لا يرى هذا جائزا ينشد : قلت صاح قَوْم ، على الترخيم^(٣١) . وهو يعنى بذلك قول الأصمعي السابق ، في رده على سيبويه^(٣٢) .

كذلك توجد رواية أخرى ، لبیت لبید بن ربیعة :
تَرَأَى أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضْهَا
أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامُهَا
ففى شرح ديوان لبید (ص ٣١٣) : « ويروى : أَوْ يُعْتَقَى ، أى يحتبس » . ولا شك أن هذه الرواية ، لم يقلها لبید نفسه ، وإنما هى مما صنعه الرواة ؛ ليخلصوا البيت من الخطأ النحوى . ويقول شارح الديوان : « والفعل : (يرتبط) فى موضع رفع ، وجزمة أتعب النحويين فى التخريج » .

ومما يدلنا على أن الرواة كانت تصلح أشعار الشعراء ، ما روى عن الأصمعي أنه قال : « قرأت على خَلْفٍ شعر جرير ، فلما بلغت قوله :
فَيَا لَكَ يَوْمًا خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّهِ تَغَيَّبَ وَاشِيِهِ وَأَقْصَرَ عَادِلُهُ
فقال : ويله ! وما ينفعه خير يثول إلى شر ؟ قلت له : كذا قرأته على أبى عمرو . فقال لى : صدقت ، وكذا قال لى جرير ، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ ، فقلت : فكيف كان يجب أن يقول ؟ قال : الأجود

(٣١) شرح شواهد الكتاب للأعلام الشنتمري ٢٩٧/٢

(٣٢) ويقول نشوان الحميرى فى كتابه : شمس العلوم ١٤٦/١ : « وكان أبو العباس (المبرد) ينشده : صاح قوم ، بحذف الياء . وينشد : فالיום فاشرب بالفاء » . والمعروف أن رواية المبرد لبیت امرئ القيس : « فالיום أسقى » كما سبق !

لو قال : فيالك يوما خيره دون شره ، فاروه هكذا ! فقد كانت الرواة قديما تصلح أشعار القدماء . فقلت : والله لا أرويه بعدها إلا هكذا^(٣٣) .

ونعود مرة أخرى إلى الضرورات الشعرية ، فنقول : إن الشاعر قد يضطره الوزن أيضا إلى تحريك ما يجب إسكانه ، وعندئذ يتأوله النحويون واللغويون ؛ لأنهم لا يريدون أن يعترفوا ، بأن الشاعر قد يفعل ذلك محافظة منه على موسيقى الشعر ، وإن كان يخالف اللغة المألوفة :

ومن ذلك ما رواه أبو زيد الأنصاري^(٣٤) ، من قول الشاعر :
 مِنْ أَيِّ يَوْمَيَّ مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُ أَيُّومَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِّرَ^(٣٥)
 فهو يرى أن الشاعر هنا ، فتح الراء من : (يُقَدَّرَ) ، وحققها الجزم بلم ؛ لأنه أراد النون الخفيفة فحذفها ، أي أن هذا الفعل مؤكد بنون التوكيد الخفيفة ، التي حذفت وبقيت الفتحة في الفعل دليلا عليها .

ويرى بعض النحويين جواز ذلك ، وجواز قلب هذه النون ألفا في الوقف . وقد ضرب ابن الأنباري على ذلك بعض الشواهد ، وهو يشرح قول امرئ القيس ، في مطلع معلقته المشهورة :

قِفَا نُبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمُنْزِلِ

بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمِلِ
 فهو يرى أن قوله : (قفا) فيها « ثلاثة أقوال ؛ أحدهن : أن يكون مخاطب رفيق له ، وهذا مما لا نظر فيه . والقول الثاني : أن يكون مخاطب رفيقا واحدا وثني ؛ لأن العرب تخاطب الواحد بخطاب الاثنين ... والقول الثالث : أن يكون أراد : (قَفْنُ) بالنون ، فأبدل الألف من النون ، وأجرى الوصل على الوقف ، وأكثر ما يكون هذا في

(٣٣) انظر : نور القيس المختصر من المقتبس للمرزباني ٧٣

(٣٤) النوادر في اللغة ١٣

(٣٥) يروى عن علي بن أبي طالب في حماسة البحرى ٤٥ وانظر : شرح القصائد السبع ٣٤ وخزانة

الأدب ٥٨٩/٤ وسر صناعة الإعراب ٨٥/١ والخصائص ٢٩٤/٣

الوقف ، وربما أجرى الوصل عليه^(٣٦) . ثم ذهب ابن الأنباري ، يعدد الشواهد على هذا القول الأخير ؛ فقال : وأنشد الفراء :
فَمَهُمَا تَشَأْ مِنْهُ فَزَارَةٌ تُعْطِيكُمْ وَمَهُمَا تَشَأْ مِنْهُ فَزَارَةٌ تَمْنَعَا
أراد : تَمْنَعُنْ . وأنشد الفراء :

فَإِنْ لَكَ الْآيَامَ رَهْنٌ بِضَرْبَةٍ
إِذَا سُبِرَتْ لَمْ تَدْرِ مَنْ أَيْنَ تُسْبَرَا
أراد : تُسْبَرَنْ . وقال عمر بن أبي ربيعة :

وَقُمَيْرٌ بَدَا ابْنُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ
نَ لَهُ قَالَتِ الْفَتَاتَانِ قَوْمَا
أراد : قَوْمَنْ . وأنشد الفراء :

يَحْسِبُهُ الْجَاهِلُ مَا لَمْ يَعْلَمَا
شَيْخًا عَلَى كُرْسِيِّهِ مُعَمَّمَا
أراد : يَعْلَمَنْ . وقال الأعشى :

وَصَلَّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى
وَلَا تَحْمَدِ الْمُثْرِينَ وَاللَّهَ فَاحْمَدَا
وهذه الأبيات كلها في نظرنا ضرورة ، تحتملها قافية الشاعر المفتوحة . وقد رفض ابن جنى ، وهو يعلل لفتح الراء من : (يُقَدَّر) في البيت الذي رواه أبو زيد فيما سبق - أن تحذف نون التوكيد ، وعلل ذلك بأن حذفها فيه « نقض الغرض ؛ إذ كان التوكيد من أماكن الإسهاب والإطناب ، والحذف من مظاهر الاختصار والإيجاز^(٣٧) » .

ثم لا يعترف ابن جنى بعد ذلك بالضرورة ، التي ألجأت هذا الشاعر إلى نصب المجزوم ، بل يرتكب مشقة كبيرة في التخريج والتأويل ؛ فيقول : « لكن القول فيه عندي ، أنه أراد : (أَيُّوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِرْ) ، ثم خفف همزة : (أَمْ) ، فحذفها وألقى حركتها على راء : (يقدر) ، فصار

(٣٦) شرح القصائد السبع ١٧

(٣٧) الخصائص ٩٥/٣

تقديره : (أيوم لم يُقَدَّرَمْ) ، ثم أشبع فتحة الراء ، فصار تقديره : (أيوم لم يُقَدَّرَامْ) ، فحرك الألف لالتقاء الساكنين ، فانقلبت همزة ، فصار تقديره : (يُقَدَّرَ أَمْ) ، واختار الفتحة ، إتباعا لفتحة الراء^(٣٨) .

وقد ذكر ابن جنى هذا الرأى العجيب ، بتفصيل أكثر في كتابه : « سر صناعة الإعراب » ، وقال بعد الفراغ من عرضه : « فعلى هذا ينبغي أن يحمل عندى قوله : (أيوم لم يقدر أم يوم قدر) ويكون ارتكابك هذا الذى ، قد شاعت أمثاله عندهم ، وإن كان فيها بعض اللطف والغموض ، أسهل وأسوغ من حذفك نون التوكيد ؛ لأمرين :

أحدهما : أن ذلك لم يأت عنهم فى بيت غير هذا ، فيحمل هذا عليه . فأما ما أنشدوه من قول الآخر :

إِضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا

ضَرْبَكَ بِالسَّوْطِ قَوْسَ الْفَرَسِ^(٣٩)

فمدفوع مصنوع ، عند عامة أصحابنا ، ولا رواية تثبت به .

والآخر : ضعفه وسقوطه فى القياس ، وذلك أن التوكيد من مواضع الإطناب والإسهاب ، ولا يليق به الحذف والاختصار ، فإذا كان السماع والقياس جميعا ، يدفعان هذا التأويل ، وجب إلغاؤه وإطراحه ، والعدول عنه إلى غيره ، مما قد كثر استعماله ، ووضح قياسه^(٤٠) .

★★★

ولا تقتصر الضرورات الشعرية ، على الإعراب وحده ، بل تمتد إلى بنية الكلمة نفسها ، فتصيبها بالتغير والتحول ، فقد تقصر الحركات الطويلة ، فى مثل قول الأسود بن يعفر :

(٣٨) الخصائص ٩٥/٣

(٣٩) فى النوادر لأبى زيد ١٣ : « قال أبو حاتم : أنشدنى الأخفش بيتا مصنوعا لطرفة » ثم أنشده .

(٤٠) سر صناعة الإعراب ٩٣/١

فَالْحَقْتُ أَخْرَاهُمْ طَرِيقَ الْأَهْمُ
كَمَا قِيلَ نَجْمٌ قَدْ خَوَى مُتَتَابِعٌ^(٤١)

وقول رؤبة :

وَصَانِي الْعَجَاجُ فِيمَا وَصَنِي^(٤٢)

وقول أبي عامر جد العباس بن مرداس :

سَيْفِي وَمَا كُنَّا بِنَجْدٍ وَمَا
قَرَقَرُ قُمْرُ الْوَادِ بِالشَّاهِقِ^(٤٣)

وقول الأعشى :

وَأَخُو الْعَوَانِ مَتَى يَشَأُ يَصْرِمْنَهُ
وَيَكُونُ أَعْدَاءُ بُعَيْدٍ وَدَادٍ^(٤٤)

وقول مُضَرِّس بن رَبِيعِ الأَسَدِي :

فَطَرْتُ بِمُنْصُلِي فِي يَعْمَلَاتٍ
دَوَامِي الْأَيْدِ يَخْبِطُنَ السَّرِيحَا^(٤٥)

وقول أبي خِرَاشِ الهذلي :

وَلَا أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ
نَحَلًا أَنَّهُ قَدْ سَلَ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضٍ^(٤٦)

وقول أوس بن حجر :

وَلَكِنْ أُخَوِّكُ النَّاءِ مَا كُنْتَ آمِنًا
وَصَاحِبُكَ الْأَذْنَى إِذَا الْأُمْرُ أَعْضَلَا^(٤٧)

(٤١) أمالي ابن الشجري ١٧٩/٢

(٤٢) خزانة الأدب ٦٣/١

(٤٣) انظر تخريجه في كتابنا : التذكير والتأنيث في اللغة ٢٧

(٤٤) شرح شواهد الشافعية ٤٨١/٤

(٤٥) لسان العرب (يدي) ٣٠٢/٢٠ وشرح شواهد الشافعية ٤٨١/٤

(٤٦) ديوان الهذليين ١٢٣٠/٣

(٤٧) شرح شواهد الشافعية ٩٣/٤

وقول خُفاف بن نُدبة :

كَنَواجٍ رِيشٍ حَمَامَةٍ نَجْدِيَّةٍ
وَمَسَحَتْ بِاللَّثَيْنِ عَصْفَ الْإِثْمِيدِ^(٤٨)

وقول الشاعر :

كَفَّاكَ كَفٌّ لَا تُلِيْقُ دِرْهَمًا
جُودًا وَأُخْرَى تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدِّمَاءَ^(٤٩)

وقول الآخر :

لَيْسَ تَخْفَى يَسَارَتِي قَدَرُ يَوْمٍ
وَلَقَدْ تُخْفِ شِيَمَتِي إِعْسَارِي^(٥٠)

ففى هذه الأبيات ، اضطر الشاعر إلى تقصير الحركة الطويلة ، من الكلمات : (أولاهم - وصانى - الوادى - الغوانى - الأيدى - أدرى - النأى - نواحي - تعطى - تخفى) ؛ لكى يحتفظ بموسيقى الوزن ، وهو أمر لا يجوز إلا إذا جاء فى الكلام ساكن ، بعد هذه الحركة الطويلة ؛ فإنها تقصّر عندئذ فى النطق ، لا فى الكتابة ؛ مثل : « يدعو المؤمن إلى الحق » ، ومثل : « دوامى » فى بيت مضر بن ربيعى السابق ؛ فإن « الأصل رسم اللفظ ، أى كتابته بحروف هجائية ، يلفظ بها مع تقدير الابتداء به ، والوقوف عليه^(٥١) » . وإن كانت هذه القاعدة الكتابية ، قد شذت عنها مواضع فى كتابة المصحف العثمانى ؛ نظراً إلى أن قواعد الكتابة ، لم تكن قد استقرت بعد فى ذلك العصر المبكر ، فكتب كُتّاب المصحف بعض الكلمات القرآنية ، حسب النطق بها فى الوصل لا فى الوقف ؛ وذلك مثل قوله تعالى : « وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا » النساء ١٤٦/٤ « كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ » يونس

(٤٨) سر الفصاحة لأبن سنان الخفاجى ٨٥ وتلقيب القوافى لكيسان ٦٤

(٤٩) مقدمتان فى علوم القرآن ١٣٨ وأمالى ابن الشجرى ٧٢/٢ ومعانى القرآن للفراء ٢٦٠/٣

(٥٠) معانى القرآن للفراء ٢٦٠/٣

(٥١) رسالة فى علم الخط للسيوطى ٥٤ وانظر : الإتقان فى علوم القرآن ١٦٦/٢ وشرح الشافعية

١٠٣/١٠ « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا » الحج ٥٤/٢٢ « وَمَا أَنتَ بِهِادِ
 الْعُمِّي عَنْ ضَلَالَتِهِمْ » الروم ٥٣/٣٠ « فَأَخْلَعَ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ
 الْمُقَدَّسِ طُوًى » طه ١٢/٢٠ « حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ » النمل
 ١٨/٢٧ « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ » القصص
 ٣٠/٢٨ « إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » النازعات ١٦/٧٩
 « إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ » يس ٢٣/٣٦ « إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ »
 الصافات ٦٣/٣٧ « سَنَدُّغُ الزَّبَانِيَّةِ » العلق ١٨/٩٦ « وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ
 بِالْثَرِّ » ١١/١٧ « وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ » الشورى ٢٤/٤٢

وقد فطن إلى هذا الذى قلناه هنا ابن خالويه ؛ فقال عند قوله
 تعالى : سندع الزبانية : « والأصل : (سندعو) بالواو ، غير أن الواو
 ساكنة ، واستقبلتها اللام الساكنة ، فسقطت الواو ، فبنوا الخط عليه .
 وقد أسقطوا الواو فى المصحف فى : (سَنَدُّغُ) و (يَدْعُ الْإِنْسَانَ)
 و (يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ) ، وكذلك الياء من : (وَادِ النَّمْلِ) و (إِنَّ اللَّهَ
 لَهُادِ الَّذِينَ آمَنُوا) . والعلة فىهن ، ما أنبأتك من بنائهم الخط
 على الوصل (٥٢) .

أما ابن جنى ، فيعلل لذلك تعليلا خاطئا ؛ فيقول : « ويمح الله
 الباطل ، وسندع الزبانية ، كتبت فى المصحف بلا واو ، للوقوف عليها
 كذلك (٥٣) ؛ كما يقول كذلك : « ويمح الله الباطل ، ويوم يدع الداع ،
 وسندع الزبانية ؛ كتب ذلك بغير واو دليلا فى الخط ، على الوقوف عليه
 بغير واو فى اللفظ (٥٤) » ؛ لأنه على فرض أن بعض القراء ، يقف على هذه
 الكلمات ، بتقصير الحركات ، فإنه إنما يفعل ذلك ؛ لأنها كتبت بدون
 الواو ، لا أنها كتبت بدون الواو ، لأنه كان يوقف عليها بتقصير الحركات !
 ويذهب الزركشى فى تعليل ذلك ، مذهبا بعيدا حين يقول إن :

(٥٢) إعراب ثلاثين سورة ١٤١

(٥٣) الخصائص ٢٩٣/٢

(٥٤) الخصائص ١٣٤/٣

الواو « قد سقطت من أربعة أفعال ، تنبيهها على سرعة وقوع الفعل ، وسهولته على الفاعل ، وشدة قبول المنفعل المتأثر به في الوجود ، أولها : سندع الزبانية ، فيه سرعة الفعل ، وإجابة الزبانية ، وقوة البطش ... وثانيها : ويمح الله الباطل ، حذفت منه الواو علامة على سرعة المحو ، وقبول الباطل له بسرعة ... وثالثها : ويدع الإنسان بالشر ، حذف الواو يدل على أنه سهل عليه ، ويسارع فيه ، كما يعمل في الخير ، وإتيان الشر إليه من جهة ذاته ، أقرب إليه من الخير ... ورابعها : يوم يدع الداع ، حذف الواو لسرعة الدعاء ، وسرعة الإجابة^(٥٥) » .

والزركشى بكلامه هذا ، يعتقد أن كتاب الوحي ، كانوا يرمزون للمعاني الدقيقة ، التي يحاول هو أن يستنبطها - برموز كتابية مختلفة ، وهو ما لم يخطر على بال أحد منهم بلا ريب !

هذا ، ومن أمثلة تقصير الحركات الطويلة في الشعر ، لضرورة الوزن أيضا ، قول رؤبة :

إِذْ حَالَ دُونِي مِصْرَعُ الْبَابِ الْمِصْكُ

ويقول فيه صاحب لسان العرب : « يحتمل أن يكون عندهم : (المِصْرَع) لغة في : (المصراع) ، ويحتمل أن يكون محذوفا منه^(٥٦) » .

ومن أمثلة التقصير ، لضرورة الشعر كذلك ، قول متمم بن نويرة :
عَلَى مِثْلِ أَصْحَابِ الْبُعُوضَةِ فَأَحْمِشِي
لَكَ الْوَيْلُ حُرَّ الْوَجْهِ أَوْيَيْكَ مَنْ بَكَى

وقول الآخر :

مُحَمَّدٌ تَفْدٍ نَفْسِكَ كُلُّ نَفْسٍ
إِذَا مَا خِفَتْ مِنْ شَيْءٍ تَبَّالَا

(٥٥) البرهان في علوم القرآن ٣٩٧/١ ونقله السيوطي في الإتقان ١٦٨/٢ مع بعض التحريف !

(٥٦) لسان العرب (صرع) ٦٦/١٠

ففى هذين البيتين ، اضطر الشاعر إلى تقصير الحركة الطويلة فى :
 (ييكى) و (تفدى) فصارتا : (ييك) و (تفد) ؛ لضرورة الوزن ،
 وإن كان النحويون لا يجربون على الاعتراف بهذا ، ويزعمون أن هذين
 الفعلين ، مجزومان بلام الأمر المقدرة ؛ يقول سيبويه : « واعلم أن هذه
 اللام ، قد يجوز حذفها فى الشعر ، وتعمل مضمرة ، وكأنهم شبهوها بأن إذا
 عملت مضمرة^(٥٧) » .

غير أن المبرد ، لا يعجبه هذا التعليل ؛ فيقول : « والنحويون يميزون
 إضمار هذه اللام للشاعر إذا اضطر ، ويستشهدون على ذلك بقول متمم
 ابن نويرة ... يريد : أو لِيَبْكُ مَنْ بَكَى ، وقول الآخر ... فلا أرى ذلك
 على ما قالوا ؛ لأن عوامل الأفعال لا تضم ، وأضعفها الجازمة ؛ لأن الجزم
 فى الأفعال نظير الخفض فى الأسماء ، ولكن بيت متمم حمل على المعنى ؛
 لأنه إذا قال : فاخمشى ، فهو فى موضع : فلتخمشى ، فعطف الثانى على
 المعنى . وأما هذا البيت الأخير فليس بمعروف ، على أنه فى كتاب سيبويه
 على ما ذكرت لك^(٥٨) » .

ومن أمثلة تقصير الحركات ، لضرورة الوزن كذلك ، قول الشاعر :

فِي كِلْتَا رِجْلَيْهَا سَلَامَى زَائِدَه
 كِلْتَاهُمَا قَدْ قُرِئَتْ بِوَاحِدَه

وقول الآخر :

كِلْتَا كَفَّيْهِ تُوَالِي دَائِمًا
 بِجُيُوشٍ مِنْ عُقَابٍ وَنَعَمٍ

فإن « كلت » فى البيتين ، مقصورة من « كلتا » ، لضرورة
 الوزن ، وإن كان الكوفيون يرون أنها مفرد : « كلتا^(٥٩) » .

(٥٧) كتاب سيبويه ٤٠٨/١

(٥٨) المقتضب ١٣٢/٢

(٥٩) انظر فى ذلك : خزانة الأدب ٦٢/١ - ٦٥ ومعانى القرآن للفراء ١٤٢/٢

وكما تقصر الحركات لضرورة الوزن ، فإنها تطوّل أحيانا لهذا السبب
أيضا ؛ مثال ذلك قول الفرزدق :

تَنْفَى يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ
نَفَى الدَّرَاهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَّارِيفِ^(٦٠)

وقول أبي زبيد :

لَهَا صَوَاهِلُ فِي صُمِّ السَّلَامِ كَمَا
صَاحَ الْقَسِيَّاتُ فِي أَيْدِي الصَّيَّارِيفِ^(٦١)

وقول الفرزدق :

فَظَلًّا يَخِيطَانِ الْوَرَّاقَ عَلَيْهِمَا
بَأَيْدِيهِمَا مِنْ أَكُلِ شَرِّ طَعَامِ^(٦٢)

وقول ابن هرمة :

وَأَنْتَ مِنَ الْغَوَائِلِ حِينَ تَرْمِي
وَمِنْ دَمِّ الرَّجَالِ بِمَنْشَرَاكِ^(٦٣)

وقول المفضل التُّكْرِي :

تَلَاقَيْنَا بَغْيِيَّةَ ذِي طَرِيفٍ
وَبَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ خَيْقُ^(٦٤)

وقول امرئ القيس :

كَأَنِّي بَفَتْخَاءِ الْجَنَاحَيْنِ لِقْوَةَ
صَيُودٍ مِنَ الْعُقَيَّانِ طَاطَأْتُ شِيْمَالِي^(٦٥)

(٦٠) أمالي ابن الشجري ٢٢١/١ ؛ ١٥٧/٢ ورسالة الملائكة ٢٠٨ وشواهد التوضيح ٢٣

(٦١) ديوانه ق ٢/٣٨ ص ١١٩ وغريب الحديث لأبي عبيد ٦٨/٤

(٦٢) شواهد التوضيح ٢٢

(٦٣) شرح شواهد الشافية ٢٥/٤ والحماسة البصرية ١٩٠/١

(٦٤) تأويل مشكل القرآن ٢٣٤

(٦٥) شرح القصائد السبع ٣٣٢ ورسالة الملائكة ٢١١

وقول عنترة :

يَنْبَغُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ
زَيَّافَةٍ مِثْلِ الْفَنِيقِ الْمَكْدَمِ (٦٦)

وقول عمرو بن الأهتم :

وَسَوَاعِيْدٌ يَخْتَلِيْنَ اخْتِلَاءً
كَالْمَعَالِي يَطْرُنْ كُلَّ مَطِيرٍ (٦٧)

وقول النابغة الجعدي :

وَحَدَّ كَبْرُفُوعِ الْفَتَاةِ مُلَمَّعٍ
وَرَوْقَيْنِ لَمَّا يَعْدُوا أَنْ تَقَشَّرَا (٦٨)

وقول الراجز :

لَا عَهْدَ لِي بِنِيضَالٍ
أَصْبَحْتُ كَالشَّنِّ الْبَالِ (٦٩)

وقول الشاعر :

وَإِنِّي حَيْثُمَا يَسْرِى الْهَوَى بَصْرِي
مِنْ حَيْثُمَا سَلَكَوا أَدْنُو فَأَنْظُرُ (٧٠)

وقول الآخر :

مَمْكُورَةٌ جَمُّ الْعِظَامِ عُطْبُولُ
كَأَنَّ فِي أَنْيَابِهَا الْقَرْنُفُولُ (٧١)

(٦٦) شرح شواهد الشافعية ٢٤/٤ وخزانة الأدب ٥٩/١

(٦٧) الوحشيات لأبي تمام ق ٥/٥٤ ص ٤١ والصاهل والشاحج ٤٧٨

(٦٨) ديوانه ق ٣٠/٣ ص ٣٤ وإصلاح المنطق ١٠٢

(٦٩) شرح القصائد السبع ٣٣٢ وتهذيب اللغة ٦٦٦/١٥ ورسالة الملائكة ٢١١

(٧٠) الصاحبي ٥٠ وشواهد التوضيح ٢٤ وخزانة الأدب ٥٨/١ وشرح القصائد السبع ٣٣٢

والصاهل والشاحج ٤٧٧

(٧١) أمالي ابن الشجري ١٥٨/٢ وشواهد التوضيح ٢٤ والصاهل والشاحج ٤٧٦

وقول الثالث :

أَقُولُ إِذْ خَرَّتْ عَلَى الْكَلْكَالِ
يَانَاقَتِي مَا جُلَّتْ مِنْ مَجَالٍ^(٧٢)

وقول الرابع :

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْعَقْرَابِ
الشَّائِلَاتِ عُقْدَ الْأَذْنَابِ^(٧٣)

وقول الخامس :

لَوْ أَنَّ عَمْرًا هَمَّ أَنْ يَرْقُودًا
فَانْهَضَ فَشَدَّ الْمِئْزَرَ الْمَعْقُودًا^(٧٤)

ففى هذه الأمثلة السابقة ، أصبحت : الدراهم الدراهم ،
والصيارف الصيارف ، والورق الورق ، ومنتزح منتزح ، وحنق حنق ،
وشمالى شمالى ، وينبع ينباع ، وسواعد سواعيد ، وبرقع برقوع ، ونضال
نيضال ، وأنظر أنظور ، والقرنفل القرنفل ، والكلكل الكلكال ، والعقرب
العقرب ، ويرقد يرقود .

وروى ابن جنى أن « الدراهم لاحجة فيه ؛ لأنه يجوز أن يكون جمع
درهام ، وقد نطقت به العرب ، قال :

لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَائَتِي دِرْهَامٍ
لَجَازَ فِي آفَاقِهَا خَاتَمِي^(٧٥) »

وقد نسي ابن جنى أن الذى أنتج صيغة « درهام » فى هذا البيت ،
هو الضرورة كذلك . وأكبر الظن أن « خاتام » بمعنى : « خاتم » فى
البيت السابق ، ضرورة كذلك ، وإن كان سيبويه يزعم أنها وردت عن
العرب ؛ فيقول : « غير أنهم قد قالوا : خاتام ، حدثنا بذلك

(٧٢) تأويل مشكل القرآن ٢٣٤ والإنصاف ١٦ وتلقيب القوافى ٦٢ وشواهد التوضيح ٢٣

(٧٣) رسالة الملائكة ٢١٣

(٧٤) تهذيب اللغة ٦٦٥/١٥

(٧٥) سر صناعة الإعراب ٢٨/١ وانظر فى الرجز : رسالة الملائكة ٢٠٩ والصاهل والشاحج ٤٧٦

أبو الخطاب^(٧٦) . كما يقول المبرد : « فاعال ، ونظيره من الكلام :
ساباط وخاتام . قال الراجز :

يَامِي ذَاتَ الْجَوْرِبِ الْمُنَشَقِّ
أَخَذَتْ خَاتَامِي بَغَيْرِ حَقٍّ^(٧٧) .

ومع أن هذه الصيغ الجديدة ، قد نشأت في العربية ، بسبب ضرورة الوزن الشعري ؛ فإن أصحاب المعاجم العربية ، قد وضعوها في معاجمهم جنباً إلى جنب ، مع الصيغ الأصلية ؛ يقول الجوهري : « الدرهم فارسي معرّب ، وكسر الهاء لغة ، وربما قالوا : درهام^(٧٨) » ، كما يقول : « والخاتم والخاتم - بكسر التاء وفتحها - والخيتام ، والخاتام ، كله بمعنى^(٧٩) » ؛ ويقول كذلك : « والكلكل والكلكال : الصدر^(٨٠) » .

حقاً ، قد فطن بعضهم إلى أن السبب في نشوء هذه الصيغ ، هو ضرورة الشعر ؛ ففي لسان العرب : « والمعروف : الكلكل ، وإنما جاء : الكلكال في الشعر ضرورة ، في قول الراجز :

أَقُولُ إِذْ خَرَّتْ عَلَى الْكَلْكَالِ
يَانَاقَتِي مَا جُلَّتْ مِنْ مَجَالٍ^(٨١) .

وقد وجد بعض اللغويين ، وجهاً لبيت عنتره السابق ، يخلص به من الضرورة ؛ وذلك بجعل : (ينباع) في البيت ، على وزن يَنْفَعِلُ من : البَوَّع ، بمعنى : السيلان ؛ فقد روى عن ابن الأعرابي ، أنه قال : « ينباع : يَنْفَعِلُ ، من باع يَبُوع ، إذا مرَّ مرّاً لِيناً فيه تَلَوَّ . وأنكر

(٧٦) كتاب سيبويه ١١٠/٢

(٧٧) الكامل للمبرد ٢٢١/٢ وانظر كذلك : شرح شواهد الشافية ١٤١/٤

(٧٨) الصحاح (درهم) ١٩١٨/٥

(٧٩) الصحاح (ختم) ١٩٠٨/٥

(٨٠) الصحاح (كلل) ١٨١٢/٥

(٨١) لسان العرب (كلل) ١١٧/١٤ وشواهد التوضيح ٢٢ ومقدمتان في علوم القرآن ٢٢٦

أن يكون الأصل فيه : ينبع ، وقال : ينبع ، كما ينبع الماء من الأرض ، ولم يُرد هذا ، إنما أراد السيلان وتلويّه على رقبتها^(٨٢) .

والحق أن هذا التخريج الأخير هو الصواب ، فمادة : (بوع) بمعنى : السيلان ، مستعملة في اللغة ، كما في بيت السفّاح بن بُكير اليربوعي :

يَجْمَعُ حِلْمًا وَأَنَاةً مَعًا
ثُمَّتَ يَنْبَاعُ انْبِيعُ الشُّجَاعُ^(٨٣)

كما ورد منه اسم الفاعل ، في قول مُزَرَّد بن ضرار :
وَمُطَرِّدٌ لَدُنْ الكُؤُوبِ كَأَنَّمَا
تَغَشَّاهُ مُنْبَاعٌ مِنَ السَّرِيَّتِ سَائِلُ^(٨٤)

كما ورد المضارع كذلك ، في المثل العربي : « مُخَرَّبِقٌ لِيَنْبَاعِ »
أى : ساكن لينبعث^(٨٥) .

ومع ذلك ، لم يعجب البغدادى بهذا التخريج ، فقال : « وإنكار ابن الأعرانى رواية : (ينبع) مردود برواية الثقات . وقوله : ليس المراد ينبع إلخ ، مردود أيضا ؛ فإن (الذفرى) هو الموضع الذى يعرق من الإبل خلف الأذن^(٨٦) » . أما ابن الشجرى ، فيقول : « أراد ينبع ، يعنى العرق ، فأشبع فتحة الباء^(٨٧) » .

ومن أمثلة الصيغ الجديدة ، التى نشأت في اللغة ، بسبب ضرورة الوزن الشعري ، وتكلف اللغويون تخريجها وتأويلها ، ما رواه أبو عبيد

(٨٢) خزانة الأدب ٥٩/١ وانظر كذلك : شرح القصائد السبع ٣٤٤

(٨٣) الفضليات ق ٦/٩٢ ص ٦٣١ والحامسة البصرية ١٨٧/١ وشرح القصائد السبع ٣٣٤

(٨٤) ديوانه ق ٥٠/٢ ص ٤٥ والتشبيهات لابن أنى عون ١١٤

(٨٥) انظر : مجمع الأمثال للميداني ١٧٥/٢ وفصل المقال ١٤٦

(٨٦) خزانة الأدب ٥٩/١

(٨٧) أمالي ابن الشجرى ١٥٨/٢

البكري^(٨٨) ، من قول نميرة بن حصن المازني ، يرثى ابنه :
 إِنِّي أَرِيءُ الشَّامِتِينَ تَجَلُّدِي
 وَإِنِّي لَكَالطَّاوِي الْجَنَاحَ عَلَى كَسْرِ
 وَعَلَّقَ عَلَيْهِ بقوله : « جاء بقوله : (أريء) على الأصل ، راء
 الرجل الشيء ، وأراءه غيره ، فهو يُرِيئه » .

ولا يعجب الميمنى هذا التعليق ، فيقول في الهامش : « ليس
 على الأصل ، وإنما هو من باب القلب : رأى وراء ، كنأى وناء ، وأراء
 مقلوب : أرى ، ومضارعه : يُرىء » .

والحق أن هذا الفعل ، في نظرنا نحن ، لم يرد لا على الأصل -
 كما يقول البكري ، ولا على القلب - كما يقول الميمنى ، وإنما دعت إليه
 ضرورة الوزن . ولعل الرواية لم تكن على هذا النحو أصلاً ، وإنما كانت
 هكذا :

إِنِّي أَرِي الشَّامِتِينَ تَجَلُّدِي
 وَإِنِّي لَكَالطَّاوِي الْجَنَاحَ عَلَى كَسْرِ
 بقطع الهمزة في : « الشامتين » ضرورة ، كما قال لبید :
 أَوْ مُذْهَبٌ جَدَّدُ عَلَى الْوَاحِيهِ
 النَّاطِقُ الْمَبْرُورُ وَالْمَخْتُومُ^(٨٩)

وإن كانت الرواة ، قد غيرت بيت لبید هذا ، فجعلته هكذا :
 أَوْ مُذْهَبٌ جَدَّدُ عَلَى الْوَاحِيهِ النَّاطِقُ الْمَبْرُورُ وَالْمَخْتُومُ
 قال ابن منظور ، بعد أن روى البيت على الأصل : « ويروى :
 على ألواحهن الناطق . وإنما عدل عن ذلك بعض الرواة ، استيحاشاً من

(٨٨) سمط اللآلى ٥٨٤/١

(٨٩) ديوانه ص ١١٩ وسيبويه ٢٧٤/٢ والخصائص ١٩٣/١

قطع ألف الوصل ، وهذا جائز عند سيبويه في الشعر ، ولاسيما في الأنصاف ؛ لأنها موضع فصول^(٩٠) .

كما غيّرت الرواة - أو النساخ - بيت نويرة بن حصين السابق ، إلى :

إِنِّي أَرَى لِلشَّامِتِينَ تَجَلُّدِي
وَإِنِّي لَكَالطَّائِرِ الْجَنَاحِ عَلَى كَسْرِ^(٩١)

والآن ، وبعد أن انتهينا من سرد الكثير من الأمثلة ، التي تدل على حرص هؤلاء اللغويين ، على عدم تخطئة الشعراء ، والتماسهم العلل والمعاذير ، لما وقعوا فيه من الأخطاء اللغوية ؛ بسبب ضرورة الوزن ، نحب بعد هذا كله ، أن ننوه بتلك القلة النادرة من اللغويين ، الذين لم يغالوا في تقدير كل ما وصل إلينا ، من كلام الشعراء الأقدمين ، بل اعترفوا بأن هناك ضرورات للوزن الشعري ، تلجىء الشعراء أحيانا إلى مخالفة المؤلف من ألفاظ اللغة وقواعدها .

ومن هؤلاء اللغويين : أبو بكر بن السراج (المتوفى سنة ٣١٦ هـ) ، الذي يقول : « ربما وجدت الشاعر من القدماء الفصحاء ، يحوجه الوزن إلى قلب البناء ، أو يحتاج إلى المعنى ، فيشتق له لفظا ، يلتئم به شعره^(٩٢) » .

ومنهم كذلك : حمزة بن الحسن الإصفهاني (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) ، الذي يقول : « إنهم وجدوا اللغة العربية ، على الضد من سائر لغات الأمم ، لما يتوَلَّد فيها مرة بعد مرة ، وأنَّ المؤلِّد لها قرائح الشعراء ، الذين هم أمراء الكلام ، بالضرورات التي تمر بهم في المضايق ،

(٩٠) لسان العرب (ذهب) ٣٨٠/١

(٩١) انظر : أمالي القالي ٢٦٥/١

(٩٢) الاشتقاق ٣٩

التي يدفعون إليها ، عند حصر المعاني الكثيرة في بيوت ضيقة المساحة ، والإعنات الذي يلحقهم عند إقامة القوافي ، التي لا محيد لهم عن تنسيق الحروف المتشابهة في أواخرها ، فلا بد أن يدفعهم استيفاء حقوق الصنعة ، إلى عَسْف اللغة بفنون الحيلة ، فمرة يعسفونها بإزالة أمثلة الأسماء والأفعال ، عما جاءت عليه في الجبلة ، لِمَا يدخلون من الحذف عنها ، أو الزيادة فيها ، ومرة بتوليد الألفاظ ، على حسب ما تسمو إليه همهم عند قرض الأشعار^(٩٣) .

ويقول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (المتوفى سنة ٣٦٦ هـ) : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظر هل تجد فيها قصيدة ، تسلم من بيت أو أكثر ، لا يمكن لعائب القدح فيه ، إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه أو إعرابه ؟ ولولا أن أهل الجاهلية جُدُوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة ، والأعلام والحجة ، لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب ، وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام^(٩٤) » .

وبعد أن يذكر الجرجاني مجموعة لا بأس بها ، من أغلاط الشعراء - تقدم بعضها هنا - يقول : « ثم تصفحت مع ذلك ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج إذا أمكن . تارة بطلب التخفيف ، عند توالى الحركات ، ومرة بالإتباع والمجاورة ، وما شاكل ذلك من المعاذير المتمحلة ، وتغيير الرواية إذا ضاقت الحجة ، وتبينت مراموه في ذلك من المرامي البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التي يشهد القلب أن المحرك لها ، والباعث عليها ،

(٩٣) التنبيه على حدوث التصحيف ١٥٧ - ١٥٨

(٩٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٤

شدة إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس^(٩٥) .

ويأتى ابن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) ، فيؤلف فى ذلك تأليفاً مستقلاً ، بعنوان : « ذم الخطأ فى الشعر » ، وهو عبارة عن رسالة صغيرة فى وريقات ؛ يقول فيها^(٩٦) : « والذى دعانا إلى هذه المقدمة ، أن ناسا من قدماء الشعراء ومن بعدهم ، أصابوا فى أكثر ما نظموا من شعرهم ، وأخطئوا فى اليسير من ذلك ، فجعل ناس من أهل العربية ، يوجهون لخطأ الشعراء وجوها ، ويتمحلون لذلك تأويلات ، حتى صنعوا فيما ذكرنا أبواباً ، وصنّفوا فى ضرورات الشعر كتباً ... قال ابن فارس : فيقال لجماعتهم : ما الوجه فى إجازة ما لا يجوز إذا قاله شاعر ؟ وما الفرق بين الشاعر والخطيب والكاتب ؟ ... فإن قالوا : لأن الشعراء أمراء الكلام ، قيل : ولم لا يكون الخطباء أمراء الكلام ؟ وهبنا جعلنا الشعراء أمراء الكلام ، لم أجزنا هؤلاء الأمراء أن يخطئوا ، ويقولوا ما لم يقله غيرهم ؟

» فإن قالوا : إن الشاعر يضطر إلى ذلك ؛ لأنه يريد إقامة وزن شعره ، ولو أنه لم يفعل ذلك ، لم يستقم شعره . قيل لهم : ومن اضطره أن يقول شعراً ، لا يستقيم إلا بإعمال الخطأ ؟ ونحن لم نر ولم نسمع بشاعر ، اضطره سلطان ، أو ذو سطوة ، بسوط ، أو سيف ، إلى أن يقول فى شعره ما لا يجوز ، وما لا تجيزونه أنتم فى كلام غيره .

» فإن قالوا : إن الشاعر يعنُّ له معنى ، فلا يمكنه إبرازه إلا بمثل اللفظ القبيح المعيب . قيل لهم : هذا اعتذار أقبح وأعيب . وما الذى يمنع الشاعر إذا بنى خمسين بيتاً على الصواب ، أن يتجنب ذلك البيت المعيب ، ولا يكون فى تجنبه ذلك ، ما يوقع ذنباً أو يُزرى بمروءة ؟ » .

(٩٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٩

(٩٦) ذم الخطأ فى الشعر ، صفحة ١٧ وما بعدها .

إلى أن يقول ابن فارس في آخر الرسالة : « وهذا كثير ، وليس الغرض إثباته لكثيرته وشهرته ، ولكن الغرض الإبانة عن أن الشعراء ، يخطئون كما يخطيء الناس ، ويغلطون كما يغلطون . وكل الذى ذكره النحويون في إجازة ذلك والاحتجاج له ، جنس من التكلف » .

وقد أشار ابن فارس ، إلى مذهبه هذا مرة أخرى ، في كتابه : « الصاحبى » ، فقال^(٩٧) : « ولا معنى لقول من يقول : إن للشاعر عند الضرورة أن يأتي في شعره بما لا يجوز ... وما جعل الله الشعراء معصومين ، يُوقُونَ الخطأ والغلط ، فما صح من شعرهم فمقبول ، وما أبته العربية وأصولها فمردود » .

وأخيرا ، يرى أبو عبيد الله محمد بن شرف القيروانى (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ) أن « من عيوب الشعر اللحن ، الذى لا تسعه فسحة العربية ، كقول جرير :

وَلَوْ وَلَدْتُ لِعَنْزَةٍ جَرَّوْ كَلْبٍ
لَسُبُّ بِذَلِكَ الْجَرَّوِ الْكِلَابَا
فنصب (الكلاب) بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع . وكقول الفرزدق :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا أَبْسَنَ مَرَّوَانٍ لَمْ يَدْعُ
مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجَلَّفُ
فرفع (مجلفا) وحقه النصب ، وقد تحيل بعض النحويين أيضا للفرزدق ، على وجهه ، الإقواء أحسن منه ، فاحذر منه ، وإياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر ، فكيف بضيق^(٩٨) » .

(٩٧) انظر : الصاحبى ٢٧٥

(٩٨) أعلام الكلام لابن شرف ٣٧

ويهمنا في نهاية هذا الفصل ، أن نؤكد أنه لا صحة لما يتردد على ألسنة القوم ، من أن الضرورة الشعرية ، رخصة للشاعر ، يرتكبها متى أراد ، لأن معنى هذا الكلام ، أن الشاعر يباح له عن عمد ، مخالفة المؤلف من القواعد ، وهو ما يتعارض مع ما وصل إلينا من أخبار الشعراء في القديم .

كما يهمنا أن نؤكد مرة أخرى ، أن هذه الضرورات ، التي أشرنا إلى أهمها هنا ، ليست إلا أخطاء في اللغة ، وخروجا على النظام المؤلف في العربية ، شعرها ونثرها ؛ بدليل ورود الآلاف من الأمثلة الصحيحة لهذه الظواهر ، في الشعر نفسه . وهذا هو الفرق الوحيد بينها وبين الظواهر ، التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ، والتي يختص الشعر فيها بنماذج معينة ، تميزه عن لغة النثر ، وهي نماذج يجب أن تحصى ، باستقراء الأشعار المختلفة ، ثم تبني عليها قواعد للغة الشعر ، وهو ما نرجو أن تتكفل به بحوث المستقبل .

الفصل الثالث

أثر الوزن الشعري في أبنية العربية

نقرأ في كتب الصرف العربية ، أن كلمات مثل : (اطمأن) و (اشماز) و (اشراّب) و (اقشعر) و (ازمهر) وغيرها ، وزنها : (افعلّل) ، وهذا يعني أن الهمزة في الكلمات الثلاث الأولى أصلية ، وكذلك العين في الكلمة الرابعة ، والهاء في الكلمة الخامسة ؛ يقول ابن جني مثلاً : « من الأصليين المتداخلين : الثلاثي ورباعي قولهم : زَرِمَ وازرأَمَ ، وَخَضِلَ وَاخْضَأَلَ ، وَأَزْهَرَ وَازْهَأَرَ ، وَضَفَدَ وَاضْضَفَأَدَ ، وَزَلِمَ الْقَوْمَ وَاَزْلَأُمُوا ... وينبغي أن يكون هذا من أصليين : ثلاثي ورباعي ، وهو قياس قول أبي عثمان ... فأما ازرأَمَ وَاضْضَفَأَدَ ونحو ذلك ، فلا تكون همزته إلا أصلاً^(١) » .

غير أن أبا منصور الأزهري ، ذكر^(٢) - وهو يعدّ أنواع الهمزات في اللغة العربية - الهمزة التي تزداد ، لئلا يجتمع ساكنان ، ومثّل لها باطمأنّ واشمازّ وغيرها ، أي أن أصل اطمأنّ : اطمأن ، وأصل اشمازّ : اشماز ، وهكذا .

فما حكاية التقاء الساكنين هذه ؟ ذكروا أنه لا يجوز في العربية ، التقاء الساكنين إلا في حالتين ؛ الأولى : حالة الوقف ، كما لو وقفنا على مثل : (باب) و (كتاب) وغيرهما .
والثانية : في وسط الكلمة ، بشرط أن يكون الأول من الساكنين ، حرف

(١) الخصائص ٥٠/٢ - ٥١

(٢) تهذيب اللغة ٦٨٢/١٥ وانظر كذلك : لسان العرب ١٠/١

مد ، والثاني مدغما في مثله ؛ نحو : (دابة) و (شابة) و (الضالين) ونحو ذلك .

والحقيقة أنه لا وجود لما يسمّى بالتقاء الساكنين هنا . وقد وقع النحويون العرب ، في هذا الوهم ، بسبب الخط العرّبي ، فظنوا الألف حرفا ساكنا ، وهو في الواقع رمز للفتحة الطويلة ، وإنما نحن في هذه الأمثلة ، أمام ما يسمى بالمقطع الرابع ، من المقاطع الصوتية . وبيان ذلك يلزمنا هنا التعرّيج على أنواع المقاطع الصوتية في العربية .

والمقطع الصوتي هو عبارة عن كمية من الأصوات ، تحتوى على حركة واحدة ، ويمكن الابتداء بها والوقوف عليها ، من وجهة نظر اللغة موضوع الدراسة ؛ ففي العربية الفصحى مثلا ، لا يجوز الابتداء بحركة Vowel وعلى ذلك فكل مقطع فيها ، يبدأ بصوت من الأصوات الصامتة Consonant . ويقول كاتنينو : « إن الفترة الفاصلة بين عمليتين ، من عمليات غلق جهاز التصويت ، سواء أكان الغلق كاملا أم جزئيا ، هي التي تمثل المقطع^(٣) » .

وأنواع المقاطع العربية في الفصحى خمسة : مقطع قصير مفتوح ، وهو ما تكوّن من صوت صامت وحركة قصيرة ؛ مثل : ك (ka) ، ومقطع طويل مفتوح ، وهو ما تكوّن من صوت صامت وحركة طويلة ؛ مثل : في (fī) ، ومقطع طويل مغلق حركته قصيرة ، وهو ما تكوّن من صوتين صامتين بينهما حركة قصيرة ؛ مثل : من (min) ، ومقطع طويل مغلق حركته طويلة ؛ مثل : باب (bāb) في الوقف ، ومقطع زائد في الطول ، وهو ما بدأ بصوت صامت ، ثم حركة قصيرة ، ثم يختم بصوتين صامتين متتاليين ؛ مثل : بنت (bint) في الوقف .

والمقطع الرابع لا يجوز في العربية الفصحى ، إلا في آخر الكلمة

(٣) دروس في علم أصوات العربية ١٩١

في حالة الوقف عليها ، أو في وسطها بشرط أن يكون المقطع التالي له ، مبتدئا بصامت يماثل الصامت الذي تُختم به . وهذه الحالة الأخيرة ، هي ما عبر عنها اللغويون العرب القدامى (بالتقاء الساكنين على أحدهما) ، وهو أن يكون الأول حرف مدّ ، والثاني مدغما في مثله^(٤) ؛ نحو : (دابة) و (شابة) و (الضالّين) و (مدهامتان) و (احمارّ) و (اصفارّ) وما أشبه ذلك .

فصيغة (افعال) إذن ، يغتفر فيها التقاء الساكنين ، على رأى النحاة ، أو بعبارة أخرى : يجوز فيها ورود المقطع الرابع ، بالاصطلاح الذي يعرفه علماء الأصوات اليوم !

غير أننا لا يصح أن ننسى ، أن كل ذلك خاص بالنثر ، أما الشعر فإن هذا المقطع الرابع ، لا يجوز فيه أصلا ، إلا في الوقف على القافية ، أى أنه لا يجوز فيه أمثال : دابة ، وشابة ، والضالّين ، ومدهامتان ، واحمارّ ، واصفارّ ، وغيرهما ، وإن كان المبرد يرى أنه يجوز في بحر المتقارب ؛ فيقول : « وَحَمَارَّةُ الْقَيْظِ : اشتداد حرّه واحتدامه . وَحَمَارَّةٌ مِمَّا لَا يَجُوزُ أَنْ يَحْتَجَّ عَلَيْهِ بَيْتُ شِعْرٍ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْحُرُوفِ التَّقَاءِ سَاكِنِينَ ، لَا يَقَعُ فِي وَزْنٍ إِلَّا فِي ضَرْبٍ مِنْهُ ، يُقَالُ لَهُ الْمُتَقَارِبُ ، فَإِنَّهُ جُوزَ فِيهِ - عَلَى بَعْدِ - التَّقَاءُ السَّاكِنِينَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

فَذَاكَ الْقِصَاصُ وَكَانَ التَّقَا

صُ فَرَضًا وَحْتَمًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ

ولو قال : وكان القصاص فرضا وحتما ، كان أجود وأحسن ، ولكن قد أجازوا هذا في هذه العروض ، ولا نظير له في غيرها من الأعاريض^(٤) .

(٤) الكامل للمبرد ٢٥/١ وقد نقل البطليوسى كلام المبرد في شرحه لفصيح ثعلب . انظر الزهر ١٠٧/٢ وانظر كذلك : خزانة الأدب ٤٩٠/٤ والعمدة ٩٠/١ والصاهل والشاحج ١٦٢ ولسان العرب (قصص) ٣٤٤/٨ وقال عنه التبريزى في الكافي ١٨ : « والرواية الجيدة : وكان القصاص ، حتى لا يجتمع فيه ساكنان » . ويرى الأخفش أن « دابة لا تقع في الشعر ، لأن فيه حرفين ساكنين ملتقيين ، أحدهما الألف والآخر الياء المدغمة » انظر : نور القبس ٩٨

وقد ذكر المبرد ذلك مرة أخرى ، عند قوله : « مشعان الرأس ،
يعنى : منتفخ الشعر متفرقة . ومثل هذا لا يكون فى شعر ؛ لأن فى هذا
التقاء ساكنين ، ولا يقع مثل هذا فى وزن الشعر ، إلا فيما تقدم ذكره
فى المتقارب^(٥) » .

والذى نظنه نحن أن هذا النوع من المقاطع ، لا تجوز فى الشعر
فى غير القافية إطلاقاً ، لا فى وزن المتقارب ، ولا فى غيره ، وأن البيت
السابق إن كان صحيح الرواية ، فلا بد أن الشاعر قاله بتخفيف الصاد ،
لا بتشديد ها ، إن لم تكن الكلمة محرفة أصلاً عن : « القصاص » . وقد
قال ابن سيدة تعليقا على هذا البيت : « قوله : التقاص شاذ ؛ لأنه جمع
بين الساكنين فى الشعر ؛ ولذلك رواه بعضهم : وكان القصاص ، ولا نظير
له إلا بيت واحد ، أنشده الأخفش :

وَلَوْ لَا خِدَاشٌ أَخَذْتُ دَوَا

بَّ سَعْدٍ وَلَمْ أُعْطِهِ مَا عَلَيْهَا

قال أبو إسحاق : أحسب هذا البيت ، إن كان صحيحاً ، فهو : ولولا
خداش أخذت دواب سعد ؛ لأن إظهار التضعيف جائز فى الشعر ،
أو أخذت رواحل سعد^(٦) » .

وإذا كان الشعر العربى ، لا يقبل مثل هذا النوع من المقاطع ، فإن
الشاعر إذا أراد استخدام كلمة ، تحتوى على هذا المقطع الجائز فى النثر ،
أقحم همزة فى الكلمة ، أو بعبارة أخرى : قسم المقطع إلى مقطعين ، مثل
قول كثير عزة :

وَأَنْتَ ابْنُ لَيْلَى خَيْرُ قَوْمِكَ مَشْهَدًا

إِذَا مَا أَحْمَارَتْ بِالْعَيْطِ الْعَوَامِلُ^(٧)

(٥) الكامل ١١١/٢

(٦) انظر : لسان العرب (قصص) ٣٤٤/٨

(٧) انظر : ديوانه ق ١٠/٤٦ ص ٢٩٤ ولسان العرب (جنن) ٢٤٩/١٦ وعبث الوليد ٦٩

وديوان أبى محجن الثقفى ١٠٦ ويروى البيت كذلك : « إذا ما العوالى بالعبيط احمارت » فى الخصائص

١٢٦/٣ ؛ ١٤٨/٣ وألف باء للبلوى ١٢٣/٢

ويقول كثير أيضا :

وَلِلْأَرْضِ أَمَّا سُودُهَا فَتَجَلَّلَتْ
يَبَاضاً وَأَمَّا بَيَضُهَا فَادَّهَمَتْ^(٨)

ويقول الحطيئة :

وَضِيَّعْتُ الْكَرَّامَةَ فَارْمَأَدْتُ
وَقَبَّضْتُ السَّقَا فِي جَوْفِ سَلَمٍ^(٩)

ويقول دُكَيْنُ الرَّاجِزِ :

رَاكِدَةً مِخْلَاطُهُ وَمَحْلَبُهُ
وَجُلُّهُ حَتَّى أَيْبَاضٍ مَلْبِيَةٍ^(١٠)

كما يقول الشاعر :

وَبَعْدَ انْتِهَاضِ الشَّيْبِ فِي كُلِّ جَانِبٍ
عَلَى لِمَتِي حَتَّى اشْعَالَ بِهَيْمُهَا^(١١)

ويقول شاعر من بني أسد :

حَشَّ الْوَلَائِدُ بِالْوُقُودِ جُنُوبَهَا
حَتَّى اسْوَأَدَّ مِنَ الصَّلَى صَفَحَاتُهَا^(١٢)

ومن هنا يبدو أن كل صيغة على وزن : « افعال » ، قد جاءت في العربية عن هذا الطريق ، حتى ولو لم يوجد إلى جوارها صيغة : « افعال » في

(٨) انظر : ديوانه ق ٤/٥٤ ص ٣٢٣ وشرح الشافعية ١٧٠/٤ والفائق للزمخشري ٤٦٢/١ والمتع لابن عصفور ٣٢٢/١ وسر صناعة الإعراب ٨٤/١ ويروى : « فاسوأت » في الخصائص ١٢٧/٣ ؛ ١٤٨/٣

(٩) انظر : ديوانه ق ٨/٩٢ ص ٣٤٩ وفيه : « السقاء » بالهمز ، وهو تحريف تشاغل محققة عن إصلاحه ، بذلك الهراء الذي كتبه في مقدمة الديوان !

(١٠) الرجز في شرح شواهد الشافعية ١٧٠/٤ والخصائص لابن جني ١٤٨/٣ واللسان (جنن) ٢٤٩/١٦ وسر صناعة الإعراب ٨٣/٣ والإبدال لأبي الطيب ٥٤٥/٢ والمتع لابن عصفور ٣٢١/١

(١١) البيت في اللسان (شعل) ٣٧٦/١٣ وشرح ابن يعيش للمفصل ١٣٠/٩ وسر صناعة الإعراب ٨٣/١ وشرح شواهد الشافعية ١٦٩/٤ والمتع لابن عصفور ٣٢١/١ وألف باء للبلوى ١٢٣/٢

(١٢) البيت في عبث الوليد للمعري ٦٩

الاستعمال^(١٣) . وفيما يلي نقدم دراسة ، لما عثرنا عليه من أمثلة هذه الصيغة ، في بطون المعاجم العربية ، وكتب اللغة ، محاولين ربط المعنى في كل مثال بالثلاثي منه ، والبحث عن الأشعار التي ذكرت فيها هذه الأمثلة :

١ - (اتمأر) : يقال : اتمأر الشيء اتمأراً ، فهو متمأر ، إذا كان صلباً مستقيماً ، أو طويلاً شديداً^(١٤) . ومن أمثلة وروده في الشعر ، قول زهير بن مسعود الضبي :

ثَنَى لَهَا يَهْتِكُ أَسْحَارَهَا
بِمُتْمَرٍ فِيهِ تَحْزِيبٌ^(١٥)

وقول الفرزدق :

رَأَتْ كَمَرًا مِثْلَ الْجَلَامِيدِ فَتَحَتْ
أَحَالِيلَهَا لَمَّا ائْتَمَّارَتْ جُذُورُهَا^(١٦)

ولهذه الكلمة علاقة بما ورد في المعاجم العربية ، من « التتمير » بمعنى : « التبييس » ؛ يقال : تَمَّرَ اللحم ، أى قطعه قطعاً صغيراً وجففه ، وتتمير اللحم والتمر : تجفيفهما^(١٧) .

وقد حرف بيت الفرزدق في اللسان إلى : « لما ائتمأدت جذورها^(١٨) » ، ووقف ابن سيدة أمام هذا التحريف حائراً ، ثم حاول تبريره بما يشبه القصة الخرافية ؛ فقال : « ولا أدري كيف هذا ؟ اللهم إلا أن يريد : تَمَّادَّت ، فسكَّن التاء ، واجتلب للساكن ألف الوصل ، كما قالوا : اذكر ، وادَّارَأتم ، وهمز الألف الزائدة ، كما همز بعضهم ألف دابة ، فقال : دَابَّة ! »

(١٣) انظر كتاب نولدكه : Nöldeke, Zur Grammatik ص ٨ (الفقرة الخامسة) .

(١٤) اللسان (تمر) ١٦٢/٥ والهمز لأى زيد ٣٠ والأفعال لابن القطاع ١٢٦/١

(١٥) اللسان (تمر) ١٦٢/٥

(١٦) ديوانه ص ٤٦٠ والنقائض ٥٢٧/١

(١٧) اللسان (تمر) ١٦١/٥

(١٨) انظر : اللسان (مدد) ٤٠٣/٤

وقد ورد في اللغة كذلك : اتمأل سنام البعير ، إذا استوى وانتصب ، وكذلك : اتمأل الشيء ، إذا طال واشتد^(١٩) . ولا علاقة لهذا المثال بشيء من مادة (تمل) في العربية ، وإنما نتج - فيما نعتقد - بإبدال الراء لاما ، في كلمة : « اتمأّر » السابقة ، فصارت : « اتمأل » . والإبدال الواقع بين الراء واللام ، كثير الوقوع في العربية^(٢٠) ، ولا عجب في ذلك ، فهذان الصوتان من فصيلة الأصوات المائعة أو السائلة Liquida التي يكثر فيها الإبدال في اللغات السامية . ومن أمثله في العربية : الطرُس والطلُس بمعنى : الصحيفة ، والحَبْتَر والحَبْتَل بمعنى : القصير ، وقِرْف العود وقِلفه بمعنى : قشره . وقال ابن الأعرابي : يقال : كلفتني عِرْق القِرْبة وعَلَقَ القِرْبة ، أى كلفتني أمرا عظيما .

٢ - (اجثأل) : يقال : اجثأل النبت ، إذا طال وغلظ والتف . واجثأل الشعر والريش إذا انتفش^(٢١) . ومن أمثله في الشعر قول جندل بن المشني :

جَاءَ الشَّتَاءُ وَاجْثَأَلَ الْقَبْرُ^(٢٢)

وقال الراجز الآخر :

مُؤَفَّرُ اللَّمَّةِ مُجْثِئِلُهَا^(٢٣)

ولا شك أن لهذا المثال علاقة بما تذكره المعاجم العربية ، من أن الجَثْل والجَثِيل من الشجر والثياب والشعر : الكثير الملتف^(٢٤) . وقد فطن إلى هذا أبو حاتم السجستاني فقال : « أصل اجثأل افعال من الجَثْل . ويقال :

(١٩) اللسان (تمأل) ٨٤/١٣ (تمر) ١٦٢/٥ والأفعال لابن القطاع ١٢٦/١

(٢٠) انظر : الإبدال لأبي الطيب ٥٦/٢ وما بعدها .

(٢١) اللسان (جثل) ١٠٥/١٣ والأفعال لابن القطاع ١٩٨/١

(٢٢) تهذيب اللغة ٥٦/١٠ ؛ ٢٠/١١ وجمهرة اللغة ٢٧١/٣ ؛ ٤٠٢/٣ والنخلة لأبي حاتم ١٠

وأساس البلاغة ٤٥٠/١ واللسان (جثل) ١٠٥/١٣ والصناعتين ٢٨٦

(٢٣) جمهرة اللغة ٢٧٠/٣ واللسان (جثل) ١٠٥/١٣

(٢٤) اللسان (جثل) ١٠٥/١٣

شعر جَثَل ، فهمزه كما يهمز بعضهم : احمأر واسوأد ، فرارا من التقاء الساكنين ، وهما أول الحرف المشدد ، والألف التي قبله^(٢٥) .

٣ - (اجذأر) : في اللغة أن المجذئر هو : المنتصب للسباب^(٢٦) .
ومن أمثله في الشعر قول الطرماح :

تَبَيْتُ عَلَى أَطْرَافِهَا مُجْذِئَرَةً

تُكَابِدُهُمَا مِثْلَ هَمِّ الْمُخَاطِرِ^(٢٧)

والعلاقة واضحة بين هذا المثال ، والجذر من جذور النبات . وقد ورد في اللغة كذلك : « المجظئر^(٢٨) » - بالطاء - وهو المعد شره ، كأنه منتصب ؛ يقال : مَالَكْ مجظئراً ! ؟ وهو تطور عن : « المجذئر » السابقة ، قلبت فيها الذال ظاء ، أو بعبارة أخرى : فُخِّمَتِ الذال فصارت ظاء ، وذلك أثر من آثار الراء ؛ إذ يميل صوت الراء إلى تفخيم بعض الأصوات المجاورة له في الكلام ؛ مثل قولنا : « صُور » في : « سُور » و « أحرص » في : « أحرص » و « رفص » في : « رفس^(٢٩) » . وقد روى مثل ذلك كثيرا في العربية الفصحى ؛ إذ فيها : « الخراس والخراص » ، بمعنى : صاحب الدنان ، و « رَسَخَ الشيء ورَصَخَ » بمعنى : ثبت ، و « رجل أرْصَح وأرْصَح » بمعنى : خفيف لحم الوركين ، و « السُّراط والصُّراط » ، بمعنى : الطريق ، وغير ذلك^(٣٠) .

٤ - (اجرأش) : في اللغة : « اجرأش » أى ثاب جسمه بعد هزال . وقال أبو الدقيش الأعراي : هَزُلَ وظهرت عظامه^(٣١) . ولم نعثر على

(٢٥) النخلة لأبي حاتم ١٠

(٢٦) اللسان (جذأر) ١٩٤/٥ والأفعال لابن القطاع ١٩٧/١

(٢٧) ملحق ديوانه ص ٥٧٥ وتهذيب اللغة ٢٥٥/١١ واللسان (جذأر) ١٩٤/٥

(٢٨) انظر : لسان العرب (جظر) ٢٠٩/٥

(٢٩) انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوي ٨/٣٣٥

(٣٠) انظر في هذا وغيره : كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي ١٧٨/٢ وما بعدها ، وكتاب القلب

والإبدال لابن السكيت ٤٢ - ٤٣

(٣١) لسان العرب (جرش) ١٦٠/٨

شعر ورد فيه ، على طول تقليب . وله علاقة « بالتجريح » ، بمعنى :
الجوع والهزال ، كما حكى المعاجم من كراع النمل^(٣٢) .

٥ - (اجفأظ) : هذه الكلمة ورد أصلها في اللغة ؛ فقد روى
الجمهوري^(٣٣) أن العرب تقول : « اجفأظت الجيفة » بمعنى انتفخت .
قال : « وربما قالوا : اجفأظت ، فيحركون الألف ، لاجتماع الساكنين » .
هذا إلى ما روى عن الفراء أنه قال : « الجفيظ : المقتول المنتفخ^(٣٤) » ؛
فالعلاقة واضحة بينه وبين المادة الثلاثية ، وإن كنت لم أعثر عليه في شعر
بعد .

٦ - (احزأل) : في اللغة أن « احزأل يحزئل احزئلاً » ، يراد به
الارتفاع . والحزئل : المرتفع^(٣٥) . وقد وردت هذه الكلمة بكثرة في الشعر
العربي ؛ فمن أمثلة ذلك قول الطرماح :
وَاسْتَطَرَبْتُ ظُعْنَهُمْ لَمَّا أَحْزَأَلَ بِهِمْ
أَلِ الضُّحَى نَاشِطاً مِنْ دَاعِبٍ دَدٍ^(٣٦)

كما قال الطرماح أيضاً :
وَلَوْ خَرَجَ الدَّجَالُ يَنْشُرُ دِينَهُ
لَزَأْتُ تَمِيمَ حَوْلَهُ وَاحْزَأَلْتُ^(٣٧)

وقال حميد بن ثور يصف ناقة :
وَإِذَا أَحْزَأَلْتُ فِي الْمُنَاخِ رَأَيْتَهَا
كَالْعَقْرِ أَفْرَدَهَا الْعَمَاءُ الْمُمَطَّرُ^(٣٨)

(٣٢) لسان العرب (جرش) ١٥٩/٨

(٣٣) الصحاح (جفظ) ١١٧١/٣ واللسان (جفظ) ٣١٧/٩ والمزهر للسيوطي ٣٦٧/٢

(٣٤) اللسان (جفظ) ٣١٧/٩

(٣٥) اللسان (حزل) ١٥٩/١٣ والأفعال لابن القطاع ٢٧٢/١

(٣٦) ديوانه ق ٥/٩ ص ١٥٧ والتكملة للصاغاني ٢٣٠/٢ واللسان (طرب) ٤٦/٢

(٣٧) ديوانه ق ٢٧/٤ ص ٥٦ واللسان (حزل) ١٥٩/١٣

(٣٨) ديوانه ص ٨٩ ومقاييس اللغة ٩٥/٤ واللسان (عقر) ٢٧٦/٦

وقال المَرَارُ الفَقْعَسِي يَصِفُ إِبْلًا وَحَادِيهَا :
تَغْنِّي ثُمَّ هَزَّجَ فَأَحْزَلَّتْ
تَمِيلُ بِهَا النَّحَائِزُ وَالسُّدُولُ^(٣٩)

وقال أبو دُوَادٍ يَصِفُ نَاقَةً :
ذَاتَ انْتِبَازٍ مِنَ الْحَادِي إِذَا بَرَكَتْ
خَوَتْ عَلَى ثِفَنَاتٍ مُحْزَلَّاتٍ^(٤٠)

وقال مزاحم العقيلي :
فَصَاحُوا صِيَاخَ الطَّيْرِ مِنْ مُحْزَلَّةٍ
عُبُورٍ لِهَادِيهَا سِنَانٌ وَقَوْبَعٌ^(٤١)

كما قال الشاعر :
يَغُولُ عَنِّي الْبَيْدَ إِرْقَالُهَا
إِذَا أَحْزَلَّتْ بِالصِّيَاهِيبِ^(٤٢)

وقال الآخر :
فَمَرَّتْ وَأَطْرَافُ الصَّوَى مُحْزَلَّةٌ
تَتَّجُّ كَمَا أَجَّ الظِّلِيمُ الْمُفَزَّعُ^(٤٣)

وقد ذكرت المعاجم العربية أن « الحَزْلُ يراد به الارتفاع في السير والأرض^(٤٤) » كما ذكر ابن بري أنه يقال : « أَحْزَلَّ » أيضا ، بمعنى : ارتفع .
وأنشد قول الراجز :

تَرْمِي الْفَيَافِي إِذَا مَا أَحْزَلَّتْ
بِمَثَلٍ عَيْنِي فَارِكٍ قَدْ مَلَّتْ^(٤٥)

(٣٩) اللسان (حزل) ١٥٩/١٣

(٤٠) ديوانه ق ٢/١٢ ص ٢٩٧ واللسان (حزل) ١٥٩/١٣

(٤١) ديوانه ق ٣/١٤ ص ٢٨

(٤٢) مجالس ثعلب ١١٨/١

(٤٣) مقاييس اللغة ٨/١ وجمهرة اللغة ١٤/١ واللسان (أجج) ٣٨/٣ (حزل) ١٥٩/١٣

(٤٤) انظر : اللسان (حزل) ١٥٩/١٣

(٤٥) اللسان (حزل) ١٥٩/١٣

فالعلاقة - كما نرى - واضحة بين : « احزأل » ومادته الثلاثية .

٧ - (احظأب) : يقال احظأب البطن ، إذا اشتد أو امتلأ شحما ، والمحظبُ : السمين ذو البطنة^(٤٦) . ولم أعر على شعر وردت فيه هذه الكلمة وتتضح العلاقة بينها وبين المادة الثلاثية في قول المعاجم^(٤٧) : « الحاظب : السمين ، وحَظَبَ يَحْظَبُ : سمن » .

٨ - (ارفأن) : يقال : ارفأن الرَّجُل ، أى نفر ثم سكن . ويقال ارفأن غضبى^(٤٨) . ومن أمثله وروده في الشعر : قول العجاج :
حَتَّى اِرْفَأَنَّ النَّاسُ بَعْدَ الْمَجُولِ^(٤٩)
وقول الآخر :

حَتَّى تَرَى ثُمَّ تَرْفِنِّى^(٥٠)

ولعل لهذه الكلمة علاقة بما تذكره المعاجم ، من أن « الرفن » معناه : النبض ، وأن « الرافنة » هى المتبخرة في بطر^(٥١) ؛ ففى النبض والتبختر حركة ، وفى النفور مثل هذه الحركة كذلك !

٩ - (ارمأز) : يقال : ما ارمأز فلان من مكانه ، أى ما برح . ورمأز عنه : زال^(٥٢) . ومن أمثله وروده في الشعر : قول أبى مهندية الأعرابي :

أَنْ سَوَّفَ تُمَضِّيهِ وَمَا اِرْمَأَزَا^(٥٣)

(٤٦) الأفعال لابن القطاع ٢٧٢/١ واللسان (حظب) ٣١٣/١

(٤٧) انظر مثلا : لسان العرب (حظب) ٣١٣/١ والصحاح (حظب) ١١٣/١

(٤٨) لسان العرب (رفن) ٤٣/١٧ والأفعال لابن القطاع ٧٧/٢

(٤٩) ديوانه ق ١٤٤/١٢ ص ١٦٥ وجمهرة اللغة ١٧٣/١ واللسان (رفن) ٤٣/١٧ والهمز

لأبى زيد ٢٦

(٥٠) اللسان (رفن) ٤٣/١٧

(٥١) انظر : اللسان (رفن) ٤٣/١٧

(٥٢) اللسان (رمز) ٣٢٤/٧

(٥٣) الفصول والغايات للمعري ٢٢٨ والأفعال لابن القطاع ٧٦/٢ والمحكم ٦٣/٣ وجمهرة اللغة

وقول الراجز :

وَمَا ارْمَأَزَّ الْأَسْحَمَانِ الْأَسْحَمُ^(٥٤)

وقول الآخر :

لَيْسَ إِذْ جِئْتُ بِمُرْمٍ—ز^(٥٥)

ولهذه الكلمة علاقة بقول العرب : ارتمز الرجل وترمز ، أى تحرك ،
ويقولهم : إبل مراميز ، أى كثيرة التحرك^(٥٦) .

١٠ - (ازيأر) : يقال : ازيأر الشعر والوبر والنبات ، إذا طلع
ونبت^(٥٧) . كما يقال : ازيأر الشعر إذا انتفش . ومن أمثلة وروده فى الشعر
قول امرئ القيس :

لَهَا ثُنُنٌ كَخَوَافِي الْعُقَا

بِ سُدٍّ يَفِينُ إِذَا تَزَيَّرُ^(٥٨)

وقول المزار بن منقذ الحنظلي :

فَهُوَ وَرْدُ اللَّوْنِ فِي اِزْيَرَارِهِ

وَكُمَيْتُ اللَّوْنِ مَالَمَ يَزَيَّرُ^(٥٩)

وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

لَحَا اللَّهُ جَرْمًا كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقُ

وُجُوهَ كِلَابٍ هَارَشَتْ فَازْبَارَتْ^(٦٠)

ولهذه الكلمة علاقة بكلمة « الزبرة » ، وهى ما بين كتفى الأسد
من الوبر .

(٥٤) المستقصى للزمخشري ٣٣/٢

(٥٥) جمهرة اللغة ٤٠٣/٣

(٥٦) انظر : اللسان (رمز) ٢٢٤/٧

(٥٧) الهمز لأبى زيد ٩ : ٢٦ واللسان (زبر) ٤٠٥/٥

(٥٨) ديوانه ق ٢٧/٢٩ ص ١٦٣ وأدب الكاتب ١٢٦ واللسان (زبر) ٤٠٥/٥

(٥٩) الحماسة بشرح المرزوقي ١٦٠/١ والمفضليات ق ١١/١٦ ص ١٤٥ والأزمنة والأمكنة

للمرزوقي ٧٣/١ واللسان (زبر) ٤٠٥/٥

(٦٠) ديوانه ق ٨/١٢ ص ٤٤ والحماسة بشرح المرزوقي ١٦٠/١ ومعجم ما استعجم ٤٢

١١ - (ازراءم) : يقال : ازراءم الرجل ازراءما ، إذا غضب ، فهو مزراءم^(٦١) . ومن شواهد في الشعر : قول الأخطل :
 تُمْدِي إِذَا سَخَنْتُ فِي قُبُلٍ أَذْرُعُهَا
 وَتَزَرِّمُ إِذَا مَا بَلَّهَا الْمَطَرُ^(٦٢)

وقول الآخر :

أَلْفَيْتُهُ غَضَبًا مُزَرَّمًا
 لَا سَبَطَ الْكَفُّ وَلَا خِضَمًا^(٦٣)

ولعل لهذه الكلمة علاقة بما رواه الأصمعي ، من أن « الزَّرم » هو المُضَيَّقُ عليه^(٦٤) ؛ لأن الذي يضيق عليه ، يغضب لا شك في ذلك .

وقد ذهب ابن فارس ، في هذا المثال ، إلى مثل ما نذهب إليه ، من زيادة الهمزة فيه ، وإن ربطه بمعنى آخر للمادة ، فقال : « ازراءم ، إذا غضب . وهذا مما زيدت فيه الهمزة ، وهو من : زرم إذا انقطع ، كذلك إذا غضب تغير خلقه ، وانقطع عما عهد فيه^(٦٥) » .

١٢ - (ازلامم) : يقال : ازلامم القوم ازلاما ، إذا ولّوا سراعاً^(٦٦) . ومن أمثله في الشعر : قول كثير عزة :
 تَارَضُ أَخْفَافُ الْمُنَاخَةِ مِنْهُمْ
 مَكَانَ الَّتِي قَدْ بَعْدَتْ فَازِلَامَتِ^(٦٧)

(٦١) اللسان (زرم) ١٥٥/١٥ وجمهرة اللغة ٣/٢٦٩ والهمز لأبي زيد ٨ والأفعال لابن القطاع

١١٢/٢

(٦٢) ديوانه ص ١١١ واللسان (زرم) ١٥٥/١٥

(٦٣) اللسان (زرم) ١٥٥/١٥

(٦٤) اللسان (زرم) ١٥٥/١٥

(٦٥) مقاييس اللغة ٣/٥٤

(٦٦) الفائق للزمخشري ١/٤٦٢ واللسان (زلم) ١٥٤/١٦٤

(٦٧) ديوانه ق ١٧/٥٤ ص ٣٢٦ واللسان (أرض) ٨/٣٨٣ (زلم) ١٥٤/١٦٤ والفائق

٤٦٢/١

وقول العجاج :

وَاحْتَمَلُوا الْأُمُورَ فَازِلًا مُؤَا^(٦٨)

وقد أصاب الزمخشري ، حين ذكر أن الهمزة في هذا المثال ، بدل من ألف « افعال » ، وأن « الكلمة ثلاثية ، فلا تكون الهمزة أصلية ؛ لوضوح اشتقاق الكلمة من قولهم : مَرَّ يَزِلُّمُ وَيَحْدُمُ ، إذا قارب الخطو مع سرعة . وعن الأصمعي : تَزَلَّمْ إلى الشَّدِّ وتَنَزَّع ، أى تسرَّع^(٦٩) » .

١٣ - (اسماء) : يقال : اسماء الرجل اسماءداً ، إذا ورم ، وقيل : إذا انتفخ من الغضب^(٧٠) . ولم أعثر له على أمثلة شعرية .

وعلاقته واضحة بالمادة الثلاثية : سَمَدٌ يَسْمُدُ سُمُوداً ، بمعنى : علا ، أو رفع رأسه تكبراً^(٧١) ؛ لأن الورم علو ، والانتفاخ علو كذلك . هذا إلى أن المعاجم ذكرت إلى جانب « اسماء » : « اسماء » بهذا المعنى كذلك .

١٤ - (اسماء) : فى اللغة أن المسمئل هو الضامر ، واسمائل الشيء اسمئالا ، إذا ضم . ومنه : اسمائل الظل ، أى قصر ورجع إلى أصله^(٧٢) . ومن أمثله الشعرية : قول سلمى بنت جَذعة الجهنية :

يَرِدُ الْمِيَاهَ حَضِيْرَةً وَنَفِيْضَةً
وَرَدَ الْقَطَاةِ إِذَا اسْمَائَلُ التَّبْعُ^(٧٣)

(٦٨) اللسان (زلم) ١٦٤/١٥

(٦٩) الفائق للزمخشري ٤٦٢/١

(٧٠) اللسان (سمد) ٢٠٤/٤

(٧١) اللسان (سمد) ٢٠٣/٤

(٧٢) اللسان (سماء) ٣٦٩/١٣

(٧٣) جهرة اللغة ٢٧٢/٣ وتهذيب اللغة ٤٥٥/١٢ واللسان (سماء) ٣٦٩/٣ والتكملة للصاغاني

٤٧/٥٢ والهمز لأبى زيد ٢٦ وشمس العلوم ٤٤٠/١

وقول الراجز :

وَأَنْضَمَّ بُذْنُ الشَّيْخِ وَاسْمًا لَا (٧٤)

ولعل لهذه الكلمة علاقة بكلمة : « السَّمَل » ، بمعنى : بقية الماء في الحوض (٧٥) .

١٥ - (اشْرَابٌ) : اشْرَابٌ معناها في اللغة : ارتفع وعلا (٧٦) .
ومن شواهد الشعرية : قول ذى الرمة :
ذَكَرْتُكَ - إِذْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنٍ
أَمَامَ الْمَطَايَا تَشْرِيْبُ وَتَسْنَحُ (٧٧)

وقد أصاب صاحب اللسان حين قال : « اشْرَابٌ : مأخوذ من المَشْرَبَةِ ، وهي : الغُرْفَةُ (٧٨) » ؛ فالمشربة : الغرفة المرتفعة ، والمشارب العلالى .

١٦ - (اشْمَازٌ) : يقال : اشْمَازٌ يشْمِزُّ اشْمِزًّا ، إذا تَقَبَّضَ واجتمع بعضه إلى بعض . وقال أبو زيد : اشْمَازٌ يعنى : ذُعِرَ من الشيء .
والمشْمِز : المذعور (٧٩) . ومن أمثلة وروده في الشعر : قول عمرو بن كلثوم ، يصف قناة صلبة :
إِذَا عَضَّ الثَّقَافُ بِهَا اشْمَازَتْ
وَوَلَّتْهُمْ عَشَوَزْنَةً زُبُونًا (٨٠)

(٧٤) الخصائص ٢/٢٣٩

(٧٥) اللسان (سمل) ١٣/٣٦٨

(٧٦) اللسان (شرب) ١/٤٧٥ والأفعال لابن القطاع ٢/٢٢٥

(٧٧) ديوانه ق ١١/١٠ ص ٧٩ وغريب الحديث لأبي عبيد ٣/٢٢٥ واللسان (شرب) ١/٤٧٥

وتهذيب اللغة ١١/٣٥٥ والكامل للمبرد ٢/٣٠٣

(٧٨) اللسان (شرب) ١/٤٧٣

(٧٩) الهمز لأبي زيد ٢٦ واللسان (شمر) ٧/٢٢٩

(٨٠) شرح القصائد السبع ٤٠٤ واللسان (عشرون) ١٨/١٥٨ والمقاييس ٤/٣٦٣

ولهذه الكلمة علاقة بما تذكره المعاجم من : « الشَّمَز » ، بمعنى التقبض ونفور النفس من الشيء تكرهه .

١٧ - (اصمأك) : يقال : اصمأك الرجل ، فهو مصمئك ، إذا غضب^(٨١) . ومن أمثلة وروده في الشعر : قول رؤية :
عَلَى لَدِيدَى مُصْمَيْكَ صَلْحَاذ^(٨٢)
وقول الراجز :

حَتَّى اصْمَاكَ كَالْحَمِيَّتِ الْمُوَكَّرِ^(٨٣)

ولعل لهذا علاقة بقول المعاجم : « الصمكيك والصمكوك : الغليظ من الرجال . الجافى . وقيل : الجاهل السريع إلى الشر والغواية^(٨٤) »
وقد روى صاحب اللسان في الكلمة : « اصمأك » أيضا بلا همز ، كما قال أبو منصور الأزهري فيها : « وأصل هذه الكلمة وما أشبهها ثلاثي ، والهمزة فيها مجتلبة^(٨٥) » .

وقد ورد في اللغة كذلك : « ازماك » بمعنى : غضب^(٨٦) ، وهي تطور عن : « اصمأك » إذ جهرت الصاد ؛ بسبب مجاورتها للميم المجهورة ، فتحولت إلى زاي مفخمة ، وكتبت بالزاي المرققة ؛ إذ لا وجود لرمز الزاي المفخمة في الكتابة العربية !

١٨ - (اصمآل) : يقال : اصمآل الشيء اصمئلا ، أى اشتد . ويقال للدهاية : مصمئلة^(٨٧) . ومن أمثله الشعرية : قول الكميت :

(٨١) اللسان (صمك) ٣٤٤/١٢

(٨٢) ديوانه ق ١١٦/١٦ ص ٤١ والتكملة للصاغاني ٢٦٨/٢

(٨٣) جمهرة اللغة ٢٧٠/٣

(٨٤) اللسان (صمك) ٣٤٤/١٢

(٨٥) تهذيب اللغة ٤٢٢/١٠ وانظر اللسان (صمك) ٣٤٤/١٢

(٨٦) اللسان (زمك) ٣٢١/١٢

(٨٧) اللسان (صمل) ٤٠٩/١٣ والهمز لأبي زيد ٢٦

وَلَمْ تَتَكَأْذُهُمُ الْمُعْضِلَاتُ
وَلَا مُصْمِئَلَتَهَا الضُّبُلُ^(٨٨)

وقول الشنفرى ، أو خلف الأحمر :
نَبَا مَا نَابَنَا مُصْمِئِلُ
جَلَّ حَتَّى دَقَّ فِيهِ الْأَجَلُ^(٨٩)

ولهذه الكلمة علاقة بقولهم : « الصَّمْل : اليُبْس والشَّدة .
والصَّمْل : الشديد الخلق من الناس والإبل والجبال^(٩٠) » .

١٩ - (اضفأد) : روى عن الأصمعى أن العرب يقولون :
اضفأد الرجل يصفئد اضفئاداً ، إذا انتفخ من الغضب^(٩١) . ولم أعثر له
على مثال فى الشعر .

ولعل لهذه الكلمة علاقة بقولهم : « ضَفَدَ ، أى صار كثير اللحم
ثقيلًا ، مع حمق^(٩٢) » !

٢٠ - (اطمأن) : معناها « هبط ، أو هدأ واستقر وسكن » .
والثلاثى منها وإن لم يكن مستعملاً فى العربية ، فهو فى العبرية ⁷³¹⁶ بمعنى :
أخفى ، والشئ إذا خفى هدأ واستقر . وقال الأزهري : « ويقال : طامن
ظهره ، إذا حناه ، بغير همز ؛ لأن الهمزة التى حلت فى اطمأن ، إنما حلت
فيها حذار الجمع بين الساكنين^(٩٣) » .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن الفعل : « طمأن » يعدّ بناءً ثانوياً
حديثاً فى العربية ، وكذلك مقلوبه : « طأمن » فى مثل قول الفرزدق :

(٨٨) اللسان (صمل) ٤٠٩/١٣

(٨٩) جمهرة اللغة ٢٧٢/٣

(٩٠) اللسان (صمل) ٤٠٩/١٣

(٩١) تهذيب اللغة ٤/١٢

(٩٢) اللسان (ضفد) ٢٥٣/٤

(٩٣) تهذيب اللغة ٣٧٧/١٣

وَإِذَا النُّفُوسُ جَشَانٌ طَأْمَنَ جَأْشُهَا
ثِقَلَةً لَهَا بِحِمَايَةِ الْأَدْبَارِ^(٩٤)

وقد ضلّ سيبويه ، فرأى أن الأصل هو : « طأمن » ، وخالفه
أبو عمر الجرمي ، فرأى ضد ذلك^(٩٥)

٢١ - (اقسأَنَّ) : يقال : اقسأَنَّ الرجل اقسئنا ، إذا كبر
وعسَى ، واقسأَنَّ العود وغيره ، إذا ييس واشتد ، واقسأَنَّ الليل : اشتد
ظلامه^(٩٦) . ومن أمثلة وروده في الشعر : قول الراجز :
مَا شِئْتُ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسِنٍ^(٩٧)

وقول الآخر :

بِتُّ لَهَا يَقْظَانَ وَأَقْسَأْتِ^(٩٨)

ولهذه الكلمة علاقة واضحة بقولهم : « أقسن الرجل : إذا صلبت
يده على العمل والسقى » . ويؤكد الأزهري هنا أيضا ثلاثية الكلمة ؛
فيقول : « هذه همزة تجتلب كراهة جمع بين ساكنين . وكان في الأصل :
اقسان يقسان^(٩٩) » .

٢٢ - (اكبأَنَّ) : يقال : اكبأَنَّ إذا لطأ بالأرض ، واكبأَنَّ :
انقبض . وقال ابن بزرج : المكبئن : الذي قد احتبى وأدخل مرفقيه
في حُبوته ، ثم خضع برقبته وبرأسه على يديه^(١٠٠) . ومن شواهده في

(٩٤) الكامل للمبرد ١٣٥/٢ وباختلاف في ديوانه ص ٣٧٦

(٩٥) انظر : سيبويه ١٣٠/٢ واللسان (طمن) ١٢٨/١٧ وعثرات اللسان للمغربي ١٠٠

والمصنف لابن جنى ١٠٤/١ ومن تابع سيبويه : المبرد في الكامل ٢٥٥/٢ وابن جنى في الخصائص ٧٥/٢

(٩٦) اللسان (قسن) ٢٢١/١٧ والأفعال لابن القطاع ٦٩/٣

(٩٧) الهمز لأبي زيد ٢٦ واللسان (قسن) ٢٢١/١٧ وتأويل مشكل القرآن ١٢٢ وجمهرة اللغة

٢٧٢/٣ ؛ ٤٠٢/٣ وعهذيب اللغة ٤٠٩/٨

(٩٨) اللسان (قسن) ٢٢١/١٧ وعهذيب اللغة ٤٠٩/٨

(٩٩) تهذيب اللغة ٤٠٩/٨

(١٠٠) اللسان (كبن) ٢٣٣/١٧ والأفعال لابن القطاع ١١١/٣

الشعر : قول مدرك بن حصن :
يَا كَرَوَانَا صُكَّ فَاصْبِرْنَا^(١٠١)

وقول الآخر :
فَلَمْ يَكْبِتُوا إِذْ رَأَوْنِي وَأَقْبَلَتْ
إِلَيَّ وَجُوهٌ كَالسُّيُوفِ تَهْلُلُ^(١٠٢)

ولا شك أن لهذه الكلمة علاقة بما رواه الأصمعي ، من أن
« الكَبْنُ : ما تُثْنِي من الجلد ، عند شفة الدُّلو^(١٠٣) » .

٢٣ - (اكْلَأَز) : يقال : اكْلَأَزَ الرجل ، إذا تَقَبَّضَ ولم
يطمئن . والمكْلِيز : المنقبض^(١٠٤) . ومن أمثلة وروده في الشعر : قول
الراجز :

وَأَنَا مِنْهَا مُكْلِيزٌ مُعْصِمٌ^(١٠٥)

وقول الآخر :
ذِي عَضُدَيْنِ مُكْلِيزٍ نَازِي^(١٠٦)
وقول رؤبة :

وَكُلُّ مِخْلَافٍ وَمُكْلِيزٍ^(١٠٧)

ويقول ابن منظور : « وأُمِيت ثلاثي فعله^(١٠٨) » ، مع أنه قال قبل
ذلك بقليل : « كَلَزَ الشيءَ يَكْلِزُه كَلَزاً ، وَكَلَزَه : جمعه » . والعلاقة

(١٠١) اللسان (كبن) ٢٣٣/١٧ والإبدال لأنى الطيب ٣٤٤/١

(١٠٢) جوهرة اللغة ٤٠٢/٣ واللسان (كبن) ٢٣٣/١٧ والإبدال لأنى الطيب ٣٤٤/١

(١٠٣) اللسان (كبن) ٢٣٤/١٧

(١٠٤) اللسان (كلز) ٢٦٨/٧ والهمز لأنى زيد ٢٧ والأفعال لابن القطاع ١١١/٣

(١٠٥) تهذيب اللغة ٩٧/١٠ وأساس البلاغة ٢٣١/٢ واللسان (كلز) ٢٦٨/٧

(١٠٦) تهذيب اللغة ٩٨/١٠ واللسان (كلز) ٢٦٧/٧

(١٠٧) ديوانه ق ٨٠/٢٣ ص ٦٥ والإبل للأصمعي ٩٩ والتكملة للصاغاني ٢٢٠/٢ وجوهرة اللغة

٢٧٣/٣

(١٠٨) لسان العرب (كلز) ٢٦٨/٧

واضحة بين الجمع والتقبض . وقد صدق الأزهري حين قال :
« واكلاز : كان في الأصل : اكلاز^(١٠٩) » .

هذه هي الأمثلة ، التي تتضح العلاقة فيها بأفعالها الثلاثية . وهناك
مثالان آخران ، لم تذكر لهما المعاجم العربية أصلاً ثلاثياً ، وهما :

١ - (اتلأب) : يقال : اتلأب الطريق ، إذا امتد واستوى .
واتلأب الحمار ، أى أقام صدره ورأسه^(١١٠) . ومن أمثلته الشعرية :
قول لبيد :

فَأَوْرَدَهَا مَسْجُورَةً تَحْتَ غَابَةٍ
مِنَ الْقُرْنَتَيْنِ وَاتْلَأَبَ يُحَوِّمُ^(١١١)

وقول الخطيئة :

أَلَا طَرَقْتَنَا بَعْدَ مَا هَجَدُوا هِنْدُ
وَقَدْ سِرْنَ غَوْرًا وَاتْلَأَبَ بِنَا نَجْدُ^(١١٢)

وقد أحسَّ ابن فارس ، بعدم وجود ثلاثيته ، فعده من الموضوع
وضعا^(١١٣) .

٢ - (اضمأك) : يقال : اضمأكت الأرض اضمأكا : إذا
خرج نبتها ، وضمأك النبات : إذا روى واخضر^(١١٤) . ولم يرد له في الشعر
أمثله . وعده ابن فارس مما وُضِعَ وضعا كذلك^(١١٥) .

وأما قولهم : « اضمأكت الأرض » بالباء ، فإنه من إبدال الميم بباء .

(١٠٩) تهذيب اللغة ٩٨/١٠ وفي الأصل : « واكلاز كان في الأصل اكلاز » وهو تحريف ؛ بدليل
اتجاه الأزهري في كثير من الأمثلة الأخرى ، إلى أن الهمزة مقحمة ، للتخلص من التقاء الساكنين !

(١١٠) اللسان (تلأب) ٢٢٦/١

(١١١) ديوانه ق ١٠/١٢ ص ٩٧ واللسان (تلأب) ٢٢٦/١

(١١٢) ديوانه ق ١/٣٨ ص ١٤٠ والأفعال لابن القطاع ١٢٦/١

(١١٣) المقاييس ٣٦٤/١

(١١٤) اللسان (ضمك) ٣٤٨/١٢

(١١٥) المقاييس ٤٠٣/٣

والميم والباء من الأصوات الشفوية ، التي يحدث بينهما الإبدال كثيرا ؛ مثل قولهم : « مهلا » و « بهلا » و « أزمة » و « أزية » و « كمحته » و « كبحته » وغير ذلك^(١١٦) .

وإذا استثنينا هذين المثالين ، استطعنا أن نحكم باطمئنان ، إلى أن أصل الأمثلة السابقة هو : « افعال » ، أى : اتمار ، واجثال ، واجذار ، واجراش ، واجفاظ ، واحزال ، واحطاب ، وارفان ، وارماز ، وازبار ، وازرام ، وازلام ، واسماد ، واسمال ، واشراب ، واشماز ، واصماك ، واصمال ، واضفاد ، واطمان ، واقسان ، واكبان ، واكلاز .

ويؤيدنا في بعض هذه الأمثلة : أبو منصور الأزهري ، وأبو حاتم السجستاني ، والزمخشري ، وابن فارس اللغوي .

ولا يعترض معترض ، بأن صيغة : « افعال » خاصة في العربية بالألوان . كصيغة : « افعل » ؛ مثل : ابلق وابلاق ، من البلق وهو سواد وبياض ، واحمر واحمار ، وادهم وادهام أى اسود ، وازرق وازراق ، واسود واسود ، واشمط واشماط ، بمعنى : اختلف بلونين من سواد وبياض ، واشهب واشهاب : غلب بياضه سواده ، واصهب واصهاب ، والأصهب الذى يخالط بياضه حمرة ، وغير ذلك من الأمثلة - فقد ذكروا أن ذلك هو الشائع فيها^(١١٧) . وقد عثرت أنا على أمثلة كثيرة في الأدب العربى ، والمعاجم اللغوية ، لصيغة افعال في غير الألوان ، مثل :

١ - ابلج الشيء ابلججا : وضع (الأفعال لابن القطاع ١١٣/١ واللسان ٣٧/٣) .

٢ - ابلق الباب : انفتح (الأفعال لابن القطاع ١١٣/١) .

(١١٦) انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٦ والتطور اللغوى وقوانينه ١٧٤

(١١٧) انظر : كتاب سيويه ٢٤٢/٢ والمنصف لابن جنى ٧٨/١ وشرح ابن يعيش للمفصل

١٦١/٧ وشرح الشافى للأسترباذى ١١٢/١ والتكملة لأبى على الفارسى ٢٩٠ والمتع لابن عصفور

١٩٥/١ وشرح درة الغواص للخفاجى ٥١ وشرح الملوكى ٨٤

- ٣ - ابهَّارَ الليل : انتصف (الأفعال لابن القطاع ١١٢/١ واللسان ١٤٨/٥) .
- ٤ - اخضَّالَ الشيء : ابتلَّ (الأفعال لابن القطاع ٣٣٢/١ واللسان ٢٢٠/٣) .
- ٥ - ارغَادَ اللبن : اختلط بعضه ببعض ، ولم تتمَّ خثورته (اللسان ١٦٢/٤) .
- ٦ - ارمَاقَ الحبل : ضعف (اللسان ١٤٧/١١) .
- ٧ - ازوَّارَ عن الشيء : عدل عنه (اللسان ٤٢٣/٥) .
- ٨ - اشعانَ الرأس : انتفش وتفرق (اللسان ١٠٦/١٧) .
- ٩ - اقراَحَ الفرس : طلع نابيه وتم سنَّه (الأفعال لابن القطاع ٦٩/٣) .
- ١٠ - اقطَّارَ الشجر : تفضَّط عن ورق أخضر (الأفعال لابن القطاع ٦٩/٣) .
- ١١ - افعَّالَ النَّور : انشق عن قُعَّالته (تهذيب اللغة ٢٥١/١) .
- ١٢ - الغانَّ النبات : التف وطال (الأفعال للسرقتى ٤٨٠/٢) .
- ١٣ - الهاجَّ اللبن : خَثَرَ (إصلاح المنطق ٣٥٠ واللسان ١٨٣/٣) .
- ١٤ - املَّسَ الشيء : صار أملس (المنصف لابن جنى ٧٨/١ ومعاني الشعر ١١٠) .

هذا ، وقد أحسَّ الجواليقي بشبه « افعَّال » بافعال في عدم التعدي ، وإن تابع جمهرة العلماء ، في أنه من بنات الأربعة ؛ فقال : « وما كان على افعَّلت ، فإنه لا يتعدى ، نحو : احمررت واحمرار ... ونظيره من بنات الأربعة : اطمأنت واشمازت^(١١٨) .

ولم يكن إقحام الهمزة في هذه الأمثلة السابقة وغيرها ، هو التطور الوحيد الذى أصابها ؛ فقد أدت المبالغة في تحقيق الهمز هنا ، إلى قلب الهمزة عينا ، في بعض كلمات هذا الوزن في الفصحى ، على طريقة نطق بعض أهالى صعيد مصر : « لَع » في : « لأ » مثلا ، وعلى طريقة « العنينة » في لغة تميم^(١١٩) . وقد وردت في اللغة أمثلة كثيرة ، لانقلاب الهمزة عينا ؛ مثل قولهم : « صبأت على القوم وصبعت عليهم ، وهو أن تدخل عليهم غيرهم » ، وقولهم : « انجأفت النخلة وانجعت ، إذا انقلعت من أصلها » ، وقولهم : « الأسن : قديم الشحم . وبعضهم يقول : العُسُن » وغير ذلك^(١٢٠) .

وفيما يلي بعض أمثلة هذا النوع من التطور الصوتى ، فى صيغة « افعأل » فى العربية الفصحى :

١ - (ابذعر) : يقال : ابذعر الناس ، أى تفرقوا وتبددوا^(١٢١) . ومن أمثلته : قول زُفر بن الحارث :
فَلَا أَفْلَحْتُ قَيْسٌ وَلَا عَزَّ نَاصِرٌ
لَهَا بَعْدَ يَوْمِ الْمَرْجِ حِينَ ابْذَعَرْتُ^(١٢٢)

وقول الأخطل :

فَطَارَتْ شِلَالًا وَابْذَعَرْتُ كَأَنَّهَا
عَصَابَةُ سَبِي خَافَ أَنْ يَتَقَسَّمَا^(١٢٣)

وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدى :

فَلَمْ تُغْنِ جَرْمٌ نَهْدَهَا إِذْ تَلَاقَا
وَلَكِنَّ جَرْمًا فِي اللَّقَاءِ ابْذَعَرْتُ^(١٢٤)

(١١٩) انظر فصل : ألقاب اللهجات العربية ، فيما مضى ص ١٣٥

(١٢٠) انظر : الإبدال لأبى الطيب ٥٥٥/٢ وما بعدها .

(١٢١) الأفعال لابن القطاع ١١١/١ واللسان (بذعر) ١١٥/٥

(١٢٢) اللسان (بذعر) ١١٥/٥

(١٢٣) ديوانه ص ٢٤٩ وغريب الحديث لأبى عبيد ٢٢٠/٢ واللسان (بذعر) ١١٥/٥

(١٢٤) ديوانه ق ٩/١٢ ص ٤٥ وشرح الحماسة للمرزوقي ١٦١/١

والعلاقة واضحة بين هذه الكلمة ، ومادة (بذر) ، ومنها : بَذَر
 الحَبَّ : نثره وفرّقه ، وبذر الله الخلق : بثّهم وفرّقهم^(١٢٥) ؛ فأصلها :
 « ابذّر » ثم « ابذّر » ثم « ابذّر » ، على النحو الذى شرحناه من قبل .

٢ - (ارثعن) : يقال : ارثعنّ المطر ، إذا كثر ، وارثعنّ إذا
 استرخى . وكل مسترخ متساقط : مرثعنّ^(١٢٦) . ومن أمثله قول النابغة
 الذبياني :

وَكُلُّ مُلِثٍ مُكْفِهَرٍ سَحَابُهُ
 كَمِيشِ التَّوَالِي مُرْثَعِنٍ الْأَسَافِلِ^(١٢٧)
 وقول رؤبة :

كَأَنَّهُ بَعْدَ رِيَاحٍ تَذْهَمُهُ
 وَمُرْثَعْنَاتِ الدُّجُونِ تَثْمُهُ^(١٢٨)
 وقول أبو الأسود العجلي :
 لَمَّا رَأَاهُ جَسْرَبًا مُجَنًّا
 أَقْصَرَ عَنْ حَسَنَاءَ وَارْثَعْنَاءِ^(١٢٩)
 وقول الراجز :

ضَرْبًا وَلَا غَيْرَ مُرْثَعِنٍ^(١٣٠)

والمادة الثلاثية ، تشهد بتطور هذه الكلمة عنها ، فالرثانُ :
 قطرات المطر ، يفصل بينها سكون^(١٣١) ، فأصل هذه الكلمة على هذا :
 « ارثانّ المطر » ثم « ارثانّ » ثم « ارثعنّ » .

(١٢٥) اللسان (بذر) ١١٤/٥

(١٢٦) اللسان (رثعن) ٣٤/١٧

(١٢٧) ديوانه ق ٣/٥ ص ٦٥ واللسان (رثعن) ٣٤/١٧

(١٢٨) ديوانه ق ١٣/٥٥ - ١٤ ص ١٤٩ ونسباً لذي الرمة في اللسان (رثعن) ٣٤/١٦ وليس

في ديوانه .

(١٢٩) اللسان (رثعن) ٣٤/١٧

(١٣٠) اللسان (رثعن) ٣٤/١٧

(١٣١) اللسان (رثعن) ٣٤/١٧

٣ - (ارمعل) : يقال : ارمعل الثوب وغيره : إذا ابتل ،
وارمعل الدمع : سال وتتابع قطراته (١٣٢) . ومن أمثله قول مدرك بن
حصن الأسدي :

بَكَى جَزَعاً مَنْ أَنْ يَمُوتَ وَأَجْهَشَتْ
إِلَيْهِ الْجَرِشَى وَارْمَعْلُ خَنِينُهَا (١٣٣)
وقول الزَّيَّان :

كَنْظِمِ اللَّوْلُؤُ مُرْمَعْلُ
تَلْفُفُهُ نَكْبَاءُ أَوْ شَمَّالُ (١٣٤)

وقول الشاعر :

وَأَنْصِبْ لَنَا الدَّهْمَاءَ طَاهِي وَعَجِّلَنْ
لَنَا بِشَوَاةٍ مُرْمَعْلُ ذُؤُوبُهَا (١٣٥)

ولهذه الكلمة علاقة - فيما يبدو - بقولهم : رمّل الثوب ونحوه ،
إذا لطخه بالدم ، كما يقول : أرمّل السهم إرمالاً إذا أصابه الدّم فبقى
أثره (١٣٦) .

٤ - (اسمعد) : يقال : اسمعد الرجل ، إذا امتلأ غضباً (١٣٧) .
وهي متطورة عن : « اسماد » التي تحدثنا عنها من قبل .

٥ - (اشمعت) : قال أبو تراب : سمعت بعض قيس يقول :
اشمعتّ القوم في الطلب ، إذا بادروا فيه وتفرّقوا (١٣٨) . وقد عرفنا هنا أن
قبيلة قيس ، ممن يبدلون الهمزة عينا ؛ فأصل الكلمة على هذا : « اشمأطّ

(١٣٢) اللسان (رمعل) ٣١٧/١٣

(١٣٣) المعاني الكبير ١٢٠٦/٢ والبارع للقالى ١٢١ واللسان (رمعل) ٣١٧/١٣

(١٣٤) اللسان (رمعل) ٣١٨/١٣

(١٣٥) اللسان (رمعل) ٣١٨/١٣

(١٣٦) اللسان (رمل) ٣١٣/١٣

(١٣٧) اللسان (سمعد) ٢٢٤/٤

(١٣٨) اللسان (شمعت) ٢١٠/٩

القوم » ، وقد تطورت بسبب استخدامها في الشعر عن : « اشماط القوم » . وعلاقتها بالمادة الثلاثية ، تتضح في قولهم : « جاءت الخيل شماطيط » ، أى متفرقة أرسالا ، وقولهم : « ذهب القوم شماطيط » ، إذا تفرقوا (١٣٩)

٦ - (اشمعل) : يقال : اشمعلت الغارة ، إذا شملت وتفرقت وانتشرت (١٤٠) . وعلاقتها بمادة « الشمول » واضحة . ويخطيء الخوارزمي (١٤١) ، حين يظن أنه « من اشتعال النار مضموماً إليه الميم ، أو من الشموع وهو الطرب ، مضموماً إليه اللام » .

ومن أمثله : قول أوس بن مغراء التيمي :
وَهُمْ عِنْدَ الْحُرُوبِ إِذَا اشْمَعَلْتُ
بُنُوَهَا ثُمَّ وَالْمُتَأَوُّبُونَ (١٤٢)

وقول الطرماح :
فَمَا لَقِيتُ قَتْلَى تَمِيمٍ شَهَادَةً
وَلَا صَبَرْتُ لِلْحَرْبِ حِينَ اشْمَعَلَتْ (١٤٣)

وقول الشاعر :
صَبَحْتُ شَبَاماً غَارَةً مُشْمَعَلَةً
وَأُخْرَى سَاهِدِيهَا قَرِيباً لِشَاكِرٍ (١٤٤)

وقول مرة بن محكان السعدي :
بَنَى أَسَدٌ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا
تَمِيمًا إِذَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ اشْمَعَلَتْ (١٤٥)

(١٣٩) اللسان (شمعط) ٢٠٩/٩

(١٤٠) اللسان شمل ٣٩٥/١٣

(١٤١) شروح سقط الزند ١٣١

(١٤٢) الصحاح (شمعل) ١٧٤١/٥ واللسان (شمعل) ٣٩٥/١٣

(١٤٣) ديوانه ق ٣٣/٤ ص ٥٨

(١٤٤) اللسان (شمعل) ٣٩٥/١٣ وتهذيب اللغة ٣٢٦/٣

(١٤٥) الكامل للمبرد ١٩٩/١

وقول الشماخ :

رُبَّ ابْنٍ عَمٍّ لِسُلَيْمَى مُشْمَعِلٌ^(١٤٦)

٧ - (اقدعّر) : المقدعّر هو : المتعرّض للقوم ، ليدخل في أمرهم وحديثهم ، واقدعّر نحوهم يقدعّر ، أى رمى بالكلمة بعد الكلمة وتزحّف إليهم^(١٤٧) . ولعل لهذه الكلمة علاقة بمادة (قَدَّر) في العربية !

وقد أبدلت راؤها لاما ، فروى في اللغة كذلك : « اقدعل^(١٤٨) » بالمعنى نفسه . وقد سبق أن تحدثنا عن الإبدال الواقع بين الراء واللام ، وعرفنا أنه كثير الورود في العربية . ومن أمثلة « اقدعل » : قول الراجز :

إِذَا كُفَيْتُ أَكُفِّي وَإِلَّا
وَجَدْتَنِي أَرْمُلُ مُقْدَعِلًا^(١٤٩)

٨ - (اقشعّر) : يقال : اقشعّر الجلد ، إذا تقبضّ وارتعد . وعلاقة هذه الكلمة وثيقة بمادة « قشر » ومنها : « الأقشر » وهو الشديد الحمرة ، كأنّ بشرته متقشّرة^(١٥٠) .

٩ - (اقصعلّ) : يقال : اقصعلّت الشمس ، إذا تكبّدت السماء^(١٥١) ، أى توسطتها . وللکلمة ارتباط - فيما يبدو - بالقصّل ، وهو قطع الشيء من وسطه ، أو أسفل من ذلك^(١٥٢) .

هذه هي بعض الأمثلة ، التي تطوّرت فيها صيغة « افعأل » ،

(١٤٦) الكامل للمبرد ١٩٩/١

(١٤٧) اللسان (قذعر) ٣٩١/٦

(١٤٨) اللسان (قذعل) ٧١/١٤

(١٤٩) اللسان (قذعل) ٧١/١٤

(١٥٠) اللسان (قشعر) ٤٠٤/٦

(١٥١) اللسان (قصعل) ٧٤/١٤

(١٥٢) اللسان (قصل) ٧٣/١٤

فأبدلت فيها الهمزة عينا ، فبدأ في الظاهر انقطاع الصلة بينها وبين أصلها :
« افعال » .

وهناك تطور آخر لصيغة « افعال » ، لم يبالغ في تحقيق الهمزة فيها ، وإنما يميل إلى تسهيلها بعض الشيء ، فتقلب في النطق هاء . وإبدال الهمزة هاء أمر تعرفه العربية ؛ فقد روى لنا اللغويون فيها : « أرقت الماء وهرقته » ، و« أرحت الدابة وهرحتها » و« إياك أن تفعل وهياك أن تفعل » . وغير ذلك^(١٥٣) .

وفيما يلي بعض أمثلة هذا النوع من التطور ، في العربية الفصحى :

١ - (اتمهل) : يقال : اتمهل الشيء ، أى اعتدل وانتصب^(١٥٤) . وأصل هذه الكلمة : « اتمأل » التى تحدثنا عنها من قبل ، وقلنا إن لامها منقلبة عن الراء فى : « اتمأر » ؛ أى أن الأصل هو : اتمأر ، ثم اتمأر ، ثم اتمأل ، ثم اتمهل . ويخطئ الزبيدي^(١٥٥) ، حين يرى أن الهمزة فى : « اتمأل » بدل من الهاء فى : « اتمهل » !

ومن أمثلة^(١٥٦) هذه الكلمة الجديدة : قول القحيف :
إِذَا مَا الضَّبَّاعُ الْجَلَّةُ انْتَجَعَتْهُمْ
نَمَا النَّيُّ فِي أَصْلَائِهَا فَاتْمَهَلَتْ

(١٥٣) انظر : الإبدال لأبى الطيب ٥٦٩/٢ وما بعدها ، والقلب والإبدال لابن السكيت

(١٥٤) اللسان (تمل) ٧٤/١٣ (مهل) ١٥٧/١٤

(١٥٥) تاج العروس (مهل) ١٢٢/٨

(١٥٦) انظر فى هذه الأمثلة : اللسان (مهل) ١٥٧/١٤ وتاج العروس (مهل) ١٢٢/٨

وقول معن بن أوس :

لِبَاخِيَّةٍ عَجَزَاءُ جَمِّ عِظَامُهَا
نَمَتْ فِي نَعِيمٍ وَاتَّمَهَلَتْ بِهَا الْجِسْمُ

وقول كعب بن جُعيل :

فِي مَكَّانٍ لَيْسَ فِيهِ بَرَمٌ
وَفِرَاشٌ مُتَعَالٍ مُتَمَهِّلٌ

وقول حبيب بن المرقال العبدى :

لَقَدْ زُوِّجَ الْمِرْدَادُ بَيْضَاءَ طِفْلَةٍ
لَعُوباً تُنَاغِيهِ إِذَا مَا اتَّمَهَلَتْ

وقول عقبة بن مكدّم :

فِي تَلِيلٍ كَأَنَّهُ جِذْعُ نَخْلٍ
مُتَمَهِّلٌ مُشَدَّبُ الْأَكْرَابِ

وقول منظور بن مرثد الأسدى :

وَعُنُقٍ كَالْجِذْعِ مُتَمَهِّلٌ

٢ - (اجرهّد) : يقال : اجرهّدت الأرض ، إذا لم يوجد نبت ولا مرعى ، واجرهّدت السنة : اشتدت وصعبت^(١٥٧) . والعلاقة واضحة بين هذه الكلمة ، وقولهم : أرض جرداء ، أى لا نبات فيها . ومعنى هذا أننا نتصور الأصل : اجرأدت الأرض ، ثم اجرأدت ، ثم اجرهّدت . ومن أمثله قول الأخطل :

مَسَامِيحُ الشَّيْءِ إِذَا اِجْرَهَّدَتْ
وَعَزَّتْ عِنْدَ مَقْسِمِهَا الْجَزُورُ^(١٥٨)

(١٥٧) اللسان (جرهّد) ٩٢/٤

(١٥٨) ديوانه ص ٢٠٥ واللسان (جرهّد) ٩٢/٤

٣ - (ادرهم) : يقال : ادرهم ، أى كبر فى السن . والمدرهم
الساقط من الكبر^(١٥٩) . ومنه قول كثير عزة :
نَعَيْنَ وَلَوْ أَسْمَعْنَ أَعْلَامَ صِنْدِ
وَأَعْلَامَ رَضَوَى مَا يَقْلَنَ اذْرَهَمَّتِ^(١٦٠)

وقول القلاخ :
أَقْسَمْتُ لَا أَسْأُ حَتَّى يَسْأَمَا
وَيَذَرَهُمَّ هَرَمًا وَأَهْرَمَا^(١٦١)

ولا شك أن هذه الكلمة ، ذات علاقة بكلمة : « الأدرم » ،
وهو الذى لا أسنان له . ومنه الفعل : دَرِمْتُ أسنائه ، أى تحاثت^(١٦٢) .

٤ - (ادلهم) : يقال : ادلهم الليل والظلام ، إذا كثف
واسود^(١٦٣) . وهذا الفعل روت لنا المعاجم كل مراحل حياته ؛ ففيها :
« الأدلم الشديد السواد . وقد ادلأم الرجل^(١٦٤) » . وهذا هو الأصل
على وزن « افعال » ، وفيها أيضا : « ادلأم الشيء : اسود^(١٦٥) » وهذه
هى المرحلة الثانية ، على وزن : « افعال » .

٥ - (ازمهر) : الزمهير : شدة البرد ، ويقال : ازمهر اليوم

(١٥٩) اللسان (درهم) ٨٩/١٥

(١٦٠) ديوانه ق ٣/٥٤ ص ٣٢٣

(١٦١) اللسان (درهم) ٨٩/١٥

(١٦٢) اللسان (درم) ٨٧/١٥

(١٦٣) اللسان (دلهم) ٩٦/١٥

(١٦٤) اللسان (دلم) ٦٤/١٥

(١٦٥) الأفعال لابن القطاع ٣٨١/١

ازمهراراً ، إذا اشتد برده^(١٦٦) . والعلاقة شديدة بينه وبين زَمُر الریح ، بمعنى صفيـرھا ، وهو يصاحب شدة البرد ، في بعض الأحيان .

٦ - (اسلـهـب) : يقال : فرس مسلـهـبٌ ، یعنی : طويل العظام^(١٦٧) . والعلاقة واضحة بينه وبين الثلاثي في قولهم : رُـمـح سـلـب ، أى : طويل^(١٦٨) .

٧ - (اسمـهـد) : يقال : اسمـهـد السنام ، إذا اعظم وامتلاً^(١٦٩) . وهذه الكلمة حلقة أخرى ، من تطور الكلمة السابقة : « اسمأد » ، التي عرفنا من قبل ، أنها تطورت كذلك إلى : « اسمعد » بالمعنى نفسه .

٨ - (اسمـهـر) : يقال : اسمـهـر الحبل ، إذا اشتد . والاسمـهـرار : الصلابة والشدة^(١٧٠) . ومن أمثلته : قول رؤبة :
إِذَا اسْمَهَرَّ الْحَلِيسُ الْمُعَالِثُ^(١٧١)

والعلاقة واضحة بينه وبين قول العرب : « سَمَرَه يَسْمُرُه سَمَرًا ، وَسَمَرَه ، إذا شَدَّه . والمسمار هو ما شَدَّ به الشيء^(١٧٢) » .

٩ - (اكفـهـر) : المكفـهـر من السحاب الذى يغلظ ويسود ،

(١٦٦) اللسان (زمهر) ٤١٨/٥

(١٦٧) اللسان (سلـهـب) ٤٥٧/١

(١٦٨) اللسان (سلـب) ٤٥٥/١

(١٦٩) اللسان (سمـهـد) ٢٠٥/٤

(١٧٠) اللسان (سمـهـر) ٤٧/٦

(١٧١) ديوانه ق ٢١/١٢ ص ٢٩ واللسان (سمـهـر) ٤٧/٦

(١٧٢) اللسان (سـمـر) ٤٤/٦

ويركب بعضه بعضاً^(١٧٣) . ومن أمثلته قول الطرماح :
 تَرَكْتُمْ غَدَاةَ الْمَرْبَدَيْنِ نِسَاءَكُمْ
 لِقَحْطَانٍ لَمَّا أَبْرَقَتْ وَاكْفَهَرَتْ^(١٧٤)

والعلاقة واضحة بينه وبين قول العرب « الكفر » بمعنى :
 انظلمة ، لأنها تستر ما تحتها .

هذه هي بعض صور التطور في صيغة (أفعال) ، التي يرجع
 السبب في وجودها في العربية ، إلى الوزن الشعري ، وعدم قبوله لبعض
 المقاطع الجائزة في النثر . ولا يفوتنا هنا ، أن نشير إلى أن الكلمة ، بعد
 أن تشيع على الألسنة ، تأخذ مجراها الطبيعي في اللغة ، باستعمال باقي
 المشتقات منها ؛ فلا يعترض علينا بكلمات مثل : القُشْعَرِيَّة ،
 والطمأنينة ، والاكفهرار ، والزمهير ، وغير ذلك ؛ لأن هذه الكلمات
 وأمثالها ، مأخوذة من أفعالها ، بعد أن حدث فيها التطور الذي شرحناه .

وبعد ، فهذا أحد آثار الوزن الشعري على أبنية العربية . وهناك
 الكثير من الآثار الأخرى ؛ فالوزن الشعري هو المسئول مثلاً عن وجود
 (الكلكال) إلى جانب (الكلكل) بمعنى : الصدر ، و (درهام)
 إلى جانب (درهم) و (خاتام) إلى جانب (خاتم) ، وغير ذلك مما
 سبق أن أشرنا إلى بعضه في الفصل السابق .

وقد روى النحويون بعض الصيغ العربية ، التي وردت على غير

(١٧٣) اللسان (كفهر) ٤٦٧/٦ والأفعال لابن القطاع ١١١/٣

(١٧٤) ديوانه ق ٥٢/٤ ص ٦٥

المألوف فيها ، والقياس الجارى فى أمثالها ، ووقفوا أمامها حيارى ، وتكلفوا لها التأويل والتخريج ، وفاتهم فى كل ذلك ، أن السبب فى مخالفتها المألوف ، هو استخدامهما فى الشعر ، ذلك الاستخدام الذى حوّلها عن أصلها ؛ لتنسجم مع الوزن الشعرى ، ثم خرجت من الشعر إلى النثر ، وشاعت على الألسنة ، فى صورتها الجديدة .

من ذلك قولهم : (لم أُبَلِّ) و (ولا أدْرِ)^(١٧٥) ؛ فقد كثر استعمالهم لهاتين الكلمتين فى النثر بهذه الصورة . والقياس فيهما : (لم أُبالِ) و (لا أدرى) . وهم يعللون للحذف فيهما بكثرة الاستعمال^(١٧٦) . ويقول المبرد فى سبب هذا الحذف : « وأما لم أُبَلِّ ، فإنه كثر فى كلامهم ، وكأنّ الأصل مطّرح ، وكأنه يقول فى الوقف : لم أُبالِ ، فيلتقى ساكنان : الألف واللام ، فحذف الألف لالتقاء الساكنين ، ولولا كثرتهم لم يحذف ؛ لأنه يلتقى ساكنان فى الوقف^(١٧٧) » .

كما يقول فى تعليل نشوء : (لا أدْرِ) : « وقولهم : لا أدِر ، ردىء ، وإنما كان يقف عليه ، فوصله على وقفه^(١٧٨) » .

أما نحن ، فإننا نرى أن الشعر ، هو المسئول عن نشوء هاتين الصيغتين ، من صيغ الكلام فى العربية ؛ فقد وردت (لم أُبَلِّ) فى قول الشاعر :

وَلَوْلَا ابْنَةُ الْوَهْبِيِّ رَيْدَةُ لَمْ أُبَلِّ
طَوَالَ اللَّيَالِي أَنْ يُحَالَفَهُ الْمَحَلُّ^(١٧٩)

(١٧٥) انظر فى ذلك : سيبويه ٨/١ ؛ ١٣٤/١ ؛ ٣١٠/١

(١٧٦) انظر : المختضب ٣٧/١ وعنه بتحريف فى الأشباه والنظائر للسيوطى ١١/١

(١٧٧) المقتضب ١٦٧/٣

(١٧٨) المقتضب ١٦٩/٣

(١٧٩) بلاد العرب للغدة الإصفهاني ٣٨

وقول الآخر :

غُلَامٌ إِذَا مَا هَمَّ بِالْفَتْكِ لَمْ يُبَلِّ
الْأَمْتُ قَلِيلاً أَمْ كَثِيراً عَوَازِلُهُ^(١٨٠)

وقول الفرزدق :

لَوْلَا يَدَا بَشِيرِ بْنِ مَرْوَانَ لَمْ أَبْلُ
تَكَثَّرَ غَيْظٌ فِي فُؤَادِ الْمُهَلَّبِ^(١٨١)

وقول الشاعر :

لَوْ مَا هَوَى عِرْسِ كُمَيْتٍ لَمْ أَبْلُ
(١٨٢)

وقد استخدم الفراء عبارة : « لم أبْل » في كلامه هو ، دون ضرورة داعية ، حين قال : « الذي قبله مؤقت ، فلم أبْل أن يخرج بطرح (من) كالحال^(١٨٣) » ! وكذلك استخدمها ابن خالويه في كلام له ، فيه : « ولم يُبَلِّ^(١٨٤) » .

كما وردت عبارة : (لا أدْرِ) في قول أبي خراش الهذلي :
وَلَا أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِذَاءُهُ
خَلَا أَنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَا جِدَّ مَحْضٍ^(١٨٥)

(١٨٠) الكامل للمبرد ٢٠٦/١

(١٨١) ديوانه ص ١٠

(١٨٢) معاني القرآن للفراء ٨٤/٢

(١٨٣) معاني القرآن للفراء ١٠٤/٢

(١٨٤) إعراب ثلاثين سورة ١٥٨

(١٨٥) ديوان الهذليين ١٢٣٠/٣

البَابُ الرَّابِعُ الشَّرَاءُ اللُّغَوِيُّ فِي الْعَرَبِيَّةِ

الفصل الأول المعاجم العربية

نظرة تاريخية

يبدأ تاريخ علم اللغة العربية بالقرآن الكريم ، وقد بدأت الدراسات المعجمية في العربية - ككل الدراسات اللغوية عند العرب - لخدمة الدين الإسلامي ، ولغرض فهم القرآن الكريم ، المصدر الأول للتشريع الإسلامي ودستور المسلمين ؛ فالقرآن الكريم ، هو محور الدراسات العربية كلها كما عرفنا من قبل - وهو الأساس الذي من أجله قامت هذه الدراسات .

وقد تحدثنا من قبل ، عن ارتباط نشأة المعاجم العربية ، بالبحث عن معاني الألفاظ العربية ، في القرآن الكريم ، وعرفنا منهج ابن عباس ، رضي الله عنه ، في تفسير ألفاظ القرآن الكريم بالشعر ، وعددنا تفسير ابن عباس للقرآن ، على هذا النحو ، نواة للمعاجم العربية .

ونتحدث فيما يلي عن أنواع المعاجم العربية ، بالنسبة للنظام الذي اتبعته ، في ترتيب الكلمات بها ، فهناك ثلاثة أنواع من المعاجم :

١ - نوع رتب الكلمات ، على حسب المخارج الصوتية ، وطريقة التقاليب ، مثل : كتاب العين للخليل بن أحمد ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم لابن سيده الأندلسي .

٢ - ونوع رتب الكلمات ترتيباً أبجدياً (بحسب الأصل الأخير ، أو الأول للكلمة) ؛ مثل : الصحاح للجوهري ، ولسان العرب لابن

منظور ، والقاموس المحيط للفيروزابادي ، وأساس البلاغة للزمخشري ،
والمصباح المنير للفيومي .

٣ - ونوع ثالث رتب الكلمات بحسب الموضوعات ؛ مثل :
الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ، وفقه اللغة للثعالبي ،
والمخصص لابن سيده الأندلسي .

وقبل أن نتحدث عن المعاجم العربية الكبيرة ، نود أن نلقى هنا نظرة
على تلك الرسائل اللغوية الصغيرة ، التي استقى اللغويون العرب ، ولا سيما
الأقدمون منهم ، مادتها من أفواه البدو . وبعض أسماء هؤلاء البدو ، معروف
لنا من مؤلفات هؤلاء اللغويين . ومن هؤلاء البدو : أبو ثروان العكلي ،
وأبو الجراح العقيلي ، وأبو حزام العكلي ، وأم الحمارس البكرية ، وأبو شنبل
الأعرابي ، وأبو صاعد الكلابي ، وأبو الغمر العقيلي ، وغنية الكلابية ،
وقريبة الأسدية ، وأبو مرة الكلابي ، وأبو مهدى الباهلي ، وأبو مهدية
الكلابي ... وغيرهم^(١) .

فقد كان اللغويون الأقدمون ، يسيحون في الجزيرة العربية ، يسألون
البدو ، ويكتبون عنهم . وقد سأل الكسائي (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) الخليل
ابن أحمد قائلا : من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز
ونجد وتهامة ، فخرج الكسائي إلى البادية ، ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينة
حبر ، في الكتابة عن العرب ، سوى ما حفظ^(٢) .

ولننظر فيما يلي بعض هذه الرسائل اللغوية ، التي وصلت إلينا من
مؤلفات هؤلاء اللغويين ؛ فمن بين ما ألفه اللغوي العربي الكبير : «عبد

(١) انظر في هؤلاء البدو وغيرهم : الفهرست لابن النديم ١٦ ومعجم الشعراء للمرزباني ٥٠٧ - ٥١٥ .

• إنباه الرواة ١١٤/٤ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ بغداد ٣٤/١ .

الملك بن قريب الأصمعي « (المتوفى سنة ٢١٦ هـ) ، بقيت لنا المؤلفات التالية :

- ١- الإبل .
- ٢- الخيل .
- ٣- الشاء .
- ٤- الوحوش .
- ٥- الفرق .
- ٦- خلق الإنسان .
- ٧- النبات والشجر .

والكتاب الأول : « الإبل^(٢) » ، وصل إلينا في روايتين مختلفتين ، ولا عجب في ذلك بالنسبة للأصمعي ؛ فقد روى التبريزي^(٣) أن الأصمعي أملى كتابه : خلق الإنسان (رقم ٦) ، خمس عشرة مرة ، فكل نسخة من إملائه ، تخالف سائر النسخ في نقص أو زيادة .

ويتحدث الأصمعي في كتاب : « الإبل » عن نتائجها وحلبها ، وأسماء أعضائها ، وألوانها ، وطريقة ورودها الماء ، وأدوائها ، وسيرها ، وغير ذلك . وفيما يلي نص صغير منه (ص ١٤٢) :

« فإذا أَلَقَت (الناقة) ولدها ، فهو ساعة يقَع (سَلِيل) ، فإذا وقع عليه اسم الذكر والتأنيث ، فإن كان ذكراً فهو (سَقَب) ، وإن كان أنثى فهو (حائل) . قال أبو ذؤيب :

فَتِلْكَ الَّتِي لَا يَتَرَحُّ الْقَلْبُ حُبَّهَا
وَلَا ذِكْرُهَا مَا أَرْزَمَتْ أُمُّ حَائِلٍ

وقال الأسدي :

مِنْ عَهْدَةِ الْعَامِ وَعَامِ قَابِلٍ
مَلْقُوْحَةٍ فِي بَطْنِ نَابِ حَائِلٍ

فإذا قوى ومشى فهو (راشع) ، وهي (المرشح) . وهي (المطفل) ما دام ولدها صغيرا . فإذا ارتفع عن الرشح فهو (الجادل) ، فإذا حمل

(٢) نشره أوجست هفتر A.Haffner في كتاب : « الكنز اللغوي في اللسان العربي » - ليزج

١٩٠٥ م . ص ٦٦-١٥٧

(٣) شرح حماسة أبي تمام للتبريزي ٦٧

فى سنامه شحما فهو (المَعْكِر) ، وهو فى هذا كله (حَوَار) ، فإذا فُطِم فهو (فَصِيل) ... إلخ .

أما الكتاب الثانى : « الخيل »^(٤) ، فيبدأ الفصل الأول منه ، بعد إسناد طويل ، بإرادة الخيل للفحل حتى تنتج ، ثم يلى ذلك تسمية ولد الفرس ، من حين ولادته ، حتى يصل سنه إلى خمس سنوات ، وتسمية خلق الخيل جزءاً جزءاً . أما الفصل الثانى ، فهو بعنوان : « ما يستحب فى الخيل » . والفصل الثالث فى : « ما يكره فى الخيل » . ويلى ذلك فصل آخر فى : « صفة مشى الخيل وعَدْوُها » ، وفصل خامس فى : « ألوان الخيل » ، يليه فصل عن : « الشَّيَات » ، وهى العلامات التى توجد فى الخيل . ويختم الكتاب بذكر الخيل المشهورة ، وأسماء أصحابها . ثم يقصّ الأصمعى بعض القصص عن سباق الخيل وغيرها . ومن أمثلة الكتاب فى باب الشيات (ص ٢٢) :

« منها : العُرَّة ، وهو بياض الجبهة ، فإذا صغرت فهى قُرحة ، فإذا استطالت وانصبَّت فهى شِمْرَاح ، فإذا انتشرت قيل : غُرَّة شادخة ، وفرس شادخ الغرة . وقال ابن مفرغ :

شَدَخَتْ غُرَّةُ السَّوَابِ قِي فِيهِمْ

فى وَجُوهِ مَعَ اللَّامِ الْجَعَادِ
فإذا ابيض موضع اللطمة من الفرس ، قيل : لَطِيم ، فإذا ابيضت جحفلة العليا ، فهو أرثم ، وهى رثماء » .

ولم يكن الأصمعى هو الذى ألف وحده فى الخيل ؛ ففى عصره ألف كل من : أبى المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) كتاباً فى الخيل بعنوان : « نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها » ، تحدث فيه عن بعض خيول العرب المشهورة وأخبارها . كما ألف أبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابى (المتوفى سنة ٢٣١ هـ) كتاباً آخر سماه :

(٤) نشره كذلك أوجست هفتر A.Haffner فى مجلة : SBWA قينا ١٨٩٥ م . ج ١٠/١٣٢

« كتاب أسماء خيل العرب وفرسانها^(٥) » ، تحدّث فيه عن خيول القبائل المشهورة ، كخيول قريش وبنى أسد وغيرهما . كما ألّف أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى (المتوفى سنة ٢٠٩ هـ) « كتاب الخيل^(٦) » ، ويمتاز هذا الكتاب عن غيره ، من الكتب المؤلفة في الخيل ، بأن فيه فصلا طويلا (ص ١٣٦-١٧٣) عن الأشعار التي قيلت في وصف الخيل . وكذلك ألّف علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي (من علماء القرن الثامن الهجري) كتابا في الخيل ، بعنوان : « حلية الفرسان وشعار الشجعان^(٧) » .

ونعود الآن مرة أخرى ، إلى كتب الأصمعي ، فالكتاب الثالث وهو : « الشاء^(٨) » ، هو الكتاب الوحيد الباقي لنا ، في وصف حمل الغنم ، ونتاجها ، وحلبها ، ومرضها ، وعيوبها . وفيما يلي نص منه (ص ٨) :

« فإذا أكل ولدها من الأرض ، قيل : قارم ، وقد قَرَمَ يَقْرِمُ قَرَمًا ، أى أكل الحَمْلُ من الأرض ، فإذا أرادوا أن يفطموه من اللبن ، قيل : افطموه ، فإذا فعل ذلك به ، فهو الفطيم . ومعنى الفطم : القطع ؛ يقال : فطم الحبل وما أشبهه فطما ، فإذا انتفخ جوفها من الماء والشجر ، فهي جَفْرَةٌ ، والذكر جَفْرٌ . والحُلَّان : الجدى الصغير ، فإذا تحرّك الجدى ونبت قرنائه ، فهو عَتُود ، وجمعه عِتْدَان . فإذا أدرك السّفَاد فهو عريض ، وجمعه عِرْضَان ، فإذا أتت عليه ثمانية أشهر ، أو تسعة ، أو نحوها ، قيل : قد أجذع ، وهو جذع ، وهي جذعة » .

(٥) نشره هو والكتاب الذى قبله : « ليشى دلاقيدا » G. Levi Della Vida في مجموعة بعنوان :

Les Livres des Chevaux - ليدن ١٩٢٨ م .

(٦) نشر في حيدر آباد بالهند سنة ١٣٥٨ هـ .

(٧) نشر مصورا في باريس سنة ١٩٢٢ م . ثم نشره محمد عبد الغنى حسن بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م .

(٨) نشره « أوجست هفتر » A. Haffner في مجلة SBWA ثينا ١٨٩٦ م . ج ٦/١٣٣

والكتاب الرابع : « الوحوش^(٩) » ، عالج فيه الأصمعي صفة الحمار الوحشي ، والظبي ، والوعل ، والنعام ، والأسد ، والذئب ، والضبع ، والثعلب ، والأرنب البري . وفيما يلي باب أسماء الثعالب فيه (ص ٣٧٨) :

« يقال : ثعلب وثُعالة . ويقال للثعلب : الهَجْرَس . ويقال له : سَمْسَم . قال :

وأشبه الهجارس في القتال

ويقال لولد الثعلب : التَّثْلُ مثل : يَعْفُر . قال امرؤ القيس :

لَهُ أَيُّطَلَاظَبِي وَسَاقَا نَعَامَةٍ

وإِرْحَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِبُ تَثْلٍ

والصَّيْدَن : لم أسمعه إلا في شعر كثير . ويقال للأُنثى من الثعالب : الثملة » .

وقد ألف مثل تأليف الأصمعي هذا ، محمد بن المستنير قطرب (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) . وعنوان كتابه : « ما خالف فيه الإنسان البهيمة في أسماء الوحوش وصفاتها^(١٠) » . وقد ألف « قطرب » هذا كتابا آخر لطيفا ، بعنوان : « المثلثات » . وليس هذا الكتاب في الهندسة ، كما قد يتبادر إلى الذهن من عنوانه ، وإنما هو في الكلمات التي وردت عن العرب ، بثلاث حركات في حرف واحد منها ، فيتغير المعنى تبعاً لذلك ؛ مثل : العَمَر : الماء الكثير - العِمَر : الحِقْد - العُمَر : الرجل الجاهل . ومثل : الكَلَام : الحديث - الكِلَام : الجروح - الكُلَام : الأرض الوعرة . ومثل : المَسْك : الجلد - المِسْك : الطيب - المُسْك : الطعام .

والكتاب الخامس : « الفرق^(١١) » ، يتحدث فيه الأصمعي عن

(٩) نشره « رودلف جاير » R.Geyer في مجلة SBWA ثينا ١٨٨٨ م ج ١/١١٥

(١٠) نشره « جاير » كذلك ، وجعله ملحقاً لكتاب الأصمعي في الوحوش .

(١١) نشره « مولر » D.H.Müller في مجلة SBWA ثينا ١٨٧٦ م . ج ٨٣

الفرق بين الإنسان والحيوان ، في تسمية الفم ، والشفة ، والأنف ، والظفر ، والرجل ، والصدر ، والثدى ، والفرج ، والمخاط ، والبصاق ، والعرق ، والجلوس ، والتغوط ، والنكاح ، والحمل ، والولادة ، والأولاد ، والأصوات . وفيما يلي مثال من فصل الرجل (ص ٢٤٠) :

«وهي رجل الإنسان ، والجمع الأرجل . ومثله قدمه ، والجمع أقدام . والحافر من الفرس في موضع القدم من الإنسان ، والجمع الحوافر . والخف من البعير ، والجمع أخفاف . ويقال : الخف ، للنعامة أيضا . والظلف من الشاة والبقر والظباء ، والجميع أظلاف » .

والكتاب السادس هو : « خلق الإنسان »^(١٢) ، ويصف الأصمعي فيه بعد مقدمة عن الحمل ، تقلب أحوال الإنسان ، منذ ولادته ، إلى أن يصير هرما - أعضاء الإنسان المختلفة ، بالترتيب ، مبتدئا بالرأس حتى القدم ، مستشهدا بالشعر على كثير من الكلمات التي يذكرها - على حسب عادته . ومن أمثلة (ص ٢٠٨) :

« وفي الأصابع : الرِّوَاَجِب ، واحداً راجبة ، وهي السُّلَامِيَّاتُ ظُهُورُهَا . قال النابغة :

عَلَى عَازِفَاتٍ لِلطَّعْسانِ عَوَابِسَ

إِذَا عَرَضُوا الْخَطِيَّ فَوْقَ السَّرَوَاجِبِ

وفي الكف : البَرَّاجِم ، والواحدة منها : بُرْجُمة ، وهي ملتقى رعوس السُّلَامِيَّاتِ ، من ظهر الكف ، إذا قبض الإنسان كفه ، نَشَرَتْ وارتفعت . وفي الكف : الأشاجع ، وهي العصبات التي على ظهر الكف ، تتصل بيطون الأصابع ، والواحد أشجع . قال ذو الرمة :

أَغْدَّ بِهَا الْإِذْلَاجَ كُلَّ شَمْسَرْدَلٍ

مِنَ الْقَوْمِ ضَرَبُ اللَّحْمِ عَارِي الْأَشَاجِعِ»

(١٢) نشره « أوجست هفتر » A.Haffner في مجموعته : « الكثر اللغوي في اللسان العربي » لبيز سنة

وقد أُلّف في موضوع : «خلق الإنسان»^(١٣) ثابت بن أبي ثابت (من علماء القرن الثالث الهجري) . ويعتمد ثابت في كتابه : «خلق الإنسان»^(١٤) على الأصمعي كثيرا ، غير أن كتاب الأصمعي ، لا يبلغ نصف ما في كتاب ثابت ، من حيث اللغة والشواهد والتفصيل ، ونسبة ما فيه من الشواهد إلى قائله . ومن أمثله في باب العيوب في العين (ص ١١٦) :

« وفي العين : الحَوَل والقَبَل ... فالحَوَل : أن تكون كأنها تنظر إلى الحِجَاج . والقَبَل كأنها تنظر إلى عُرض الأنف . وقال ابن الأعرابي : الحَوَل أن تميل الحدقة إلى اللحاظ ، والقَبَل أن تميل إلى المَوَق . وفي العين : العَمَى والعَوَر والكَمَةُ ... والكَمَةُ : أن يولد الولد لا يبصر شيئا » .

وقد أُلّف في هذا الموضوع كذلك : أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الرّجّاج (المتوفى سنة ٣١٠ هـ) . وفي كتابه : « خلق الإنسان »^(١٥) ، يصف الرّجّاج في ٣٤ فصلا ، أعضاء الإنسان من الرأس إلى القدم ، وصفا لغويا . وهو متأثر بكتاب : « خلق الإنسان » للأصمعي ، تأثرا كبيرا ، فالمقارنة بين الكتابين تبين أن الرّجّاج ، حذف من كتاب الأصمعي التعبيرات المكررة ، والاستطرادات ، والشواهد الشعرية إلا في النادر ، والمقدمة والخاتمة ، وأضاف إليه فصلين صغيرين ، عن : الاست ، وفرج المرأة .

ومن أُلّف في : « خلق الإنسان » كذلك : أبو الحسين أحمد بن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) . وكتابه يسمى : « مقالة في أسماء أعضاء الإنسان »^(١٦) ، وهو كتاب مختصر جدا ، ليس فيه شاهد شعري واحد .

(١٣) وانظر كذلك : التأليف في خلق الإنسان ، للدكتورة وجيهة السطل - دمشق ١٩٧٦ م .

(١٤) نشره عبد الستار أحمد فراج ، في الكويت سنة ١٩٦٥ م .

(١٥) نشره الدكتور إبراهيم السامرائي في بغداد سنة ١٩٦٣ م .

(١٦) نشره الدكتور فيصل دبدوب في دمشق سنة ١٩٦٧ م .

ومن المخطوطات الباقية في موضوع : « خلق الإنسان » كذلك : كتاب أبي عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب الإسكافي (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) ، ويعتمد فيه على كتاب الأصمعي كثيرا^(١٧) . ومن المخطوطات كذلك : كتاب جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، ويسمى : « غاية الإحسان في خلق الإنسان » ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية .

وآخر كتاب بقي لنا من كتب الأصمعي اللغوية ، هو كتاب : « النبات والشجر^(١٨) » . وفي هذا الكتاب ، يكتفى الأصمعي بذكر أنواع النبات المعروفة عند العرب ، بلا شرح أحيانا ؛ كقوله مثلا في : باب ما ينبت في السهل (ص ٤٠) :

« ومما ينبت في السهل : العرفج ، والعَصْر ، واحدته العَصْرَة . والنُّعْضُ واحدته نُعْضَة . والأفاني واحدته أفانية . والسُّطَّاح واحدته السُّطَّاحة . والفنا وهو عنب الثعلب . والحَلَمَة » .

ومن ألف مثل هذا التأليف كذلك : أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) فله كتاب يسمى : « الشجر^(١٩) » ، وأبو حنيفة الدينوري (المتوفى سنة ٢٨٠ هـ) ، فله كتاب يسمى : « النبات^(٢٠) » .

(١٧) منه مخطوطتان في المتحف العراقي ببغداد ، والمكتبة الظاهرية بدمشق . وقد حققناه وأعددناه للنشر .

(١٨) نشره « أوجست هفتر » A.Haffner والأب « لويس شيخو اليسوعي » في مجموعة بعنوان : « البلغة في شذور اللغة » - بيروت سنة ١٩١٤ م . ص ١٧ - ٥٩ ثم نشره عبد الله يوسف الغنيم بالقاهرة ١٩٧٢ م .

(١٩) هذا الكتاب نشره « ناجلبرج » S.Nagelberg سنة ١٩٠٩ م ، اعتماداً على مخطوطة وحيدة ، تحمل اسم ابن خالويه (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) ، غير أنه عاد فأثبت في مقدمته (ص ٣ - ٩) أن الكتاب لأبي زيد الأنصاري ، وإن كان قد وضع اسم ابن خالويه ، في عنوان الكتاب بالعربية ، على أنه المؤلف .

(٢٠) نشر « لوين » Lewin قطعة من الجزء الخامس منه ، في ليدن سنة ١٩٥٣ م . ثم نشر الجزء الثالث مع النصف الأول من الجزء الخامس منه ، في فيسبادن سنة ١٩٧٤ م .

ويعزى للأصمعي عدا ما ذكرنا ، كتابان آخران في اللغة مطبوعان ، هما كتاب : « الأضداد »^(٢١) ، وكتاب : « النخل والكرم »^(٢٢) . غير أن من يدرس الكتاب الأول ، ويقارنه بكتاب : « الأضداد » لابن السكيت^(٢٣) ، يدهش حين يرى الاتفاق الكبير بين هذين الكتابين . وقد لاحظ « هفner » ذلك ، غير أنه قال في مقدمة كتاب ابن السكيت : « يمكننا اعتبار كتاب الأضداد ، لابن السكيت ، كرواية ثانية لكتاب الأصمعي »^(٢٤) .

وهذا الكلام الذى يقوله « هفner » غير صحيح ، فإن كتاب « الأضداد » الذى ينسب للأصمعي ، يفيض بالرواية عن أبى زيد ، والأموى ، وابن الأعرابى ، وأبى عبيدة ، والفراء ، والأثرم . وإن من يدرس مؤلفات الأصمعي ، يعرف أنه لم يرو عن هؤلاء الرجال شيئاً ، وعلى الأخص عن خصميه : ابن الأعرابى ، وأبى عبيدة ، فلا يوجد فى أى كتاب من كتبه أى ذكر لهم . هذا إلى أن الأخير ، وهو الأثرم ، شيخ لابن السكيت ، لا للأصمعي .

وإذا كنا نرى هذه الأسماء ، ترد بعينها فى أماكن مطابقة ، فى كتاب ابن السكيت ، فإن المرء يستطيع الحكم بأن كتاب « الأضداد » ، الذى ينسب إلى الأصمعي ، ليس إلا رواية أخرى لكتاب ابن السكيت .

أما أن تكون المخطوطة التى اعتمد عليها « هفner » فى نشر الكتاب ، كانت تحمل اسم الأصمعي ، فأمر سهل التعليل ؛ لأن الكتاب يبدأ بعبارة : « قال الأصمعي » ، فابن السكيت يبدأ كتابه بالرواية

(٢١) نشره « أوجست هفner » A.Haffner فى مجموعة بعنوان : « ثلاثة كتب فى الأضداد » - بيروت

١٩١٣ م . ص ٥ - ٦١

(٢٢) نشره « أوجست هفner » A.Haffner والأب « لويس شيخو » فى كتاب : « البلغة فى شذور

اللغة » - بيروت ١٩١٤ م . ص ٦٣ - ٩٨

(٢٣) نشره فى مجموعة : « ثلاثة كتب فى الأضداد » السابقة .

(٢٤) هامش صفحة ١٦٣

عن الأصمعي ، فجاء أحد النساخ ، وحسب الكتاب كله للأصمعي ،
فنسبه إليه . وأغلب الظن أن ذلك قد حدث هنا ، ويحدث في حالات
مماثلة ، بسبب ضياع ورقة العنوان .

ولا يعني ما قلناه هنا أن الأصمعي ، لم يؤلف كتابا
في « الأضداد » ؛ فإن كل المصادر التي ترجمت له ، تذكر أنه ألف مثل
هذا الكتاب^(٢٥) ، غاية ما هناك أنه ضاع ولم يصل إلينا ، وليس هو على أية
حال ، ذلك الكتاب المطبوع ، الذي نشره « هفner » منسوباً إليه^(٢٦) .

أما الكتاب الثاني : « النخل والكرم » ، فقد قال عنه « هفner » في
المقدمة : « هذا الفصل ورد في النسخة الدمشقية ، من الصفحة
٢٦١ - ٢٩٣ وليس في أول الفصل ذكر اسم الأصمعي ، ولكن صاحب
لسان العرب ، نقل كثيرا من هذا الكتاب بحرفه الواحد ، وهو يعزوه مطلقا
إلى الأصمعي ، فلا نتمارى في نسبه إليه » .

غير أن « لويس شيخو » يشك في هذا الكلام ، حين يقول : « أما
نسبة الدكتور هفner هذا الكتاب إلى الأصمعي ، فهو على ما نظن على
التغليب ؛ لأن نسختنا التي أخذ عنها ، لا تصرح باسم الأصمعي . ومن
المحتمل أن يكون الكتاب ، لأبي عبيد معاصر الأصمعي . ومما يحملنا إلى
نسبته لأبي عبيد ، أن الشروح للمفردات ، توافق ما جاء في لسان العرب ،
والمخصص لابن سيدة ، منسوباً لأبي عبيد ، أكثر منها للأصمعي ، ومن
المحتمل أيضا أن يكون الكتاب لأبي حاتم ، تلميذ الأصمعي » .

وإننا حين ندرس كتاب : « النخل والكرم » هذا ، يتبين لنا أنه في

(٢٥) انظر مقدمة تحقيقنا لكتابه : « اشتقاق الأسماء » ص ٢٧ - ٢٨

(٢٦) انظر كذلك مقالتنا : « كتاب الأضداد للأصمعي ليس للأصمعي » في مجلة : « المكتبة »

العراقية (نوفمبر ١٩٦٦ م) ، وكتاب محي الدين توفيق : ابن السكيت اللغوي ٢٤٧ - ٢٤٨ وقد حاول محمد
حسين آل ياسين عبثا تصحيح نسبة هذا المطبوع إلى الأصمعي ، وهو منه برىء . (انظر كتابه : الأضداد
في اللغة ٣٦٧ - ٣٧٥) .

الواقع كتابان مستقلان ، لا علاقة لأحدهما بالآخر ، وهما : « كتاب النخل » و « كتاب الكرم » .

ودراسة الكتاب الأول ، تقودنا إلى اليقين ، بأن هذا الكتاب ، ليس إلا قطعة من كتاب : « الغريب المصنف » ، لأبي عبيد القاسم بن سلام - وستحدث عنه بالتفصيل فيما بعد - وذلك بعد حذف أسماء الرواة ، ومعظم الشواهد الشعرية . والمثال التالي يوضح ذلك على الوجه الأكمل :

النخل ٣/٧٠ : « ومن نعوت النخلة في حملها : إذا كانت تدرك في أول النخل ، فهي البُكُور ، وهنّ البُكر . والمُبْتَلُ : الأم يكون لها فسيلة ، وقد انفردت ، واستغنت عن أمها . ويقال لتلك الفسيلة : البُتُول . والبُكيرة مثل البُكُور . والمِسْلَاخ : التي نبتت (كذا) بواسرها . والحَضِيرَة : التي نبت (كذا) بُسْرَها وهو أخضر . والمُخَار . التي يبقى حملها إلى آخر الصَّرام » .

الغريب المصنف ١٨/٢٥٩ : « باب نعوت النخل في حملها : الأصمعي : إذا كانت تدرك في أول النخل ، فهي البُكُور ، وهنّ البُكر . وأنشد للمتخل :

ذَلِكَ مَا دِيْنُكَ إِذْ جُنِبَتْ

أَحْمَالُهَا كَالْبُكْرِ الْمُبْتَلِ

قال : والمُبْتَلُ : الأم تكون لها فسيلة ، قد انفردت واستغنت عن أمها ؛ فيقال لتلك الفسيلة : البُتُول . الفراء : البُكيرة مثل البُكُور . **قال :** والمِسْلَاخ : التي ينتثر بسرّها . والحَضِيرَة : التي ينتثر بسرّها وهو أخضر . الأصمعي : المُخَار : النخلة التي تبقى حملها إلى آخر الصَّرام . وأنشد :

تَرَى الْعَضِيضَ الْمُوقِرَ الْمُخَارَا

مِنْ وَقَعِهِ يَنْثَرُ انْثَارَا

أما الكتاب الثاني : « الكرم » ، ففي أوله العبارة التالية : « عن أبي

حاتم السجستاني « . وقد علق الناشر على ذلك بقوله في الهامش : « كذا في الأصل ، والظاهر أن أبا حاتم السجستاني ، روى كتاب الكرم عن الأصمعي » .

غير أن نص كتاب الكرم يبدأ بالإسناد التالي : « حدثنا الحسن بن علي الطوسي ، قال : حدثنا أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري ببغداد ، قال : أخبرنا أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان^(٢٧) السجستاني ، قال الطائفي : يقال ... » .

وفي هذا الإسناد ، لا نرى اسم الأصمعي على الإطلاق ، بل نرى اسم أبي حاتم السجستاني . وهذا يجعلنا نؤمن بأن هذا الكتاب ، من تأليف أبي حاتم ، لا من تأليف الأصمعي . ويؤيد هذا أيضا أن ابن النديم^(٢٨) يذكر أن أبا حاتم ألف كتابا في « الكرم » . ولم يذكر واحد ممن ترجموا للأصمعي ، أنه ألف مثل هذا الكتاب^(٢٩) .

وإذا كان كتاب « الأضداد » للأصمعي ، قد ضاع ، فإن مجموعة ضخمة من كتب الأضداد التي ألفها اللغويون العرب ، قد وصلت إلينا . وأول هذه الكتب : كتاب « الأضداد^(٣٠) » لأبي علي محمد بن المستنير قطرب (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) ، الذي سبق أن ذكرنا من مؤلفاته اللغوية : كتابي « الوحوش » و « المثلثات » . و « قطرب » لقب له ، لقبه به أستاذه سيبويه ؛ إذ كان قطرب يكر إليه ، « فيفتح سيبويه بابيه ، فيجده هنالك ، فيقول له : ما أنت إلا قطرب ليل ، فلقب قطربا لذلك^(٣١) » .

(٢٧) في الأصل : « عمر » وهو تحريف .

(٢٨) الفهرست ٩٣

(٢٩) انظر في هذا كتابنا : Das Kitāb Al-Ġarīb Al-Muṣannaf, S.95 FF. ومقالتنا بعنوان : « وكتاب النخل والكرم أيضا ليس للأصمعي » في مجلة : « المكتبة » العراقية (مارس ١٩٦٧ م) ومقدمتنا لتحقيق كتاب « اشتقاق الأسماء » للأصمعي ٢٣ - ٣٩ .

(٣٠) نشره « هانز كفلر » H.Kofler في مجلة « إسلاميكا » Islamica سنة ١٩٣٢ (المجلد الخامس)

ص ٢٨٤ - ٢٤١

(٣١) انظر : لسان العرب (قطرب) ٧٧/٢

وقد عالج قطرب في كتابه ٢١٨ كلمة من كلمات الأضداد ،
واستشهد عليها بكثير من أبيات الشعر ، والقرآن الكريم ، والأمثال العربية ،
غير أنه أخطأ في عدّ بعض الكلمات من الأضداد وما هي منها ؛ مثل :
« بَرَد » التي جعلها بمعنى : بَرَد وسَخَن ، كما تحدثنا عن ذلك من قبل .
ومن أمثلة الكتاب (ص ٢٥٤) :

« ومنه القانع : الراضى ، والقانع : السائل . قَنِعَ قَنَاعَةً وَقَنَعًا
وَقُنَعَانًا : رضى . وَقَنَعَ قُنُوعًا : أى سأل . وقال عدى بن زيد :
وَمَا خُنْتُ ذَا وَصَلٍ وَأُبْتُ بِوَصْلِهِ
وَلَمْ أُحْرِمِ الْمُضْطَرَّ إِذْ جَاءَ قَانِعَا
أى سائلا . وقال لبيد من المَعْمَرِينَ :

فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ أَخَذَ بِنَصِيْبِهِ
وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ فِي الْمَعِيشَةِ قَانِعٌ »

والكتاب الثانى فى « الأضداد » ألفه أبو يوسف يعقوب بن
إسحاق السكيت^(٣٢) (المتوفى سنة ٢٤٤هـ) . و « السكيت » لقب
أبيه إسحاق ؛ لأنه كان يطيل السكوت .

ويعالج ابن السكيت فى هذا الكتاب ٩٤ كلمة ، من كلمات
الأضداد ، ويستشهد عليها بكثير من أبيات الشعر ، والقرآن الكريم . وقد
سبق أن عرفنا أن كتاب الأضداد ، الذى ينسب للأصمعى ، ليس إلا رواية
أخرى ، لكتاب ابن السكيت هذا .

ويبدو أن ابن السكيت ، قد استعان فى تأليف كتابه ، بكتاب
الأصمعى المفقود ، كما يبدو أنه استخدم كتاب : « الغريب المصنف »
لأبى عبيد القاسم بن سلام ، بلا إشارة إليه ؛ فإن العبارات المروية فيه عن

(٣٢) نشره « أوجست هفتر » A.Haffner فى مجموعة بعنوان : « ثلاثة كتب فى الأضداد » بيروت

١٩١٣ م . ص ٦٣ - ٢٠٩

أبى زيد ، وأبى عبيدة ، والفراء ، والأموي ، توجد بنصها في كتاب « الغريب المصنف » . ومن أمثلة الكتاب (ص ٢٠٢) :

« القانع والقانع : الراضي بما قسم له ، ومصدره : القناعة .
والقانع : السائل ، ومصدره : القنوع . قال عدى :

وَمَا خُسْنُ ذَاوَصِلٍ وَأَبْتُ بَوَصْلِهِ

وَلَمْ أَحْرِمِ الْمُضْطَرَّ إِذْ جَاءَ قَانِعَا

أى سائلا . وقال الله عز وجل : وأطعموا القانع والمعتّر ؛ فالقانع : السائل ، والمعتّر : الذى يأتيك ويتعرض لك . قال الشماخ :

لَمَالِ الْمَرْءِ يُصْلِحُهُ فَيُغْنِي

مَفَاقِرَهُ أَعْفُفٌ مِنَ الْقُنُوعِ

أى أعف من المسألة . قال : أخبرني أبى أن أعرابيا أتى قوما ، فسألهم فلم يعضوه ، فقال : الحمد لله الذى أقنعنى إليكم ، أى أخرجنى إليكم » .

والكتاب الثالث ، الذى وصل إلينا من كتب « الأضداد » هو لأبى حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني^(٣٣) (المتوفى سنة ٢٥٥هـ) . ويعالج فيه صاحبه ١٧٠ كلمة من كلمات الأضداد ، ويبدو أنه استخدم كتاب الأصمعي المفقود كذلك . ومن أمثلة هذا الكتاب (ص ١١٦) :

« وقالوا : القانع : السائل الطالب ، وهو فى القرآن : وأطعموا القانع والمعتّر ... والقانع أيضا : الراضى بالشئ ... »

والكتاب الرابع فى « الأضداد » - وهو أكبر كتب الأضداد وأهمها - هو كتاب أبى بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري^(٣٤) (المتوفى سنة ٣٢٧هـ) . وفى هذا الكتاب ٣٥٧ كلمة من كلمات الأضداد ،

(٣٣) نشره « هفتر » فى مجموعته السابقة فى الأضداد : ص ٧١ - ١٥٧

(٣٤) نشره « هابسما » Hautsma فى لندن ١٨٨٧ م . ثم نشره محمد أبو الفضل إبراهيم فى تكويت

١٩٦٠ م وكان قد نشر من قبل فى القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

فقد جمع ابن الأنباري في هذا الكتاب ، كل كلمات الأضداد في مؤلفات سابقة ، وشرحها شرحا مفصّلا ، وأكثر من إيراد الشواهد عليها من الشعر والقرآن الكريم .

والكتاب الخامس في « الأضداد » ، ألفه معاصر لابن الأنباري ، وهو أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي^(٣٥) (المتوفى سنة ٣٥١ هـ) . وقد عالج فيه ٣٠٠ كلمة من كلمات الأضداد ، كما هاجم كثيرا ممن ألف في الأضداد من قبله ، وخطأهم ؛ فقد خطأ قطربا مثلا في قوله : إن قولهم : « بلّج الرجل بشهادته » معناها : كتمها أو أظهرها ؛ فيرى أبو الطيب اللغوي أن ذلك تصحيف ، وأنه إنما يقال في كتمان الشهادة : « بلّح بشهادته »^(٣٦) بالحاء .

والكتاب السادس في « الأضداد » ، ألفه أبو محمد سعيد بن المبارك ، المعروف بابن الدهان النحوي^(٣٧) (الموفى سنة ٥٦٩ هـ) . وقد ذكر في هذا الكتاب ٢٩١ كلمة من كلمات الأضداد .

والكتاب السابع والأخير من كتب « الأضداد » ، ألفه أبو الفضائل رضي الدين الحسن بن محمد الصاغاني^(٣٨) (المتوفى سنة ٦٥٠ هـ) .

وفي هذين الكتابين الصغيرين ، جمع ابن الدهان والصاغاني ، مجموعة كبيرة من كلمات الأضداد ، ورتبها ترتيبا هجائيا ، بعد أن حذف أسماء الرواة والشواهد ، الموجودة في كتب السابقين ، واختصرا العبارة

(٣٥) نشره « الدكتور عزة حسن » في دمشق سنة ١٩٦٣ م .

(٣٦) الأضداد لأبي الطيب ٨٦/١ وانظر : أضداد قطرب ٢٧٩ هامش ١

(٣٧) نشره الشيخ محمد حسن آل ياسين ، في مجموعة : نفائس المخطوطات - بغداد ١٩٦٣ م .

ص ٨٥ - ١٠٨

(٣٨) نشره « أوجست هفتر » A.Haffner وجعله ذبلا لمجموعته السابقة : « ثلاثة كتب في

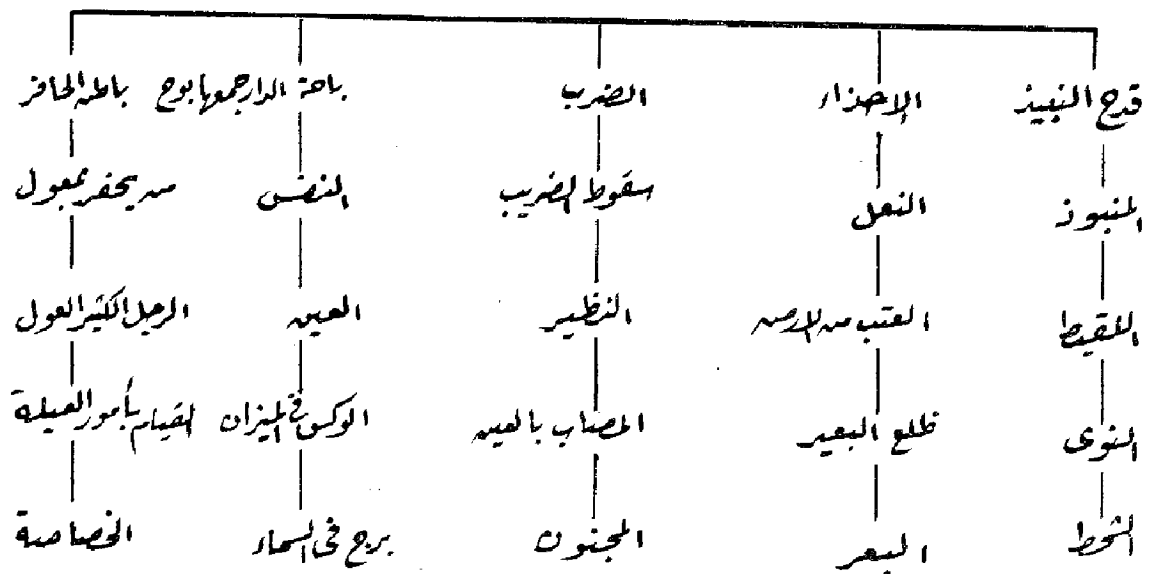
الأضداد » ص ٢٢١ - ٢٤٨

اختصاراً كبيراً إلى درجة أننا لا نعثر في هذين الكتابين ، في كثير من الأحيان ، إلا على الكلمة من كلمات الأضداد ومعنيها المتضادين فحسب .

ولم يؤلف أبو الطيب اللغوى - الذى تحدثنا عنه من قبل - كتاب الأضداد فحسب ، بل ألف عدة كتب لغوية ، وهى :

١- شجر الدرّ فى تداخل الكلام بالمعانى المختلفة^(٣٩) ، وطريقته فيه أن يذكر اللفظة ، ثم يفسرها بلفظة ثانية ، ويفسر اللفظة الثانية بثالثة ، والثالثة برابعة ... وهكذا ، ثم يعود إلى اللفظة الأولى ، ويفسرها بلفظة ثانية ، غير ما فسرهما به فى المرة الأولى ، ثم يفسر الثانية بثالثة ، والثالثة برابعة .. إلخ . ويسمى كل تلك التفسيرات المنبثقة من لفظة واحدة : شجرة ، وكل تفسير منها : فرع لتلك الشجرة ، وهو فى هذا التأليف ، يستغل ما فى اللغة العربية ، من كلمات « المشترك اللفظى » الذى نعالجه فيما بعد . مثال ذلك : الشجرة الأولى :

الشجرة الأولى



ولم يكن « أبو الطيب اللغوى » ، هو أول من ألف مثل هذا النوع من التأليف ؛ فقد سبقه إلى ذلك : أبو عمر محمد بن عبد الواحد المطرّز ، المعروف بغلام ثعلب (توفى سنة ٣٤٥ هـ) وكتابه يسمى : « المُدَاخَل في غريب اللغة »^(٤٠) ، وطريقته مثل طريقة أبى الطيب ، غير أنه يتضمن كثيرا من الألفاظ الموغلة في الغرابة .

ولدينا كتاب ثالث في هذا الموضوع ، وهو كتاب : « المسلسل في غريب لغة العرب »^(٤١) لأبى الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي القرطبي (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) . وهو مؤلف من خمسين بابا ، يبدأ كل باب منها ببيت من الشعر ، غامض المعنى ، يتناول المؤلف منه كلمة ويفسرها بأخرى ، وهذه بثالثة ... وهكذا . وهو مليء فيما عدا ذلك بالشواهد الشعرية .

٢- كتاب الإتياع^(٤٢) : والإتياع عبارة عن تأكيد الكلمة ، بضم كلمة أخرى إليها ، لا معنى لها في ذاتها ، غير أنها تساويها في الصيغة والقافية ، بغرض الزينة اللفظية وتأكيد المعنى . والكلمة الثانية تسمى كلمة « الإتياع » . ويقسمها اللغويون العرب ، بحسب معناها ، إلى ثلاثة أقسام :

(أ) كلمة الإتياع لها معنى واضح ، يدرك بسهولة ؛ مثل قولهم : هنيئا مريئا .

(ب) كلمة الإتياع لا معنى لها على الإطلاق ، ولا تستخدم وحدها ؛ مثل : شيطان لَيَطَّان ، وَحَسَنٌ بَسَنٌ .

(٤٠) نشره محمد عبد الجواد ، بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م .

(٤١) نشره كذلك محمد عبد الجواد ، بالقاهرة سنة ١٩٥٧ م .

(٤٢) نشره عز الدين التنوخى ، في دمشق سنة ١٩٦١ م ، اعتمادا على مخطوطة تنقص صفحة

من المقدمة .

(ج) كلمة الإتياع لها معنى متكلف مستخرج من الأولى ،
مثل : خبيث نبيث .

وقد ألف مثل هذا التأليف كذلك : أبو الحسن أحمد بن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) واسم كتابه : « الإتياع والمزاوجة »^(٤٣) ، ولا يظهر من مقدمته أى فرق بين الإتياع والمزاوجة ، غير أن « برونو » Brünnow ناشره الأول ، يرى « أنه يظهر من أمثلة ابن فارس بوضوح ، أن كلاً من الإتياع والمزاوجة ، يفترقان عن التعبيرات المماثلة كالسجع مثلاً ، فى أن الكلمة الثانية فى الإتياع والمزاوجة ، لا ترد فيما عدا ذلك من التراكيب ، أو على الأقل بهذا المعنى . كما يبدو أن اصطلاح الإتياع ، يقصد به الصيغ الوصفية ، التى تتبع الكلمة الأولى بلا رابط ، على حين أن الصيغ الفعلية ، التى ترتبط بالكلمة الأولى برابط ، أو تكون وحدها جملاً مستقلة ، تسمى بالمزاوجة » .

وكتاب الإتياع لابن فارس ، مرتب ترتيباً هجائياً ، على حسب الأصل الأخير من الكلمة . ومن كلمات الإتياع فيه : « إنه لَعَفْرِيَت نِفْرِيَت » و « خَرَاب يَبَاب » ، وهذا يذكر بالعبرية חֶבֶב וְחֶבֶב ومن المزاوج : « قولهم فى جواب من قال : هات : لا أهاتيك ولا أواتيك . والمعنى مفهوم فى الكلمتين » ، وقولهم : « ما عنده غيض ولا فيض ، أى كثير ولا قليل » .

٣ - كتاب المثنى^(٤٤) : يقسم أبو الطيب اللغوى فى هذا الكتاب ، المثنيات العربية ، إلى عشرة أقسام ، منها :

(٤٣) نشره « برونو » R.Brünnow فى مدينة Giessen بألمانيا سنة ١٩٠٦ م ، ثم نشره كمال مصطفى بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م .
(٤٤) نشره عز الدين التنوخى ، فى دمشق سنة ١٩٦٠ م .

(أ) الاثنان غلب اسم أحدهما على اسم صاحبه ؛ مثل :
العمران = أبو بكر وعمر .

(ب) الاثنان جمعا في التثنية لاتفاق اسميهما ؛ مثل : الأذنان
والعينان .

(ج) الاثنان غلب نعت أحدهما على نعت صاحبه ؛ مثل :
الأسودان = التمر والماء .

(د) الاثنان جمعا في التثنية لاتفاق نعتيهما ؛ مثل : الأحمران =
الخمر واللحم .

(هـ) الاثنان اللذان لا يفردان من لفظهما ؛ مثل : الملوان =
الليل والنهار .

٤ - كتاب الإبدال^(٤٥) : يعالج فيه أبو الطيب ، صيغ الكلمات
المختلفة ، التي نشأت عن طريق المماثلة ، أو المخالفة الصوتية ،
أو خصائص اللهجات العربية .

مثال النوع الأول : الشَّاسِب > الشَّاسِف = الضامر .

والشَّاسِب > الشَّازِب = الضامر .

والسَّبَّيْتَى > السَّبَّيْدَى = الجرىء .

وهَرَّت > هَرَطَ = شق .

ومثال النوع الثاني : لَصَّ > لَصَت (معروف) .

وَطَسَّ > طَسَت (معروف) .

والخَدَنَّق > الخَدَرَنَق = العنكبوت .

ومثال النوع الثالث : أبلج > أبلد = واضح .

وأجاء > أشاء = ألجأ .

(٤٥) نشره كذلك عز الدين التنوخي ، في دمشق سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١ م .

غير أن هناك الكثير من الكلمات ، التى لم تنشأ إلا بسبب التصحيف والتحريف ، اللذين ابتليت بهما الكتابة العربية منذ القدم ؛ وذلك مثل : الأصلح والأصلخ ، بمعنى : الأصم ، والحنثل والخنثل ، بمعنى : الضعيف ، ودجن بالمكان ورجن به ، بمعنى : أقام به ، والدحامس والرحامس ، بمعنى : الشديد ، والمعكود والمعكول ، بمعنى : المحبوس ، والزور والزون ، بمعنى : الصنم .

والمثال الأخير يذكرنا بما عرفناه من قبل ، عن التحريف الذى وقع فيه صاحب الصحاح ، حين استشهد على أن « اللجز » مقلوب : « اللزج » بيت ابن مقبل :

يَعْلُونَ بِالْمَرْدُقُوشِ الْوَرْدِ ضَاحِيَةً
عَلَى سَعَابِيبِ مَاءِ الضَّالَةِ اللَّجْزِ

ونسى أن هذا البيت ، من قصيدة نونية فى ديوان ابن مقبل ، وصحة الروى : « الضالة اللجن » .

وقد ألف قبل أبى الطيب اللغوى ، فى موضوع الإبدال : أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت (المتوفى سنة ٢٤٤ هـ) ، واسم كتابه : « القلب والإبدال »^(٤٦) .

ونتحدث الآن عن جهود عالم آخر معاصر للأصمعى ، فى المعاجم العربية ، وتأليف الرسائل اللغوية المفردة ، ذلك هو أبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) وقد عرفناه من قبل مؤلفا لكتاب : « النبات والشجر » .

(٤٦) نشره « هفتر » A.Haffner فى مجموعة : « الكنز اللغوى فى اللسان العربى » - لبيزج

١٩٠٥ م . ص ٣ - ٩٥ ثم نشره الدكتور حسين محمد شرف ، بالقاهرة سنة ١٩٧٨ م بعنوان : « الإبدال » .

ومن رسائله اللغوية التي وصلت إلينا :

١ - المطر (٤٧) : يتحدث أبو زيد في هذا الكتاب ، عن أسماء المطر ، والرعد ، والبرق ، والسحاب ، والمياه . ويقل في الكتاب الاستشهاد بالشعر . ومن أمثلته :

« أسماء البرق : البرق وجماعه البروق . ويقال : برّقت السماء تَبْرُقُ بَرَقًا . وأبرق القوم إبراقا : إذا أصابهم البرق . وتكشّف البرق تكشّفاً ، وهو إضاءته في السماء . واستطار البرق استطاراً ، وهو مثل التكشّف ، ولمع البرق يلمع لمعا ولمعانا ، وهى البرقة ثم الأخرى ، المرة بعد المرة (٤٨) ... » .

٢ - الهمز (٤٩) : وقد عالج فيه أبو زيد حوالي ٣٠٠ كلمة ، تحتوى على الهمزة في جميع تصاريدها . ولعل السبب في ظهور مثل هذا النوع من التأليف ، هو أن الناس لم يكونوا يهمزون في كلامهم العامي ، في حياتهم اليومية ، فإذا أرادوا محاكاة اللغة الفصحى ، في مواقف الجد ، حدث خلط كبير ، في همز ما لا يستحق الهمز ؛ لأنهم إذا كانوا يقولون في الكلام العامي : قرئت الكتاب ، وقرئت الضيف ، فإنهم في حالة محاكاتهم للفصحى ، يقولون : قرأت الكتاب ، وقرأت الضيف مثلاً . وليس في المثال الثاني همز في الفصحى ؛ لأنه من قَرَى يَقْرَى بمعنى : أطعم الضيف . وقد حدث مثل ذلك تماماً في الجاهلية ، وعصور الاحتجاج العربية ؛ فقد « قالت امرأة من العرب : رثأت زوجي بأبيات - وهمزت - أرادت : رثيته . قال الجوهري : وأصله غير مهموز . قال الفراء : وهذا من

(٤٧) نشره « جوتهايل » Gottheil في الجزء السادس عشر من مجلة : JAOS سنة ١٨٩٥ م .
ص ٢٨٢ - ٣١٧ ، ثم نشره « لويس شيخو اليسوعي » في مجموعته : « البلغة في شذور اللغة » - بيروت سنة ١٩١٤ م . ص ٩٩ - ١٢٠

(٤٨) المطر لأبي زيد (نشرة شيخو) ١٠٨

(٤٩) نشره الأب « لويس شيخو اليسوعي » في بيروت سنة ١٩١٠ م .

المرأة على التوهم ؛ لأنها رأتهم يقولون : رثأت اللبن ، فظنت أن المريثة منها^(٥٠) .

وقد عرفنا من قبل أن ترك الهمز ، من خصائص لغة أهل الحجاز وهذيل ومكة والمدينة ، أما الهمز فهو من خصائص لهجة تميم^(٥١) ، وقد استعارته العربية الفصحى من تميم .

وقد قسم « أبو زيد » كتابه على ثلاثين بابا ، بحسب مكان الهمزة من الكلمة ، والصيغ والترتيب الأبجدي في بعض الأحيان . ومن أمثلة الكتاب (ص ٢٦) :

« وتقول : قد اشماز الرجل اشمئزازاً ، إذا ذعر من شيء ، وهو المدعور . تقول : قد اسمأل الظل اسمئلا : إذا صار إلى أصله . قال الشاعر :

يَرُدُّ الْمِيَاهَ حَضِيْرَةً وَنَفِيْضَةً

وَرَدَّ الْقَطَاةِ إِذَا اسْمَأَلَّ التُّبْعُ

واسمئلاه أن يرجع إلى أصل العود . والتبع : الظل . وتقول : قد احزأل الإبل والقوم احزئلا : إذا اجتمعوا ... » .

٣ - كتاب اللَّبَأِ وَاللَّبْنِ^(٥٢) : واللَّبَأُ هو أول اللبن في النتاج . ويعالج أبو زيد في كتابه ذلك ، أنواع اللبن المختلفة ، منذ أن يحلب حتى يستخلص منه الزبد . ومن أمثلة الكتاب (ص ١٤٤) :

« ومن اللبن : الرثيئة ، وهو أن يحلب على الحامض فيخثر ، وهو :

الهُدْبِدُ أيضا ، وهو المؤتلخ والتَّلَخُ اتَّلَاخًا . ومنه المُشْمَرُ والمَغِيرُ : الشديد الحموضة إلى المارة ، والصَّقْرَةُ مثله ، ثم الحامض هو الحامز ، ثم الحازر ،

(٥٠) انظر : لسان العرب (رثأ) ٧٧/١

(٥١) انظر : لسان العرب ١٤/١

(٥٢) نشره الأب «لويس شنيحو اليسوعي » في مجموعته : « البلغة في شذور اللغة » ص ١٤١ - ١٤٥

وهو أشد حمضا من الحامض . والعاتك مثل الحازر . والعرق : الخبيث الحمض . والقاطع والحاذق مثله . والباسل مثله . والصرب مثل العرق أيضا .

٤ - النوادر في اللغة^(٥٣) : وهو كتاب يجمع بين دفتيه ، الكثير من ألفاظ اللغة ، غير متبع منهاجا معيناً في ترتيبها . وليست كل الألفاظ الواردة فيها ، نادرة أو غريبة ، كما يوهم عنوانه ، فهو يورد النادر الشاذ من اللغة ، إلى جانب الفصيح المشهور منها . والكتاب مليء بمقطعات الشعر ، والأراجيز النادرة . ومن أمثلته (ص ١٨٧) :

« أبو زيد : يقال : جمل ناهل في جمال نهال ، وناق ناهلة في نوق نهال ونواهل ، وهي العطاش . وقال الراجز :

إِنَّكَ لَنْ تُثَأِّيَ النَّهْلَ

بِمَثَلِ أَنْ تُدَارِكَ السَّجَالَا

يقال : ثأىء الرجل عني ، أى احبسه عني . والثأئة : الحبس . والنواهل من الإبل وغيرها من المواشى : الرّواء اللاتي قد نهلن نهلاً ، أى روين رياً » .

وقد كثر التأليف في النوادر ، إلى درجة أننا لا نجد لغويا في ذلك العصر المبكر ، إلا وله في النوادر كتاب أو أكثر . وقد بقي لنا من هذه الكتب ، كتاب أبي زيد السابق ، وكتابان آخران هما :

١ - كتاب النوادر ، لأبي مسحل الأعرابي عبد الوهاب بن حريش (توفي في أواخر القرن الثالث الهجري) ، تلميذ الكسائي (المتوفى سنة ١٨٩ هـ) . وكتابه كبير في جزأين ، نشره الدكتور عزة حسن ، في دمشق سنة ١٩٦١ م .

٢ - النوادر ، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي (المتوفى سنة

(٥٣) نشره سعيد الخوري الشرتوني ، في بيروت سنة ١٨٩٤ م .

٣٥٦ هـ) ، وقد طبع مع كتابه : « الأملى » المشهور ، فى بولاق سنة ١٣٢٤ هـ ، ثم طبع بعد ذلك فى دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ م .

ولنعرج الآن على عالم آخر ، معاصر للأصمعى وأبى زيد ، هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) ، لىرى جهوده فى تأليف الرسائل اللغوية المفردة ؛ فمن كتبه الباقية لنا فى هذا الميدان :

١ - الأيام والليالى والشهور^(٥٤) : عالج الفراء فى هذا الكتاب : الأسماء القديمة والحديثة ، للأيام والشهور العربية ، وأسماء الهلال والقمر والشمس ، وظلمة الليالى ، والأيام الباردة والحارة ، كما أنه يستشهد على ما يقوله دائما ، بالقرآن والشعر والأمثال .

والأسماء القديمة للأيام عند العرب فى الجاهلية ، هى كما يذكر الفراء : الأحد = أول . الاثنين = أهون . الثلاثاء = جُبار . الأربعاء = دُبار . الخميس = مؤنس . الجمعة = العُروبة . السبت = شيار .

تلك هى الأسماء القديمة للأيام . أما الأسماء التى نستخدمها اليوم ، فهى مستعارة فى العربية ، من الآرامية والعبرية ، فيما عدا يوم « الجمعة » فهى تسمية عربية خالصة . أما « العُروبة » القديمة ، فهى اسم سامى قديم ، يوجد كذلك فى اللغة الآرامية .

أما الشهور العربية القديمة ، فهى كما يذكر الفراء : محرّم = المؤتمر . صفر = ناجر . ربيع الأول = حُوان . ربيع الثانى = بُصان . جمادى الأولى = الحنين . جمادى الآخرة = وَرْنة . رجب = الأصمّ . شعبان = وَعْل . رمضان = ناتق . شوال = عاذل . ذو القعدة = هُواع . ذو الحجة = بُرك .

(٥٤) نشره إبراهيم الإييارى بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م . وهذا الكتاب لم يذكره أحد ، ممن ترجموا للفراء ، كما يشك الناشر فى أن تكون محتويات الكتاب كلها من صنع الفراء .

ومثل كتاب الفراء فى : « الأيام والليالى والشهور » كتاب : « الأزمنة والأمكنة » لأبى على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) وهو كتاب ضخيم ، نشر فى جزأين بجيدر آباد فى الهند سنة ١٣٣٢ هـ ، وهو وإن كان يحتوى على شروح لغوية ، فإنه يعد كتابا فى الفلك ، أكثر من أن يكون معجما لغويا . ومثله فى ذلك كتاب : « الأزمنة والأنواء^(٥٥) » لأبى إسحاق إبراهيم المعروف بابن الأجدانى (المتوفى سنة ٩٥٠ هـ) .

٢ - المنقوص والممدود^(٥٦) : وقد تابع ناشره فى هذا العنوان ، مخطوطة الأصل ، وذكر أن بعض الكتب تسميه : « المقصور والممدود » ، وقال إن هذه التسمية الأخيرة هى « الأفق » ؛ لأن فيه بعض كلمات آخرها ألف زائدة ، فلا تسمى منقوصة . ومن أمثلة الكتاب (ص ٢٣) :

« باب ما يفتح أوله فيمّد ، وإذا كسر أوله قصر . من ذلك : البلى مقصور يكتب بالياء ، ويفتح فيمّد . قال الشاعر :

وَالْمَرْءُ يُبْلَى بِبَلَاءِ السَّرْبَالِ
مَرُّ اللَّيَالِي وَانْتِقَالُ الْأَحْوَالِ

القرى مقصور يكتب بالياء ، ويفتح فيمّد . قال الكسائى : سمعت القاسم ابن معن يرويه عن العرب : قرأ الضيف » .

وقد ألف أكثر من ثلاثين لغويا عربيا ، كتب فى موضوع « المقصور والممدود » لم يبق لنا منها إلا سبعة كتب ، كتاب الفراء أقدمها ، والستة الأخرى هى :

١ - المقصور والممدود ، لأبى عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة ،

(٥٥) نشره الدكتور عزة حسن ، فى دمشق سنة ١٩٦٤ م .

(٥٦) نشره عبد العزيز الميمنى فى القاهرة سنة ١٩٦٧ م ، فى مجلد واحد مع كتاب : « التنبهات

على أغاليط الرواة » لعلى بن حمزة البصرى .

الملقب بنفطويه (المتوفى سنة ٣٢٣ هـ) وهو رسالة صغيرة ، تجمع أبواب المقصور والممدود ، نشرها الدكتور حسن شاذلى فرهود ، فى مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض - المجلد الرابع (١٩٧٥/١٩٧٦ م) ص ٩٣ - ١٢٧ .

٢ - الممدود والمقصود ، لأبى الطيب الوشاء (المتوفى سنة ٣٢٥ هـ) . وهو مختصر بدأه بالحديث عن الممدود ، وطريقة كتابته عند الإضافة للضمائر . وبعد أن تحدث عن الممدود والمقصود القياسيين ، عالج المسموع منهما فى ستة أبواب . وهو معتمد فى كتابه هذا على كتاب الفراء ، وإن لم يصرح بذلك . والكتاب نشره الدكتور رمضان عبد التواب ، فى مجلة كلية اللغة العربية بالرياض - المجلد السابع (١٩٧٧ م) ص ٦٥ - ١٢٥ ثم نشره فى سلسلة « روائع التراث اللغوى » التى تصدرها مكتبة الخانجي ، بالقاهرة سنة ١٩٧٩ م .

٣ - المقصور والممدود ، لأبى العباس أحمد بن محمد بن الوليد بن ولّاد^(٥٧) (المتوفى سنة ٣٣٢ هـ) وهو مرتب أبجديا ، على حسب الحرف الأول من الكلمة ، غير أنه مختصر العبارة ، وبه بعض الشواهد الشعرية .

٤ - المقصور والممدود ، لأبى عمر الزاهد ، المعروف بـ غلام ثعلب (المتوفى سنة ٣٤٥ هـ) وهو رسالة صغيرة فى وريقات ، نشره الدكتور عبد الحسين الفتلى ، فى مجلة كلية أصول الدين - العدد الأول (بغداد ١٩٧٥ م) .

٥ - المقصور والممدود ، لأبى على إسماعيل بن القاسم القالى^(٥٨) (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ) وهو أضخم كتب المقصور والممدود ، التى

(٥٧) نشره « بولس برؤنله » P.Brönnle فى ليدن سنة ١٩٠٠ م .

(٥٨) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا ، ومنه نسخة وحيدة فى دار الكتب المصرية ، برقم ١٨٤ لغة ،

فى ١٣٧ ورقة . وقد حققه تلميذنا الدكتور أحمد عبد المجيد هريدى ، وأعدده للنشر .

وصلت إلينا ، وأوسعها شرحا ، وأكثرها استيعابا للمادة اللغوية ، وأوفاهما
استشهادا بالشعر والقرآن والأمثال .

٦ - المقصور والممدود ، لأبي البركات بن الأنباري^(٥٩) (المتوفى
سنة ٥٧٧ هـ) ، وقد رتب فيه مؤلفه مادة المقصور والممدود ، في ستة
أبواب على النحو التالي :

- الأول : المقصور المفتوح الأول ؛ مثل : العَصَا والسَّنَا .
- الثاني : المقصور المكسور الأول ؛ مثل : الرَّبَا والغِنَى .
- الثالث : المقصور المضموم الأول ؛ مثل : الضُّحَى والدُّجَى .
- الرابع : الممدود المفتوح الأول ؛ مثل : الذِّكَاء والغَبَاء .
- الخامس : الممدود المكسور الأول ؛ مثل : الوِعَاء والغِطَاء .
- السادس : الممدود المضموم الأول ؛ مثل : الهُرَاء والغُنَاء .

ولم يرتب ابن الأنباري الكلمات ، في داخل هذه الأبواب ، على أى
نوع من أنواع الترتيب .

ويظهر أن السبب في كثرة التأليف في هذا الموضوع ، هو
أن الناس كانوا قد تركوا الهمز في كلامهم ، كما كان يفعل أهل الحجاز
من قبل ، فكان يشتبه المقصور بالممدود ، ولا سيما إذا كان للكلمة
الواحدة صورتان : إحداهما مقصورة بمعنى ، والأخرى ممدودة بمعنى آخر ،
مثل : الحيا = الغيث ، والحياء = الاستحياء . ومثل : الخلا = الحشيش
الرطب ، والخلاء = الفضاء . ومثل : الغنى = ضد الفقر ، والغناء = من
الطرب .

(٥٩) نشره الدكتور عطيه عامر ، في ستوكهلم سنة ١٩٦٦ م .

٣ - المذكر والمؤنث^(٦٠) : ينصب اهتمام الفراء في هذا الكتاب ، على شرح ما يسمى « بالمؤنث السماعي » ، فالكلمات التي يسمى بها المؤنث الحقيقي ، وكذلك أسماء القبائل والبلاد والمدن والرياح والنار وأعضاء الجسم المزدوجة ، هي في معظم الأحوال مؤنثة ، بغير حاجة إلى علامة تأنيث ؛ مثال ذلك : يد ، وعين ، ورجل ، وذراع ، وإصبع ، وظفر ، وسوق ، ونار ؛ وأغلب الظن أن الناس ، كانوا يخطئون في معاملة بعض هذه المؤنثات السماعية ، معاملة المذكر ، في زمن الفراء ، كما يحدث في زماننا هذا ، في مثل : ذراع ، وإصبع ، وظفر ، وسوق .

وقد ألف حوالي ثلاثين لغويا عربياً ، في موضوع المذكر والمؤنث . ولم يبق لنا من هذه المؤلفات ، سوى أحد عشر كتاباً ، أقدمها كتاب الفراء . والعشرة الباقية هي :

١ - التذكير والتأنيث ، لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) ، وهو لا يزال مخطوطاً ، ومنه نسخة في حوالي ١٠٠ ورقة ، في مكتبة قونية (يوسف أغا) باستانبول ، ومختصر منه في المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية . وقد نشر هذا المختصر الدكتور إبراهيم السامرائي ، في مجلة رسالة الإسلام ، في بغداد سنة ١٩٦٩ م .

٢ - المذكر والمؤنث ، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) . وقد نشرته أنا وزميلي الدكتور صلاح الدين الهادي ، في مركز تحقيق التراث ، بدار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٣ - مختصر المذكر والمؤنث ، للمفضل بن سلمة (المتوفى حوالي سنة ٣٠٠ هـ) . وقد نشرته أنا بالقاهرة سنة ١٩٧٢ م .

٤ - ما يذكر ويؤنث من الإنسان واللباس ؛ لأبي موسى سليمان بن

(٦٠) نشره مصطفى الزرقا في بيروت سنة ١٣٤٥ هـ ، ثم نشره الدكتور رمضان عبد التواب بالقاهرة سنة

محمد الحامض (توفي سنة ٣٠٥ هـ) . وقد نشرت أنا هذه الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٦٧ م .

٥ - المذكر والمؤنث ، لأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ) . وقد نشره الدكتور طارق الجنابي ، في بغداد سنة ١٩٧٨ م .

٦ - المذكر والمؤنث ، لأبي الحسين سعيد بن إبراهيم بن التُّستريّ (المتوفى بعد سنة ٣٦٠ هـ) وقد نشره تلميذنا الدكتور أحمد عبد المجيد هريدي بالقاهرة سنة ١٩٨٣ م .

٧ - المذكر والمؤنث ، لأبي الفتح عثمان بن جنى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) . وقد نشره المستشرق « ريشر » Rescher في مجلة « العالم الشرق » MO في الجزء الثامن ، ص ١٩٣ - ٢٠٢ وهو مرتب أبجديا .

٨ - المذكر والمؤنث ، لأبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) . وقد نشرته أنا في القاهرة ١٩٦٩ م .

٩ - البلغة في الفرق بين المذكر والمؤنث ، لأبي البركات عبد الرحمن ابن محمد الأنباري (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) . وقد نشرته أنا بمركز تحقيق التراث ، بدار الكتب المصرية ، بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

١٠ - فتح الرحمن بشرح ما يذكر ويؤنث من أعضاء الإنسان ، لأحمد السجاعي (المتوفى سنة ١١٩٧ هـ) ، وهو لا يزال مخطوطا ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية ، برقم ٢٦٩ لغة تيمور .

والآن ، بعد أن قضينا وقتا ليس بالقصير ، مع الرسائل اللغوية الصغيرة ، التي تعد نواة المعجم العربي ، نعرض على المعاجم الكبرى ، ونعالج في بداية حديثنا الآن ، المعاجم التي اتبعت نظام الترتيب الموضوعي .

وأول كتاب وصل إلينا من هذا النوع ، هو كتاب : « الغريب المصنف »^(٦١) لأبي عبيد القاسم بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤ هـ) . ولم يقدم أبو عبيد لكتابه بمقدمة تبين منهجه ، والمصادر التي استخدمها في كتابه ، شأنه في ذلك شأن الكتب المؤلفة في هذه العصور القديمة .

وينقسم « الغريب المصنف » إلى خمسة وعشرين كتابا ، يحتوى كل كتاب منها على عدة أبواب . ويحتوى « الغريب المصنف » كله ، على حوالى ٩٠٠ باب ، تختلف طولا وقصرا ، وقد استغرق أطولها سبع صفحات ، وأقصرها نصف سطر . وفيما يلي بيان للكتب ، التي ينقسم إليها الغريب المصنف :

١ - كتاب خلق الإنسان .	٢ - كتاب النساء .
٣ - كتاب اللباس .	٤ - كتاب الأطعمة .
٥ - كتاب الأمراض .	٦ - كتاب الدور والأرضين .
٧ - كتاب الخيل .	٨ - كتاب السلاح .
٩ - كتاب الطيور والهوام .	١٠ - كتاب الأواني والقدر .
١١ - كتاب الجبال .	١٢ - كتاب الشجر والنبات .
١٣ - كتاب المياه والقنى .	١٤ - كتاب النخل .
١٥ - كتاب السحاب والأمطار .	١٦ - كتاب الأزمنة والرياح .
١٧ - كتاب أمثلة الأسماء .	١٨ - كتاب أمثلة الأفعال .
١٩ - كتاب الأضداد .	٢٠ - كتاب الأسماء المختلفة للشيء الواحد .
٢١ - كتاب الإبل .	٢٢ - كتاب الغنم .
٢٣ - كتاب الوحوش .	٢٤ - كتاب السباع .
٢٥ - كتاب الأجناس .	

ولم يعتمد أبو عبيد ، في جمع مادة كتابه ، على البدو من الأعراب فحسب ، بل اعتمد كذلك على اللغويين ، الذين تتلمذ عليهم

(٦١) حققنا نحن هذا الكتاب ، وأعدناه للنشر .

في عصره ؛ فقد تردد في كتابه من هؤلاء اللغويين ذكر : الأصمعي ،
وأبي زيد الأنصاري ، وأبي عمرو الشيباني ، والكسائي ، والفراء ، والأموي ،
وأبي عبيدة ، والأحرر ، واليزيدي ، وأبي زياد الكلابي ، وهشام بن الكلبي ،
وابن الأعرابي .

ومن البدو ، وفصحاء الأعراب الذين ذكرهم : أبو الجراح العقيلي ،
والعديس الكناني ، وأبو الحسن الأعرابي العدوي ، والقناني الأعرابي ،
وأبو الوليد الكلابي ، وأبو فقحس الأعرابي ، وأبو علقمة الثقفي ، وأبو طيبة
الأعرابي ، وثور النمرى ، وأبو القعقاع اليشكري ، وأبو شنبل الأعرابي ،
وأبو جحوش الأعرابي .

ويعد كتاب « الغريب المصنف » من أهم الكتب اللغوية القديمة ،
التي انتشرت نصوصها ، في ثنايا المعاجم العربية المتأخرة ، وقل أن تجد
معجماً منها ، يخلو من ذكر صاحبه « أبي عبيد » . وفيما يلي بعض الكتب
التي تأثرت بطريقته ومادته ، من المعاجم ذات الترتيب الموضوعي :

١ - الألفاظ الكتابية^(٦٢) ، لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني
(المتوفى سنة ٣٢٠ هـ) : وهو أول كتاب يصل إلينا بعد الغريب
المصنف ، متبعاً لمنهجه في الترتيب ، وهو كتاب صغير نسبياً ، يحتوي « في
أبوابه الستة والستين والثلاثمائة ، على عبارات الأدب الجزل ، بصورة تجمع
في كل باب ، ما يتصل بناحية معنوية معينة من المترادفات ، وصيغ
الاستعارة ، والأمثال ، ونثرت الشواهد في الكتاب باقتصاد . وأحياناً تساق
حكمة مثالية لعظيم ، أو آية من القرآن ، أو حديث للرسول ﷺ^(٦٣) » .
ومن أمثلته :

« يقال : السَّنة ، والحَوْل ، والعام ، والحِجَّة . وفي القرآن

(٦٢) طبع عدة طبعات ، إحداها بالمطبعة الرحمانية ، بالقاهرة سنة ١٩٢٢ م .

(٦٣) انظر : العربية ليوهان فلك ، بترجمة الدكتور رمضان عبد التواب ص ١٥٧

العظيم : ثمانى حجج . وفيه : يُحِلُّونه عاما . وفيه : حولين كاملين .
ويقال : تصرّمت السنّة ، وتجرّمت ، وانقضت . ويقال : كان ذلك عاما
أوّل ، وعام الأوّل .

٢ - جواهر الألفاظ^(٦٤) ، لقدامة بن جعفر (المتوفى سنة
٣٣٧ هـ) : وهو كتاب يتوخى فيه مؤلفه ، الإرشاد العملى ،
إلى الأسلوب الجزل ، والعبارات المتأنقة ، فى الموضوعات المختلفة ، التى
قسمها على ٣٧٢ بابا . ويقول المؤلف فى مقدمته : « هذا كتاب يشتمل
على ألفاظ مختلفة ، تدل على معان مؤتلفة ، وأبواب موضوعية ، بحروف
مُسَجَّعة مكنونة ، متقاربة الأوزان والمباني ، متناسبة الوجوه والمعانى ، تونق
أبصار الناظرين ، وتروق بصائر المتوسمين ، وتتسع بها مذاهب الخطاب ،
وينفسخ معها بلاغة الكتاب^(٦٥) »

ثم بيّن « فى لفظ قليل دالّ ، المطالب التى ينبغى أن تتحقق
فى الأسلوب الجزل^(٦٦) » ، فقال : « وأحسن البلاغة : الترصيع
والسجع ، واتّساق البناء ، واعتدال الوزن ، واشتقاق لفظ من لفظ ،
وعكس ما نُظِم من بناء ، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة ، وإيراد الأقسام
موفورة بالتمام ، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة ، وصحة التقسيم باتفاق
النظوم ، وتلخيص الأوصاف بنفى الخلاف ، والمبالغة فى الرصف بتكرار
الوصف ، وتكافؤ المعانى فى المقابلة ، والتوازى ، وإرداف اللواحق ، وتمثيل
المعانى^(٦٧) » .

ثم وضع كل مطلب من هذه المطالب ، بأمثلة مختارة من الأدب

(٦٤) طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٢ م .

(٦٥) جواهر الألفاظ ص ٢

(٦٦) العربية ، ليوهان فك ١٥٢

(٦٧) جواهر الألفاظ ٣

العربي . وبعد أن انتهى من كل ذلك ، تتابعت أبواب الكتاب عنده ، مبتدئا ذلك بباب : « في معنى : أصلح الفاسد وضده » .

وفي الكتاب قليل من الشواهد الشعرية والنثرية ، من القرآن ، والحديث ، والأمثال . وفيما يلي باب صغير من أبوابه ، وهو باب : « في ثبات الأصل ونباهة الذكر^(٦٨) » :

« رسا طَوْدُهُ ، وهطل جُودُهُ ، وزَخَرَ بحره ، وفاض نهره ، وآض عِزُّهُ ، وعلا رِزُّهُ ، وسطع سعده ، وارتفع جَدُّهُ ، وأفل نحسه ، وسلمت نفسه ، وأقبل بخته ، وبُعِدَ صوته ، وصِيَّته أيضا ، وصلَحَ أمره ، وعلا ذِكْرُهُ ، وكَرَّتْ دولته ، واشتدت صولته ، وعادت أيامه ، واشتد إقدامه ، وثبتت وطأته ، وانتعشت وَجْبَتُهُ ، وزالت نكبته ، وعادت نعمته ، وانسدت نقمته » .

٣ - متخير الألفاظ^(٦٩) ، لأبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) : وهذا أيضا كتاب في الألفاظ الجزلة ، والعبارات الرائعة ، التي تعلو على المبتذل المسترذل ، وتنزل عن الغريب الوحشي . وقد رتب مؤلفه على حسب الموضوعات ، في ١١٤ بابا ، ملأها بالكثير من ألفاظ الشعراء وعباراتهم .

وهو يروى في كتابه ، عن الكثير من اللغويين ؛ كالأصمعي ، وأبي عبيدة ، وابن الأعرابي ، وأبي زيد الأنصاري ، والفراء ، وغيرهم . كما استشهد فيه بشيء من الشعر ، والقرآن ، والحديث ، والأمثال . وقال في مقدمته :

« هذا كتاب : متخير الألفاظ ، مفردا ومركبا ، وإنما نحلته هذا الاسم ؛ لما أودعته من محاسن كلام العرب ، ومستعذب ألفاظها ، وكريم

(٦٨) جواهر الألفاظ ٢٢١

(٦٩) نشره الأستاذ هلال ناجي ، في بغداد سنة ١٩٢٠ م .

خطابها ، منظوم ذلك ومنتوره . ولم آل جهدا في الانتقاء والانتخاب والتخير . وهو كتاب كاتب عرف جوهر الكلام ، وآثر الاختصاص بجيده ، أو شاعر سلك المسلك الأوسط ، مرتقيا عن الدُّون المسترذل ، ونازلا عن الوحشى المستغرب ؛ وذلك أن الكلام ثلاثة أضرب : ضرب يشترك فيه العلية والدُّون ، وذلك أدنى منازل القول . وضرب هو الوحشى ، كان طباع قوم فذهب بذهابهم . وبين هذين ضرب ، لم ينزل نزول الأول ، ولا ارتفع ارتفاع الثانى ، وهو أحسن الثلاثة فى السماع ، وألذها على الأفواه ، وأزينها فى الخطابة ، وأعذبها فى القريض^(٧٠) .

ومن أمثلة أبوابه : « باب الظُّلْمَة » ؛ يقول فيه : « هى الظُّلْمَة ، والغَيْهَب ، وليلة ليلاء ، ويوم أيَّوم . والسَّمَر : الظُّلْمَة . ويقال : جَنَّ الليل ، ودجا ، وأتانا فى جلب الليل ، أى سواده . ويقال : ظلماء داجية ، وليلة خُداريَّة . ومن ألفاظ الشعراء : دجا الليل ، وانساب الظلام ، وأغدف^(٧١) . »

٤ - التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء^(٧٢) ، لأبى هلال العسكري (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) : وقد أراد به مؤلفه ، أن يفى بما « عجزت جميع كتب الأسماء والصفات عن بلوغ غايته^(٧٣) » ؛ ولذلك عاب بعض الكتب السابقة عليه بأنها « لا تجدى على المبتدئين ، ولا يحتاج إليها المتوسطون^(٧٤) » . أما كتابه هو ، فإنه « أجمع لما أريد به ، وأوضح وأسهل وأقرب^(٧٥) » .

وقد قسمه إلى أربعين بابا ، تنتظم مظاهر الحياة المختلفة ، وفى كل

(٧٠) متخير الألفاظ ٤٣

(٧١) متخير الألفاظ ٢٠٤

(٧٢) نشره الدكتور عزة حسن ، فى دمشق سنة ١٩٦٩ م . وما بعدها .

(٧٣) التلخيص ٢/١

(٧٤) التلخيص ٣/١

(٧٥) التلخيص ٣/١

باب مجموعة من التفرعات ، التى يحتاج إليها الموضوع . وهو مقتصد فى الشواهد الشعرية ، وفى الرواية عن القدماء . وفيما يلى مثال « ذِكرُ النَّومِ » من باب : « ذكر أخلاق الإنسان وأفعاله وتصرف أحواله » :

« فأول النوم : الوَسَنَ والسَّنة والنُّعاس : نَعَسَ يَنْعَسُ ، وَوَسَنَ يَسِنُ . ويقال للنوم : الهُجُود والهُجُوع . فأما التهَجُّد فالسهر . وقيل : هو السهر للعبادة . وفى القرآن : فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ . والرُّقَاد والتهويم . رَقَدَ يَرْقُدُ ، وهو راقِد ، وهم رُقُود ، وهَوِّمَ يَهَوِّمُ تهويماً . والإغفاء النومة الخفيفة ، أَغْفَى يُغْفَى . والعامّة تقول : غفا يغفو ، ولا أعرفه صحيحاً . والبرْد : النوم . وفى القرآن : لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا^(٧٦) . »

٥ - مبادئ اللغة^(٧٧) ، لأبى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب

الإسكافى (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) : وهو كتاب صغير ، يحتوى على أبواب قصيرة ، فى السماء والكواكب ، والمياه ، والجبال ، والكسوة ، والنار ، والطعام والشراب ، والسلاح ، والخيول ، والسباع ، والطيور ، والشجر والنبات ، وغير ذلك .

وتعريفاته مختصرة ، وشواهد قليلة ، ولم يذكر فيه اسم راوٍ واحد ، غير أن فى صفحة العنوان النص التالى : « هذا الكتاب ، أعنى مبادئ اللغة ، مستخرج من كتاب العين للخليل ، ونوادير ابن الأعرابى ، وحروف أبى عمرو الشيبانى ، ومصنف أبى عبيد^(٧٨) ، وجمهرة ابن دريد الأزدى . »

ومما يلفت النظر فى هذا الكتاب ، أن الإسكافى يفسر الكلمة العربية أحياناً ، بكلمة فارسية الأصل ؛ مثل قوله (ص ٤٧) : « الْمِسْحُ : الْبِلَاسُ ، وجمعه : أمساح ومسوح » ، وقوله (ص ٥٥) : « وَالسَّطَلُ : ويقال له : الطسّ والطسّة » ، وقوله (ص ٨٦) : « والمثقب بالفارسية :

(٧٦) التلخيص ١٣٣/١

(٧٧) طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

(٧٨) فى الأصل : « أبى زيد » وهو تحريف .

جفت » . ولعله ألّف هذا الكتاب للفرس ، الذين يتعلمون العربية .

٦ - **فقه اللغة وسر العربية** ، لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) : ألّف الثعالبي هذا الكتاب ، للوزير أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى ، وذكر فى مقدمته عددا من العلماء ، الذين اعتمد عليهم ، فى تصنيف كتابه هذا ؛ فقال : « وَتُرِكَتُ وَالْأَدَبَ وَالْكَتَبَ ، أَنْتَقَى مِنْهَا وَأَنْتَخَبَ ، وَأَفْصَلَ وَأَبَوَّبَ ، وَأَنْتَجَعَ مِنَ الْأُئِمَّةِ مِثْلَ : الْخَلِيلِ وَالْأَصْمَعَى ، وَأَبَى عَمْرٍو الشَّيْبَانِي وَالْكَسَائِي ، وَالْفَرَاءَ وَأَبَى زَيْدٍ ، وَأَبَى عُبَيْدَةَ وَأَبَى عُبَيْدٍ ، وَابْنَ الْأَعْرَابِيِّ وَالنَّضْرَ بْنَ شَمِيلٍ ، وَأَبَوَى الْعَبَّاسِ (أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى ثَعْلَبٍ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْمُبَرِّدِ) وَابْنَ دَرِيدٍ ، وَنَفْطُوِيَه وَابْنَ خَالَوِيَه ، وَالْخَارَزْمِيَّ وَالْأَزْهَرِيَّ ، وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنْ ظُرَفَاءِ الْأَدْبَاءِ » .

ويحتوى كتاب « فقه اللغة » على ثلاثين بابا ، مقسمة إلى حوالى ستمائة فصل . وهو نفسه يقول فى خاتمته : « ... وَتَقْرِيرُ الْأَبْوَابِ ، فَبَلَغْتُ بِهَا الثَّلَاثِينَ عَلَى مَهْلٍ وَرَوِيَّةٍ ، وَضَمَمْتُهَا مِنَ الْفُصُولِ مَا يَنَاهِزُ السِّتْمَايَةَ » . وقد طبع الكتاب أكثر من مرة .

واعتماد الثعالبي على كتاب « الغريب المصنف » لأبى عبيد ، كبير ؛ إذ لم يفعل فى كثير من الأحيان ، أكثر من نقله نص أبى عبيد فى كثير من فصوله ، بل لقد نقل فصلا وجده ملحقا بحاشية الورقة ، من باب : « الرمال » فى كتاب الغريب المصنف ، وهو من زيادات النساخ فيه !

٧ - **المخصص فى اللغة** (٧٩) ، لأبى الحسن على بن سيدة الأندلسي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) : وهو أكبر كتاب وأهم مصنف فى المعاجم العربية ، ألّف على الترتيب الموضوعي . وقد نص ابن سيدة فى مقدمته ، على مصادره التى رجع إليها ، ووضع فى داخل نصه ، أسماء الأعلام الذين

استخدم مصادرهم ، فى عناية فائقة تبعث على الاحترام والإعجاب ، فهو يعزو كل قول إلى صاحبه ، ويعلق على هذا القول أو ذاك أحيانا .

ومن مقدمته ، نرى أنه اعتمد على كثير من الرسائل اللغوية ، التى ألفها : ابن السكيت ، وثعلب ، وأبو حنيفة الدينورى ، والفراء ، والأصمعى ، وأبو زيد ، وأبو حاتم السجستاني ، والنضر بن شميل ، إلى جانب جمهرة اللغة لابن دريد ، وكتاب العين للخليل بن أحمد ، والبارع للقالى . وكان أكثر اعتماده على كتاب : « الغريب المصنف » لأبى عبيد ؛ إذ كان يحفظه عن ظهر قلب ؛ فقد « قال أبو عمر الطَّلَمَنْكِيُّ : دخلت مرسية ، فتشبت بى أهلها ؛ ليسمعوا عنى غريب المصنف ، فقلت لهم : انظروا من يقرأ لكم ، وأمسك كتابى ، فأتوني برجل أعمى ، يعرف بابن سيدة ، فقرأه على من أوله إلى آخره ، من حفظه ، فعجبت منه^(٨٠) » .

وقد كشف ابن سيدة فى مقدمة كتابه هذا ، عن فائدة الترتيب الموضوعى للمعاجم ، وأنه « أجدى على الفصيح المِدرَه ، والبليغ المِفْوَه ، والخطيب المصقع ، والشاعر المجيد المدقع ؛ فإنه إذا كانت للمسمى أسماء كثيرة ، وللموصوف أوصاف عديدة ، تنقى الخطيب والشاعر منها ما شاء ، واتسعا فيما يحتاجان إليه من سجع وقافية^(٨١) » .

٨ - كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ من اللغة وغريب الكلام^(٨٢) ،

لأبى إسحاق إبراهيم بن اسماعيل ، المعروف بابن الأجدانى (المتوفى فى حدود سنة ٦٠٠ هـ) : وهو كتاب صغير جدا ، لم يذكر فيه مؤلفه شيئا عن مصادره ، ولم يرد فيه ذكر عالم من علماء اللغة ، ما عدا موضعا واحدا ، ذكر فيه أبو زيد والأصمعى وأبو عبيدة . وليس فى الكتاب إلا شاهد شعري واحد . وقد قصد مؤلفه إلى ذلك قصداً ، فهو يريد لكتابه أن

(٨٠) معجم الأدباء ٢٣٣/١٢

(٨١) الخصاص ١٠/١

(٨٢) طبع فى مجموعة لغوية بحلب سنة ١٣٤٥ هـ ، كما طبع مرات بالقاهرة .

يكون صغير الحجم ، واضح العبارة ، خاليا من التطويل والاستشهاد ، ليسهل على طالب اللغة الانتفاع به وحفظه إن شاء الله .

والمؤلف نفسه يقول في المقدمة : « هذا كتاب مختصر في اللغة ، وما يحتاج إليه من غريب الكلام ، أودعناه كثيرا من الأسماء والصفات ، وجنبناه حوشى الألفاظ واللغات ، وأعربناه من الشواهد ليسهل حفظه » .

ونعالج فيما يلي النوعين الآخرين ، من المعاجم العربية ، وهى التى رتب فيها المادة اللغوية ، على حسب المخارج الصوتية وطريقة التقاليد ، أو على حسب الترتيب الأبجدي . وسنتبع فى عرضنا لهذه المعاجم المنهج التاريخي .

وأقدم معجم من هذا النوع ، يقابلنا على الإطلاق ، هو : « كتاب العين^(٨٣) » ، للخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة ١٧٥ هـ) . عبقرى زمانه ، الذى اكتشف موازين الشعر العربى ، ووضع طريقة الضبط بالشكل ، التى نستخدمها حتى يومنا هذا .

وهناك خلاف كبير ، فى نسبة كتاب العين إليه^(٨٤) . ويبدو أن الخليل بن أحمد كتب مقدمته ، ووضع الهيكل العام للكتاب ، ثم حشاه من بعده تلميذه : « الليث بن المظفر » (المتوفى سنة ١٩٠ هـ) .

وقد رتب المادة اللغوية فى كتاب العين ، على حسب مخارج الأصوات من الحلق على النحو : التالى :

[ع ح هـ خ غ / ق ك / ج ش ض / ص س ز / ط د ت / ظ ذ ث / ر ل ن / ف ب م / و ا ي] .

(٨٣) طبعت من طبعة جامعة تونسي ١٤٤١ هـ ، عن الأمانة العامة للدراسات والبحوث ، فى عدد ١٤٤١ هـ .

(٨٤) د . محمد صهر ، جزء ثانى منه ، تحقيق الدكتور عبد الله شرويش ، فى عدد ١٤٦١ هـ .

(٨٤) عن نفسين هذه القضية فى : المعجم العربى - الدكتور حسين قطار ص ٢٥٤ - ٢٧٠ .

وقد دل أحد الشعراء على ترتيب العين ، بأوائل كلمات الأبيات التالية :

عن حزن هجر خريسة غنّاجة
 قلبي كواه جوى شديد ضرار
 صبحي سيئتئون زجرى طُلباً
 دَهْشَى تططُلب ظالم ذى ثار
 رَغماً لِيذَى نصحى فَوَادَى بالهوى
 متلهَّب وذوى الملام يُمارى

وهو يقسم كل حرف من هذه الحروف ، إلى مضعف الثلاثي ، ومضعف الرباعي ، والصحيح ، والمعتل ، والرباعي . وهو يتبع في كل قسم من هذه الأقسام « طريقة التقاليب » . وهذه الطريقة تنتج في الثنائي (مضعف الثلاثي) إمكائتين لا غير ؛ مثل : ع ق / ق ع ، ومثل : ع ك / ك ع ... إلخ . أما الثلاثي ففيه ستة تقاليب ؛ مثل :

ر ج ع / ر ع ج / ع ج ر / ع ر ج / ج ع ر / ج ر ع

وأما الرباعي ففيه ٢٤ تقليباً ؛ مثل :

ع ب ق ر / ع ب ر ق / ع ق ر ب / ع ق ب ر / ع ر ق ب / ع ر ب ق
 ب ع ق ر / ب ع ر ق / ب ق ر ع / ب ق ع ر / ب ر ق ع / ب ر ع ق
 ق ع ب ر / ق ع ر ب / ق ب ر ع / ق ب ع ر / ق ر ع ب / ق ر ب ع
 ر ق ع ب / ر ق ب ع / ر ع ق ب / ر ع ب ق / ر ب ق ع / ر ب ع ق

وفي الخماسي عدد من التقليلات ، تبلغ ١٢٠ تقليباً ، كالمثال التالي ، مضروباً في خمسة أضعاف :

س ف ر ج ل / س ف ر ل ج / س ف ج ر ل /
 س ف ج ل ر / س ف ل ج ر / س ف ل ر ج

س ر ج ف ل / س ر ج ل ف / س ر ف ج ل /
 س ر ف ل ج / س ر ل ف ج / س ر ل ج ف
 س ج ل ف ر / س ج ل ر ف / س ج ف ر ل /
 س ج ف ل ر / س ج ر ف ل / س ج ر ل ف
 س ل ر ف ج / س ل ر ج ف / س ل ج ف ر /
 س ل ج ر ف / س ل ف ج ر / س ل ف ر ج

ومن الطبيعي أن هذه التقاليد ، ليست كلها مستعملة عند العرب ، ولذلك نرى الخليل يهتم المستعمل فحسب ، من تقاليد المادة الواحدة فينبه عليها ؛ مثل قوله : « باب العين والهاء والذال : ع ه د / ع د ه / د ه ع مستعملات » . ومعنى هذا أن هناك ثلاثة تقاليد أخرى ، غير مستعملة من هذه المادة ، تركها الخليل بن أحمد .

ويضم « حرف العين » في كتاب الخليل ، جميع الكلمات التي تتضمن صوت العين في أى موضع منها ، ثم يليه « حرف الحاء » ويضم جميع الكلمات المشتملة على حاء ، في أى موضع منها ، مع استبعاد الكلمات التي فيها عين ؛ لأنها قد ذكرت في حرف العين . ثم يلي ذلك « حرف الهاء » مشتملا على الكلمات التي دخلتها الهاء ، عدا ما يشتمل منها على عين أو حاء ... وهكذا ، حتى إذا وصلنا إلى باب الميم مثلاً ، وجدناه لا يكاد يعدو صفحة أو صفحتين ، على حين أن باب العين ، وهو الباب الأول ، باب ضخم جدا ، بل إنه أضخم أبواب الكتاب .

ويقال إن هذا الترتيب الصوتي ، لم يتركه الخليل ، وإنما هو ترتيب اللغة السنسكريتية ، وهى لغة الهند القديمة ؛ فإن هذه اللغة كانت ترتب حروفها على هذا النظام ، ابتداء من أقصى الحروف مخرجا إلى أدناها . وقد اتصل المسلمون بالهنود في الفتوحات الإسلامية ، بل اتصل بهم عرب الحاهلية في القديم ، كما جاء كثير منهم إلى العراق وعاش فيه ، فقليل إن

الخليل عرف منهم هذا النظام^(٨٥) . غير أن الأبنية من مضعف الثلاثي ، ومضعف الرباعي ، وغير ذلك مما سبق أن تحدثنا عنه ، هذه الأبنية من الأمور التي تمتاز بها اللغات السامية ، عن اللغات الهندوأوربية ، وكذلك الأمر في « التقاليب » ، لم نجد من ينص على أنها استخدمت في معاجم الهنود . وإذن فهاتان الخطوتان لا نزاع في أنهما للخليل بن أحمد .

وقد أثر ترتيب كتاب العين ، ذلك الترتيب الصوتي ، في تصنيف المعاجم العربية ، لعدة قرون طويلة بعد كتاب العين للخليل بن أحمد : فقد أثر في البارع للقالى ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم لابن سيدة ، واخيط لابن عباد ، واللامع للفيروزابادي . كما أثر نظام كتاب العين كذلك في كل من : جمهرة اللغة لابن دريد ، وديوان الأدب للفارابي ، ومجمل اللغة لابن فارس . وسنتحدث عن كل هذه المعاجم فيما بعد .

وقد اختصر كتاب العين ، عالم أندلسي ، يعرف بأبي بكر الزبيدي الإشبيلي (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) . ويصف السيوطي هذا المختصر ، بأنه أحسن من الأصل^(٨٦) .

ومن هذا العصر المبكر ، وصل إلينا معجم آخر ، اسمه : « الجيم^(٨٧) » ، لأبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) : ولا يبدأ الكتاب بحرف الجيم ، كما كنا نتوقع من تسميته بذلك على نمط كتاب العين . وقد وقع في هذا الوهم بعض القدماء ؛ فقد روى السيوطي أن ابن مكتوم قال في تذكرته : « سئل بعضهم : لم سمي كتاب الجيم - تصنيف أبي عمرو إسحاق بن مرار الشيباني ، بهذا الاسم ؟ فقال : لأن أوله حرف الجيم ، كما سمي كتاب العين ؛ لأن أوله حرف العين .

(٨٥) انظر : St. Wild, Das Kitāb al-Ain und die arabische Lexikographie

(٨٦) المظهر في علوم اللغة ٨٧/١ وقد نشرت قطعة منه بتحقيق علال الفاسي بالرباط سنة ١٩٦٣ م .

(٨٧) منه مخطوطة وحيدة بمكتبة دير الإسكوريال بأسبانيا . وقد نشره مجمع اللغة العربية ، بتحقيق إبراهيم

الإبياري وآخرين ، بالقاهرة سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٥ م .

قال : فاستحسننا ذلك ، ثم وقفنا على نسخة من كتاب الجيم ، فلم نجد مبدوءاً بالجيم^(٨٨) .

ولعل سبب تسميته بالجيم ، ما ذكره الفيروزابادي في قوله : « وقال أبو عمرو الشيباني : الجيم في لغة العرب : الديباج . وله كتاب في اللغة ، سماه بالجيم ، كأنه شبهه بالديباج لحسنه^(٨٩) » .

ولكتاب « الجيم » أسماء أخرى ، ذكرتها كتب التراجم ، فهو يسمى كذلك : كتاب اللغات ، وكتاب الحروف^(٩٠) ؛ غير أن النسخة التي بقيت لنا من هذا الكتاب ، لا تحمل إلا اسم : كتاب الجيم .

وليس في كتاب الجيم مقدمة ، تهدينا إلى هدف المؤلف من كتابه ولكن دراسة الكتاب نفسه ، تدل على أنه قصد إلى تدوين الألفاظ الغريبة ، من لغات العرب . ويقال إنه جمع أشعاراً لحوالي ثمانين قبيلة عربية ، ثم جمع الألفاظ الغريبة في هذه الأشعار ، وفسرها في هذا الكتاب .

« ومنهج أبي عمرو في ترتيب كتابه ، غاية في البساطة ، فقد قسم الكتاب إلى أبواب ، قصر كل واحد منها ، على حرف من حروف الهجاء ، واتبع في ترتيب هذه الحروف ، الطريقة المألوفة لنا اليوم ، غير أنه قدم الواو على الهاء ، فالباب الأول للألف ، والثاني للباء ، والثالث للتاء ، إلى آخر الحروف ، ثم ملأ هذه الأبواب ، بالألفاظ المبدوءة بالحرف الخاص بكل باب ، بلا مراعاة لأي حرف بعدها ، ولا اعتداد بالصيغ التي تتفرع عن الأصول ، ولا نظر لأي أمر من الأمور ، وإنما هي ألفاظ يأتي بعضها وراء

(٨٨) المزهري في علوم اللغة ٩٠/١

(٨٩) بصائر ذوي التمييز ٣٥١/٢

(٩٠) انظر : الحروف للخليل بن أحمد ٧ أما ما ورد في مقدمة العباب للصاغاني (٣٠/١) حين ذكر مصادره ؛ فقال : « وكتاب الحروف لأبي عمرو الشيباني وكتاب الجيم له » ، فلعل فيه سقطاً ، وصوابه : « ...[هو] كتاب الجيم له » . ولعل مما يؤيد ذلك الظن أن الصاغاني نفسه روى في التكملة (١٤/١) كلاماً عن كتاب « الحروف » لأبي عمرو الشيباني ، وهو بنصه في كتاب الجيم (١٣٦/١) .

بعض ، وكل لفظة منفصلة عن تاليها تمام الانفصال ، فعلى الباحث عن أى لفظ فى هذا الكتاب ، أن ينظر فى أوله ، فإن كان « باء » مثلا ، فعليه أن يقرأ باب الباء كله ، عسى أن يعثر على ما يبحث عنه^(٩١) .

وقد اشتهر عن كتاب « الجيم » أن فيه تسجيلا لكثير من اللهجات العربية القديمة ؛ بسبب كثرة ما ورد فيه من قوله مثلا : قال السعدى .. قال الطائى .. قال الثميرى .. قال الكلابى .. قال الغنوى .. قال الكلبي .. قال العكلى .. قال القيسى .. إلخ^(٩٢) .

غير أن دراسة الكتاب ، تثبت أن أبا عمرو ، لم يرد بذلك إلا ذكر أسماء الرواة ، الذين روى عنهم مادة كتابه ، وقد حدد المراد من تلك الأسماء فى غير موضع من كتابه ؛ فالسعدى مثلا هو : أبو جابر السعدى (٢٢٤/١ ؛ ١٩٦/٢ ؛ ٢٦٨/٣) والطائى هو : دكين الطائى (١٥٩/١ ؛ ٣٠٢/١ ؛ ٥٢/٢) والثميرى هو : أبو السفاح الثميرى (٢٤٧/١ ؛ ٢٨٠/١ ؛ ١٤٣/٢ ؛ ٢٢٢/٢ ؛ ٢٥١/٢ ؛ ٩/٣ ؛ ٢٩/٣ ؛ ٧٣/٣ ؛ ١٩٢/٣ ؛ ٢٤٢/٣) وأبو السمع الكلابى (١٩٤/٢) وقال عنه مرة : أبو السمع أحد بنى بكر بن كلاب (٢٤٦/٣) والغنوى هو : نصر الغنوى (١٢٣/١ ؛ ٢٨١/١ ؛ ٢٠٠/٢ ؛ ٢٥٣/٢ ؛ ١٩٢/٣) ، وغير ذلك كثير جدا .

ولا يريد أبو عمرو بروايته عن هؤلاء ، ذكر خصائص لهجاتهم القبلية ؛ بدليل أنه إن اراد ذكر كلمة من لهجة معينة ، نص على ذلك ؛ كقوله مثلا : تقول بنو أسد (١٨٣/١ ؛ ٥٩/٢) فى كلام بنى شيان (٢٧٤/١) بلغة بليّ (٣٥/٢) كلب تقول (١٩٩/٢ ؛ ١٩٢/٣) لغة لطبيء (٤٠/٣) بلغة عقيل (١٨١/٣) .

(٩١) المعجم العربى ، للدكتور حسين نصار ٨٠

(٩٢) انظر مثلا : مقدمة الجيم ٣٧/١ وكنت ذهبت إلى مثل ذلك ، فى الطبعة

الأولى من كتابى هذا .

وليس أدل على ما نذهب إليه من قوله مثلاً : وقال الثعلبي : طيء
تسمى الصخرة سهوة (٩٢/٢) ؛ فهذا الثعلبي - في نظري - ليس إلا
شخصاً معيناً ، يروى عن العرب بعامة ، لا عن قبيلة بعينها هي قبيلته ، كما
تري !

ونصل الآن إلى أوائل القرن الرابع الهجري . وأول ما يقابلنا فيه
من المعاجم العربية ، كتاب : «الجمهرة في اللغة»^(٩٣) ، لمحمد بن الحسن
ابن دريد الأزدي (المتوفى سنة ٣٢١ هـ) وهو صاحب كتاب معروف لنا
جميعاً ، هو كتاب : « الاشتقاق » ، الذي حاول فيه أن يشتق أسماء
القبائل العربية والأشخاص ، من مواد لغوية ، كقوله مثلاً : « واشتقاق
قضاة من شيعين : إما من قولهم : انقضع الرجل عن أهله ؛ إذا بعد
عنهم ، أو من قولهم : تقضّع بطنه ، إذا أوجعه أو وجد في جوفه
وجعاً »^(٩٤) .

أما كتابه : « الجمهرة في اللغة » ، فإنه معجم لألفاظ اللغة
العربية ، رتب فيه المادة اللغوية ، على الترتيب الهجائي المعروف لنا جميعاً .
ويعلل ابن دريد لتسمية كتابه بالجمهرة ، بقوله : « وإنما أعزناه هذا الاسم ؛
لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب ، وأرجأنا الوحشي المستنكر »^(٩٥) .
ولم يذكر ابن دريد في مقدمته ، مصدراً لكتابه سوى كتاب « العين »
للخليل بن أحمد^(٩٦) ، غير أنه يطالعنا في نص الجمهرة نفسها ، أسماء :
الأصمعي ، وأبي عبيدة ، وأبي حاتم ، وأبي زيد ، وغيرهم .

ويبدو تأثر ابن دريد بكتاب العين ، في تقسيمه المواد إلى الثنائي
والثلاثي والرباعي ، ومضعف الرباعي ، والمعتل ، والصحيح ، وكذلك

(٩٣) نشره المستشرق « كرنكو » F.Krenkow في حيدر آباد بالهند سنة ١٣٤٤ - ١٣٥١ هـ .

(٩٤) الاشتقاق لابن دريد ٥٣٦

(٩٥) جمهرة اللغة ٤/١

(٩٦) جمهرة اللغة ٣/١

في طريقة التقاليد ؛ ولذلك فإنه على الرغم من أن الأساس في ترتيبها ، هو الأساس الأبجدي المعروف لنا ، فإن الكشف فيها عن كلمة من الكلمات ، أمر صعب جدا . ولولا أن ناشر « الجمهرة » قد صنع فهرسا حديثا مفصلا لها ، في الجزء الرابع ، لما أمكننا أن نفيد منها الفائدة المنشودة ، إلا بشق الأنفس .

وفي آخر « الجمهرة » نجد بابا عقده ابن دريد ، لما سماه : « النوادر » . وقد قسمه إلى أبواب بحسب الصيغ ؛ فباب لفَعْلَاء ، وآخر لفَاعِلَاء .. إلخ . ولم يراع ابن دريد في هذه الأبواب ، ترتيبا أبجديا في ذكر مفرداته ، كما نجد في آخر « الجمهرة » كذلك ، عدة أبواب صغيرة ؛ مثل : « باب في صفة النعل^(٩٧) » ، وهو خلط للنظام الأبجدي ، بنظام الموضوعات والمعاني .

وتحتوي « الجمهرة » على شروح للكلمات ، وأبيات من الشواهد لا توجد أحيانا في غيرها من المعاجم العربية . وقد اعتمد على الجمهرة في تأليف المعاجم فيما بعد : ابن سيده الأندلسي في كتابيه : المخصص والمحكم ، والصاغاني في : العباب والتكملة .

والمعجم الذي تلا جمهرة ابن دريد في الظهور ، هو : « ديوان الأدب في بيان لغة العرب^(٩٨) » لإسحاق بن إبراهيم الفارابي (المتوفى سنة ٣٥٠ هـ) : وهذا الكتاب لا يمت إلى الأدب بصلة - كما يوهم عنوانه - بل هو معجم لألفاظ اللغة العربية . وينقسم « ديوان الأدب » إلى ستة كتب ، على النحو التالي :

١ - كتاب السالم .

(٩٧) جمهرة اللغة ٤٥٩/٣

(٩٨) نشره هذا المعجم الجليل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، بتحقيق الدكتور أحمد مختار عمر ، سنة ١٩٧٤ - ١٩٧٨ م .

- ٢ - كتاب المضاعف .
- ٣ - كتاب المثال .
- ٤ - كتاب ذوات الثلاثة (أى الأجوف) .
- ٥ - كتاب ذوات الأربعة (أى الناقص) .
- ٦ - كتاب الهمزة .

وكل كتاب من هذه الكتب الستة ، ينقسم إلى قسمين : الأول منهما خاص بالأسماء ، والثاني خاص بالأفعال . وكل قسم من هذين ينقسم إلى أبواب ، على أساس الأبنية ، فباب لفعل ، وآخر لفعل ، وثالث لفعل ، وما شابه ذلك . وأخيرا تنقسم الأبواب ، بحسب حروف المعجم ، على الألف باء تاء ... إلخ ، على حسب الأصل الأخير من الكلمة ؛ ففي فصل الباء مثلا ، نجد الكلمات التي أصلها الأخير باء ، ثم ترتب الألفاظ التي أواخرها الباء في فصولها ، بحسب الحرف الأول منها ، فالثاني فما بعده من الحروف ، إن وجدت .

وذلك النظام الأخير نفسه ، هو الذى اتبعه - فيما بعد - الجوهري ، ابن أخت الفاراني ، في صحاحه ، واشتهر بأنه مبتكره ، على حسب دعواه في مقدمته ، وهى غلطة شائعة ، لابد من التنبيه عليها .

ويقول الدكتور حسين نصار : « إن السبب فى اللجوء إلى هذا النظام ، شيوع السجع فى القرن الرابع الهجرى ، الذى ألف فيه (الديوان) ، وحاجة الأدباء إلى الكلمات المتحدة الحرف الأخير . ومن الأسباب أيضا : اختفاء العرب من بين الشعراء ، وغلبة الأعاجم على الشعر ، وضعف محصولهم اللغوى ، وحاجتهم إلى البحث عن الألفاظ ، التى تتفق مع قوافيهم^(٩٩) »

يقول الفارابي في مقدمة كتابه : « وقد أنشأت بتوفيق الله تعالى .. كتابا ، عملت فيه عمل من طبَّ لمن حبَّ ، مشتملا على تأليف لم أسبق إليه ، وسابقا بتصنيف لم أراحم عليه ، وأودعته ما استعمل من هذه اللغة ، وذكره النحارير من علماء أهل الأدب في كتبهم ، مما وافق الأمثلة التي مثلت ، والأبنية التي أوردت ، مما جرى في قرآن ، أو أتى في سنة ، أو حديث ، أو شعر ، أو رجز ، أو حكمة ، أو سجع ، أو مثل ، أو نادرة^(١٠٠) » .

وإذا كان « الفارابي » قد جدّد في تأليف المعاجم ، باتباع الترتيب الأبجدي في داخل كل باب ، فإنه كان لا يزال متأثرا بكتاب العين ، في تقسيمه المادة اللغوية أصلا على الأوزان : السالم والمضاعف ، وغير ذلك مما سبق الحديث عنه .

وفي الوقت نفسه ، الذي ظهر فيه « ديوان الأدب » للفارابي في المشرق ، ظهر في المغرب في بلاد الأندلس ، معجم آخر اسمه : « البارع في اللغة » ، لأبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادي ، المشهور بالقالى (المتوفى سنة ٣٥٦ هـ) ، وهو تلميذ ابن دريد السابق . ويقال إن القالى ابتداء فيه عام ٣٣٩ هـ ، ثم مات قبل أن يتمّه ويهذّبه ، فتولى تهذيبه ورّاقه : « محمد بن الحسين الفهرى » من أهل قرطبة ، مع أحد علمائها ، وهو : « محمد بن معمر الجياني » ، فاستخرجاه من الصكوك والرقاع .

روى عن أحد أبناء القالى أنه قال : « ابتداء أبى - رحمه الله - بعمل كتاب : البارع ، في رجب سنة ٣٣٩ ثم قطعتة علل وأشغال ، ثم عاود النظر فيه ، بأمر أمير المؤمنين ، وتأكيده عليه ، فعمل فيه من سنة ٣٤٩ فأخذه بجد واجتهاد ، وكَمَّلَ له ، وابتداء بنقله ، فكمل لنفسه إلى شوال سنة

٣٥٥ كتاب الهمز ، وكتاب الهاء ، وكتاب العين ، ثم اعتل في هذا الشهر^(١٠١) .

ولم يصل إلينا من هذا المعجم ، سوى قطعتين صغيرتين ، الأولى : في المكتبة الوطنية بباريس ، والثانية : في المتحف البريطاني ، وهى أكبر من الأولى . وقد نشرها مصورة في كتاب : المستشرق « فولتون » A . Fulton في لندن سنة ١٩٣٣ م ، ثم نشرت القطعتان ، بتحقيق هاشم الطعان ، في بغداد سنة ١٩٧٥ م .

وقد اتبع القالى في معجمه - كما يتضح مما تبقى لنا من الكتاب - منهج الخليل بن أحمد ، في ترتيب المادة اللغوية ، على حسب مخارج الأصوات ، مع اختلاف طفيف ، على النحو التالى :

[ء هـ ع ح خ غ / ق ك / ض ج ش / ل ر ن / ط د ت / ص ز س / ظ ذ ث / ف ب م / و ا ي]^(١٠٢) .

وقد اعتمد القالى في مادة كتابه : « البارع » على كتاب « العين » اعتمادا كبيرا ، إلى جانب اعتماده على كتاب : « الغريب المصنف » ، لأبى عبيد القاسم بن سلام ، وكتب أبى زيد ، وأبى حاتم ، وابن السكيت ، وغيرهم . وقد أخطأ « كرنكو » F . Krenkow حين ذكر أن « البارع » اعتمد على كتاب الجوهرة لابن دريد^(١٠٣) ؛ لأن المقارنة تثبت خطأ ذلك الرأى .

وقد ظل أثر كتاب العين باقيا في معجم آخر ، ظهر في ذلك الوقت ، وبقي لنا حتى الآن كاملا ، ذلك هو معجم : « تهذيب

(١٠١) إنباه الرواة للقفطى ٢٠٩/١

(١٠٢) انظر مقدمة البارع (نشرة الطعان) ٧١

(١٠٣) انظر : F.Krenkow, The Beginnings of Arabic Lexikography til the time of

al - Jauhari 266 .

اللغة^(١٠٤) » ، لأبى منصور محمد بن أحمد الأزهرى (المتوفى سنة ٣٧٠ هـ) : وكان الأزهرى يهدف بمعجمه هذا إلى تنقية اللغة العربية من الشوائب ، التى تسربت إليها فى مؤلفات سابقيه من اللغويين . ويقول الأزهرى فى مقدمة كتابه : « وقد سميت كتابى هذا : (تهذيب اللغة) ؛ لأننى قصدت بما جمعت فيه ، نفى ما أدخل فى لغات العرب ، من الألفاظ التى أزالها الأغبياء عن صيغتها ، وغيّرھا الغم عن سننھا ، فهذبت ما جمعت فى كتابى من التصحيف والخطأ ، بقدر علمى ، ولم أحرص على تطويل الكتاب ، بالحشو الذى لم أعرف أصله ، والغريب الذى لم يسنده الثقات إلى العرب^(١٠٥) » .

وقد رتب الأزهرى تهذيبه ، كترتيب كتاب العين ، للخليل بن أحمد ، على حسب مخارج الأصوات ، من الحلق إلى الشفتين ، سواء بسواء ، واستقى مادته منه ، ومن غيره من الكتب التى ألفت قبله . وقد ذكر هذه الكتب جميعها ، وترجم لأصحابها ، فى مقدمته المطوّلة لكتابه ، وأضاف إلى هذه المصادر جميعها ، ما سمعه هو من العرب بنفسه ؛ فقد وقع الأزهرى أسيراً فى أيدى القرامطة ، فسنحت له الفرصة لكى يختلط بالبدو والعرب الخُلص ، فنقل عنهم الكثير فى معجمه : « تهذيب اللغة » ، وقال فى ذلك : « فبقيت فى إسارهم دهرًا طويلا ، وكنا نتشتى الدهناء ، ونترّج الصمّان ، ونتقيظ الستارين ، واستفدت من مخاطباتهم ، ومحاوره بعضهم بعضا ، ألفاظا جمّة ، ونوادير كثيرة ، أوقعت أكثرها فى مواقعها من الكتاب^(١٠٦) » .

ويعد هذا المعجم ، مع معجم « المحكم » ، لابن سيدة الأندلسى ، من أهم مصادر « لسان العرب » الذى يأتى الكلام عليه فيما بعد .

(١٠٤) طبع هذا الكتاب الجليل ، بتحقيق عبد السلام هارون وآخرين ، بالقاهرة سنة

١٩٦٤ - ١٩٦٧ م .

(١٠٥) تهذيب اللغة ٥٤/١

(١٠٦) تهذيب اللغة ٧/١

وقد تأثر بكتاب « العين » في ذلك العصر أيضا ، كتاب آخر للصاحب بن عباد أنى القاسم إسماعيل بن عباد بن العباس (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) ، وهو كتاب : « المحيط في اللغة »^(١٠٧) : وهو متأثر بكتاب العين في الترتيب والمادة ، غير أن فيه زيادات في بعض المواد ، عن كتاب العين ، تحت عبارة : « أهمله الخليل » ومعظم هذه الزيادات ، مأخوذ عن كتاب « تكملة كتاب العين » للخارزنجي (المتوفى سنة ٣٤٨ هـ) . ويلاحظ فيه - فيما عدا ذلك - أنه ترك معظم شواهد كتاب العين .

وفي أواخر القرن الرابع الهجري ، ألف أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس اللغوي (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) معجمين مهمين هما : مجمل اللغة ، ومقاييس اللغة .

فالأول وهو : « مجمل اللغة »^(١٠٨) ، معجم صغير ، يمتاز بتعريفاته المختصرة وشواهده الكثيرة ، وهو يعتمد على الخليل ، وابن دريد ، والكسائي ، والفراء ، وأبي عبيدة ، وأبي زيد ، وأبي عبيد القاسم بن سلام ، والأموي ، وأبي عمرو الشيباني ، وغيرهم^(١٠٩) .

وهو مرتب أبجديا ، على حسب الأصل الأول للكلمة ، مع الأصل الثاني والثالث ، موردا الحرف مع ما يليه ، إلى أن يصل إلى حرف الياء ، ثم يعود إلى ما تبقى من الحروف ، مبتدئا بالألف إلى الحرف الذي عقد له الباب . وهو متأثر بكتاب العين ، في تقسيمه الحرف الواحد ، إلى مضعف الثنائي ، والثلاثي ، وما زاد على الثلاثة .

أما المعجم الثاني ، وهو : « مقاييس اللغة »^(١١٠) ، فإنه يتبع نفس

(١٠٧) نشر الشيخ محمد حسن آل ياسين الجزائين : الأول والثاني منه في بغداد سنة ١٩٧٥ - ١٩٧٨ م .

وقد استغرقا حرف العين من الكتاب .

(١٠٨) طبع الجزء الأول منه ، بعناية الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م .

(١٠٩) مجمل اللغة ٣/١

(١١٠) نشر هذا الكتاب ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، بالقاهرة سنة ١٣٦٦ - ١٣٧١ هـ .

الترتيب والنظام ، الذى اتبعه مؤلفه فى المجمل . وذكر ابن فارس فى مقدمته ، أنه اعتمد أصلا على كتب خمسة ، وهى :

- ١ - العين ، للخليل بن أحمد .
- ٢ - غريب الحديث ، لأبى عبيد القاسم بن سلام .
- ٣ - الغريب المصنف ، لأبى عبيد القاسم بن سلام .
- ٤ - إصلاح المنطق ، لابن السكيت .
- ٥ - جمهرة اللغة ، لابن دريد .

ثم قال : « فهذه الكتب الخمسة ، معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة ، وما بعد هذه الكتب ، فمحمول عليها وراجع عليها ، إذا وقع الشئ النادر ، نصصناه إلى قائله إن شاء الله (١١١) »

غير أن كتاب : « المقاييس » يمتاز على كتاب : « المجمل » ، بأن فيه فكرتين جديدتين ، على حركة التأليف فى المعاجم العربية ، سبق أن تحدثنا عنهما ، ووصفناهما بأنهما من صميم الدراسات فى : « فقه اللغة العربية » ، وهما فكرتا : الأصول والنحت ؛ فهو فى المقاييس ، يحاول أن يعالج مفردات المادة الواحدة ، تحت أصل أو أصلين ، كما جمع ما زاد على الثلاثة من كل مادة ، تحت أبواب معينة ، وحاول تفسير بعضها بما يسمى : « النحت » . ويظهر أن « المقاييس » ألف بعد « المجمل » ؛ لأن الثانى فيه بعض بدايات هذا التفكير .

وينتهى القرن الرابع الهجرى ، بمعجم نال الشهرة ، وطبق ذكره الآفاق ، ذلك هو معجم : « تاج اللغة وصحاح العربية (١١٢) » ، لأبى نصر إسماعيل بن حماد النيسابورى المعروف بالجوهرى (المتوفى حوالى سنة

(١١١) مقاييس اللغة ٥/١

(١١٢) نشر الصحاح فى ستة أجزاء ، بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

٤٠٠ هـ) ، وبظهوره ظهر أول معجم للغة العربية ، رتب فيه المادة اللغوية ، من أولها إلى آخرها ، بحسب الأصل الأخير للكلمة ، مع مراعاة الأصل الأول أيضا . وقد ظهرت بوادر هذا الترتيب ، في كتاب خاله الفارابي : « ديوان الأدب » - كما ذكرنا من قبل - ولا شك في أن الجوهري ، قد تأثر بديوان الأدب ، في هذا النوع من الترتيب ، وإن كان يدعى في مقدمة الصحاح ، أنه الذي ابتكر هذا الترتيب ؛ فيقول : « على ترتيب لم أسبق إليه ، وتهذيب لم أغلب عليه^(١١٣) » ؛ فقد ذكر ياقوت^(١١٤) أن الجوهري قرأ ديوان الأدب على خاله بفاراب .

وللصحاح شروح وتكملات واستدراكات ، منها : « التنبيه والإيضاح على ما وقع في كتاب الصحاح » لابن برى وقد طبع منه جزءان بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٨٠ - ١٩٨١ م . وقد اختار الرازي منه مختارات سماها : « مختار الصحاح » واتبع في ترتيبها نفس ترتيب الصحاح ، ثم هذب هذا المختار في العصر الحديث ، الأستاذ محمود خاطر ، بتكليف من وزارة المعارف العمومية ، في مصر ، فغيّر ترتيبه مراعي الحرف الأول والثاني وما بعدهما ، وحذف منه مالا ينبغي أن يطرق مسامع النشء . وقد ترجم الصحاح مختصرا إلى الفارسية ، كما ترجم إلى التركية .

وفي منتصف القرن الخامس الهجري ، يظهر أبو الحسن على ابن إسماعيل بن سيدة الأندلسي (المتوفى سنة ٤٥٨ هـ) بمعجميه : المخصص في اللغة ، والمحكم والمحيط الأعظم .

أما الأول ، فهو مرتب على حسب المعاني والموضوعات - كما سبق أن ذكرنا ذلك - وهو يعتمد اعتمادا كبيرا على كتاب « الغريب المصنف » لأبي عبيد ؛ إذ نقله كله تقريبا في كتابه . وفيه ميزة حسنة ، وهي أنه إذا نقل

(١١٣) الصحاح ١/٣٣

(١١٤) معجم الأدباء ٦/٦٣

نصا من كتاب ، نسبه إلى صاحبه . ويعد كتاب المخصص من أكمل الكتب التى ألّفت على حسب المعانى .

أما المعجم الثانى : « المحكم والمحيط الأعظم »^(١١٥) ، فقد ألّف فيما يظهر بعد المخصص ، وهو يتبع نظام كتاب « العين » للخليل بن أحمد تماما . ومصادره فى المحكم ، هى نفس مصادره فى المخصص ؛ إذ إنه ذكرها فى مقدمته ، غير أنه بخلافه فى المخصص ، لا يذكر فى نص المحكم مرجعا إلا فى النادر ، كما يتصرف فى عبارة المراجع ، التى ينقل عنها فى المحكم ، بعكس الحال فى المخصص .

وننتقل الآن إلى أوائل القرن السادس الهجرى ، لنرى الزمخشري ، وهو أبو القاسم محمد بن عمر بن محمد الخوارزمي جار الله (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) يؤلف كتابه : « أساس البلاغة »^(١١٦) . وقد خطا الزمخشري فى كتابه هذا خطوة جديدة ، فى حركة التأليف فى المعاجم العربية ؛ إذ رتب فيه المادة اللغوية ، بحسب الأصل الأول للكلمة ، مراعى الأصل الثانى والثالث أيضا ، كما اهتم فيه كذلك بناحية مهمة فى دلالة الألفاظ ، تلك هى ناحية المعانى الحقيقية والمجازية للكلمات ، كقوله فى مادة (لحد) مثلا :

« قبر مَلْحُود ومُلْحَد . وَلَحَدَتِ القبر وألحدته . وقبروه فى لَحْد وملْحُود . وَلَحَدَ للميت وألحد له : حفر له لَحْدًا . وَلَحَدَ الميت وألحدته : جعله فى اللَّحْد . ومن المجاز : لَحَدَ السهمُ عن الهدف وألحد . وألحد فى دين الله . وَلَحَدَ عن القصد : عَدَلَ عنه . وألحد فى الحرم ، وَلَحَدَ إليه وألحد : مال إليه . وألحد إليه : التجأ . ومالى دُونَكَ مُلْتَحِدٌ »^(١١٧) .

ويرى الدكتور إبراهيم أنيس ، أن الزمخشري « لم يوفق فى كل حالة ،

(١١٥) نشر المحكم بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، بالقاهرة سنة ١٩٥٨ م ، وما بعدها .

(١١٦) طبع أساس البلاغة ، بدار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٢ م .

(١١٧) أساس البلاغة (لحد) ٣٣٤/٢

فقد ضل الطريق ، حين حاول اشتقاق معنى حسّي ، من آخر معنوى ، مع أن الذى أجمع عليه المحدثون من علماء اللغات ، هو أن المعانى الحسية أسبق فى الوجود ، وأجدر بأن تعدّ المعانى الحقيقية ، وغيرها فروع لها عن طريق المجاز^(١١٨) .

ويبدو أن معجم « أساس البلاغة » هو المعجم الوحيد ، الذى اعتمد على كتاب « الجيم » لأبى عمرو الشيبانى .

وفى أواخر هذا القرن السادس ، ظهر نشوان بن سعيد الحميرى (المتوفى سنة ٥٧٣ هـ) بكتابه : « شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم^(١١٩) » ، وهو معجم مهم لما فيه من إشارات قصصية ، تاريخية ، وجغرافية ، ولغوية ، من بلاد اليمن موطن المؤلف . وهو معجم معقد الترتيب ، ولا يوازيه فى هذا إلا « ديوان الأدب » للفارابى .

وهو مرتب أساسا على حسب الأصل الأول للكلمة ؛ فقد رتب مؤلفه على حروف المعجم ، وجعل لكل حرف من حروف المعجم كتابا ، ثم جعل له ولكل حرف معه من حروف المعجم بابا ، ثم جعل كل باب من تلك الأبواب شطرين : أحدهما للأسماء ، والآخر للأفعال ، مقدما الأصل على المزيد ، مبتدئا فى أول كل كتاب بالمضاعف ، جاعلا لكل كلمة من الأسماء والأفعال ، وزنا ومثالا ، مرتبا الكلمات فى كل وزن ، ومشيرا إلى حرفها الأخير^(١٢٠) . وهو متأثر بكتاب العين ، فى التنظيم الداخلى للمواد ، وهو نظام الأبنية ؛ ولكل هذا لم يجد من يتأثر به أو يتبعه .

ونصل بعد هذا ، إلى منتصف القرن السابع الهجرى ، لئرى

(١١٨) فى اللهجات العربية ١٨٧

(١١٩) نشر منه جزءان فى القاهرة بمطبعة عيسى البابى الحلبي (بدون تاريخ) ، كما طبع منه جزءان

بتحقيق المستشرق « تترستين » K.V.Zettersteen فى ليدن سنة ١٩٥١ - ١٩٥٣ م .

(١٢٠) انظر : شمس العلوم (نشرة الحلبي) ٤/١

أبا الفضائل رضى الدين الحسن بن محمد الصاغاني (المتوفى سنة ٦٥٠ هـ) ، وقد ألف كتابين مهمين هما :

١ - كتاب : « التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية »^(١٢١) . وقد توسع فيه المؤلف بعد ذلك ، وسماه : « كتاب الذيل والصلة لكتاب التكملة وحاشيتها » ثم جمع بين الصحاح والتكملة والحاشية ، وسمى الجميع : « مجمع البحرين فى اللغة »^(١٢٢) . ويرمز فيه للصحاح بالرمز (ص) وللتكملة بالرمز (ت) وللحاشية بالرمز (ح) .

٢ - كتاب : « العباب الزاخر واللباب الفاخر »^(١٢٣) : وينقل فيه عن الخليل بن أحمد ، وأبى عمرو الشيباني ، وابن دريد ، والصحاح بن عباد . ويقل فيه ذكر أبى عبيد القاسم بن سلام ، والأزهري ، وابن فارس . وهو مرتب على حسب الأصل الأخير كالصحاح . ومن الطريف أن مؤلفه لم يكمله ، وإنما وصل فيه عند مادة (بكم) ، حتى قال فيه بعض الشعراء :

إِنَّ الصَّاغَانِيَّ الَّذِي حَازَ الْعُلُومَ وَالْحِكْمَ
كَانَ قُصَارَى أَمْرِهِ أَنْ أَنْتَهَى إِلَى (بَكَم)^(١٢٤)

ونأتى الآن إلى أوائل القرن الثامن الهجرى ، وفيه ألف ابن منظور الإفريقى المصرى ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (المتوفى سنة ٧١١ هـ) معجمه الضخم : « لسان العرب »^(١٢٥) وهو مرتب كالصحاح ، على حسب الأصل الأخير من الكلمة ، مع مراعاة الأصل الأول وما بعده . ومصادره هى كما ذكر فى مقدمته : المحكم لابن سيدة ،

(١٢١) نشر بتحقيق عبد العلم الطحاوى وآخرين ، بالقاهرة سنة ١٩٧٠ - ١٩٧٩ م .

(١٢٢) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا ، ومنه نسخة فى مكتبة كوبريللى باستانبول .

(١٢٣) من العباب أجزاء مخطوطة فى مكتبتى كوبريللى وأيا صوفيا باستانبول . وقد نشر الشيخ

محمد حسن آل ياسين ، حرف الهمة منه ، فى بغداد سنة ١٩٧٧ م .

(١٢٤) انظر : المزهرة للسيوطى ١٠٠/١ .

(١٢٥) طبع لسان العرب فى بولاق بالقاهرة سنة ١٣٠٠ - ١٣٠٧ هـ ، فى عشرين جزءا ، ثم طبع

فى بيروت سنة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ م ، فى ١٥ مجلدا .

وتهذيب اللغة للأزهري ، والصحاح للجوهري ، والتنبيه والإيضاح لابن برى ، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير^(١٣٦) . وقد اعتمد على « لسان العرب » الزبيدي في كتابه : « تاج العروس » اعتماداً كبيراً .

وفي أواخر هذا القرن الثامن ، ألف الفيومي ، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي المقرئ (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ) كتابه : « المصباح المنير في غريب الشرح الكبير » : وهو في الأصل شرح لكتاب عبد الكريم الرافعي (المتوفى سنة ٦٢٣ هـ) : « فتح العزيز على كتاب الوجيز » ، وهو شرح لكتاب الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) : « كتاب الوجيز في الفروع » . وفيه لذلك كثير من التعبيرات الفقهية والكلامية ، وهو مرتب على حسب الأصل الأول للكلمة ، مع مراعاة الأصل الثاني والثالث ، مثل أساس البلاغة للزمخشري تماماً . وبه قائمة للمراجع في آخره ، بها كثير من الكتب التي سبق أن تحدثنا عنها هنا .

ونأتى الآن إلى القرن التاسع ، لنرى القاموس ، الذي طبقت شهرته الآفاق ، وأصبح اسمه علماً على كل معجم ، وهو كتاب : « القاموس المحيط » ، والقابوس الوسيط ، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط « تأليف أبي الطاهر محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم مجد الدين ، الشيرازي الفيروزآبادي (المتوفى سنة ٨١٧ هـ) . وقد ذكر في مقدمته أنه ألف كتاباً ضخماً ، سماه : « اللامع المَعْلَم العُجَاب ، الجامع بين المحكم والعباب^(١٣٧) » ، وصل فيه إلى الجزء الخامس منه ، وكان مرتباً ترتيب المحكم والعين ، ثم قطع تأليفه ، وألف كتابه : القاموس .

والقاموس مرتب - كما نعرف - على حسب الأصل الأخير

(١٣٦) من ألهم ما وقع فيه ابن حجر في الدرر الكامنة (٤ : ٢٦٣) وتبعه السيوطي في بغية الوعاة (١ : ٢٤٨) وطاش كبرى زاده في مفتاح السعادة (١ : ١٠٦) والزبيدي في تاج العروس (١ : ٣) وبعض المحدثين ، من أن جمهرة اللغة لابن دريد ، من مصادر لسان العرب .
(١٣٧) منه نسخة في مكتبة الدكتور فريد حداد في بيروت . انظر مجلة معهد المخطوطات (١٩٧٩)

للكلمة ، مع مراعاة الأصل الأول لها أيضا ، كالصحاح ولسان العرب . وهو يعد خلاصة لما في المحكم والعباب ، وقد توخى صاحبه فيه الإحاطة والشمول ، مع الاختصار الشديد ، والرمز لبعض ما يقصده أحيانا ؛ فقد رمز بالجيم إلى كلمة : « جمع » ، وبالميم إلى كلمة : « معروف » ، وبالعين إلى كلمة : « موضع » ، وبالدال إلى كلمة : « بلد » ، وبالتاء المربوطة إلى كلمة : « قرية » .

وقد شرح القاموس كثيرون ، أهمهم : أبو الفيض السيد محمد بن محمد بن عبد الرزاق مرتضى الزبيدي (المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ) ، وذلك في كتابه الضخم : « تاج العروس في شرح جواهر القاموس »^(١٢٨).

وقد اعتمد الزبيدي في شرحه للقاموس ، على « لسان العرب » لابن منظور كثيرا ، بالإضافة إلى كثير من المصادر الأصلية ، في جميع فروع المعرفة العربية . وقد دل على هذه المصادر في مقدمته المفصلة ، كما استدرك على صاحب القاموس ، كثيرا من المواد والألفاظ ، التي فاتته ذكرها .



والآن وبعد أن قطعنا هذا الشوط البعيد ، مع المعاجم العربية ، مند نشأتها إلى عصر الزبيدي ، نرى أن مادتها اللغوية ، قد جمعها الجيل الأول من اللغويين ، ثم توقفت حركة الجمع هذه بعد فترة ، واقتصر جهد العلماء بعد ذلك ، على تبويب هذه المادة وعرضها بطرق مختلفة ، وبذلك أغفلوا ناحية مهمة ، من نواحي الدراسات اللغوية ، تلك هي ناحية التطور اللغوي ، في نواحي : الأصوات ، والبنية ، والدلالة ، والأسلوب ؛ فلم يحاول مثلاً أحد المؤلفين في المعاجم ، في القرن الرابع أو الخامس الهجري ، أن يبين لنا تطور معنى الكلمة ، التي جمعها قبله أحد علماء القرن الثاني الهجري ، وبعبارة أخرى : لم يبين لنا المعنى ، الذي كان يفهم من الكلمة في عصره ، كما أنه لم يبين لنا كيف كانت تنطق الكلمة ، في لغة التخاطب في عصره ، وليس

(١٢٨) طبع في عشرة أجزاء بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ ، كما طبعت منه عدة أجزاء في الكويت .

لدينا من ذلك سوى إشارات سريعة ، فيما يسمى بكتب : « لحن العامة » . وقد عالجنا هذه المسألة بالتفصيل ، في كتابنا : « لحن العامة والتطور اللغوى » .

ومن أهم ما نلاحظه على معاجمنا العربية : قصورها فى الاستدلال على المعنى بالشواهد أحيانا ، فهى رغم غناها بالشواهد ، من القرآن والحديث والشعر والأمثال ؛ فيها الكثير من المواد التى تخلو من هذه الشواهد خلواً تاماً ، مما يشكك فى صحة ورودها عن العرب ؛ مثل المواد : (كمثل) و (كمثل) و (كندش) و (كندس) وغيرها . وهذه الناحية تستدرك الآن ، بعمل معجم للغة العربية ، يستمد ألفاظه من الشعر والنثر . وهذا المعجم بدأه المستشرق الألمانى « أوجست فيشر » A.Fischer فى المجمع اللغوى بالقاهرة ، ويخرجه الآن نخبة من المستشرقين الألمان ، وعلى رأسهم أستاذنا بروفيسور « شبيتالر » A.Spitaler رئيس معهد اللغات السامية بجامعة ميونخ .

ومن النواحي الأخرى ، التى تنقص المعاجم العربية : المقارنات باللغات السامية الأخرى ، وهو شئ لم يفتن له علماء العرب ، على الرغم من أن بعض هذه اللغات كان معروفاً لديهم .

ومن عيوب المعاجم العربية المتأخرة : ذلك التضخم الذى رأيناه فى « لسان العرب » لابن منظور ، و « تاج العروس » للزبيدي . والسر فى ذلك يرجع - كما نرى - إلى نقل المادة اللغوية الواحدة ، من أكثر من مصدر ؛ فمثلاً ينقل صاحب اللسان - كما عرفنا من قبل - عن « تهذيب اللغة » للأزهري ، و « المحكم » لابن سيدة ، و « الصحاح » للجوهري . وكل واحد من هذه المعاجم الثلاثة ، استخدم بعض المصادر التى استخدمها الآخر ، كالغريب المصنف لأبى عبيد ؛ ولذلك تقابلنا مثلاً ، عبارات هذا الكتاب الأخير ، فى « لسان العرب » منقولة ثلاث مرات ، عن المصادر الثلاثة المتقدمة .

وهناك عيوب أخرى كثيرة ، أبرزها : أن هذه المعاجم تخلط كثيرا ، بين مستوى العربية الفصحى واللهجات القديمة ، في اللفظ والدلالة ، بلا إشارة إلى ذلك في كثير من الأحيان ؛ مثل : السراط والصراط والزراط ، بمعنى : الطريق مثلا ، وكذكرها لكلمة : « العجوز » مثلا ، أكثر من سبعين معنى ، من بينها : الإبرة ، والجوع ، والسمن ، والقبلة ، واليد اليمنى . فمن المحال أن تكون هذه المعاني جميعها ، مستعملة في الفصحى .

ومن العيوب البارزة في المعاجم العربية كذلك : أن مادتها اللغوية ، أصابها الكثير من التصحيف والتحريف ، بسبب كثرة تعاور النساخ لها على مر العصور . وقد وقع اللغويون العرب ، في وهم هذا التصحيف والتحريف في معاجمهم ، كالتحريف الذي وقع فيه الجوهري صاحب « الصحاح » ، حين استشهد على أن « اللجز » مقلوب : « اللزج » ، بيت ابن مقبل :
يَعْلُونَ بِالْمَرْدُقُوشِ الْوَرْدِ ضَاحِيَةً

عَلَى سَعَابِيْبِ مَاءِ الضَّالَّةِ اللَّجْزِ
ونسى أن هذا البيت ، من قصيدة نونية ، وصحة الروي : « اللجن » !

ويعيب المعاجم العربية كذلك : عدم المنهجية في ترتيب مفردات المادة الواحدة ؛ فيتحم على المرء في كثير من الأحيان ، أن يقرأ المادة كلها ، للعثور على بغيته ؛ إذ يلزمك أن تقرأ عشر صفحات ، في مادة (عرف) ، إذا كنت تبحث مثلا عن معنى كلمة : « مَعْرِفَةُ الفرس » ، وما شابه ذلك .

وفي مقدورنا بالطبع ، التغلب على هذه العيوب ، إذا أعدنا النظر مرة أخرى في معاجمنا ، فصفيناها من الحشو والتكرار ، وفصلنا بين مستوى الفصحى واللهجات القديمة ، في ألفاظها ومدلولاتها ، ورتبنا كلمات المادة الواحدة ، ترتيبا منهجيا ، صارما ، وأعدنا استقراء النصوص القديمة من جديد ؛ لنخلص هذه المعاجم مما فيها من تحريف أو تصحيف ، أو مواد هي من صنع اللغويين ، ولم تجربها ألسنة العرب القدماء .

هذا ويعمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، على إخراج معجم كبير للغة العربية ، مستخدماً المعاجم العربية ، التي وصلت إلينا ، إلى جانب كتب الأدب واللغة ، ودواوين الشعراء . وقد اتبع في تأليفه منهجا صارما ، تغلب فيه على كثير من العيوب السابقة . وقد خرج الجزء الأول من هذا « المعجم الكبير » خاصا بحرف الهمزة ، وطبع بمطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م ، وهو جهد يتطلب الكثير من الوقت ، وتعاون المتخصصين في هذا الميدان . والله الموفق .

الفصل الثاني في الاشتقاق وتوليد الصيغ

الاشتقاق « Etymologie » عند علماء الغرب ، أحد فروع علم اللغة ، التي تدرس المفردات ، وينحصر مجاله في « أخذ ألفاظ القاموس كلمة كلمة ، وتزويد كل واحدة منها ، بما يشبه أن يكون بطاقة شخصية ، يذكر فيها : من أين جاءت ؟ ومتى وكيف صيغت ؟ والتقلبات التي مرت بها . فهو إذن علم تاريخي ، يحدد صيغة كل كلمة ، في أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول إليه ، ويدرس الطريق الذي مرت به الكلمة ، مع التغييرات التي أصابها ، من جهة المعنى ، أو من جهة الاستعمال^(١) » .

فهو عند علماء الغرب بهذا المعنى ، علم نظري عملي ، يعني بتاريخ الكلمة ، ويتتبع حياتها عبر العصور المختلفة . أما الاشتقاق عند العرب ، فهو علم عملي تطبيقي ؛ لأنه عبارة عن « توليد لبعض الألفاظ من بعض ، والرجوع بها إلى أصل واحد ، يحدد مادتها ، ويوحى بمعناها المشترك الأصل ، مثلما يوحى بمعناها الخاص الجديد^(٢) » .

والاشتقاق بهذه الصورة ، هو إحدى الوسائل الرائعة ، التي تنمو عن طريقها اللغات وتتسع ، ويزداد ثرائها في المفردات ، فتتمكن به من التعبير عن الجديد من الأفكار ، والمستحدث من وسائل الحياة .

(١) اللغة لتدريس ٢٢٦

(٢) دراسات في فقه اللغة ، لصبحي الصالح ١٧٤ وانظر في الغرض من الاشتقاق : كتاب الاشتقاق

لابن السراج ٣٩

وهناك نوعان من الاشتقاق ، دار الحديث حولهما في مؤلفات
القدامي من اللغويين العرب ، الاشتقاق الأصغر ، والاشتقاق الأكبر^(٣) .

أما الأول فهو : « أخذ صيغة من أخرى ، مع اتفاقهما معنى ،
ومادة أصلية ، وهيئة تركيب لها ، ليدل بالثانية على معنى الأصل ، بزيادة
مفيدة ، لأجلها اختلفا حروفاً أو هيئة ، كضارب من ضرب ، وحذر من
حذر^(٤) » .

وهذا النوع هو المعنى عند الإطلاق ؛ ولهذا يسمى : « الاشتقاق
العام » أو « الاشتقاق الصرفي » ؛ لأنه الذي تتصرف الألفاظ عن طريقه ،
ويشتق بعضها من بعض ، ومعنى هذا افتراض الأصالة في بعض الألفاظ ،
والفرعية في بعضها الآخر . وهنا يختلف النحاة في أصل المشتقات ؛ فيرى
البصريون أن المصدر أصل المشتقات ؛ لكونه بسيطاً ، أى يدل على
الحدث فقط ، بخلاف الفعل ، فإنه يدل على الحدث والزمن . أما الكوفيون
فيعدون الفعل أصلاً للمشتقات ؛ لأن المصدر يجيء بعده في التصريف ؛
فيقال مثلاً : ضرب يضرب ضرباً .

ويؤيد الأستاذ عبد الله أمين مذهب البصريين ، ويؤيد عليه أن العرب
اشتقت من أسماء الأعيان ، إلى جانب اشتقاقها من المصادر ، ويدل على
ذلك بقوله : « ولا شك أن كل اسم من أسماء الأعيان ، هو أصل
المشتقات من مادته ؛ إذ لا يعقل أن الفعل : تأبّل ، أى اتخذ إبلاً ، قد

(٣) اختلف الحديثون من علماء اللغة العرب ، في أنواع الاشتقاق ، ومدلول كل نوع ؛ فعبد الله
أمين في كتابه « الاشتقاق » يجعل الأنواع أربعة : صغير ، وكبير ، وكبار (بالتحقيق) أو أكبر ، وكبار
(بالتشديد) . ويعنى بالصغير : الاشتقاق الصرفي ، وبالكبير : الإبدال مثل : بعثر ونحفر ، وبالكبار :
التقليب ، مثل تقليب مادة (ج ب ر) مثلاً ، وبالكبار : النحت ، مثل : بسمل وحمل - أما الدكتور
علي عبد الواحد رافى ، في كتابه : « فقه اللغة » (١٧٢ - ١٨٠) ، فيجعل أنواعه ثلاثة : العام ،
والكبير ، والأكبر ؛ فالعام هو الصرفي ، والكبير هو التقليب ، والأكبر هو الإبدال - والدكتور صبحي
الصالح في : « دراسات في فقه اللغة » (١٧٣ - ٢٧٤) ، يجعله أربعة أنواع : الأصغر وهو الصرفي ،
والكبير وهو التقليب ، والأكبر وهو الإبدال ، والكبار وهو النحت (وانظر أيضاً : الاشتقاق للمعصني
(١٠ - ١٢) .

(٤) الزهر في علوم اللغة ٣٤٦/١ وانظر كذلك الاشتقاق لابن السراج ٣٢

وضع قبل أن يوضع لفظ : إبل نفسه ، ولا الفعل : تأرّض ، أى لصق بالأرض ، وضع قبل لفظ الأرض ، ولا الفعل : تبنى أى اتخذ ابنا ، وضع قبل لفظ ابن ... وأوضح من هذا دليلا وأقوى حجة ، على أن العرب اشتقوا من أسماء الأعيان ، كما اشتقوا من المصادر ، أنهم عربوا أسماء أعجمية ، ثم اشتقوا منها مصادر وأفعالا ومشتقات ؛ إذ لا يعقل أن يكون العرب ، قد اشتقوا كل ذلك من مواد الأسماء الأعجمية ، قبل أن يعربوها ... عربوا اللجام ، ثم اشتقوا منه : أجم الفرس^(٥) .

وهذا النوع من الاشتقاق قياسى ؛ إذ لا يعقل أن يسمع عن أصحاب اللغة ، جميع المشتقات فى كل مادة من مواد اللغة « فكثير من تلك الصيغ التى يجوز اشتقاقها ، لا وجود لها فعلا فى نص صحيح من نصوص اللغة ، فهناك فرق كبير بين ما يجوز لنا اشتقاقه من صيغ ، وما اشتق فعلا ، واستعمل فى أساليب اللغة المروية عن العرب ، فليس من الضرورى أن يكون لكل فعل اسم فاعل ، أو اسم مفعول ، مرويان فى نصوص اللغة ، فقد لا يحتاج المتكلم أو الكاتب إلى كليهما فى فعل من الأفعال ، فالمشتقات تنمو وتكثر حين الحاجة إليها ، وقد يسبق بعضها بعضا فى الوجود ، ولهذا يجدر بنا ألا نتصور ، أن الأفعال أو المصادر ، حين عرفت فى نشأتها ، عرفت معها مشتقاتها ؛ فقد تظل اللغة قرونا ، وليس بها إلا الفعل وحده ، أو المصدر وحده ، حتى تدعو الحاجة إلى ما يشتق منهما^(٦) » .

ويخالف فى هذا بعض قدامى اللغويين ، فيرون أنه لا قياس على كلام العرب فى الاشتقاق ، وأن كل كلام العرب توقيف ؛ « فإن الذى وقفنا على أن الاجتنان التستّر ، هو الذى وقفنا على أن الجن مشتق منه ، وليس لنا

(٥) الاشتقاق لعبدالله أمين ١٤٧ - ١٤٨ واظر فى اشتقاق العرب من الأعيان : كتاب الاشتقاق

لائن السراج ٣٦

(٦) من أسرار اللغة ٤٧

اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه ؛ لأن في ذلك فساد اللغة ، وبطلان حقائقها^(٧) »

وفي هذا القول غلو وإسراف ، في منع القياس على ما اشتقه العرب ، علاوة على ما فيه من فساد الاعتقاد ، باشتقاق المعنوى من الحسى ؛ فإن « الاجتنان » مأخوذ من « الجن » وليس العكس . وقد وقع بعض اللغويين في هذا الوهم ، حين حاولوا تعليل بعض الأسماء العربية ؛ فقد « سئل أبو عمرو بن العلاء عن اشتقاق الخيل ، فلم يعرف ، فمرّ أعرابي مُحَرِّمٌ ، فأراد السائل سؤال الأعرابي ، فقال له أبو عمرو : دعني فأنا ألطف بسؤاله وأعرف ، فسأله ، فقال الأعرابي : استفاد الاسم من فعل المسمى ، فلم يعرف من حضر ما أراد الأعرابي ، فسألوا أبا عمرو عن ذلك ، فقال : ذهب إلى الخيلاء التي في الخيل والعُجْب ؛ ألا تراها تمشي العِرْضَنَّة خيلاء وتكُبرُ^(٨) » ؛ فأبو عمرو بن العلاء ، على جلالة قدره ، يعتقد في رأى الأعرابي ، الذى ظن أن الخيل مشتق من الخيلاء !

ومثل ذلك أيضا ، محاولة بعض اللغويين ، اشتقاق الأعجمي من العربي ، كابن دريد الذى ادّعى أن « الفِرْدَوْس » مشتق من : « الفِرْدَسَة » ؛ فقال : « والفردسة : السعة ، وصدر مفردس : واسع . ومنه اشتقاق الفردوس^(٩) » ، والخفاجى الذى ادعى أن « السراط » مشتق من « استراط الطعام » أى ابتلاعه ؛ فقال : « فالسراط حينئذ من سرطت الطعام ، أى ابتلعت ، يتخيل أنه يبتلع سالكيه^(١٠) » .

وقد حذر المعتدلون من الوقوع في هذا الخطأ ، فقال ابن السراج ، في رسالته في الاشتقاق : « مما ينبغى أن يحذر منه غاية الحذر ، أن يشتق

(٧) الصحاح ٦٧ والمزهر ٣٤٦/١

(٨) طبقات الريدى ٢٩ والمزهر ٣٥٣/١

(٩) جمهرة اللغة ٣٣٣/٣ وقد غالى ابن دريد كذلك في اشتقاق أسماء القبائل ، في كتابه :

« الاشتقاق » .

(١٠) شرح درة الغواص ٣٣ وانظر كذلك : تصحيح الفصيح لابن درستويه ١٤٨/١

من لغة العرب لشيء قد أخذ من لغة العجم . قال : فيكون بمنزلة من ادعى
أن الطير ولد الخوت^(١١) »

ولا شك أن ابن السراج ، يقصد بهذه العبارة ، ابن دريد وأمثاله ،
ممن ظنوا أن الدفاع عن عروبة اللغة ، يقتضى القول باشتقاق الأعجمي
من العربى ، « فلم يزيدوا بذلك ، على أن صيروا الأصل فرعاً ، والفرع
أصلاً ، ونسبوا إلى العربية من الإعجاز ، فى موافقة اللغات الأجنبية ، مما لا
يجوز أن يدور مثله فى خلد الإنسان^(١٢) ».

وهذا هو الخوارزمي يقول : « الاضطراب معناه : مقياس النجوم ،
وهو باليونانية : اضطرابون . واضطر هو : النجم ، ولابون هو : المرأة .
ومن ذلك قيل لعلم النجوم : اضطرنوميا . وقد يهذى بعض المولعين
بالاشتقاق ، فى هذا الاسم بما لا معنى له ، وهو أنهم يزعمون
أن (لاب) اسم رجل ، و (أسطر) جمع سطر وهو الخط . وهذا اسم
يونانى ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف^(١٣) » .

وإذا كانت جمهرة اللغويين ، كسيبويه ، والخليل ، وأبى عمرو بن
العلاء ، وأبى الخطاب الأنحفش ، وعيسى بن عمر الثقفى ، والأصمعى ،
وأبى زيد ، وابن الأعرابى ، وأبى عمرو الشيبانى ، وغيرهم ، يرون أن « بعض
الكلم مشتق وبعضه غير مشتق » ؛ فقد غالت طائفة فادّعت أن « الكلم
كله أصل » ، وأكثر منها غلوّاً تلك الطائفة ، التى ادّعت أن « الكلم كله
مشتق^(١٤) » فمم اشتق إذن ، إن لم تكن هناك أصول لهذا الاشتقاق
المزعوم ؟

وقد أشار ابن السراج إلى هذا الاضطراب ، فى مذاهب العلماء حول

(١١) الاشتقاق لابن السراج ٤١ وانظر أيضا : المغرب للجوالقي ٣ والمزهر ٣٥١/١

(١٢) دراسات فى فقه اللغة ، لصبحى الصالح ١٧٩

(١٣) مفاتيح العلوم ، للخوارزمي ١٣٤

(١٤) انظر فى ذلك كله : المزهر ٣٤٨/١

الاشتقاق ؛ فقال : « هذا كتاب نوضح فيه الاشتقاق الواقع في كلام العرب ، لما يعرض من الحيرة والاضطراب لكثير من الناس فيه ؛ فهم مختلفون ، فمنهم من يقول : لا اشتقاق في اللغة البتة ، وهم الأقل . ومنهم من قال : بل كل لفظتين متفقتين ، فأحدهما مشتقة من الأخرى . ومنهم من يقول : بعض ذلك مشتق ، وبعضه غير مشتق ، وهؤلاء هم جمهور أهل اللغة^(١٥) » .

وقد حاول ابن فارس ، أن يرجع أصول الاشتقاق ، في المادة اللغوية الواحدة ، إلى أكثر من أصل ؛ كقوله مثلاً : « الخاء والراء والسين أصول ثلاثة ؛ الأول : جنس من الآنية ، والثاني : عدم النطق ، والثالث : نوع من الطعام ؛ فالأول : الخرس ، بسكون الراء وهو الدن ، ويقال لصانعه : الخراس . والثاني : الخرس في اللسان ، وهو ذهاب النطق ، ويحمل على ذلك فيقال : سحابة خرساء ، ليس فيها رعد . والثالث : الخرس والخرسة ، وهو طعام يتخذ للوالد من النساء^(١٦) » .

وبعض هذه الأصول ، التي ذكرها ابن فارس في مقاييسه ، يؤول إلى بعض ، وقد لاحظ هو ذلك ، فقال مرة : « الظاء والفاء والراء أصلان صحيحان ، يدل أحدهما على القهر والفوز والغلبة ، والآخر على قوة في الشيء . ولعل الأصلين يتقاربان في القياس^(١٧) » .

وقد عد الدكتور صبحي الصالح صنيع ابن فارس ، في تعدد الأصول « لونا من الترف العقلي ، أو التزيّد العلمي ، ربما أراد به ذلك العلامة الجليل ، أن يظهر قوة ساعده ، في تلمس الفروق الدقيقة بين المفردات ،

(١٥) الاشتقاق ، لابن السراج ٣١

(١٦) مقاييس اللغة ١٦٧/٢

(١٧) مقاييس اللغة ٤٦٥/٣

التي يرجع البحث العلمى المنهجى ، أنها تفرعت من أصل واحد ، لا من أصول متفرقة^(١٨) .

ولكن البعد الزمنى ، والحقب الطويلة ، التي تقلبت فيها العربية ، حتى زمان تدوينها ، على أيدي ابن فارس وغيره ، جعل الرابطة بين معانى مفردات المادة الواحدة ، تبدو لنا وكأنها غير موجودة . وهذا هو السر الحقيقى وراء مذهب ابن فارس فى أصوله .

أما الاشتقاق الأكبر ، فقد أولع به « ابن جنى » وهو الذى سماه فى كتابه : « الخصائص » بهذا الاسم ، فى باب طويل بعنوان : « باب فى الاشتقاق الأكبر^(١٩) » ، قال فى أوله : « هذا موضع لم يسمه أحد من أصحابنا ، غير أن أبا على رحمه الله ، كان يستعين به ، ويخلد إليه ، مع إعواز الاشتقاق الأصغر ، لكنه مع هذا لم يسمه ، وإنما كان يعتاده عند الضرورة ، ويستروح إليه ، ويتعلل به ، وإنما هذا التلقيب لنا نحن ، وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن » .

وقد عرفه ابن جنى ، بقوله : « وأما الاشتقاق الأكبر ، فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية ، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً ، تجمع التراكيب الستة ، وما يتصرف من كل واحد منها عليه ، وإن تباعد شئ من ذلك عنه ، رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل له^(٢٠) » .

وينبغى ألا نخلط هنا بين الاشتقاق الأكبر ، وطريقة التقليلات التى عرفناها من قبل ، فى معجم : « العين » للخليل بن أحمد ، ومن نهج نهجه ، فالتقليلات هناك طريقة للإحصاء . ولم يحاول الخليل ولا غيره من أصحاب المعاجم ، أن يرجعوا تقاليب المادة المختلفة إلى معنى واحد ،

(١٨) دراسات فى فقه اللغة ، لصبحى الصالح ١٧٦

(١٩) الخصائص ١٣٣/٢ - ١٣٩

(٢٠) الخصائص ١٣٤/٢

كما فعل ابن جنى . ولكن لعل فكرة كتاب « العين » هى التى أوحى
إلى ابن جنى ، بموضوع الاشتقاق الأكبر !

وقد ضرب ابن جنى على هذا الاشتقاق أمثلة كثيرة ، منها قوله :
« فمن ذلك تقليب (ج ب ر) ، فهى أين وقعت للقوة والشدة . منها :
(جَبَرْتُ) العَظْمَ والفقير ، إذا قويتَهما وشددتَ منهما . والجَبَرُ : الملك ،
لقوته وتقويته غيره . ومنها رجل (مُجَرَّبٌ) إذا جَرَّسْتَهُ الأمور ونَجَّدْتَهُ ،
فَقَوَيْتَ مُنَّتَهُ ، واشتدت شَكِيمَتُهُ ، ومنه الجراب ؛ لأنه يحفظ ما فيه ، وإذا
حفظ الشيء ورُوعِي ، اشتد وقوى ، وإذا أغفل وأهمل ، تساقط ورَذِيَ .
ومنها : (الأَبْجَرُ والبُجْرَةُ) ، وهو القوى السَّرَّة ... ومنها : (البُرْج)
لقوته فى نفسه ، وقوة ما يليه به ، وكذلك البَرَج لنقاء بياض العين وصفاء
سوادها ، هو قوة أمرها ، وأنه ليس بلون مستضعف . ومنها : (رَجَبْتُ)
الرجل ، إذا عَظَّمْتَهُ وقَوَيْتَ أمره ، ومنه رَجَبٌ ، لتعظيمهم إياه عن القتال
فيه ، وإذا كَرَمْتَ النخلة على أهلها فمالت ، دَعَمُوهَا بالرُّجْبَةِ ، وهو شيء
تسند إليه لتقوى به ، والراجبة أحد فصوص الأصابع ، وهى مقوِّية لها .
ومنها : (الرَّبَاجِي) وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله ... يعظم نفسه ،
ويقوى أمرها^(٢١) . »

ويقر ابن جنى نفسه ، بأن هذا الاشتقاق الأكبر ، صعب
التطبيق ، على جميع نصوص اللغة ؛ فيقول : « واعلم أننا لا ندعى أن هذا
مستمر فى جميع اللغة ، كما لا ندعى للاشتقاق الأصغر ، أنه فى جميع
اللغة ؛ بل إذا كان ذلك متعذرا صعبا ، كان تطبيق هذا وإحاطته ، أصعب
مذهباً وأعزّ ملتصبا^(٢٢) » .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا داعى للنقد الذى وجه إلى ابن جنى
قديما وحديثا ، حول هذا النوع من أنواع الاشتقاق ؛ فقد قال السيوطى

(٢١) الخصائص ١٣٥/٢

(٢٢) الخصائص ١٣٨/٢

مثلا : « وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح بن جنى . وكان شيخه أبو على الفارسي يأنس به يسيرا ، وليس معتمدا في اللغة ، ولا يصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب ، وإنما جعله أبو الفتح بيانا لقوة ساعده ، وردّه المختلفات إلى قدر مشترك ، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ ، وأن تراكيبها تفيد أجناسا من المعاني ، مغايرة للقدر المشترك ، ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين التراكيب المتحدة المادة ، معنى مشترك بينها ، هو جنس لأنواع موضوعاتها ، ولكن التحيل على ذلك ، في جميع مواد التركيبات ، كطلب لعنقاء مغرب^(٢٣) » .

كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس : « وإذا كان ابن جنى ، قد استطاع في عنت ومشقة ، أن يسوق لنا ، للبرهنة على ما يزعم ، بضع مواد من كل مواد اللغة ، التي يقال إنها في جمهرة اللغة لابن دريد ، تصل إلى أربعين ألفا ، وفي معجم لسان العرب تكاد تصل إلى ثمانين ألفا ، فليس يكفى مثل هذا القدر الضئيل المتكلف ، لإثبات ما يسمى بالاشتقاق الأكبر^(٢٤) » .

ومع ذلك ، فإن ابن جنى يعدّ مقبولا ومعتدلا ، حين يحاول إرجاع تقليب المادة ، إلى أصل ثلاثي ، يحمل المعنى العام لهذه المادة ، إذا قيس بما يذهب إليه بعض المحدثين ، من فكرة ثنائية الأصول ، وأن المعنى العام للمادة يرتبط بأصلين اثنين فقط من أصولها .

ومن رواد هذه الثنائية في العصر الحديث : الأب أنستاس ماري الكرملي ، الذي تبنى فكرة الثنائية في العربية ، منذ سنة ١٨٨١ م ، ولم يكن يملّ ترديدتها والدفاع عنها ، وتفصيل القول فيها في المجامع والأندية ، وأخرج فيها كتابا بعنوان : « نشوء اللغة ونموها واكتهاها » ، وقال في أوله : « عرف بعض حذاق أبناء يعرب الأقدمين ، هذا الرأي ومالوا إليه . ومن قال به ، ولم يجد عنه قيد شعرة : الإصبهاني ، صاحب كتاب : غريب القرآن ؛ فإنه

(٢٣) المزهري في علوم اللغة ١/ ٣٤٧

(٢٤) من أسرار اللغة ٥٢

بنى معجمه الجليل على اعتبار المضاعف هجاء واحداً ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، فهو عنده من وضع الخيال ، لا من وضع العلم ولا التحقيق ، أى أنه إذا أراد ذكر : (مَدَّ مَدًا) مثلاً فى سفره ، ذكرها كأنها مركبة من مادة : (مد) ، أى ميم ودال ساكنة ، ولا يلتفت أبداً إلى أنها من ثلاثة أحرف ، أى : (مدد) ، كما يفعل سائر اللغويين ، ولهذا السبب عينه يذكر : (مَدَّ) قبل (مدح) مثلاً ، ولا يقدم هذه على تلك ، على ما نشاهد فى معظم معاجم اللغة ، كالقاموس ، ولسان العرب ، وأساس البلاغة ، وتاج العروس ، وغيرها .

وقد عالج الكرملى كثيراً من مواد اللغة ، بناء على نظريته هذه ، فرغم أنها ثنائية الأصول ، وأن ما زاد فيها على اثنين ، ليس إلا تصديراً للمادة الثنائية (وهو زيادة فى أولها) ، أو حشواً لها (وهو زيادة فى وسطها) ، أو كسعاً وتذييلاً فيها (وهو زيادة فى آخرها) ؛ فعنده أن : ثرم وجرم وجرم وخرم وشرم وصرم وعرم وغرم ، ذات أصل ثنائى ، هو الراء والميم ، مصدر بحرف آخر ، وتدل كلها على « القطع » . كما أن : رثم ورثم ورحم وردم ورسوم ورشم ورضم ورطم ورغم ورقم وركم ، مشتقة عنده أيضاً من هذه المادة الثنائية : (رم) ، بعد أن حشيت بحرف آخر ، وكلها تدل على « القطع » كذلك !

وقد غالى فى فكرته هذه ، فادعى أن أصول اللغات الأجنبية ، توجد فى العربية ؛ فمثلاً : فى الإنجليزية كلمة then هى « إِذَنْ » العربية ، وكلمة tail هى « ذيل » العربية ، وكلمة buy هى « باع » العربية ! وانظر إلى إسرافه فى ردّ اللغات الأجنبية إلى العربية ، مثلاً فى ردّ cum اللاتينية إلى « مع » العربية ؛ إذ يقول : « ويستعمل اللاتين : كُمْ cum ومعناها : (مع) للدلالة على ما يبدل على الجمع . وما (كُمْ) إلا معكوس : (مك) المقابل لأداتنا : (مع) ؛ وذلك أنه ليس للغريين الحرف :

(عين) ، فيحارون في نقله إلى لغتهم ، وقد نقلوه هنا إلى الكاف ، فقالوا :
(كُمْ) cum (٢٥) «

ولم يكن الأب مرمرجى الدومنى ، أقل حماسة من أنستاس الكرملى ، فى الدفاع عن هذا المذهب فى كتابه : « المعجمية العربية فى ضوء الثنائية الألسنية السامية » الذى يقول فيه : « وكل حرف زىء على الأصل الثنائى ، يجرى على قانون التطور اللغوى ، تتويجا أو إقحاما أو تذييلا ، مع بقاء اللحمة المعنوية بين الثنائى والثلاثى ، كما هى مستمرة بين الثلاثى والرابعى ، وما فوقه من المزيءات » .

وقء خءءه ماآل إليه المضعف الثلاثى ، فى بعض اللغات السامية ، بعد أن سكنت أواخر كلماتها ، لسقوط الحركات الإعرابية وغيرها ، فضاء التضعيف منها ، وصارت على حرفين ، فظن أن هذا هو الأصل فيها ، وقال : « المضاعف العربى ، الذى يقال إنه مركب من ثلاثة أحرف أصلية ، لا تجء مقابلة فى السريانية إلا بحرفين اثنين لا أكثر ؛ مثلا : مقابل قَصَّ = قَصْ ، وبخاء حَمَّ = حَم ، وبإزاء مَسَّ = مَسْ ، وهكذا كل المضاعفات ، التى هى بالحقيقة ثنائيات ، والثنائى وارد فى كل الساميات » .

ونسى الأب مرمرجى ، أنه عند إسناد المضاعف إلى الضمائر ، فى العبرية والسريانية ، يظهر التضعيف ؛ فيقال فى العبرية مثلا : יֵב sab بمعنى : « أحاط » بغير تضعيف ، وعند إسنادها إلى المتكلم مثلا يقال : יֵבִי sabbōtī ؛ فيظهر التضعيف ، وقد يفك التضعيف فيقال : יֵבִי sabbōtī . وانظر كذلك فى العبرية : יֵב leb بمعنى : « قلب » إذ لا تضعيف فيها للباء ، لوقوعها فى آخر الكلمة ، ولكنها عند الاتصال بالضمائر ، يظهر فيها التضعيف مرة أخرى ؛ فيقال مثلا : יֵבִי libbī = قلبى .

كما يقال في السريانية مثلاً : ܠܒܐ baz بمعنى : « سَلَب » ،
وعند إسنادها إلى الغائبة مثلاً يقال : ܠܒܐ bezzat « سَلَبْتُ » ، وفي
المتكلم يقال كذلك : ܠܒܐ bezzet = « سَلَبْتُ » وغير ذلك .

وخلاصة الرأي في الثنائية ، أنها وإن وجدت في بعض الكلمات
السامية ، فإننا لا يصح أن نعدّها الأصل الأول لهذه اللغات . ونحن مع
الأستاذ عبدالله أمين ، في أنه « لا يمكننا أن نسلم بأن رَجُلًا أصله : رَج ،
وقدأ أصله : قِر ، وفيلا أصله : في ، كما يقولون^(٢٦) » .



النحت في اللغة :

النحت من ضروب الاشتقاق في اللغة ، وهو « أن تعتمد
إلى كلمتين ، أو جملة ، فتزج من مجموع حروف كلماتها ، كلمة فذة ،
تدل على ما كانت تدل عليه الجملة نفسها^(٢٧) » .

ولعل السبب في نشوء بعض المنحوتات في اللغة ، أن المتكلم قد
يعسر عليه أن « يفصل بين كلمتين ، وردتا إلى ذهنه دفعة واحدة ، وربما
تتداخل الكلمتان فيما بينهما ، تداخلا تاما . والنتيجة الطبيعية لمثل هذه
الزّلة ، وجود كلمة هي خليط من عناصر مختلفة ، أو صيرورة الكلمتين
كلمة واحدة ، عن طريق النحت (Contamination) أو تكوين كلمة
صناعية ، مشتملة على مزيج من أصوات كلمتين أخريين ، وجامعة
لمعنيهما . وأكثر الكلمات التي تتكون بهذه الطريقة ، ذات عمر قصير ،
غير أن قدراً غير يسير منها ، قد يكتب له البقاء ، فيستقر في اللغة كلمات
جديدة^(٢٨) » .

(٢٦) الاشتقاق ١٥٩

(٢٧) الاشتقاق والتعريب ١٣

(٢٨) دور الكلمة في اللغة ١٤٣

وينقسم النحت في اللغة إلى أربعة أقسام :

- ١ - النحت الفعلي : وهو أن تنحت من الجملة فعلا ، يدل على النطق بها ، أو على حدوث مضمونها ؛ مثل : « جعفل » ، إذا قال لآخر : جعلت فداءك ، و « بسمل » ، إذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم .
 - ٢ - النحت الوصفي : وهو أن تنحت من كلمة واحدة ، تدل على صفة بمعناها أو بأشده منه ؛ مثل : « ضَبَطَر » للرجل الشديد ، من : « ضبط » و « ضبر » وفي : « ضبر » معنى الشدة والصلابة .
 - ٣ - النحت الاسمي : وهو أن تنحت من كلمتين اسما ؛ مثل : « جَلْمُود » من : « جمد » و « جلد » . ومثل : « حَبْقُر » للبرد ، وأصله : حَبُّ قُر .
 - ٤ - النحت النسبي : وهو أن تنسب شيئا أو شخصا إلى بلدتي : « طهرسان » و « خوارزم » مثلا ، فتنتح من اسميهما اسما واحدا ، على صيغة اسم المنسوب ، فنقول : « طهرخزي » ونحو ذلك (٢٩) .
- ولا تنفرد العربية بظاهرة النحت ؛ ففي الإنجليزية مثلا ، يقال : branch لوجبة الطعام التي تتناول في الضحى ، فتقرم مقام الفطور والغداء معا ، وهي منحوتة فيها من : breakfast = فطور + lunch = غداء (٣٠) .
- ولأبي الحسين أحمد بن فارس ، اليد الطولى في هذا الموضوع ، فهو إمام القائلين بالنحت بين اللغويين القدامى ؛ يقول في كتابه مقاييس اللغة : « اعلم أن للرباعي والخماسي مذهبا في القياس ، يستنبطه النظر الدقيق ، وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت . ومعنى النحت : أن تؤخذ كلمتان ، وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعا بحظ (٣١) .

(٢٩) النظر : الاشتقاق والتعريب ١٣ - ١٤

(٣٠) النظر : دور الكلمة في اللغة ١٤٣

(٣١) مقاييس اللغة ٣٢٨/١

وقد سبقه في هذا الخليل بن أحمد ، حين قال : « فأخذوا
من كلمتين متعاقبتين كلمة ، واشتقوا فعلا . قال :
وَتَضَحَّكَ مِنْ شَيْخَةٍ عَبْشَمِيَّةٍ
كَأَنَّ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيَا
نسبها إلى عبد شمس ، فأخذ العين والباء من : (عبد) ، وأخذ الشين والميم
من : (شمس) ، وأسقط الدال والسين ، فبنى من الكلمتين كلمة ، فهذا
من النحت (٣٢) » .

ويذكر ابن فارس ، أن الخليل بن أحمد ، سبقه في هذا الرأي ، وأنه
يسير على منهجه في ذلك ؛ فيقول : « والأصل في ذلك ما ذكره الخليل ،
من قولهم : حَيَّعَلَ الرجل ، إذا قال : حَيَّ عَلَى (٣٣) » .

غير أن ابن فارس ، لم يستطع أن يفسر الرباعي والخماسي كله هذا
التفسير ، فجعله على ضربين : « أحدهما المنحوت الذي ذكرناه ، والضرب
الآخر : الموضوع وضعا ، لا مجال له في طرق القياس (٣٤) » .

فمن أمثلة المنحوت عنده : « البُحْتَرُ ، وهو : القصير المجتمع
الخلق ، فهذا منحوت من كلمتين : من الباء والتاء والراء ، وهو من بَتَرْتُهُ
فَبَتَرْتُ ، كأنه حُرِمَ الطُّوْلُ ، فَبَتَرْتُ خَلْقَهُ . والكلمة الثانية : الحاء والتاء
والراء ، وهو من : حَتَرْتُ وَأَحْتَرْتُ ، وذلك أَلَّا تُفْضِلَ على أحد ؛ يقال :
أَحْتَرَّ على نفسه وعياله ، أى ضَيَّقَ عليهم ؛ فقد صار هذا المعنى
في القصير ؛ لأنه لم يُعْطَ ما أُعْطِيَ الطويل (٣٥) » .

ومن أمثلة الموضوع وضعا : الضَّمْعَج للناقاة الضخمة (٣٦) ،

(٣٢) العين للخليل بن أحمد ٦٩/١

(٣٣) مقاييس اللغة ٣٢٩/١ وانظر كذلك : الصاحبي ٢٧١ وأمالى القالي ٢٧٠/٢ والعين ٦٨/١

(٣٤) انظر : المقاييس ٣٢٩/١

(٣٥) مقاييس اللغة ٣٢٩/١

(٣٦) المقاييس ٤٠٢/٢

والطَّفَنَش للواسع صدور القدمين^(٣٧) ، والكُرْنافَة لأصل السَّعْفَة الملتزق
بجذع النخلة^(٣٨) .

وقد يكون بين أمثلة هذا الذى عدّه ابن فارس ، من الموضوع
وضعا ، أمثلة منحوتة كذلك من كلمتين ، ولكننا نجعل ذلك ؛ ولهذا يقول
ابن فارس فى أحد المواضع : « وهذا ما أمكن استخراج قياسه من هذا
الباب ، أما الذى هو عندنا موضوع وضعا ، فقد يجوز أن يكون له
قياس ، خفى علينا موضعه . والله أعلم بذلك^(٣٩) » .

غير أن فى الكتاب غير هذين الضربين ، أمثلة لا تندرج تحتها ،
وإنما هى عند ابن فارس ، أصول ثلاثية مزيدة بحرف فى أولها ،
أو فى وسطها ، أو فى آخرها .

مثال ذلك قوله : « بَلَدَمَ إِذَا فَرِقَ فَسَكَتَ ، والباء زائدة ، وإنما
هو : لَدَمَ ، إِذَا لَزِمَ بِمَكَانِهِ فَرَقًا ، لا يَتَحَرَّكُ^(٤٠) »

وقوله : « الدَّعْلَجَة ، وهو : الذهاب والرجوع والتردد ، وبه يسمون
الفرس : دَعْلَجًا ، والعين فيه زائدة ، وإنما هو من الدَّلَج والإدلاج^(٤١) » .

وقوله : « البرَزَخ : الحائل بين الشيئين ، كأن بينهما بَرَازًا ،
أى متسعا من الأرض ، ثم صار كل حائل برزخا ، فالحاء زائدة^(٤٢) » .

لذلك لا نعجب ، حين نجد ابن فارس ، ينقض قوله السابق ، بأن
الرباعى والخماسى على ضربين : منحوت وموضوع ، فيستدرك فى موضع

(٣٧) المقاييس ٤٥٨/٣

(٣٨) المقاييس ١٩٤/٥

(٣٩) مقاييس اللغة ١٤٦/٢

(٤٠) مقاييس اللغة ٣٣٣/١

(٤١) مقاييس اللغة ٣٣٩/٢

(٤٢) مقاييس اللغة ٣٣٣/٢ ويلاحظ أن ابن فارس لم يلتفت هنا إلى أن الكلمة معربة عن الفارسية

(انظر : الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير ١٩) .

لاحق ، بأن منه « ما نحت من كلمتين صحيحتي المعنى ، مطردتي القياس ، ومنه ما أصله كلمة واحدة ، وقد ألحق بالرباعي والخماسي ، بزيادة تدخله ، ومنه ما يوضع كذا وضعاً^(٤٣) » .

ولم يذهب ابن فارس إلى فكرة النحت في كتابه : « مقاييس اللغة » فحسب ، بل عاجلها في كتابه : « الصاحبي في فقه اللغة » كذلك ؛ فيقول : « هذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف ، فأكثرها منحوت ، مثل قول العرب للرجل الشديد : ضَيْطَر ، من : ضبط وضبر . وفي قولهم : صَهْصَلَق ، أنه من : سهل وصلق . وفي الصلدم أنه من : الصلد والصدم^(٤٤) » .

« ولسنا نبريء ابن فارس من التكلف ، في بعض ما ادعى فيه النحت ، ولكن تكلفه في بعض أمثلة النحت ، لا يعني فساد مذهبه ، فيما جاء من كلام العرب ، على أكثر من ثلاثة أحرف^(٤٥) » .

غير أننا نلاحظ أن ابن فارس ، لا يرى النحت إلا فيما زاد على ثلاثة أحرف ، أما نحن فإننا نراه في بعض الكلمات الثلاثية كذلك ؛ فإن كلمة : « أسمر » مثلاً ، منحوتة - في رأينا - من : « أسود » و« أحمر » .

كما لم يفطن هو ولا غيره ، إلى طريق من طرق خلق الرباعي في العربية ، وهو طريق : « المخالفة الصوتية » ، وهي عبارة عن إبدال أحد الحرفين المتماثلين ، في صيغة : (فَعَّل) ، حرفاً يغلب أن يكون من الحروف المائعة أو المتوسطة : (ل م ن ر) ، مثل : « تَقَرَّصَعَ » ، بمعنى : سال

(٤٣) مقاييس اللغة ٥٠٥/١ ولكن انظر : دراسات في فقه اللغة ، لصبحي الصالح ٢٤٨

(٤٤) الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس ٢٧١

(٤٥) دراسات في فقه اللغة للصالح ٢٦٧ ويرى المرحوم الدكتور مصطفى جواد ، أن ما ذكره ابن فارس في مقاييس اللغة وفقه اللغة ، في (النحت) لا يعدو الظن والتخمين ، والتأويل البعيد . انظر : المباحث اللغوية في

في مشيته ، فأصلها : « تقصّع » خولفت فيها الصاد الأولى ، وجعلت راءً^(٤٦) . ومثل ذلك في اللهجات الحديثة : « هرّدم » في : « هدّمْ » و « طرّيق » في : « طبّق » و « كرّيس » في : « كبّس » و « خرّمش » في : « خمّش » ، وغير ذلك^(٤٧) .

وعن هذا الطريق ، يمكن تفسير : « برّجم »^(٤٨) بمعنى : أغلظ في الكلام ، بأنها ناتجة عن طريق المخالفة ، من الفعل : « بجم » ، وكذلك : « تبّلخص لحمه »^(٤٩) ، بمعنى : غلظ ، أصلها : « تبخص » . ومثلها : « بلطّح »^(٥٠) ، فهي مأخوذة من : « بطّح » بمعنى : ضرب نفسه في الأرض .

وقد تحدثت المخالفة الصوتية ، بتكرار الحرف الأول من الكلمة ، عوضاً عن أحد المتماثلين فيها ؛ مثل : « كفكف دمعته » بدلا من : « كفّف »^(٥١) . ومثل ذلك في اللهجات الحديثة قولنا : « حكحك » في : « حكّك » ، وغير ذلك .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن طريق آخر ، لنشوء الرباعي في العربية ، وهو طريق استعمال وزن : « افعال » في الشعر ، بإقحام همزة فيه ؛ مثل : « اطمأن » . وعرفنا أن هذه الهمزة الناشئة من الوزن الشعري ، قد قلبت عينا ، كما في لهجة تميم ، وعندئذ يتولّد عندنا أمثال : « اقشعر » و « ابدعر » . كما تخفف الهمزة ، فتصير هاء ، في مثل : « اكفهر » و « ازمهر » وغير ذلك . وكل هذه الأمثلة وغيرها ، يعدّها اللغويون من الرباعي . ويجهلون الطريق الذي سلكته في تطورها .

(٤٦) انظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوي ٣١٤

(٤٧) انظر مقالتنا : التطور اللغوي وقوانينه ١٢٦

(٤٨) مقاييس اللغة ٣٣٣/١

(٤٩) مقاييس اللغة ٣٣٣/١

(٥٠) مقاييس اللغة ٣٣٠/١

(٥١) انظر : دُصَاد لَابِن الْأَبَارِي ٣٦٢

ومع ذلك ، فهناك الأمثلة الكثيرة ، التي تؤكد أن العربية تعرف النحت ، في كلماتها الثلاثية وغيرها . أما ما ذكره « بروكلمان » ، من أن اللغات السامية لا تعرف تركيب الكلمات^(٥٢) ، فإنه يقصد بذلك ، التركيب الذى فى مثل : « حَبَقْر » فى العربية الفصحى ، و« رَسْمَال » و« مَاورِد » فى اللهجات العربية الحديثة ؛ فإن التركيب مع الاحتفاظ بجميع عناصر الكلمات الداخلة فى التركيب ، أمر نادر فى العربية ، بعكس الألمانية ، التى يوجد فيها الكثير من تلك الكلمات ؛ مثل : Schreibtischlampe بمعنى : « مصباح المكتب » ، وغير ذلك .

★ ★ ★

(٥٢) فقه اللغات السامية ١٥

الفصل الثالث

ظاهرة الترادف والاشتراك اللفظي والنضاد في العربية

الأصل في كل لغة أن يوضع اللفظ الواحد ، لمعنى واحد ؛ أى أن يكون بإزاء المعنى الواحد فيها لفظ واحد ، ولكن ظروفاً تنشأ في اللغة ، تؤدي إلى تعدد الألفاظ لمعنى واحد ، أو تعدد المعاني للفظ واحد ؛ يقول سيبويه : « واعلم أن من كلامهم ، اختلاف اللفظين ، لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ^(١) » .

كما يقول قطرب : « الكلام في ألفاظه بلغة العرب ، على ثلاثة أوجه ؛ فوجه منها وهو الأعم الأكثر : اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين .. وذلك قولك : الرجل والمرأة ، واليوم والليلة ، وقام وقعد ... وهذا لا سبيل إلى جمعه وحصره ؛ لأن أكثر الكلام عليه . والوجه الثاني : اختلاف اللفظين والمعنى متفق واحد ، وذلك مثل : عَيْرٌ وحمار ، وذئب وسيد .. وجلس وقعد .. والوجه الثالث : أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ، فيكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعداً ؛ وذلك مثل : الأمة الرجل وحده يؤتم به . والأمة القامة ، قامة الرجل ، والأمة من الأمم . ومن هذا اللفظ الواحد الذي يجيء على معنيين فصاعداً ، ما يكون متضاداً في الشيء وضده ^(٢) » .

(١) كتاب سيبويه ٧/١

(٢) أضداد قطرب ٢٤٣ - ٢٤٤

والحقيقة أنه لم تغن لغة ، بمثل ما غنيت به اللغة العربية ، من تعدد المفردات الدالة على معنى واحد من ناحية ، أو تعدد معاني اللفظة الواحدة ، إلى درجة التضاد بينها في بعض الأحيان ، من ناحية أخرى .

ويطلق العلماء على المفردات الدالة على معنى واحد ، اسم : « المترادف » Synonym ؛ كما يطلقون على الألفاظ الدالة على المعاني المختلفة ، اسم : « المشترك اللفظي » Homonym ويطلقون على ذات المعاني المتضادة من هذه الألفاظ ، اسم : « الأضداد » .

وإذا كان المحدثون من علماء اللغات ، يسلمون بوقوع أمثلة من هذه الأنواع الثلاثة ، في اللغات المختلفة ، فإن اللسان العربى ، قد طال باعة وامتد ذراعه ، في كل نوع من هذه الأنواع . ويعزى سبب تضخم المعجم العربى ، إلى كثرة أمثلة المترادف والمشارك والأضداد ، في اللغة العربية ، في كثير من الأحيان . ونحاول فيما يلى ، الوقوف على سر هذه الظاهرة الغريبة في العربية .

أولا : المترادف

« المترادفات هي : ألفاظ متحدة المعنى ، وقابلة للتبادل فيما بينها في أى سياق . والمترادف التام - رغم عدم استحالة - نادر الوقوع إلى درجة كبيرة ، فهو نوع من الكماليات ، التى لا تستطيع اللغة أن تجود بها فى سهولة ويسر . فإذا ما وقع هذا المترادف التام ، فالعادة أن يكون ذلك لفترة قصيرة محددة ، حيث إن الغموض الذى يعتري المدلول ، والألوان أو الظلال المعنوية ، ذات الصبغة العاطفية ، أو الانفعالية ، التى تحيط بهذا المدلول ، لا تلبث أن تعمل على تحطيمه ، وتقويض أركانه ، وكذلك سرعان ما تظهر بالتدرج ، فروق معنوية دقيقة ، بين الألفاظ المترادفة ، بحيث يصبح كل لفظ منها مناسبا وملائما ، للتعبير

عن جانب واحد فقط ، من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد^(٣) .

وقد اختلف اللغويون العرب ، في وقوع هذا الترادف التام ، في لغتنا العربية ، اختلافا كبيرا ، فمنذ أن بدأ الرعيل الأول ، من هؤلاء اللغويين ، في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، في جمع اللغة العربية ، من أفواه فصحاء العرب من جانب ، وتفريغ ألفاظ القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر ، والخطب ، والرسائل ، حتى نهاية العصر الأموي ، والبحث عن معانيها وتفسيرها من جانب آخر ، أخذ العلماء في تصنيف هذه المادة اللغوية ، في أنماط شتى ، وعنّ لبعض هؤلاء العلماء ، أن يجمعوا الكلمات ، التي تدل على معنى واحد في العربية ، في تأليف مستقل ، سموه أحيانا « بالمترادف^(٤) » ، وأحيانا أخرى باسم : « ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه^(٥) » .

وقد بالغ بعضهم في جمع تلك الألفاظ ، وحشد بينها طائفة كبيرة ، لا تمت إلى المترادف الحقيقي بصلة ، وكان فخر أحدهم على زميله ، أنه يحفظ لهذا الشيء أو ذاك ، كذا وكذا اسما ؛ فقد روى ابن فارس أن هارون الرشيد ، سأل الأصمعي عن شعر ، لابن حزام العكلي ، ففسره ، فقال : يا أصمعي ، إن الغريب عندك لغير غريب . قال : يا أمير المؤمنين ، ألا أكون كذلك ، وقد حفظت للحجر سبعين اسما^(٦) .

كما روى ابن فارس ، عن شيخه أحمد بن محمد بن بُنْدَار ، أنه قال : « سمعت أبا عبد الله بن خالويه الهمداني ، يقول : جمعت للأسد خمسمائة اسم ، وللحية مائتين^(٧) » .

(٣) دور الكلمة في اللغة لأولمان ٩٨

(٤) مثل : « الألفاظ المترادفة » لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ، المطبوع بالقاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

(٥) مثل : « ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه » للأصمعي ، الذي نشره مظفر سلطان بدمشق سنة

١٩٦٤ م .

(٦) الصاحبي ٤٤ والمزهر ٣٢٥/١

(٧) الصاحبي ٤٣ والمزهر ٣٢٥/١ وانظر : معجم الأدباء ٢٠٤/٩

وقد أدت مبالغة هؤلاء العلماء وغيرهم ، في الاعتداد بهذه الظاهرة ، إلى ظهور طائفة أخرى من العلماء ، تعارض هذا الاتجاه ، وترفض ظاهرة الترادف في العربية ، رفضاً تاماً ؛ ومن هؤلاء : أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي (المتوفى سنة ٢٣١ هـ) وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (المتوفى سنة ٢٩١ هـ) وأبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه (المتوفى سنة ٣٣٠ هـ) وأبو علي الفارسي (المتوفى سنة ٣٧٧ هـ) وأبو الحسين أحمد ابن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) وغيرهم .

قال أبو علي الفارسي : « كنت بمجلس سيف الدولة بحلب ، وبالخضرة جماعة من أهل اللغة ، وفيهم ابن خالويه ، فقال ابن خالويه : أحفظ للسيف خمسين اسماً^(٨) . فتبسم أبو علي ، وقال : ما أحفظ إلا اسماً واحداً ، وهو السيف ! قال ابن خالويه : فأين المهند والصارم وكذا وكذا ؟ فقال أبو علي : هذه صفات ، وكأنّ الشيخ لا يفرق بين الاسم والصفة^(٩) » .

كما يقول ابن فارس : « ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة ، نحو : السيف والمهند والحسام . والذي نقوله في هذا : إن الاسم واحد هو السيف ، وما بعده من الألقاب صفات . ومذهبنا أن كل صفة منها ، فمعناها غير معنى الأخرى . وقد خالف في ذلك قوم ، فزعموا أنها - وإن اختلفت ألفاظها - فإنها ترجع إلى معنى واحد ، وذلك قولنا : سيف وعَضْبٌ وحسام . وقال آخرون : ليس منها اسم ولا صفة ، إلا ومعناه غير معنى الآخر . قالوا : وكذلك الأفعال ، نحو : مضى وذهب وانطلق ، وقعد وجلس ، ورقد ونام وهجع . قالوا : ففى قعد معنى ليس في جلس ، وكذلك القول فيما سواه ، وبهذا نقول . وهو مذهب شيخنا أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب^(١٠) » .

(٨) منها واحد وأربعون اسماً ، ذكرها ابن خالويه في شرح الدريدية . انظر المزمهر ٤٠٩/١

(٩) المزمهر في علوم اللغة ٤٠٥/١

(١٠) الصاحبى ٩٦ والمزمهر ٤٠٤/١

كما يقول ابن السراج : « وقد حُكيَ لي عن أحمد بن يحيى ، أنه كان يقول : لا يجوز أن يختلف اللفظ والمعنى واحد ، وهو في هذا القول ، أبعد من قال : إنه لا يجوز أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى ^(١١) » .

ويقول كذلك ابن يعيش : « ويحكي عن أحمد بن يحيى إنكار ذلك ، ومنع جوازه ، ويزعم أن في كل لفظ زيادة معنى ، ليس في الآخر ؛ ففى : (ذهب) معنى ، ليس فى : (مضى) ، وكذلك باقى الباب ، وهو قول ليس بالسديد ^(١٢) » .

أما ابن درستويه ، فإنه يقول فى شرح الفصيح ثعلب : « لا يكون فَعَلَ وَأَفْعَلَ بمعنى واحد ، كما لم يكونا على بناء واحد ، إلا أن يجيء ذلك فى لغتين مختلفتين ، فأما من لغة واحدة ، فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد ، كما يظن كثير من اللغويين والنحويين ، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على طباعها ... ولم يعرف السامعون لذلك العلة فيه والفروق ، فظنوا أنهما بمعنى واحد ... وليس يجيء شئ من هذا الباب ، إلا على لغتين متباينتين كما بينا ، أو يكون على معنيين مختلفين ، أو تشبيه شئ بشئ ^(١٣) » .

وقد وضع ابن درستويه يده فى هذا الكلام ، على العوامل التى أدت إلى نشأة الترادف ، فى اللغة العربية ، فى نظر اللغويين العرب ، كما سنعرف فيما بعد .

(١١) الاشتقاق لابن السراج ٤٤

(١٢) شرح التصريف المملوكى ٩٧ وما رواه ابن فارس عن شيخه ثعلب ، وكذلك ما رواه عنه ابن السراج وابن يعيش ، يخالف مذهب ثعلب فى كتابه : « المجالس » ؛ إذ روى فيه كثيرا من الألفاظ المترادفة ، ولم يعلق عليها أو ينكرها ؛ كقوله مثلا : « ويقال : غلام نشنش وشعشع وبلبل وبزبز ، إذا كان خفيفا فى السفر » (مجالس ثعلب ١١/١) وقوله : « الزعيم والصبير والحميل والأذين والكفيل والأميل الذى لا يثبت فى سرجه » (مجالس ثعلب ٧٧/١) وقوله : « ويقال : عفا ودرس ومحا واحى واطرق » (مجالس ثعلب ٨٧/١) وقوله : « ويقال : قطعت يده وخدمت وبرتت وبتكت وبضكت وصرمت وترت وجدت » (مجالس ثعلب ٥٤٥/٢ والمزهر ٤١١/١) .

(١٣) المزهر ٣٨٤/١ وانظر النص الأصيل فى : تصحيح الفصيح لابن درستويه ١٦٥/١ - ١٦٦

ويقول ابن الأعرابي : « كل حرفين أوقعتهما العرب على معنى واحد ، في كل واحد منهما معنى ليس في صاحبه ، ربما عرفناه فأخبرنا به ، وربما غمض علينا ، فلم نلزم العرب جهله^(١٤) » .

وقال المرزوقي : « سئل بعض أهل اللغة ، عن الفرق بين أَرَفَضُوا وأنَفَضُوا - وكان يدعى أنه إذا اختلف اللفظان ، فلا بد من اختلاف المعنيين - فقال : انفضّوا ، معناه : تباينوا ، وهو من فضضت أى كسرت . وارفَضُوا معناه : رفض بعضهم بعضا^(١٥) » .

وقال التاج السبكي في شرح المنهاج : « ذهب بعض الناس إلى إنكار الترادف ، في اللغة العربية ، وزعم أن كل ما يظن من المترادفات ، فهو من المتباينات التى تتباين بالصفات ، كما فى الإنسان والبشر ؛ فإن الأول موضوع له باعتبار النسيان ، أو باعتبار أنه يؤنس ، والثانى باعتبار أنه بادى البشرة . وكذا الخندريس والعقار ؛ فإن الأول باعتبار العتق ، والثانى باعتبار عقر الدنّ لشدتها . وتكلّف لأكثر المترادفات ، بمثل هذا المقال العجيب^(١٦) » .

« وبعض هؤلاء الذين أنكروا الترادف ، كانوا من الأدباء النقّاد ، الذين يستشفون فى الكلمات أمورا سحرية ، ويتخيلون فى معانيها أشياء ، لا يراها غيرهم ، فهم قوم شديدا الاعتزاز بألفاظ اللغة ، يتبنون الكلمات ، ويرعونها رعاية كبيرة ، ينقبون عما وراء المدلولات ، ساجدين فى عالم من الخيال ، يصور لهم من دقائق المعانى وظلالها ، ما لا يدركه إلا هم ، ولا يقف عليه إلا أمثالهم^(١٧) » .

ومن هؤلاء الأدباء ، أبو هلال العسكري ، الذى ألف كتابا

(١٤) الأضداد لابن الأنبارى ٧ وانظر : المزهري ٣٩٩/١

(١٥) شرح اختيارات المفضل ، للتبريزي ٤٧٢/١

(١٦) المزهري فى علوم اللغة ٤٠٣/١

(١٧) فى اللهجات العربية ١٨١

سمّاه : « الفروق اللغوية » ، نادى فيه بأن « كل اسمين يجريان على معنى من المعانى ، وعين من الأعيان ، فى لغة واحدة ؛ فإن كل واحد منهما ، يقتضى خلاف ما يقتضيه الآخر ، وإلا لكان الثانى فضلا لا يحتاج إليه^(١٨) » .

ولم يكن العسكرى من أنصار منع الترادف فحسب ، بل كان ممن يقولون بمنع الاشتراك اللفظى فى العربية كذلك ، « فكما لا يجوز أن يدل اللفظ الواحد على معنيين ، فكذلك لا يجوز أن يكون اللفظان ، يدلان على معنى واحد ؛ لأن فى ذلك تكثيرا للغة ، بما لا فائدة فيه^(١٩) » .

وقد أحسّ العسكرى ، بأنه هو وطائفة قليلة من اللغويين ، يخالفون إجماع القوم ، على القول بالترادف فى العربية ؛ ولذلك يقول : « ولعل قائلًا يقول : إن امتناعك من أن يكون للفظين المختلفين معنى واحد ، ردّ على جميع أهل اللغة ؛ لأنهم إذا أرادوا أن يفسّروا اللَّبَّ ، قالوا : هو العقل ، أو الجَرَحُ ، قالوا : هو الكسب ، أو السَّكْبُ ، قالوا : هو الصَّبُّ . وهذا يدل على أن اللب والعقل عندهم سواء ، وكذلك : الجرح والكسب ، والسكب والصب ، وما أشبه ذلك . قلنا : ونحن أيضا نقول كذلك ، إلا أنا نذهب إلى أن قولنا : اللَّبُّ وإن كان هو العقل ، فإنه يفيد خلاف ما يفيد قولنا : العقل^(٢٠) » .

ولعلنا نوضح مذهبه هذا ، إذا ضربنا بعض الأمثلة من كتابه ؛ يقول العسكرى فى الفرق بين المدح والتقريظ ، إن « المدح يكون للحى والميت ، والتقريظ لا يكون إلا للحى . وخلافه التأيين لا يكون إلا للميت . وأصل التقريظ من القرظ ، وهو شئ يدبغ به الأديم ، وإذا دبغ به حسن وصلاح وزادت قيمته ، فشبه مدحك للإنسان الحى بذلك ، كأنك تزيد من قيمته

(١٨) الفروق اللغوية ١١

(١٩) الفروق اللغوية ١٢

(٢٠) الفروق اللغوية ١٣

بمدحك إياه ، ولا يصح هذا المعنى في الميث ؛ ولهذا يقال : مدح الله ، ولا يقال : قرّظه^(٢١) .

كما يقول في الفرق بين المدح والثناء ، إن « الثناء مدح مكرر ، من قولك : ثنيت الخيط ، إذا جعلته طاقين ، وثنيته - بالتشديد - إذا أضفت إليه خيطا آخر . ومنه قوله تعالى : سبعا من المثاني ، يعنى سورة الحمد ؛ لأنها تكرر في كل ركعة^(٢٢) » .

ومع أن أبا هلال العسكري ، يبالغ في هذا الكتاب في منع الترادف ، ويحاول جاهدا البحث عن الفروق بين الألفاظ المترادفة ، فإنه في كتابين آخرين له ، ينسى هذا المبدأ ، ويذكر الألفاظ المترادفة ، بلا اعتراض عليها ، أو محاولة للتفريق بينها . وأول هذين الكتابين هو : « التلخيص في معرفة أسماء الأشياء » ، وقد ذكرنا من قبل نصا من نصوصه ، في : « ذكر النوم^(٢٣) » يمتلىء بهذه المترادفات . وثاني الكتابين هو : « المعجم في بقية الأشياء^(٢٤) » ، ذكر فيه من الأسماء الدالة على (بقية الماء في الحوض) : الجَحْفَة (٦٥) والخَبْطَة (٧٦) والدُّعْث (٨١) والرَّشَف (٨٦) والسَّمْلَة (٩٥) والهلّال (١٥٤) . كما ذكر من الألفاظ الدالة على (بقية اللبن في الضرع) : التَّفْشِيل (٥٨) والرَّمْث (٨٨) والعُفَافَة (١١٧) والعُلَالَة (١٢٢) والعُبر (١٢٦) ، وغير ذلك .

ورغم ما يوجد بين لفظة مترادفة وأخرى ، من فروق أحيانا ، فإننا لا يصح أن ننكر الترادف ، مع من أنكروه جملة ، فإن إحساس الناطقين باللغة ، كان يعامل هذه الألفاظ معاملة المترادف ؛ فنراهم يفسرون اللفظة

(٢١) الفرق اللغوية ٢٧

(٢٢) الفرق اللغوية ٢٧

(٢٣) انظر فيما مضى : صفحة ٢٦٤

(٢٤) نشرة إبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلى ، في القاهرة سنة ١٩٣٤ م .

منها بالأخرى ، كما روى عن أبي زيد الأنصاري أنه قال : « قلت لأعرابي : ما الحَبْنَطِيُّ ؟ قال : المتكأكيء . قال : قلت : ما المتكأكيء ؟ فقال : المتآزف . قال : قلت : ما المتآزف ؟ قال : أنت أحق ؟ » (٢٥) .

وكما روى عن المازني أنه قال : « سمعت أبا سَوَّار الغنوي يقرأ : وإذ قتلتم نسمة فاذا رَأْتُمْ فيها ، فقلت له : إنما هو (نفس) ، فقال : النسمة والنفس واحد (٢٦) » .



أسباب كثرة المترادف في العربية الفصحى :

١ - تعدد أسماء الشيء الواحد في اللهجات المختلفة ، فكل لهجة تطلق عليه اسما ، ثم أدى احتكاك اللهجات بعضها ببعض ، ونشأة اللغة العربية المشتركة ، في تلك الظروف الدينية والاقتصادية والسياسية ، التي تحدثنا عنها من قبل - إلى تمسك هذه اللغة المشتركة ، بعدد من تلك الألفاظ التي تدل على مسمى واحد في اللهجات المختلفة « وأصبحت الحالة التي انتهت إليها أشبه شيء ببحيرة ، امتزج بمياهها الأصلية ، مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة » (٢٧) .

ولو نظرنا في اللهجات العربية الحديثة ، لوجدنا شيئا يشبه هذا الذي نتصوره في القديم ، فما يسمى : « فكة » مثلا في مصر ، يسمى في لبنان : « فراير » ، وفي سوريا والأردن : « فراطة » ، وفي العراق : « خُرْدَة » ، وفي ليبيا : « رِقاق » ، وفي السعودية : « صرافة » أو « تفاريق » .

و « البطيخ » مثلا في مصر ، هو : « الرَّقِي » في العراق ، و « الدَّلَّاح » في ليبيا ، و « الحَبَّحَب » في السعودية ، وما إلى ذلك .

(٢٥) جمهرة اللغة ٢٧/٣ وعنهما في المزهري ٤١٣/١

(٢٦) أمالي القالي ٨٠/٢ وعنهما في المزهري ٤١٣/١

(٢٧) فقه اللغة ، لعلي عبد الواحد وافي ١٦٦

وهكذا لو تصورنا تفاعلا ، يتم بين هذه اللهجات جميعها ، لكان من الممكن أن يحتفظ ببعض هذه الألفاظ ، للدلالة على المسمى الواحد .
 ويفسر لنا هذا السبب ، وقوع المترادف في العربية المشتركة ، أو ما نعرفه باسم العربية الفصحى ، ونستطيع أن نفهم على ضوئه ، ما وقع في القرآن الكريم ، من هذه الألفاظ المترادفة ، كورود : « حلف » و « أقسم » مثلا بمعنى واحد ، في قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا » (التوبة ٧٤/٩) ، وقوله : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » (النور ٥٣/٢٤) ، وكورود : « بعث » و « أرسل » بمعنى واحد ، في قوله تعالى : « بعث فيهم رسولا » (آل عمران ١٦٤/٣) ، وقوله : « فأرسلنا فيهم رسولا » (المؤمنون ٣٢/٢٣) .

وإن كان من يمنعون الترادف ، يحاولون التفرقة بين اللفظين ، كأبي هلال العسكري ، الذى حاول أن يفرق بين القسم والحلف ، بأن القسم أبلغ من الحلف ؛ لعله ذكرها هو ، ولا تخلو من التكلف^(٢٨) .
 كما فرق بين البعث والإرسال ، بأنه « يجوز أن تبعث الرجل إلى الآخر ، لحاجة تخصه دونك ودون المبعوث إليه ، كالصبي تبعثه إلى المكتب ، فتقول : بعثته ، ولا تقول : أرسلته ؛ لأن الإرسال لا يكون إلا برسالة ، أو ما يجرى مجراها^(٢٩) » .

ولا يخفى ما فى ذلك من التكلف ، ومخالفة الاستعمال القرآنى .

وكثير من هذه الألفاظ الخاصة باللهجات ، لم يستطع النفاذ إلى استعمالات اللغة الفصحى ، وبقيت مقصورة على الاستعمال المحلى ، عند هذه القبيلة أو تلك ، وكان من الممكن أن تندثر هذه الألفاظ ؛ لأن نصوص الفصحى الشعرية والنثرية منها ، لم تسجلها بين ألفاظها ،

(٢٨) الفروق اللغوية ٤٢

(٢٩) الفروق اللغوية ٢٢٢

لولا أن ساح اللغويون العرب ، في القرون الأولى للهجرة ، في قلب الجزيرة العربية ، وبين القبائل التي اعتمدها هم ، لتلقى اللغة عنهم ، فدوّنوا عنهم فيما دوّنوا هذه الألفاظ المحلية .

وقد فضن إلى هذا ابن جنى ، فقال : « وإذا كثّر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة ، فسمعت في لغة إنسان واحد ، فإن أخرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفاً منها ، من حيث كانت القبيلة الواحدة ، لا تتواطأ في المعنى الواحد على ذلك كله^(٣٠) » . كما قال : « كلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد ، كان ذلك أولى بأن تكون لغات لجماعات ، اجتمعت لإنسان واحد من ههنا وههنا^(٣١) » .

ويروى عن الإصفيهاني^(٣٢) أنه قال : « وينبغي أن يحمل كلام من منع (الترادف) على منعه في لغة واحدة ، أما في لغتين ، فلا ينكره عاقل^(٣٣) » .

كما يقول الأصوليون : إن من أسباب الترادف « أن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسم الآخر للمسمى الواحد ، من غير أن تشعر إحدهما بالأخرى ، ثم يشتهر الوضعان ، ويخفى الوضعان ، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر^(٣٤) » .

٢ - ومن أسباب الترادف كذلك : أن يكون للشيء الواحد في الأصل اسم واحد ، ثم يوصف بصفات مختلفة ، باختلاف خصائص

(٣٠) الخصائص ٣٧٣/١

(٣١) الخصائص ٣٧٤/١

(٣٢) لعله أبو علي الحسن بن عبد الله الإصفيهاني ، المعروف بلغدة ، وهو من تلامذة الزجاج (بعية الرواة ٥٠٩/١) . وقد علق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، على نص بإنباه الرواة ٤١/١ : « الرد على الإصفيهاني لأحمد بن داود أبي حنيفة الدينوري » ، بقوله في هامشه : « هو الحسن بن عبد الله المعروف بلغدة الإصفيهاني » !

(٣٣) المزهر في علوم اللغة ٤٠٥/١

(٣٤) المزهر في علوم اللغة ٤٠٥/١

ذلك الشيء ، وإذا بتلك الصفات تستخدم في يوم ما ، استخدم الشيء ، وينسى ما فيها من الوصف ، أو يتناساه المتحدث باللغة .

وفي ضوء هذا السبب ، يمكن النظر إلى السيف وأسمائه المختلفة في العربية ، تلك الأسماء التي كانت في الأصل صفات له ، كالصارم ، والباتر ، والقاضب ، والصقيل ، وغير ذلك .

وقد فطن إلى مثل هذا ، أبو علي الفارسي ، في حوار الذي سبق أن ذكرناه ، مع ابن خالويه ، أمام سيف الدولة . ويقول ابن الأثير : « وقد يوجد من الأسماء ما يطلق على المسمى بالوضع ، اسما للذات لا لمعنى فيه ، كالسيف بإزاء هذه الآلة المعروفة كيف كانت . ومنها ما يطلق عليه لصفة فيه ، كالصارم ، فإنه موضوع له كصفة الحدة^(٣٥) » .

كما يقول نولدكه : « وطبيعي أن المعاجم العربية ، قد تضخمت جدا ، على الأخص بسبب أنها تذكر التسميات الشعرية ، الشخصية الخالصة للأشياء ، على أنها كلمات خاصة ؛ فحين يسمى أحد الشعراء الأسد مثلاً ، بالكاسر بالأسنان ، ويسميه شاعر آخر بالساحق ، وغير ذلك ؛ فإن المعجم العربي يأخذ هذه التسميات ، على أنها مترادف كلمة الأسد تماماً^(٣٦) » .

٣ - وأحد أسباب كثرة المترادفات العربية ، في مؤلفات القدامى من اللغويين : التطور اللغوي في اللفظة الواحدة ؛ فقد تتطور بعض أصوات الكلمة الواحدة ، على ألسنة الناس ، فتنشأ صور أخرى للكلمة ، وعندئذ يعدّها اللغويون العرب ، مترادفات لمسمى واحد .

من ذلك قول ابن جنى مثلاً : « ومن ذلك قولهم : هَتَكَت السماء وهَتَنَت : هما أصلان ، ألا تراهما متساويين في التصرف ؛ يقولون : هَتَنَت

(٣٥) الموضع لابن الأثير ٣٥٢

(٣٦) اللغات السامية ٨١

السماء تَهْتِنُ تَهْتَانًا ، وهتلت تهتل تهتالا ، وهنّ سحائب هُتْنُ وهُتْلُ (٣٧) .

وتمتلىء كتب « الإبدال » العربية ، بمثل هذه الكلمات ، التى يعدّها اللغويون من المترادفات ، وما هى منها فى شيء ؛ فإنه مما لا شك فيه أن الأفعال الآتية : « دَعَسَ » و« طَعَسَ » و« طَعَزَ » و« دَعَزَ » و« طَحَسَ » و« طَحَزَ » و« دَعَظَ » و« عَزَدَ » و« عَصَدَ » بمعنى : جَامَعَ المرأة - هذه الأفعال كلها ، تتول إلى فعل واحد هو : « دَعَسَ » فيما يبدو ، وفيه يظهر معنى الوطاء . أما بقية الأفعال ، فهى نتيجة تطور صوتى ، فى بعض أصوات الفعل : « دَعَسَ » مع القلب المكانى فيه أحيانا .

ومثل ذلك كلمات : « الحثالة » و« الحفالة » و« الحذالة » و« الحسالة » و« الحصالة » للردىء من الشيء (٣٨) .

ويشبه هذا ما روى عن الأصمعى أنه قال : « اختلف رجلان فى : (الصقر) ، فقال أحدهما : (الصقر) بالصاد ، وقال الآخر : (السقر) بالسين ، فتراضيا بأول وارد عليهما ، فحكيا له ما هما فيه ، فقال : لا أقول كما قلتما ، إنما هو : (الزقر) ! (٣٩) » . كما روى الأصمعى كذلك عن العرب ، أنهم يقولون : « ما كدت أتملّص من فلان » و« أتملّس » و« أتملّز » بمعنى : أتلّص منه (٤٠) .

وقد يكون التطور اللغوى فى معنى الكلمة ودلالاتها ، لا فى لفظها « فمن الكلمات ما تشترك معانيها فى بعض الأجزاء ، وتختلف فى بعضها

(٣٧) الخصائص ٨٢/٢

(٣٨) انظر فى هذه الأمثلة والأمثلة السابقة : كتاب الإبدال لأبى الطيب اللغوى ، فى مواضع

متفرقة منه .

(٣٩) الخصائص ٣٧٤/١ والمزهر ٢٦٣/١

(٤٠) ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه ، للأصمعى ٣٠

الآخر ، ويمكن تشبيهها بدوائر متحدة المركز ، ومختلفة في جزء من سطوحها ، أو مشتركة في جزء من السطح فقط ، فإذا مر عليها زمن طويل ، ودعت عوامل تغير المعاني ، أن تنطبق الدوائر بعضها على بعض ، أصبحت تلك الكلمات مترادفة ؛ لأن المعاني لا تبقى على حالة واحدة ، فقد يصبح الخاص عاما ، أو يصبح العام خاصا ، وإذا قارنا بين الكلمة : (هلك) في العربية ، وجدنا معناها في العبرية لكل نوع من الذهاب ، في حين أن معناها في العربية ، قد تحدد فأصبح مقصورا على نوع واحد من الذهاب ، وهو (الهلاك) . وقد أدى مثل هذا التطور إلى الترادف بين الموت والهلاك^(٤١) .

٤ - ومن عوامل كثرة الترادف في العربية كذلك : الاستعارة من اللغات الأجنبية ، التي كانت تجاور العربية في الجاهلية وصدر الإسلام . وبين الكلمات المترادفة التي رويت لنا ، الكثير من الألفاظ المستعارة من الفارسية وغيرها ، كالذَّمَقْس والإِسْتَبْرَق للحرير ، والزَّرْجُون والإِسْفِنَط والبَازِق والدَّرِيَاقة للخمر ، والبَهْرَج للباطل ، والبَحْت للجد والحظ ، والجُلّ للورد ، والدَّسْت للصحراء ، واليَمّ للبحر ، وغير ذلك .

ومثل ذلك كلمة : « دستفشار » من أسماء العسل ، فإنها كما قال ابن منظور : « كلمة فارسية ، معناها : ما عصرته الأيدي . ومنه قول الحجاج في كتابه إلى بعض عماله بفارس : ابعث إليّ بعسل خُلَّار ، من النحل الأبكار ، من الدستفشار ، الذي لم تمسه النار^(٤٢) » .

والمستعمل عن دخول هذه الألفاظ إلى العربية ، واستخدامها إلى جانب الألفاظ الأصلية في اللغة ، هم الشعراء أمثال الأعشى وغيره ؛ فقد « ذكر أبو حاتم أن رؤبة بن العجاج ، والفصحاء كالأعشى وغيره ، ربما استعاروا الكلمة من كلام العجم للقافية لتستطرف ، ولا يصرفونه

(٤١) في اللهجات العربية ١٨٣

(٤٢) اللسان (بكر) ١٤٤/٥

ولا يشتقون منه الأفعال ، ولا يرمون بالأصلي ، ويستعملون المستطرف^(٤٣) . »

وقد أثرى عامل الاقتراض من اللغات الأجنبية ، لغة كالأجليزية ، بالترادفات اللغوية إثراء عظيما ؛ يقول أولمان : « واللغة الإنجليزية لغة غنية بصفة خاصة ، بالترادفات أو أشباه المترادفات ، بتعبير أدق ، فهي قد فتحت الباب على مصراعيه ، للاقتراض من اللغة اللاتينية ، وما تفرع عنها من لغات . وقد عملت بذلك على إثراء مصادر الترادف فيها ، إثراء واسعا ، واكتسبت ألوانا من المعاني الدقيقة ، والدلالات المختلفة ، كما ظفرت بتنوع في التعبير ، إلى درجة لم تصل إليها أية لغة أوربية أخرى^(٤٤) » .

هذه هي بعض العوامل ، التي أدت إلى كثرة الألفاظ المترادفة ، في المعاجم العربية ، ومؤلفات اللغويين العرب ، ولا يعني نقدنا لها هنا ، أن اللغة العربية تخلو من المترادفات ؛ إذ « يجمع المحدثون من علماء اللغات ، على إمكان وقوع الترادف ، في أي لغة من لغات البشر ، بل إن الواقع المشاهد ، أن كل لغة تشتمل على بعض هذه الكلمات المترادفة^(٤٥) » .

غير أن هؤلاء العلماء يشترطون شروطا معينة ، إذا تحققت أمكننا القول بأن بين الكلمتين ترادفا . وفيما يلي نلخص أهم هذه الشروط^(٤٦) :

١ - الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقا تاما ، فإذا تبين لنا بدليل قوى ، أن العربى كان يفهم حقا من كلمة : (جلس) شيئا ، لا يستفيد منه كلمة : (قعد) ، قلنا حينئذ : ليس بينهما ترادف .

٢ - الاتحاد في البيئة اللغوية . ولم يفتن المغالون في الترادف إلى مثل

(٤٣) العرب للجوالقي ٩ - ١٠

(٤٤) دور الكلمة في اللغة ١٠٠

(٤٥) في اللهجات العربية ١٧٨

(٤٦) انظر ، في تفصيل هذه الشروط : في اللهجات العربية ١٧٨ - ١٧٩

هذا الشرط ؛ بل عُدُّوا كل اللهجات وحدة متماسكة ، وعدُّوا كل الجزيرة العربية بيئة واحدة ، ولكننا نعدُّ اللغة المشتركة ، أو الفصحى الأدبية ، بيئة واحدة ، ونعدُّ كل لهجة أو مجموعة منسجمة من اللهجات ، بيئة واحدة .

٣ - الاتحاد في العصر . فالمحدثون حين ينظرون إلى المترادفات ، ينظرون إليها في عهد خاص وزمن معين ، فإذا بحثنا عن الترادف ، يجب ألا نلتمسه في شعر شاعر من الجاهليين ، ثم نقيس كلماته بكلمات وردت في نقش قديم ، يرجع إلى العهود المسيحية مثلاً .

٤ - ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي آخر ، فحين نقارن بين : (الجَثَل) و (الجَفَل) بمعنى : الثمل ، نلاحظ أن إحدى الكلمتين ، يمكن أن تعدَّ أصلاً ، والأخرى تطور لها .

على أية حال ، وكيفما كان نشوء هذا القدر الكبير ، من المترادفات في اللغة العربية ، فقد أفادت هذه الظاهرة في « التوسع في سلوك طرق الفصاحة ، وأساليب البلاغة في النظم والنثر ، وذلك لأن اللفظ الواحد ، قد يتأتى باستعماله مع لفظ آخر السجع والقافية ، والتجنيس والترصيع ، وغير ذلك من أصناف البديع ، ولا يتأتى ذلك إلا باستعمال مرادفه مع ذلك اللفظ (٤٧) » .

ويرى ابن يعيش (٤٨) ، أن الترادف يحسن « للحاجة إلى التوسع بالألفاظ ، ألا ترى أن الساجع أو الشاعر ، لو افتقر إلى استعمال معنى : (قعد) مع قافية سينية ، لاستعمل معنى : (جلس) ، ولو لم يستعمل في هذا إلا (قعد) ، لضاق المذهب ، ولم يوجد من التوسع ، ما وجد بوجوده » .

كما أمكن بهذه المترادفات « أن يأتي الشاعر بالاسمين المختلفين

(٤٧) المزهر في علوم اللغة ١/٤٠٦

(٤٨) شرح الملوكي ٩٦

للمعنى الواحد ، فى مكان واحد ، تأكيداً ومبالغة ، كقول الخطيئة :

أَلَا حَبْدًا هِنْدٌ وَأَرْضٌ بِهَا هِنْدٌ

وهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ وَالْبُعْدُ^(٤٩) .

بل لقد حفظ لنا التاريخ أن « واصل بن عطاء » زعيم المعتزلة ، كان ألشغ فى صوت الرء ، فلم يحفظ عنه أنه نطق بهذا الصوت ، ولولا المترادفات تعينه على قصده ، لما استطاع ذلك . ومن أمثلة ذلك ، ما يروى عنه من أنه « لما قال بشار بالرجعة ، وتتابع على واصل ما يشهده بإلحاده ، قال واصل : أما لهذا الأعمى الملحد ، أما لهذا المُشَنَّفِ المكنى بأبى معاذ من يقتله ؟ أما والله ، لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية ، لدست إليه من يبعج بطنه فى جوف منزله أو فى حفله ، ثم لا يتولى ذلك إلا عُقيلَى أو سُدُوسَى . فقال : أبو معاذ ، ولم يقل : بشار . وقال : المُشَنَّفِ ، ولم يقل : المرعَث ، وكان بشار ينبز بالمرعَث . وقال : من سجايا الغالية ، ولم يقل : الرافضة . وقال : فى منزله ، ولم يقل : فى داره وقال : يبعج ، ولم يقل : يَنُقَر . كل ذلك تخلّصا من الرء^(٥٠) » .

ثانيا : الاشتراك اللفظى

عرف الأصوليون اللفظ المشترك بأنه « اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر ، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة^(٥١) » . وكما وقع الخلاف بين اللغويين ، حول وجود المترادف فى اللغة ، فأنكره بعضهم ، نجد الأمر نفسه يتكرر هنا كذلك ، فهذا « ابن درستويه » ، الذى عرفناه من قبل ، معارضا فى وجود المترادف

(٤٩) انظر : المزهى فى علوم اللغة ٤٠٦/١ وديوان الخطيئة ق ٢/٣٨ ص ١٤٠ وانظر للمترادف وأثره فى

توكيد الكلام : البرهان للزركشى ٤٧٢/٢

(٥٠) انظر : معجم الأدباء لياقوت ٢٤٥/١٩ والبيان والتبيين للجاحظ ١٦/١ والكامل للمبرد ١٩٤/٣

(٥١) المزهى فى علوم اللغة ٣٦٩/١

في اللغة الواحدة ، ينكر كذلك أن يكون للفظ : (وجد) من المعاني المختلفة ، ما رواه اللغويون فيه ، وهى : العثور على الشيء ، والغضب ، والعشق ؛ ويقول في شرح فصيح ثعلب : « فظن من لم يتأمل المعاني ، ولم يتحقق الحقائق ، أن هذا لفظ واحد ، قد جاء لمعان مختلفة ، وإنما هذه المعاني كلها شيء واحد ، وهو إصابة الشيء خيراً كان أو شراً^(٥٢) » .

كما يقول أيضاً : « فإذا اتفق البناءان في الكلمة والحروف ، ثم جاء لمعنيين مختلفين ، لم يكن بد من رجوعهما إلى معنى واحد ، يشتركان فيه ، فيصيران متفقى اللفظ والمعنى^(٥٣) » .

وقد وضع ابن درستويه يده هنا كذلك ، على الأسباب التى تدعو إلى نشوء المشترك اللفظى في اللغة ، حين قال : « فلو جاز وضع لفظ واحد ، للدلالة على معنيين مختلفين ، لما كان ذلك إبانة ، بل تعمية وتغطية ، ولكن قد يجىء الشيء النادر من هذا لعل ... وإنما يجىء ذلك في لغتين متباينتين ، أو لحذف واختصار قد وقع في الكلام ، حتى اشتبه اللفظان ، وخفى ذلك على السامع ، وتأول فيه الخطأ^(٥٤) » .

وإلى مثل هذا الذى فطن إليه ابن درستويه ، ينادى أبو على الفارسى ، بأن « اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين ، ينبغى ألا يكون قصدا في الوضع ، ولا أصلا ، ولكنه من لغات تداخلت ، أو أن تكون كل لفظة تستعمل بمعنى ، ثم تستعار لشيء ، فتكثر وتغلب ، فتصير بمنزلة الأصل^(٥٥) » .

وفي ضوء هذا الذى ذكره أبو على الفارسى ، ينبغى أن ننظر إلى المعاني الكثيرة المختلفة ، التى تذكرها المعاجم العربية ، لهذا اللفظ أو

(٥٢) تصحيح الفصيح لابن درستويه ٣٦٤/١ وعنه في المزهري ٣٨٤/١

(٥٣) تصحيح الفصيح لابن درستويه ٢٤٠/١

(٥٤) المزهري ٣٨٥/١ وانظر النص الأصل في : تصحيح الفصيح لابن درستويه ١٦٦ - ١٦٧

(٥٥) المخصص ٢٥٩/١٣ وهو بالنص في شرح التصريف الملوکی ٩٧ بلا نسبة .

ذاك ، ككلمة « العجوز » التي روى لها صاحب القاموس ، أكثر من سبعين معنى ، وهى : « الإبرة ، والأرض ، والأزنب ، والأسد ، والألف من كل شيء ، والبحر ، والبطل ، والبقرة ، والتاجر ، والترس ، والتوبة ، والثور ، والجامع ، والجعبة ، والجفنة ، والجوع ، وجهنم ، والحرب ، والحربة ، والحمى ، والخلافة ، والخمر ، والخيمة ، ودارة الشمس ، والداهية ، والدرع للمرأة ، والدنيا ، والذئب ، والذئبة ، والراية ، والرخم ، والرعشة ، والرمكة ، ورملة معروفة ، والسفينة ، والسماء ، والسِّن ، والسَّموم ، والسنة ، وشجر معروف ، والشمس ، والشيخ ، والشيخة ، والصحيفة ، والصنجة ، والصومعة ، وضرب من الطيب ، والضبع ، والطريق ، وطعام يتخذ من نبات بحرى ، والعاجز ، والعافية ، وعانة الوحش ، والعقرب ، والفرس ، والفضة ، والقبلة ، والقدر ، والقرية ، والقوس ، والقيامة ، والكتيبة ، والكعبة ، والكلب ، والمرأة شابة كانت أو عجوزا ، والمسافر ، والمسك ، ومسمار فى قبضة السيف ، والمملك ، ومناصب القدر ، والنار ، والناقة ، والنخلة ، ونصل السيف ، والولاية ، واليد اليمنى^(٥٦) » .

ويمكننا أن نلخص عوامل نشأة المشترك اللفظى فى العربية عموما ، فيما يلى :

٩ - الاستعمال المجازى : فمثلا كلمة : « العين » ، يدل فى الأصل على عضو الإبصار فى الإنسان والحيوان ، بدليل مقارنة اللغات السامية المختلفة ، وهى من الأسماء القديمة فيها . أما العربية ففيها زيادة على هذا المعنى : الإصابة بالعين ، وضرب الرجل فى عينه ، والمعاناة ؛ وهذه كلها اشتقاقات فعلية من لفظ « العين » بمعناها القديم . ومن معانيها كذلك : « المال الحاضر » ؛ لأنه يُعَايَن كذلك ، بعكس المال الغائب ، الذى لا تراه العين . ومن معانيها : « الجاسوس » و« رَيْبَةُ الجيش » وهو

(٥٦) القاموس المحيط (عجز) ١٨١/٢

الذى ينظر لهم ؛ وهذا على التشبيه والمبالغة ، فكأن الجاسوس والريئة ، قد تحولوا إلى عين كبيرة ؛ لأن العين أهم أعضائهما في عملهما . ومن المعانى كذلك : « خيار الشيء » و « السيد » و « سنام الإبل » ، وهذه الثلاثة يجمعها « بالعين » قيمتها بالنسبة إلى سائر الجسد ، على التشبيه بها في المكانة والمنزلة . ومن المعانى أيضا : « الدينار » و « عين الركبة » وهى نقرة في مقدمتها ، و « عين الشمس » و « عين الماء » ؛ وهذه كلها على التشبيه بالعين في الاستدارة ، أو سيلان الدمع منها . وبقي من معانى « العين » في العربية : « الاعوجاج في الميزان » و « ما عن يمين قبلة أهل العراق » و « السحابة التى تنشأ من ناحية قبلة أهل العراق » و « مطر أيام كثيرة لا يقلع » و « طائر » و « ذات الشيء » ؛ وهذه كلها معان ، لا يتضح لنا الآن علاقتها بالعين المبصرة ، وما نظن إلا أن هذه الصلة ، كانت موجودة في أذهان العرب الأوائل ، الذين أطلقوا لفظ : « العين » عليها^(٥٧) .

وقد لعب الاستعمال المجازى ، دوره كذلك ، في نشوء المشترك اللفظى ، في غير العربية من اللغات الأخرى ؛ يقول « أولمان » في مثال ذلك من الإنجليزية : « فالاستعارة مثلا كما في نحو : crane وظيفتها إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم ، عن طريق العلاقة المباشرة بين المدلولين ، غير أن السمات المشتركة فقط ، هى التى يدركها المتكلم ، حين يتم الانتقال من المعنى القديم ، إلى المعنى الجديد . والمعتاد أن يعيش المعنى القديم ، جنبا إلى جنب مع المعنى الجديد ؛ فالطير المسمى : crane (وهو طير الكركى) ، سوف يظل يُدعى بهذا الاسم ، بالرغم من أن اللفظ نفسه ، قد أطلق على تلك الآلة المعهودة التى تستعمل في رفع الأحمال الثقيلة^(٥٨) » .

(٥٧) انظر كذلك : المزهري في علوم اللغة ١/ ٣٧٢ - ٣٧٥ وإصلاح المنطق ٥٦ والمأثور عن أنى العميثل ٨ وشرح التصريف الملوكي ١١٠ والمنجد ، لكراع التمل ٣٢ - ٣٣ وبصائر ذوى التمييز ٤/ ٤ - ٥

(٥٨) دور الكلمة في اللغة ١١٧

وعلى كل ، فمن الملاحظ عند علماء اللغة المحدثين ، أن المعانى الحسية ، أسبق فى الوجود من المعنويات ، وأن المعنويات فرع عن الحسيات بطريق المجاز ، غير أن أصحاب المعاجم العربية ، لم يفرقوا بين الحقيقى والمجازى ، فى هذه المعانى الكثيرة ، التى جمعوها للكلمات فى معاجمهم ، كما رأينا فى معانى كلمة : « العجوز » فى القاموس المحيط ، من قبل . ولم يهتم من أصحاب المعاجم بهذه الناحية ، وهى التفرقة بين المعانى الحقيقية والمجازية للكلمات ، سوى الزمخشري فى معجمه : « أساس البلاغة » - كما عرفنا من قبل - ولكنه « لم يوفق فى كل حالة ؛ فقد ضل الطريق ، حين حاول اشتقاق معنى حسي من آخر معنوي ، مع أن الذى أجمع عليه المحدثون من علماء اللغات ، هو أن المعانى الحسية ، أسبق فى الوجود ، وأجدر بأن تعدّ المعانى الحقيقية ، وغيرها فروع لها عن طريق المجاز (٥٩) » .

ولعل السبب فى غموض العلاقة ، بين بعض معانى المشترك اللفظي ، أنها قد تكون مرتبطة بأشياء تاريخية ، أدت إلى نشوء هذه المعانى البعيدة للكلمة ، كالأعوجاج فى الميزان وما شابهه من معانى « العين » فى المثال السابق .

ويضرب « أولمان » مثالا مشابها ؛ فيقول : « كيف اكتسبت الكلمة : collation أى : الموازنة والمراجعة التفصيلية ، مثلاً ، معنى : الأكلة الخفيفة ؟ من البديهي أنه ليست هناك مشابهة بين المعنيين ، بل إن احتمال وجود أية صلة بينهما ، احتمال يبدو بعيداً أول الأمر . ولكن التاريخ يمدّنا بما يفسر هذه الحالة . لقد كانت العادة فى بعض الأديرة ، أن يتناول الرهبان طعاماً خفيفاً ، بعد فراغهم من قراءة سير الرّواد الأوائل ، من رجال الدين ، ومراجعة هذه السير ، فكان هذا الارتباط العرضي ، كافياً لأن ينحرف بالكلمة ، ويقودها إلى هذا التطور فى المعنى (٦٠) »

(٥٩) فى اللهجات العربية ١١٩ وانظر كذلك : دور الكلمة فى اللغة ١٩١

(٦٠) دور الكلمة فى اللغة ١٧٤

ومن أمثلة تلك العلاقات الغامضة بين المعاني ، التي يفسرها التاريخ في اللغة العربية ، كلمة : « التقاوى » ، المستخدمة في الريف المصرى ، بمعنى : « البذور » ؛ فهناك من يذهب إلى أن هذا الاستخدام « يرجع إلى عهد رأس الأسرة العلوية ، التي كانت تحكم مصر ، وهو محمد على الكبير ؛ ذلك أنه كان يُعطى الفلاحون من أهراء السلطان ، ومخازن الولاية ، ما يعينهم على الزرع ، من البذور . وكان ذلك يخرج من الديوان ، ويكتب في كتب الأعطية : يعطى فلان كذا كيلجة أو إردبا تقوية له ، فلما كثر قرن عطاء البذر بالتقوية ، غلبت التقوية على البذر ، فكان إذا قيل : أخذت التقوية ، فإنما يعنى : أخذ البذر ، وجمع التقوية على : التقاوى ، وغلب هذا اللفظ : التقاوى ، على البذور^(٦١) » .

ويبدو أن استعمال الكلمة ، بهذا المعنى في مصر ، ترجع إلى فترة أقدم من عهد محمد على ؛ فقد عثرت عليها في كتاب : « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » للمقدسى ، أحد علماء القرن الرابع الهجرى ؛ يقول في حديثه عن دخل إقليم مصر : « يعمد الفلاح إلى الأرض ، فيأخذها من السلطان ويزرعها ، فإذا حصد ودرس وجمع ، رثمت بالعرام وتركت . ثم يخرج الخازن وأمين السلطان ، فيقطعون كرى الأرض ، ويعطى ما بقى للفلاح . وفيهم من يأخذ من السلطان تقوية ، فيزاد عليه في كرى الأرض ، بقدر ما اقتطعه^(٦٢) » .

٢ - اللهجات : فبعض هذه المعاني المجازية ، التي رويت لنا في بعض الكلمات ، نشأت بالتأكيد في بيئات مختلفة ، غير أن اللغويين لم يوضحوا لنا ، إلا في النادر ، بيئة هذا المعنى أو ذاك . ومن البعيد أن يظن المرء أن هذه المعاني الكثيرة لكلمة : « العجوز » السابقة ، كانت تستخدم في العربية في بيئة واحدة . غير أننا لا نعدم إشارة هنا وهناك في كتب اللغة ، إلى القبائل التي كانت تطلق الكلمة ، على هذا المعنى أو

(٦١) انظر : لغويات ، للشيخ محمد على النجار ٨٥

(٦٢) أحسن التقاسيم ٢١٢ وانظر كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٣٥٧ - ٣٥٨

ذاك ؛ فقد روى لنا أبو زيد مثلاً ، أن قبيلة : « تميم » كانت تطلق كلمة : « الألفت » على الأعسر ، وهو الذى يعمل بيده اليسرى ، كأن فيه التفاتا من اليمنى إلى اليسرى . أما قبيلة « قيس » ، فكانت تطلق هذه الكلمة على الأحمق^(٦٣) . ولعلها كانت تلحظ فيه التفاتا من الكيس إلى الحمق !

كما تطلق عامة العرب على الذئب : « السرحان » و « السيد » ، وهاتان الكلمتان تطلقان عند هذيل على : « الأسد »^(٦٤) .

وكذلك روى لنا الأصمعى ، أن عامة العرب ، كانت تطلق : « السليط » على الزيت . أما أهل اليمن ، فكانوا يطلقونه على دهن السمسم فقط^(٦٥) . وهذا من تخصيص العام فى دلالة اللفظ ، وهو طريق من طرق تطور الدلالة ، فى اللغات المختلفة^(٦٦) .

وقد وضع ابن السراج يده ، على هذا العامل ، من عوامل نشوء المشترك اللفظى فى اللغة ، فقال : « الذى يوجه النظر ، على واضع كل لغة ، أن يخص كل معنى بلفظ ؛ لأن الأسماء إنما جعلت لتدل على المعانى ، فحقها أن تختلف ، كاختلاف المعانى ، ومحال أن يصطلح أهل اللغة ، على ما يلبس دون ما يوضح . وهذا ادعاء من ادعى ، أنه ليس فى لغة العرب لفظتان متفقتان فى الحروف ، إلا لمعنى واحد ، لكنه أغفل أن الحى أو القبيلة ، ربما انفرد القوم منهم بلغة ، ليس سائر العرب عليها ، فيوافق اللفظ فى لغة قوم ، وهم يريدون معنى ، لفظ آخر من لغة آخرين ، وهم يريدون معنى آخر . ثم ربما اختلطت اللغات ، فاستعمل هؤلاء لغة هؤلاء ، وهؤلاء لغة هؤلاء . فأصل اللغة قد وضعت على بيان وإخلاص ، لكل معنى لفظ ينفرد به ، إلا أنه دخل اللبس ، من حيث لم يقصد^(٦٧) » .

(٦٣) انظر : المزهر فى علوم اللغة ٣٨١/١

(٦٤) المسجد ، لكراع النمل ٦٣

(٦٥) المزهر فى علوم اللغة ٣٨١/١

(٦٦) انظر مقالنا : التطور اللغوى وقوانينه ١٧٨ - ١٧٩ . ودلالة الألفاظ ١٤٨

(٦٧) الاشتقاق لابن السراج ٣٣

٣ - اقتراض الألفاظ من اللغات المختلفة : إذ ربما كانت اللفظة المقترضة ، تشبه في لفظها كلمة عربية ، لكنها ذات دلالة مختلفة ، كما لو تصورنا أن العربية ، استعارت من الألمانية ، كلمة : Kalb (كَلْب) بمعنى : « عجل » ، فتصبح كلمة : « كلب » في العربية ، من كلمات المشترك اللفظي ، تدل على الكلب الذي نعرفه ، وعلى : العجل .

وقد حدث مثل هذا في العربية القديمة ؛ ففيها أن : « السَّكْر نقيض الصحو » ، وفيها أيضا أن « كل شقَّ سُدَّ ، فقد سُكِرَ ، والسَّكْر سدُّ الشقِّ »^(٦٨) . والمعنى الأول عرني ، أما الثاني فهو معرب من الآرامية : سَكَّرَ sakkar . وقد فطن إلى هذا : شهاب الدين الخفاجي ، حين قال : « لا يضر المعرب كونه موافقا للفظ عرني ، كسَكَّرَ ، فإنه معرب ، وإن كان عرني المادة ، بمعنى : أغلق ؛ قال الله تعالى : سَكَّرْتُ أَبْصَارُنَا »^(٦٩) .

وفي العربية الفصحى كذلك : « الحُبَّ بمعنى : الوداد ، وهو حُبَّ الشيء » ، وفيها كذلك : « الحُبَّ : الجَرَّة التي يُجعل فيها الماء »^(٧٠) . والمعنى الأول عرني أصيل ، أما الثاني ، فهو فيها مستعار من الفارسية ، لكلمة مماثلة تماما للفظ العرني^(٧١) .

وفي العربية كذلك : « السُّور : حائط المدينة ، والسُّور : الضيافة »^(٧٢) . والمعنى الأول عرني ، أما الثاني فهو لكلمة فارسية ، شرفها النبي ﷺ (كما قال صاحب القاموس) حين نطق بها ، في قوله عليه الصلاة والسلام : « يا أهل الخندق ، قوموا فقد صنع جابر سُوراً » . قال أبو العباس ثعلب : إنما يراد من هذا ، أن النبي ﷺ تكلم بالفارسية .

(٦٨) لسان العرب (سكر) ٤٠/٦

(٦٩) شفاء الغليل ٨

(٧٠) انظر : القاموس المحيط (حب) ٥١/١ وشفاء الغليل ٦٨

(٧١) انظر : المعرب للجواليقي ١٢٠

(٧٢) القاموس المحيط (سور) ٥٣/٢

صنع سورا ، أى طعاماً دعا إليه الناس^(٧٣) .

٤ - التطور اللغوى : فقد تكون هناك كلمتان ، كانتا فى الأصل مختلفتى الصورة والمعنى ، ثم حدث تطور فى بعض أصوات إحداها ، فاتفقت لذلك مع الأخرى فى أصواتها . وهكذا أصبحت الصورة التى اتحدت أخيرا ، مختلفة المعنى ، أى صارت لفظة واحدة ، مشتركة بين معنيين أو أكثر .

مثال ذلك ما روى لنا ، من أن « مَرَدَ : أقدم وعتا ، وَمَرَدَ الخبز : لَيَّنَهُ بالماء^(٧٤) » . وأصل الكلمة بالمعنى الثانى هو : « مَرَثَ » ؛ ففى المعاجم : « مرث الشيء فى الماء : أنقعه فيه حتى صار مثل الحساء » ؛ فقد أبدل صوت التاء هنا تاء ، فصارت الكلمة : « مَرَثَ » ، وهذه رويت لنا كذلك^(٧٥) ، ثم جهرت التاء لمجاورتها للراء ، فصارت : « مَرَدَ » ، وبذلك ماثلت كلمة : « مَرَدَ » بمعنى : أقدم وعتا .

ومثال ذلك أيضا ما فى المعاجم ، من قولها : « الْفَرَوَة : جلدة الرأس والغنى^(٧٦) » . وأصل الكلمة بالمعنى الثانى ، هو : « الثروة » ، أبدلت التاء فاء ، على طريقة العربية ، فى مثل : « جدث » و « جدف » و « حثالة » و « حفالة » وما أشبه ذلك .

ومثال ذلك أيضا ، من أن : دَعَمَ الشيء : قَوَّاه ، ودَعَمَهُ : دفعه وطعنه ورماه بشيء^(٧٧) . وأصل الكلمة بالمعنى الثانى ، هو : « دَحَمَ^(٧٨) » بالحاء ؛ فقد تطورت هذه الحاء ، وجهرت ؛ بسبب مجاورتها للدال المجهورة ، فقلبت إلى نظيرها المجهور ، وهو العين ؛ فصارت : « دعم » ،

(٧٣) العرب للجوالبقى ١٩٢

(٧٤) القاموس المحيط (مرد) ٣٣٧/١ واللسان (مرد) ٤٠٧/٤

(٧٥) انظر : الإبدال لأبى الطيب ١٥٩/١

(٧٦) القاموس المحيط (فروة) ٣٧٣/٤ والمأثور عن أبى العميث ٧ - ٨

(٧٧) انظر : القاموس المحيط (دعم) ١١٢/٤ واللسان (دعم) ٩٢/١٥

(٧٨) انظر : الإبدال ، لأبى الطيب ٢٩٤/١

والتبست لذلك بكلمة : « دَعَمَ » ، بمعنى : قَوَّى ، فنشأ الاشتراك اللفظي في هذه الكلمة .

ومن الأمثلة كذلك ، ما روته المعاجم ، من أن « حَنَكَ الغراب » هو باطن أعلى الفم من داخل ، و« حَنَكَ الغراب » هو شدة سواده^(٧٩) ، فإنه مما لا شك فيه ، أن « الحنك » بالمعنى الثاني ، متطورة عن : « الحَلَك » بمعنى : شدة السواد ؛ قلبت فيها اللام نونا ، كما أبدلت في مثل : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائيلين ، وجبريل وجبرين ، وغير ذلك^(٨٠) .

ويحدثنا « أولمان » عن أثر التطور اللغوي ، في نشوء بعض المشترك اللفظي ، في الإنجليزية ، فيقول : « والمشارك اللفظي ينشأ من اتفاق كلمتين مستقلتين ، أو أكثر في الصيغة ، اتفاقاً بطريق الصدفة . وعلى هذا ليس هناك أقل من أربع كلمات تمثلها الصيغة : sound في اللغة الإنجليزية ، فهذه الكلمات الأربع ، بعد أن اشتقت من أصول مختلفة ، أخذت تتقارب بعضها من بعض في الصيغة ، حتى اتحدت وتماثلت ؛ فالكلمة : sound بمعنى : healthy (صحيح البدن) ، كلمة جرمانية قديمة ، وهناك ما يقابلها بالفعل في تلك اللغة ، وهي الكلمة : Gesund التي لا تزال تؤدي المعنى نفسه . أما sound بمعنى : (صوت) ، فإنها ترجع إلى الكلمة الفرنسية : son وما العنصر : (d) إلا تطور متأخر الحدوث . و sound بمعنى : (سَبَر الغُور) امتداد للفعل الفرنسي : sonder . وربما تكون هناك علاقة تاريخية ، بين هذه الكلمة الفرنسية ، والكلمة : sound الرابعة ، التي تعني : (مضيق الماء) ، والتي توجد في لغات جرمانية متعددة^(٨١) . »

(٧٩) انظر : القاموس المحيط (حنك) ٣/٣٠٠ والمنجد ، لكراع التمل ٤٠

(٨٠) انظر : الإبدال ، لأبي الطيب ٢/٤٠٢

(٨١) دور الكلمة في اللغة ١٢٧

هذه هي بعض الأمثلة ، التي تدلل على ما يذهب إليه المحدثون ، من أن الاشتراك اللفظي في اللغة ، قد ينشأ من تطور صوتي في بعض الكلمات .

والمشترك اللفظي ، لا وجود له في واقع الأمر ، إلا في معجم لغة من اللغات ، أما في نصوص هذه اللغة واستعمالاتها ، فلا وجود إلا لمعنى واحد ، من معاني هذا المشترك اللفظي . وفي ذلك يقول أولمان : « كثير من كلماتنا له أكثر من معنى ، غير أن المؤلف هو استعمال معنى واحد فقط ، من هذه المعاني في السياق المعين ؛ فالفعل : (أدرك) مثلا ، إذا انتزع من مكانه في النظم ، يصبح غامضا غير محدد المعنى ، هل معناه : (لحق به) أو (عاصره) ، أو أنه يعنى : (رأى) أو (بلغ الحُلم) ؟ إنه التركيب الحقيقي المنطوق بالفعل ، هو وحده الذي يمكنه أن يجيب عن هذا السؤال ؛ فإذا تصادف أن اتفقت كلمتان أو أكثر ، في أصواتها اتفاقا تاما ، فإن مثل هذه الكلمات ، لا يكون لها معنى البتة ، دون السياق الذي تقع فيه^(٨٢) » .

وإلى مثل هذا أيضا ، يذهب فندريس ؛ فيقول : « إننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات ، أكثر من معنى واحد (homonymie) في وقت واحد ، نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما ؛ إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة ، التي تدل عليها إحدى الكلمات ، إلا المعنى الذي يعنيه سياق النص ، أما المعاني الأخرى ، فتمحى وتبدد ولا توجد إطلاقا ؛ فنحن في الحقيقة نستعمل ثلاثة أفعال مختلفة ، عندما نقول : (الخياط يقصّ الثوب) أو (الخبر الذي يقصّه الغلام صحيح) أو (البدوى خير من يقصّ الأثر) ، فإننا نستعمل في الواقع ثلاث كلمات ، لا يربطها بعضها ببعض أى رباط ، لا في ذهن المتكلم ، ولا في ذهن السامع .

« وربما رأى الشخص ، الذى يشمل اللغة بأسرها ، فى تطورها واتساعها ، بنظرة واحدة ، أن (الريشة) التى من حديد ، جاءت من ريشة الأوزة ، فهى عنده كلمة واحدة ، أخذت دلالتين مختلفتين على مرور الزمن ؛ لذلك يجدر بقاموس يفخر بتتبعه لخط سير المعانى ، أن يضع تحت كلمة : ريشة ، معنى الريشة التى من (حديد) بعد معنى ريشة (الأوزة) . ولكن الفرنسى الذى يتكلم لغته اليوم ، لا يرى فى هذين الاستعماليين فى الواقع ، إلا كلمتين مختلفتين ، ولا يوجد شخص واحد ، يحاول أن يشكو من الغموض ، عند سماعه جملتين من قبيل : (يعيش من كد ريشته) و (اجتث له ريشة) ، وكل واحد يفهم دون تردد ، أن الكلام فى الجملة الأولى ، عن أحد الكتاب ، وفى الثانية عن أحد الطيور ، فالكلمتان مختلفتان كجميع المشتركات الأخرى . وفى اللغة كلمتان من : (ريشة) تقابلان المعنيين السابقين^(٨٣) . »

* * *

وقد أدت كثرة المشترك اللفظى فى العربية ، إلى ذبوع ظاهرة « التورية » فيها ، وهى عبارة عن استخدام الألفاظ المشتركة ، فى معان غير متبادرة منها . وكذلك استخدمه بعض الناس ، حيلة للخروج من اليمين المكره عليها ؛ فقد ظن هؤلاء إذا أقسموا يمينا على شئ ، أنهم يرضون ضمائرهم بالقصد إلى معنى ، غير ما يفهمه السامع ، فإذا قال إنسان : والله ما سألت فلانا حاجة قط ، فإنه يقصد فى نفسه من لفظ : « حاجة » ، معنى آخر غير الشائع لهذه اللفظة . و « الحاجة » ضرب من الشجر له شوك ، وهذا هو المعنى الغامض ، الذى يقصد إليه الحالف هنا . وقد ألف ابن دريد كتابه : « الملاحن » لهذا الغرض ، وجمع فيه نحواً من أربعمئة كلمة ، من كلمات الحيل فى القسم ، من المشترك اللفظى فى العربية^(٨٤) .

(٨٣) اللغة لفندريس ٢٢٨

(٨٤) انظر : لحن العامة والتطور اللغوى ٧٨

كما أفاد من ظاهرة المشترك اللفظي كذلك ، بعض علماء اللغة ،
الذين ألفوا في المشجر والمُدَاخِل والمُسَلْسَل ، كما عرفنا من قبل .

ثالثا : التضاد

التضاد : « نوع من العلاقة بين المعاني ، بل ربما كانت أقرب
إلى الذهن ، من أية علاقة أخرى ، فمجرد ذكر معنى من المعاني ، يدعو
ضد هذا المعنى إلى الذهن ، ولا سيما بين الألوان ؛ فذكر البياض
يستحضر في الذهن السواد ، فعلاقة الضدية من أوضح الأشياء في تداعى
المعاني ، فإذا جاز أن تعبر الكلمة الواحدة ، عن معنيين بينهما علاقة ما ،
فمن باب أولى جواز تعبيرها عن معنيين متضادين ؛ لأن استحضار أحدهما
في الذهن ، يستتبع عادة استحضار الآخر ؛ فالتضاد فرع من المشترك
اللفظي ^(٨٥) » .

ويقول أبو الطيب اللغوى في تعريف الأضداد : « الأضداد جمع
ضد ، وضد كل شيء ما نفاه ، نحو : البياض والسواد ، والسخاء
والبخل ، والشجاعة والجبن . وليس كل ما خالف الشيء ضداً له ؛ ألا ترى
أن القوة والجهل مختلفان ، وليسا ضدين ، وإنما ضد القوة الضعف ، وضد
الجهل العلم ، فالاختلاف أعم من التضاد ؛ إذ كان كل متضادين
مختلفين ؛ وليس كل مختلفين ضدين ^(٨٦) » .

ومن أنكر الأضداد ، وألف في ذلك كتابا هو : « ابن درستويه » ،
الذى عرفناه من قبل ، منكرًا للترادف والاشتراك اللفظي ؛ فقد قال
ابن درستويه في شرح الفصيح : « النوء الارتفاع بمشقة وثقل ، ومنه قيل
للكوكب : قد ناء إذا طلع ، وزعم قوم من اللغويين أن النوء السقوط أيضا ،

(٨٥) في اللهجات العربية ٢٠٧

(٨٦) الأضداد لأبي الطيب ١/١

وأنه من الأضداد ، وقد أوضحنا الحجة عليهم في ذلك ، في كتابنا في إبطال الأضداد^(٨٧) .

كما روى ابن سيده الأندلسي ، أن أحد شيوخ أبي علي الفارسي ، كان كذلك « ينكر الأضداد التي حكاها أهل اللغة ، وأن تكون لفظة واحدة لشيء وضده^(٨٨) » .

كما يقول الجواليقي : « المحققون من علماء العربية ، ينكرون الأضداد ، ويدفعونها . قال أبو العباس أحمد بن يحيى (ثعلب) : ليس في الكلام ضد . قال : لأنه لو كان فيه ضد ، لكان الكلام محالاً ؛ لأنه لا يكون الأبيض أسود ، ولا الأسود أبيض . وكلام العرب وإن اختلف اللفظ ، فالمعنى يرجع إلى أصل واحد ، فالصارخ المستغيث والصارخ المغيث ؛ لأنه صارخ منهما ... والقرء الوقت ، فاحتمل أن يكون للحيض والطهر^(٨٩) » .

ويرى ابن دريد أن الأضداد ، لا تكون كذلك إلا في لغة واحدة ؛ إذ يقول : الشعب : الافتراق ، والشعب : الاجتماع ، وليس من الأضداد ، إنما هي لغة لقوم^(٩٠) » . وقد أفاد بهذا « أن شرط الأضداد ، أن يكون استعمال اللفظ في المعنيين ، في لغة واحدة^(٩١) »

ويذهب أنصار هذا الرأي الأخير ، إلى أن التضاد في المعاني ، ينشأ أولاً في لهجات مختلفة ، ثم تستعير كل لهجة المعنى المستعمل عند الأخرى ، وبذلك يجتمع المعنيان المتضادان في هذه اللهجة ، عن طريق تلك الاستعارة ، ويقولون : « إذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال

(٨٧) المزهر في علوم اللغة ٣٩٦/١

(٨٨) المخصص ٢٥٩/١٣

(٨٩) شرح أدب الكاتب ٢٥١

(٩٠) جمهرة اللغة ٢٩١/١ وسمط اللآلي ١٨٩/١

(٩١) المزهر في علوم اللغة ٣٩٦/١

أن يكون العربى ، أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما ، ولكن أحد المعنيين لحى من العرب ، والمعنى الآخر لحى غيره ، ثم سمع بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء ، وهؤلاء عن هؤلاء ؛ قالوا : فالجون الأبيض ، فى لغة حى من العرب ، والجون الأسود فى لغة حى آخر ، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر^(٩٢) .

ومن الطبيعى أن الكلمة من كلمات الأضداد ، لم توضع للمعنيين المتضادين فى أول الأمر ، وإنما وضعت لأحدهما ، ثم جدت عوامل مختلفة ، أدت إلى نشأة المعنى الثانى المضاد للمعنى الأول . وقد فطن إلى ذلك بعض علماء اللغة ؛ فقالوا : « إذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع^(٩٣) » .

وقد وقف القالى ، على المعانى الأصلية لبعض الكلمات ، فأنكر لذلك كونها من الأضداد ، وقال : « الصريم : الصبح ؛ سمي بذلك لأنه انصرم عن الليل . والصريم : الليل ؛ لأنه انصرم عن النهار ، وليس هو عندنا ضيلاً^(٩٤) » ، وقال كذلك : « النطفة : الماء ، تقع على القليل منه والكثير ، وليس بضد^(٩٥) » .

ولم تسلم العربية من هجوم الشعوبيين عليها ، بسبب ما فيها من الأضداد^(٩٦) ؛ إذ ظن « أهل البدع والزيف والإزراء بالعرب ، أن ذلك

(٩٢) الأضداد لابن الأنبارى ١١

(٩٣) الأضداد لابن الأنبارى ٨

(٩٤) أمالى القالى ٣٢٢/٢ وانظر : المزهر ٣٩٧/١

(٩٥) أمالى القالى ٢٧٠/٢ وانظر : المزهر ٣٩٧/١

(٩٦) لا وجود لهذه الظاهرة ، فيما أعلم ، فى غير اللغة العربية من اللغات الأخرى ؛ ولهذا نرى الشعوبيين ، يعيرون العربية بما فيها من كلمات الأضداد ؛ لانفرادها بهذه الظاهرة ، وهم لم يتحدثوا عما فيها من ترادف واشتراك لفظى ، بخير أو شر ؛ لأن لغاتهم الفارسية وغيرها ، لا تخلو من أمثلة لهاتين الظاهرتين . وقد حاول الدكتور رنجى كمال ، العثور على بعض أمثلة للتضاد فى العبرية والسريانية ، وتكلف لذلك غاية التكلف ، فى كتابه : « التضاد فى ضوء اللغات السامية » ؛ فليس فى أمثله مثال واحد ، يشهد للنقد . وقد أحس هو بذلك ؛ فقال (ص ٤١) : « وهذه الألفاظ يمكن تأويلها على وجه ، يخرجها من باب الأضداد » !

كان منهم ، لنقصان حكمتهم وقلة بلاغتهم ، وكثرة الالتباس في محاوراتهم ، وعند اتصال مخاطباتهم^(٩٧) . »

غير أن هذا « رأى باطل ، لا يرجع إلى حقيقة أو صواب ، بل يرجع إلى حقد وضغينة على العرب ، في نفوس هؤلاء الشعوبيين من غير العرب ؛ لأن مردّ الأمر في مسألة الأضداد في اللغة ، إلى سياق الكلام ، وتعلق أوله بآخره ، وإلى قرائن الحال ، التي يكون فيها الناس أثناء التخاطب^(٩٨) . »

وما درى هؤلاء أن « كلام العرب يصحح بعضه بعضا ، ويرتبط أوله بآخزه ، ولا يعرف معنى الخطاب منه ، إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه ، فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين ؛ لأنها يتقدمها ، ويأتى بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ، ولا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد^(٩٩) »

غير أننا لا نود أن ننساق وراء المؤلفين في الأضداد ، من اللغويين العرب ، فنعدّ كل ما أتوا به من كلمات هذه الظاهرة صحيحا ، فإننا مثلا لا نرى شيئا من التضاد في استعمال كلمة : « الضّعْف » بمعنى : المِثْل أو المثلين (ابن الأنباري ١٣١) ، أو استعمال كلمة : « المِثْل » بمعنى : المماثل أو الضّعْف (ابن الأنباري ١٣٢) ، أو استعمال : « الكأس » بمعنى : الإناء أو الشراب الذي يوضع فيه (ابن الأنباري ١٦٢) ، أو استعمال : « الأحفاض » بمعنى : الأمتعة أو الإبل التي تحمل هذه الأمتعة^(١٠٠) (ابن الأنباري ١٦٢) ، أو استعمال : « الطعينة » بمعنى :

(٩٧) الأضداد لابن الأنباري ١ وانظر : المزهري ٣٩٧/١

(٩٨) مقدمة الدكتور عزة حسن لتحقيق أضداد أبي الطيب اللغوي ٢٠

(٩٩) الأضداد ، لابن الأنباري ٧ وانظر : المزهري ٣٩٧/١

(١٠٠) وضعها أبو الطيب اللغوي في الأضداد ٧١١/٢ ؛ ٧١٤/٢ في باب بعنوان : « ما جاء

مسمى باسم غيره لما كان من سببه ، فأدخله من كان قبلنا في الأضداد » .

الهودج أو المرأة في الهودج (ابن الأنباري ١٦٤) ، أو استعمال : « الراوية »
 بمعنى : المزادة أو البعير الذي يحملها (ابن الأنباري ١٦٤) ،
 أو استعمال : « المعصر » للجارية التي دنت من الحيض عند قيس ،
 أو التي ولدت أو تعنست عند الأزدي (ابن الأنباري ٢١٦) ، أو استعمال :
 « طبخ » للطبخ في القدر أو الشوى في الثَّنُور (ابن الأنباري ٢٨٩
 وأبو الطيب ٤٦٢/١) . ومثل ذلك كثير في كتب الأضداد ، وبعضه
 في الحقيقة من باب : المشترك اللفظي ، لا من باب الأضداد .

كما أننا نشترط اتحاد الكلمة ومتعلقاتها في المعنيين ؛ لأن أى تغيير
 فيها ، أو في متعلقاتها ، يخرجها عن كونها بذاتها تحتمل المعنيين المتضادين ،
 فلا نعدّ لذلك : « ظاهر عنك » بمعنى : زائل ، و « ظاهر عليك »
 بمعنى : لازم (ابن الأنباري ٥٦) من كلمات الأضداد ، كما أنه ليس
 من الأضداد كذلك : « راغ على » بمعنى : أقبل ، و « راغ عن » بمعنى :
 ولّى (قطرب ٢١٨ وابن الأنباري ١٥٣ وأبو الطيب ٣٢٨/١) ، وليس
 منها : « تَرَبَّ الرجل » بمعنى : افتقر ، و « أترب » بمعنى : استغنى
 (قطرب ٢٦٧) . وقد أحسن ابن الأنباري (٣٨٠) إذ قال : « وهذا
 عندي ليس من الأضداد ؛ لأن تَرَبَّ يخالف أترب ، فلا يكون ترب
 من الأضداد ؛ لأنه لا يقع إلا على معنى واحد » . ومثال ذلك أيضا دعوى
 « قطرب » أن « ثلثت » بمعنى : أفسدت وهدمت ، و « أثلثت » بمعنى :
 أصلحت ، من الأضداد (قطرب ٢٦٨) ؛ فقد قال فيه ابن الأنباري
 (٣٨٧) : « ليس عندي كما قال قطرب ؛ إذ كان ثلثت يخالف أثلثت ،
 فلا يجوز أن يعدّ في الأضداد حرف ، لا يقع إلا على معنى واحد » .

ومن دعاوى قطرب (٢٥٥) كذلك : « خَدِمَت » النعل :
 انقطعت عُروتها ، وشسعها ، و « أَخَدِمْتُ » النعل : أصلحت عُروتها
 وشسعها .

وقد صرح أبو الطيب اللغوي مرة بأن « شرط الأضداد أن تكون

الكلمة بعينها ، تستعمل في معنيين متضادين ، من غير تغيير يدخل عليها « (أبو الطيب ٤٥٥/١) وقال مرة أخرى (٥٧٨/٢) : « ليس هذا عندي من الأضداد ؛ لأن شرط الأضداد على ما أصّلنا أوّلا ، أن تكون الكلمة الواحدة ، تنبىء عن معنيين متضادين ، من غير تغيير يدخل عليها ، ولا اختلاف في تصرفها » .

كما أننا لا نعد من كلمات الأضداد ، ما ترك اللغويون العرب الاستشهاد على أحد معنييه ؛ لأنه لم يثبت في كلام العرب أنه استعمل بهذا المعنى ؛ مثل قولهم : إن « قَسَطَ » تعنى : عَدَلَ أو جَار (قطرب ٢٥٩ وابن الأنباري ٥٨ وأبو الطيب ٥٩٤/٢) ، فالمعنى الأول لا دليل عليه ، أما الثاني فقد ورد في قوله تعالى : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » .

كذلك نستبعد من كلمات الأضداد ، تلك التي صحّفها اللغويون أو حرّفوها ؛ ففي الأضداد لابن الأنباري (٦٣) : « وقال بعض العرب : بَرَّدْتُ من الأضداد ، يقال : بَرَّدَ الشيء على المعنى المعروف ، ويقال : بَرَّدَ الشيء إذا أسخنه ، واحتجوا بقول الشاعر :

عَافَتِ الشُّرْبُ فِي الشُّتَاءِ فَقُلْنَا
بَرِّدِيهِ تُصَادِفِيهِ سَخِينَا »

ولا شك أن هذا تحريف لعبارة : « بل رديه » ؛ فقد قال ابن الأنباري تعليقا على ذلك : « قال أبو بكر : وحكى لي بعض أصحابنا عن أبي العباس ، أنه كان يقول في تفسير هذا البيت : بل رديه من الورود ، فأدغم اللام في الراء ، فصارتا راء مشددة » (ابن الأنباري ٦٤) .

وقال أبو الطيب (٨٦/١) في التعليق على البيت : « قال قطرب : معنى بَرِّدِيهِ في هذا البيت : سخنيه^(١٠١) . وقال أبو حاتم : هذا خطأ ، إنما

(١٠١) الأضداد لقطرب ٢٥٨

هو : بل رديه ، من الورود ، ولكنه أدغم اللام في الراء ، كما يقرأ : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ . قال أبو الطيب : وهذا الصحيح ، وبه يستقيم معنى البيت .

ومن التصحيف قول أبي الطيب اللغوى (٣٨٣/١) : « يقال : أَشْدَفَ الليل ، إذا أظلم ، وَأَشْدَفَ الصُّبْحُ ، إذا أضاء^(١٠٢) » ، فإنه مما لا شك فيه أن هذا تصحيف لكلمة : « أَشْدَفَ » و« السُّدْفَةُ » بمعنى : الظلمة والضوء (انظر : ابن الأنبارى ١١٤ وأبو الطيب ٣٤٦/١) .

ويبقى بعد هذا مجموعة صالحة من كلمات الأضداد في العربية ، ولا شك في أن الأصل فيها كلها ، دلالتها على معنى واحد ، غير أن هناك عوامل كثيرة ، أدت إلى التضاد فيها .

وفيما يلي عرض لهذه العوامل ، وتطبيقها على بعض كلمات الأضداد ، مع ملاحظة أن التطور في المعنى الأصلي للكلمة ، أو في صورتها على نحو يؤدي إلى التضاد فيها ، قد يحدث في لهجة من اللهجات العربية ، ويروى لنا ذلك على أنه من خصائص تلك اللهجة^(١٠٣) ، وقد تستعيره اللغة المشتركة ، ويعيش فيها جنبا إلى جنب مع المعنى الأصلي ، وحينئذ لا يروى لنا اللغويون شيئا عن اللهجة ، التي تم فيها مثل هذا التطور ، بل قد يحدث أن تعرب كلمة من الكلمات الأعجمية ، فيخصص معناها عند قبيلة معينة ، ويسير هذا التخصيص في اتجاه مضاد عند قبيلة أخرى ، وأخيراً فمن يدرى لعل بعض الأمثلة قد تمّ فيها التطور ، في داخل العربية الفصحى نفسها ، بتأثير أحد العوامل التالية :

١ - عموم المعنى الأصلي : قد يكون المعنى الأصلي للكلمة عاما ، ثم يتخصص هذا المعنى في لهجة من اللهجات ، كما يتخصص

(١٠٢) وانظر كذلك : مجالس ثعلب ٢١٤/١ ؛ ٣٥٢/٢

(١٠٣) انظر لبعض كلمات الأضداد في اللهجات العربية القديمة كتاب : « الأضداد في اللغة » لمحمد

حسين آل ياسين ١٢٤ - ١٢٦

في اتجاه مضاد في لهجة أخرى . ويمكن تطبيق هذا العامل على الكلمات التالية :

(أ) كلمة : « الذفر » تذكرها كتب الأضداد ، بمعنى : الريح الطيبة ، والريح المنتنة (أبو الطيب ٢٧٧/١) . ويقول قطرب (٢٦٢) : « الذَّفَرُ : المِسْك ... ويقال لثَنِّ الإِبْطِ : الذَّفَرُ ، فكأنه ضد » . ويبدو أن المعنى الأصلي للكلمة هو : « الريح » وهو أعم من الريح الطيب والخبيث . وقد فطن إلى هذا ابن الأنباري (٨٨) فقال : « الذفر : حِدَّة الريح في الطيب والنتن جميعا » .

(ب) كلمة : « الطرب » معناها في كتب الأضداد : الفرح والحزن (ابن الأنباري ١٠٢) . والأصل في هذا المعنى : « خفة تصيب الرجل ، لشدة السرور ، أو لشدة الجزع^(١٠٤) » . وقد قال ابن الأنباري : « الطرب ليس هو الفرح ولا الحزن ، وإنما هو خفة تلحق الإنسان ، في وقت فرحه وحزنه » (ابن الأنباري ١٠٣) .

(ج) المأتم : عدّها أبو حاتم وقطرب من الأضداد ؛ لأنها تدل عندهما على النساء المجتمعات في فرح وسرور ، كما تدل على النساء المجتمعات في غم وحزن ومناحة (قطرب ٢٧٠ وابن الأنباري ١٠٣ وأبو الطيب ١٨/١) . والأصل في ذلك عموم المعنى ، فالمأتم النساء يجتمعن في الخير والشر (انظر : أدب الكاتب ٢٤ والأضداد لابن الأنباري ١٠٤ والأضداد لأبي الطيب ٢١/١) .

(د) القَلْتُ : هذه الكلمة تعنى في لغة قيس وتميم وأسد : النقرة الصغيرة في السهل أو الجبل ، وفي الصخرة ونحوها . أما أهل الحجاز ، فيطلقون هذه الكلمة ، على مستنقع ماء في السهل أو في الجبل ، واسع يمكن أن يغرق فيه الفيل (ابن الأنباري ٤٢٠ وأبو الطيب ٥٨٧/٢) . ولا

شك في أن المعنى الأصلي لهذه الكلمة هو : حفرة الماء ، كبيرة كانت أم صغيرة .

(هـ) السُدفة : يذكر اللغويون أن تميما تطلق هذه الكلمة على الظلمة ، ولكن قيسا تطلقها على الضوء (ابن الأنباري ١١٤ وأبو الطيب ٣٤٦/١) . ومعنى هذه الكلمة في الأصل عام « لأن أصل السُدفة : السَّتر ، فكأن النهار إذا أقبل ، ستر ضوءه ظلمة الليل ، وكأن الليل إذا أقبل ، سترت ظلمته ضوء النهار » (ابن الأنباري ٩ والمزهر ٣٨٩/١ ؛ ٤٠١/١) .

(و) الصَّرِيم : تطلق هذه الكلمة على الليل ، كما تطلق على النهار (قطرب ٢٦٦ وابن الأنباري ٨٤ وأبو الطيب ٤٢٦/١) . ويقول أبو حاتم : « الصريم : الليل إذا انصرم من النهار . والصريم : النهار إذا انصرم من الليل (أبو الطيب ٤٢٦/١) . وإذا كان الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من الليل « فأصل المعنيين من باب واحد ، وهو القطع » (انظر أضداد ابن الأنباري ٨ والمزهر ٤٠١/١) .

(ز) الصارخ : معناه في اللغة : المغيث والمستغيث (قطرب ٢٧٣ وابن الأنباري ٨٠ وأبو الطيب ٤٢٩/١) . والمعنى العام في كل من المعنيين هو الصراخ ؛ « لأن المغيث يصرخ بالإغاثة ، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة ، فأصلهما من باب واحد » (ابن الأنباري ٨ والمزهر ٤٠١/١) .

(ح) الجَوْن : معناه الأسود في لغة قبضاعة ، والأبيض في لغة غيرهم (قطرب ٢٥٦ وابن الأنباري ١١١ وأبو الطيب ١٥١/١) . وهذه الكلمة معربة عن الفارسية ، وهي فيها بمعنى : « اللون » . وقد عربت هذه الكلمة بمعناها الأصلي في كلمة : « زرجون » بمعنى : الخمر ، « وقال السيرافي : زرجون فارسي معرب ، شبه لونها بلون الذهب ؛ لأن (زَرَّ) بالفارسية :

الذهب ، و (جون) : اللون ، وهم مما يعكسون المضاف والمضاف إليه ،
عن وضع العرب^(١٠٥) .

وقد ذهب الدكتور على عبد الواحد وافي ، في هذه الكلمة إلى مثل
ما ذهبنا إليه ، من أنها معربة من الفارسية ، ثم نقل عن الأب مرمجى
الدومنيكى أن « هذه الكلمة من السريانية : ܡܠܐܝܬܐ gawnā ومعناها :
(اللون) من باب الإطلاق ، فنقلت إلى العربية بطريق التقييد ، فجاءت
عند قبيل بدلالة اللون الأبيض ، وعند فريق بفحوى اللون الأسود^(١٠٦) » .

(ط) الجَبَر : معناه في العربية : الملك والعبد . وهو في الأصل
معرب عن الآرامية : ܡܠܟܐ gabrā بمعنى : « رَجُل » ، وهم أعم
من الملك والعبد !

٣ - التَفَاؤُل : التفاؤل والتشاؤم من غرائز الإنسان ، التي تسيطر
على عاداته في التعبير إلى حد كبير ، فإذا شاء المرء التعبير عن معنى سيئ ،
تشاءم من ذكر الكلمة الخاصة به ، وفر منها إلى غيرها ، فجميع الكلمات
التي تعبّر عن الموت والأمراض والمصائب والكوارث ، يفر منها الإنسان ،
ويكنى عنها بكلمات حسنة المعنى ، قريبة إلى الخير^(١٠٧) .

وهذه الظاهرة هي ما يطلق عليه اسم : « اللّامساس » أو :
« الحَظَر » وهو ترجمة لكلمة : taboo ، وتطلق على كل ما هو مقدّس ،
أو ملعون يحرم لمسه ، أو الاقتراب منه ، من الأشياء وأسمائها ؛ بسبب
الاعتقاد الخرافي في سحر الكلمة « فإذا اصطدمت كلمة ما بحظر
الاستعمال ، تحت تأثير عامل اللامساس ، حلّت محلها كلمة أخرى ،
خالية من فكرة الضرر والأذى . وهذه العادة ليست مقصورة بحال

(١٠٥) لسان العرب (زرجن) ٥٧/١٧ وانظر : دراسات في فقه اللغة العربية ، للدكتور السيد

يعقوب بكر ١٤٦ - ١٤٧

(١٠٦) انظر : فقه اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافي ١٩٠

(١٠٧) في اللهجات العربية ٢٠٨

من الأحوال على المجتمعات البدائية ؛ فهي معروفة في كل البيئات ، وفي كل أنواع الحضارات بمستوياتها المختلفة . وتحريم استعمال الكلمات بتأثير فكرة اللامساس ، نتيجة طبيعية للخرافات اللغوية ، وأثر من آثار الاعتقاد في سحر الكلمة^(١٠٨) .

ونحن نعرف في الديانة اليهودية ، أن كلمة : כֹּהֵן « يهوه » في العبرية ، بمعنى : « الإله » ، ينطقها اليهود : « أدوناي » بمعنى : « سادتي » ؛ بسبب الخوف الذي يسيطر عليهم ، لارتباط الاسم القديم بالكوارث واللعنات ، التي حلت عليهم خلال تاريخهم الطويل^(١٠٩) .

« وهناك عادات مماثلة ، نلاحظها في المأثورات الشعبية ، لكثير من الأجناس والأمم ؛ ففي بلاد المجر في العصور الوسطى ، كان الأطفال يسمون أحيانا بأسماء وقائية ، كأن يُدعى الواحد منهم « بالموت الصغير » أو « ليس حيا » أو « القذارة » و « الوسخ » ؛ وذلك لصرف الأرواح الشريرة عن هذه المخلوقات ... وعندنا نحن من العادات الخرافية والخزعبلات ، ما يعكس هذه الرهبة العميقة الجذور : رهبة تأثير الكلمة وسحرها العجيب^(١١٠) .

وهذا هو السر في أننا نقول مثلا : « فلان بعافية » للشخص المريض ؛ تجنبنا لذكر كلمة : المرض ، كما نسمى « الحمى » : « المبروكة » ، ونقول : « يانهار اسوخ » أو : « يا نهار اخوس » ، فراراً من ذكر كلمة : « أسود » وغير ذلك .

وعلى هذا النحو ، يمكننا تفسير كلمات الأضداد التالية ، في اللغة العربية :

(أ) المفازة : معناها في العربية : المنجاة والمهلكة . واشتقاق

(١٠٨) دور الكلمة في اللغة ١٧٧

(١٠٩) انظر : اللغة العبرية ، للدكتور رمضان عبد التواب ٧٥

(١١٠) دور الكلمة في اللغة ١٧٨

الكلمة من : « الفوز » يؤكد أصالة المعنى الأول ، أما إطلاقها على المعنى الثانى ، فهو على سبيل التفاؤل . وقد فطن إلى هذا علماؤنا الأقدمون ؛ فقال أبو حاتم السجستاني : « وإنما قيل للعطشان : ناهل ، على سبيل التفاؤل ، كما يقال : المفازة ، للمهلكة ، على التفاؤل ، ويقال للعطشان : ياريان ، وللملدوغ : سليم ، أى سيسلم ، وسيروى ، ونحو ذلك » (الأضداد لأبى حاتم ٩٩) .

كما قال ابن الأنبارى : « واختلف الناس فى اعتلال لها : لم سميت مفازة على معنى المهلكة ، وهى مأخوذة من الفوز ؟ قال الأصمعى وأبو عبيد وغيرهما : سميت مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز ، كما قيل للأسود : أبو البيضاء ، وقيل للعطشان : ريان » (ابن الأنبارى ١٠٥) .

(ب) السليم : يطلق فى العربية على الصحيح وعلى اللديغ . واشتقاقه من السلامة يؤكد أصالة المعنى الأول . أما إطلاقه على اللديغ ، فهو على التفاؤل بسلامته وبرئه من علته (ابن الأنبارى ١٠٥ وقطرب ٢٤٨ وأبو الطيب ٢٥١/١) وإن كان الدكتور إبراهيم أنيس ، يذهب إلى أن كلمة : « السليم » تطلق على الملدوغ ، على جهة التهكم^(١١١) !

كما يذهب ابن القطاع ، إلى إنكار التفاؤل ، فى هذا المثال والذى قبله ؛ فيقول وهو يتحدث عن بناء فَعِيل : « ويجىء بمعنى مفعول ، وللمؤنث بالهاء ، نحو : سليم للديغ ، من سَلَمَتْهُ الحية ، إذا لدغته . ولا ينظر إلى قول من قال : إنه على طريقة التفاؤل ، فقد غلط فى ذلك جماعة من العلماء ، كما غلطوا فى قولهم : إن المفازة سميت من الفوز ، على التفاؤل ، وإنما سميت من فاز الإنسان وفوّز ، إذا هلك ، فهى على هذا : مَفْعَلَةٌ من الهلاك ، لا غير^(١١٢) » .

(١١١) انظر : فى اللهجات العربية ٢٠٩

(١١٢) أبنية الأسماء والأفعال والمصادر ، لابن القطاع ٢٨٣

(ج) الناهل : تطلق على الرّيان وعلى العطشان . واشتقاق النهل من ورود الماء والشرب ، ومنه : « المنهل » بمعنى : المورد ، يؤكد أصالة المعنى الأول . أما العطشان ، فقليل له : ناهل ، على التفاؤل بالرى (قطرب ٢٥٣ وابن الأنبارى ١١٦ وأبو الطيب ٦٣٧/٢) .

(د) المُفْرَح : معناه فى العربية : المسرور والحزين المثقل بالدين (ابن الأنبارى ١٩٧) . واشتقاقه من الفرّح بمعنى : السرور ، يؤكد أصالة المعنى الأول . أما إطلاقه على المعنى الثانى ، فهو على التفاؤل بأن يفك الله دينه فيفرّح .

(هـ) الحافل : تطلق هذه الكلمة على الممتلىء وعلى الخالى ؛ يقال : « ناقة حافل إذا ذهب اللبن من ضرعها ، فلم يبق منه إلا اليسير ، وناقة حافل إذا امتلأ ضرعها باللبن » (قطرب ٢٧٦ وابن الأنبارى ٢٨٢ وأبو الطيب ٢٢٢/١) . وأصل « الحفل » فى اللغة : الجمع الكثير ؛ فدلالة « الحافل » على الضرع الممتلىء ، الذى تجمع فيه اللبن ، دلالة أصلية ، أما إطلاقها على الضرع الخالى ، فهو من باب التفاؤل .

(و) البصير : تطلق إلى يومنا هذا على المبصر وعلى الأعمى . وأصل دلالتها على المبصر ، لا تحتاج إلى دليل . أما إطلاقها على الأعمى ، فهو من باب التفاؤل له بصحة البصر (قطرب ٢٥٦ وابن الأنبارى ٣٦٧ وأبو الطيب ٦٣/١) .

(ز) المسجور : تطلق هذه الكلمة فى العربية ، على المملوء والفارغ (ابن الأنبارى ٥٤ وأبو الطيب ٣٦٠/١) . والظاهر أن إطلاقها على المملوء أصل ، وعلى الفارغ تفاؤل بامتلائه ، كما يقال فى الريف المصرى : « خد الملان » ، ويقصد : خذ الكوب الفارغ من الشراب ، بعد أن يشربه الضيف ؛ تفاؤلا بأن يظل صاحب البيت فى نعمة ، ممتلئة أكوابه من الخير دائما .

وقد روى أبو الطيب اللغوى عن الأصمعى قوله : وأما المسجور
 الفارغ ، فقد بلغنى ذلك ، ولا أستيقنه ، ولست أقول فى قوله تعالى :
 « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ » ، ولا فى قوله : « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُور » شيئا ؛
 لأنه قرآن فأتى به . وأما قول الجارية : إن حوضكم لمسجور ، ولم يكن فيه
 قطرة ، فيمكن أن يكون هذا الكلام على التفاؤل ، فأرادت الفأل ، كما يقال
 للعطشان : ريان ، وللدغ : سليم ، أى سيروى وسيسلم ، وإنه لمسجور
 غدا ، أى سيكون ذلك (أبو الطيب ٣٦٤/١ وانظر أضداد قطرب
 ٢٥٧) .

٣ - التهكم^(١١٣) : لا شك فى أن عامل التهكم والهزء والسخرية ،
 من العوامل التى تؤدى إلى قلب المعنى ، وتغيير الدلالة إلى ضدها فى كثير
 من الأحيان ؛ فأصل كلمة : « التعزير » فى العربية : التعظيم ؛ ومنه قوله
 تعالى : « لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ » (الفتح ٩/٤٨) ،
 غير أنها تستعمل فى معنى التأديب والتعنيف واللوم (ابن الأنبارى ١٤٧
 وأبو الطيب ٥٠٦/٢) تهكما واستهزاء بالمدنب .

كما أن إطلاق : « العاقل » على : « الجاهل » إطلاق فيه تهكم .
 وقد قال ابن الأنبارى (٢٥٨) : « ومما يشبه الأضداد أيضا قولهم للعاقل :
 يا عاقل ، وللجاهل إذا استهزءوا به : يا عاقل ! » .

ومن المعروف أن « التقريظ » هو مدح الحى ، على العكس
 من « التأبين » الذى هو مدح الميت ، لكن قد ورد استعمال كلمة :
 « التقريظ » بمعنى الذم (أضداد قطرب ٢٦٧ وأضداد ابن الأنبارى ٣٩٢)
 من باب التهكم والسخرية بالمدموم !

واستعمال « القشيب » بمعنى الجديد ، فى قولهم : « ثوب
 قشيب » استعمال شائع . وقد حكى قطرب استعماله بمعنى : « الثوب

(١١٣) انظر للتهكم فى الأضداد : البرهان للزركشى ٢٣١/٢ - ٢٣٢

الخلق^(١١٤) » . قال أبو حاتم : « ولا أعرف القشيب بمعنى الخلق . قال أبو الطيب : وقد حكاها عدة من علمائنا ، ولا أحسبه إلا صحيحاً » (أبو الطيب ٥٨٨/٢) . وإذا صح أن هذا المعنى ورد عن العرب ، كان على سبيل التهكم والسخرية من الثوب الخلق !

٤ - الخوف من الحسد : يشيع في القبائل البدائية ، الاعتقاد في السحر والإصابة بالعين ، وتلعب الكلمة دوراً مهماً في هذا الاعتقاد ، فيفر المرء في مثل هذه البيئة ، من وصف الأشياء بالحسن والجمال ، حتى لا تصيبها عين الحسود ، كما تسمع العامة عندنا يقولون ، عندما يشاهدون مولوداً جميلاً الطلعة : « إيه الوحاشة دي ؟ » .

ويقول ابن الأعرابي : « كانت امرأة لا يبقى لها ولد ، إلا أفقدها ، فقيل لها : نفرى عنه ، فسمته قنفذا ، وكنته أبا العداء ، فعاش^(١١٥) » .

ويمكن عن هذا الطريق ، تفسير بعض كلمات الأضداد في العربية ، فمثلاً كلمة : « شَوْهَاء » يوصف بها الفرس القبيح والجميل ؛ فيقال : مهرة شوهاء ، إذا كانت قبيحة ، ومهرة شوهاء إذا كانت جميلة (ابن الأنباري ٢٨٤ وأبو الطيب ٤٠٨/١) . ولا شك أن مادة : « شوه » تعني : التشويه والقبح ، وإطلاق الكلمة على المهرة الجميلة ، إنما هو من باب درء العين ومعنى الحسد . وقد فطن إلى هذا أبو حاتم السجستاني ، فقال : « لا أظنهم قالوا للجميلة شوهاء ، إلا مخافة أن يصيبها عين » (انظر : الأضداد لأبي الطيب ٤٠٨/١) .

ومثل كلمة : « عَيْن » التي يقال للخلق ، كالقربة التي تهيات مواضع منها للثقب . ووجه الشبه هنا ظاهر بين القربة التي أخلقت والعيون ، فهذا هو المعنى الأصلي للكلمة . أما طيء فتطلق هذه الكلمة

(١١٤) انظر : الأضداد لقطرب ٢٥٣ وأضداد ابن الأنباري ٣٦٣

(١١٥) مجالس ثعلب ٤٦٦/٢

على « الجديد » من الأشياء ، دفعاً للحسد ودرءاً للإصابة بالعين (انظر : الأضداد لابن الأنباري ٢٩٣ والأضداد لأبي الطيب ٤٩٩/٢) .

وإذا كانت كلمة : « الخشب » بمعنى : السيف الذي لم يصقل ، ظاهرة الاشتقاق من الخشب ، فإن إطلاقها على السيف الصقل ، إنما كان فراراً من العين واتقاءً لشر الحسد (ابن الأنباري ٣٢٧ وأبو الطيب ٢٥٥/١) .

وهل إطلاق : « البلهاء » على المرأة الكاملة العقل ، إلا من هذا النوع ، إذا كان البله هو نقصان العقل ، وفساد الاختيار والتمييز ؟ (انظر : الأضداد لابن الأنباري ٣٣٣) .

ومنه كذلك : إطلاق « الأعور » على الحديد البصر ، وهو في الأصل لمن ذهب إحدى عينيه (الأضداد لقطرب ٢٥٦) .

٥ - التطور اللغوي : قد يحدث في بعض الأحيان ، أن توجد كلمتان مختلفتان ، لهما معنيان متضادان ، فتتطور أصوات إحداهما ، بصورة تجعلها تنطبق على الأخرى تماماً ، فيبدو الأمر كما لو كانت كلمة واحدة لها معنيان متضادان .

ومن أمثلة ذلك في العربية : قول بني عقيل : « لمقت الكتاب » أي كتبه ، وقول سائر قيس : « لمقت الكتاب » أي محوته . هكذا يبدو التضاد في الفعل : « لَمَقَ » غير أننا إذا عرفنا أن هناك فعلاً آخر ، بمعنى الكتابة ، هو : « نَمَقَ » ، عرفنا أن بني عقيل ، قد تطور هذا الفعل الأخير في نطقها ، فأبدلت النون لاما . والنون واللام من الأصوات المتوسطة في العربية ، تلك الأصوات التي يحدث فيها الإبدال كثيراً ؛ وبذلك صار الفعل : « لمق » ، فتطابق مع نظيره بمعنى : « محا » ، وتولد التضاد بين

المعنيين عن هذا الطريق . وقد روى عن أعرابي أنه قال عن كتاب : « لمقته بعد ما نمقته » أى محوته بعد أن سطرته^(١١٦) .

ومن أمثلة ذلك أيضا قولهم : « تلحاح » بمعنى : أقام وثبت ، وبمعنى : زال وذهب ؛ فإن هذا المعنى الثانى ، كان فى الأصل لكلمة أخرى ، هى : « تحلل » ، ثم حدث قلب مكانى ، فقدمت اللام وأخرت الحاء ، كما قالوا : جذب وجذب . ويوافقنا فى هذا التفسير : أبو زكريا الفراء من القدماء (انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٢٣٦) .

وإذا عجبنا من دلالة الفعل : « ضاع » على الاختفاء والظهور معا ، فإن عجبنا يزول ، إذا عرفنا أن الأصل فى المعنى الأول ، هو الفعل القديم : « ضَيَعَ » ، وفى المعنى الثانى هو الفعل القديم : « ضَوَعَ » ، ثم تطور الفعلان إلى صورة واحدة ، هى : « ضاع » ، ومع ذلكبقى الفرق بينهما واضحا فى المضارع ؛ إذ هو على المعنى الأول : ضاع يضيع ، وعلى المعنى الثانى : ضاع يضوع (انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٢٨٩ والأضداد لأبى الطيب ٤٥٢/١) .

٦ - المجاز والاستعارة : أوضح مثال لهذا العامل ، هو إطلاق كلمة : « الأمة » على الجماعة وعلى الفرد (ابن الأنبارى ٢٦٩) ؛ فإنه مما لا شك فيه أن الفرد لا يقال له أمة ، إلا على التشبيه بالجماعة على وجه المبالغة ؛ فيقال عن هذا العالم أو ذاك : « كان أمة وحده » ، يعنى أنه كان فى رجحان عقله ، وحدة ذكائه ، جماعة بأسرها ، فاستعير له لفظ يطلق فى العادة على الجماعة .

٧ - احتمال الصيغة الصرفية للمعنيين : هناك صيغ كثيرة فى العربية ، تستعمل للفاعل أو للمفعول ؛ ومن هنا ينشأ التضاد كثيرا فى معانى هذه الصيغ . وهاك بعض الأمثلة :

(١١٦) انظر : الأضداد لابن الأنبارى ٣٥ والأضداد لأبى الطيب ٦١٤/٢ والأضداد لقطرب ٢٧٠ والمزهر ٣٩٠/١

(أ) صيغ (فَعُول) تستعمل في العربية بمعنى : (فاعل) ،
 مثل : شكور وغفور وكفور ، كما تستعمل أحيانا بمعنى : (مفعول) ،
 مثل رسول ، بمعنى : مُرْسَل ، وناقّة سلُوب ، بمعنى : مسلوّبة الولد . ومن
 هنا وردت إلينا بعض الأمثلة من هذه الصيغة بالمعنيين جميعا ؛ مثل :
 « ذُعُور » بمعنى : ذاعر ومدعور (قطرب ٢٤٩ وابن الأنباري ٥٧) ،
 و« رَكُوب » بمعنى : الراكب والمركوب (قطرب ٢٤٩ وابن الأنباري ٣٥٦
 وأبو الطيب ٣٠٦/١) ، و« زَجُور » بمعنى : الزاجر والمزجور (قطرب
 ٢٤٩ وابن الأنباري ٣٥٧) ، و« الأَكولة » بمعنى الآكلة والمأكولة (أبو
 الطيب ٢٤/١) .

(ب) صيغة (فَعِيل) تأتي كذلك بمعنى : (فاعل) مثل : سميع
 وعليم وقدير ، كما تأتي بمعنى : (مفعول) مثل : دھين ، بمعنى :
 مدهون ؛ وكحيل ، بمعنى : مكحول ؛ وجريح بمعنى : مجروح ؛ وطريد ،
 بمعنى : مطرود ، وغير ذلك ؛ فلا عجب بعد هذا ، إذا رويت لنا بعض
 أمثلة هذه الصيغة بالمعنيين جميعا ؛ مثل : « الكَرِيّ » ، بمعنى : المكترى
 والمكترى (قطرب ٢٥٧ وابن الأنباري ١٩٩ وأبو الطيب ٦٠٧/٢) ،
 و« الغريم » بمعنى : الدائن والمدّين (ابن الأنباري ٢٠٣ وأبو الطيب
 ١٥٦/٢ ؛ ٦٠٧/٢) ، و« القنيص » بمعنى : القانص والمقنوص
 (ابن الأنباري ٢٦٢) ، و« التبيع » بمعنى : التابع والمتبوع (ابن
 الأنباري ٣٧٢ وأبو الطيب ١٠١/١) ، وغير ذلك .

(ج) صيغة (فاعل) تستعمل في العربية أحيانا بمعنى :
 (مفعول) ، إلى جانب استعمالها في معناها الأصلي ، كما في مثل قوله
 تعالى : « فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » (القارعة ١٠١/٧) بمعنى : مَرْضِيَّة .
 وقد ورد في العربية ، بعض أمثلة هذه الصيغة ، بالمعنيين جميعا ؛ مثل :
 « خائف » (ابن الأنباري ١٢٥) و« عائد » (ابن الأنباري ١٢٥
 وأبو الطيب ٥٠٤/٢) و« عارف » (ابن الأنباري ١٢٦ وأبو الطيب

٥٠٤/٢) و «عاصم» (ابن الأنبارى ١٢٨ وأبو الطيب ٥٠٦/٢) ، وغير ذلك .

(د) صيغة (تَفَعَّلَ) : وأصلها في العربية - فيما يبدو - للمطاوعة ، كما في أصل اللغات السامية الأخرى . أما معنى : السلب والإزالة ، التي اكتسبتها بعض أفعال هذه الصيغة ، فأغلب الظن أنه قد جاءها من القياس على الفعل : «تَجَنَّبَ» الذى يعنى الابتعاد عن الشيء جانبا . ومن هنا جاءتنا أفعال على هذا الوزن ، لا تعنى إلا السلب والإزالة ؛ مثل : «تَحَرَّجَ» و «تَهَجَّدَ» بمعنى : تجنب الحرج والهجوم ، أى النوم ، كما بقيت أفعال في العربية ، تحمل المعنى الأصلي ، إلى جانب هذا المعنى الجديد . ولما كان هذا المعنيان متضادين ، تضاد الإيجاب والسلب ، أصبحت تلك الأفعال من كلمات الأضداد .

ومثال ذلك قولهم : «قد تأثم الرجل ، إذا أتى المأثم ، وتأثم إذا تجنب المأثم» (ابن الأنبارى ١٦٩ وأبو الطيب ١٧/١) ، وكذلك قولهم : «تَحَنَّثَ الرجل ، إذا أتى الحنث ، وقد تحنث إذا تجنب الحنث» (ابن الأنبارى ١٨٠) .

(هـ) صيغة : (مُفْتَعِلَ) و (مُفْتَعَلَ) من الأجوف ، ومضعف الثلاثي ؛ مثل : مبتاع ، ومختار ، ومجتاح ، ومرتاد ، ومستاق ، ومغتاب . ومثل : مبتز ، ومرتد ، ومختز ، ومحتش ، ومختل ، ومختص ، ومعتد ، ومختلط ، وغير ذلك (١١٧) .

وذلك لأن اسم الفاعل واسم المفعول ، من الأجوف ، ومضعف الثلاثي ، من وزن (افتعل) يتولان إلى صيغة واحدة ؛ فمثلا : اسم الفاعل من الفعل : (اختار) الأصل فيه أن يكون : (مُخْتَارٍ) بكسر الياء ، ثم يتحول إلى : (مختار) . واسم المفعول منه أصله أن يكون : (مُخْتَرٍ)

(١١٧) انظر في هذا وغيره : الأضداد لأبي الطيب ٦٩١/٢ - ٧١٠ والأضداد لابن الأنبارى ٤٠٩

هذا ، وقد كانت الأضداد العربية ، مجالا لدراسة اثنين من
المستشرقين الألمان ، أولهما هو : « رد سلوب » Th.M.Redslob واسم
كتابـــــــــــــــه : Die arabische Wörter mit entgegengesetzten
Bedeutungen « كلمات الأضداد العربية » . وهو مطبوع في : جوتنجن
سنة ١٨٧٣ م .

١ - اختلاف الصيغ والمعاني ؛ مثل : يد ، ورجل ، وغير ذلك .
٢ - اختلاف الصيغ واتفاق المعاني (المترادف) ؛ مثل :
ساعد ، وذراع ، وغير ذلك .

ثم يذكر أن العرب يفهمون من كلمة : « ضِدَّ » : الكلمة التي تدل
بذاتها ، ومن غير إضافات أخرى ، على معنيين متضادين ، ويفهم كل
معنى مقصود من سياق الكلام . كما يذكر أن ما يعدّ من الأضداد عند
اللغويين العرب ، على ضربين :

- ويرى « ردسلوب » أن الضرب الأول ، يحتوى على كلمات لا تضاد

بين معانيها ؛ مثل : إن الشرطية ، وإن النافية ، كما أن الضرب الثانى ، بعيد عن الأضداد تماما .

ثم يقول المؤلف : إن عدّ مثل هذه الكلمات من الأضداد ، يوسع مدلول هذه الكلمة ، ويجعلها غير محدّدة تماما ، كما لو عددنا الكلمات الدالة على التهكم أو الاستهزاء من الأضداد ؛ لأن التهكم صالح لكل كلمة ، وليس خاصا بكلمات بعينها ، وكذلك كلمات التفاؤل ، غير أنه يعود فيؤكد أنه « قد يشيع استخدام كلمات التفاؤل ، بحيث تغلب على المعنى الأصلي أو تساويه ، مثل إطلاق كلمة السليم على اللديغ » .

كما يرى « رد سلوب » أن اللغويين العرب ، قد وقعوا فى الخطأ ، حين عدّوا التطورات الصوتية من الأضداد ، وكذلك حين عدّوا من التضاد صيغتين من مادة واحدة ؛ مثل قولهم : بلّج بشهادته إذا كتمها ، وقولهم : الحق أبلج ، أى واضح ظاهر .

وأخيرا يرجع « رد سلوب » كثرة الأضداد فى العربية ، إلى عدّة عوامل منها :

- ١ - ثراء اللغة غير العادى . ٢ - التطور غير المشروط للمعاني .
- ٣ - كثرة الاشتقاق من الأسماء . ٤ - اختلاف اللهجات .
- ٥ - الصنعة والتكلف والاختراع الذى تم على يد اللغويين .

أما المستشرق الآخر ، فهو : « جيسى » Friedrich Giese واسم كتابه : Untersuchungen über die Addād « بحوث فى الأضداد » ، وهو مطبوع فى برلين سنة ١٨٩٤ م .

وقد نقل « جيسى » فى مقدمته ، تعريف « الضد » عن : « رد سلوب » ثم ذكر اختلاف علماء العربية ، فى وقوع التضاد فى اللهجة الواحدة ، وحدد منهجه فى كتابه ، بالبحث عن كلمات الأضداد

فى الشعر القديم ، وقد رفض لذلك كثيراً من كلمات الأضداد التى ذكرها ابن الأنبارى فى كتابه ؛ لأنه لم يعثر لها على شواهد إلا لواحد من المعنيين ، على كثرة ماقرأ ؛ مثل : (أمم) عند ابن الأنبارى (١٢٣) و (دَحْلَل) عنده كذلك (٢٣٥) وغير ذلك .

وقد استخدم « جيسى » مبادئ علم الدلالة ، فى أن كل تطور للمعنى ، يكون بتعميم الدلالة ، أو بتخصيصها ، وذكر أن أسباب هذا التطور كثيرة ، غير أنها تتفق مع ما ذكره البلاغيون فى كثير من الأحيان ، ومنها : المجاز المرسل ، وتداعى المعانى .

فمن أمثلة الأول : إطلاق « الناهل » على الرّيان ، وعلى العطشان . والمعنى الثانى عنده هو الأصل ، أما الأول فهو مجاز مرسل باعتبار ما يكون ؛ لأن الناهل هو العطشان الذاهب إلى الشرب ، فهو « ريان » فى النهاية !

ومثال تداعى المعانى عنده : « البين » بمعنى : الفراق ، وهو يستدعى فى الذهن معنى : الوصال . وكذلك : « المائل » بمعنى : الحاضر ، وهو يستدعى فى الذهن معنى : الغائب ، وغير ذلك .

الفصل الرابع التعريب وألفاظ الحضارة

اتصل العرب في جاهليتهم ، بالأُمم المجاورة لهم ، كالفرس والأحباش والروم والسريان والنبط وغيرهم ، واحتكت لغتهم العربية بلغات هذه الأمم جميعاً ، وهذا أمر طبيعي ؛ فإنه « من المتعذر أن تظل لغة بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى^(١) » ، كما أن « تطور اللغة المستمر ، في معزل عن كل تأثير خارجي ، يعد أمراً مثالياً ، لا يكاد يتحقق في أية لغة ، بل على العكس من ذلك ، فإن الأثر الذي يقع على لغة ما من لغات مجاورة لها ، كثيراً ما يلعب درواً هاماً في التطور اللغوي ؛ ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية ، واحتكاك اللغات يؤدي حتماً إلى تداخلها^(٢) » .

ويعنى هذا اقتراض هذه اللغات بعضها من بعض ، وتأثير إحداها في الأخرى . وهذا ما حدث للغة العربية ، مع جاراتها من اللغات الأخرى ، في ذلك الوقت المبكر ، ولا يعنينا هنا بالطبع ، أن نبحت أثر العربية في هذه اللغات ، بقدر ما يعنينا الكشف عن أثر هذه اللغات في العربية .

« وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثير ، هي الناحية المتعلقة بالمفردات ؛ ففي هذه الناحية على الأخص ، تنشط حركة التبادل بين اللغات ، ويكثر اقتباسها بعضها من بعض^(٣) » . ويطلق على مثل هذه

(١) علم اللغة ، لعلي عبد الواحد وافي ٢٢٩

(٢) اللغة ، لفندريس ٣٤٨

(٣) علم اللغة ، لعلي عبد الواحد وافي ٢٢٩

الكلمات ، التى أخذتها العربية من اللغات المجاورة ، اسم : « الكلمات المعربة » ، كما يطلق على عملية الأخذ هذه ، اسم : « التعريب » . ويعنى هذا أن تلك الكلمات المستعارة فى العربية ، لم تبق على حالها تماما ، كما كانت فى لغاتها ، وإنما حدث فيها أن طوّعها العرب لمنهج لغتهم ، فى أصواتها وبنيتها وما شاكل ذلك . وهذا هو معنى : « التعريب » .

وليس هذا الأمر بدعا فى العربية ؛ « إذ تخضع فى الغالب الكلمات المقتبسة ، للأساليب الصوتية فى اللغة التى اقتبستها ، فينالها كثير من التحريف فى أصواتها وطريقة نطقها ، وتبعد فى جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة^(٤) » .

وكان هذا دأب العرب فى جاهليتهم ، تجرى على ألسنتهم بعض الألفاظ ، التى يحتاجون إليها ، من لغات الأمم المجاورة لهم ، بعد أن ينفخوا فيها من روحهم العربية ، ويتلقفها الشعراء منهم ، فيدخلونها فى أشعارهم وأرجازهم ؛ فهذا هو الأعشى ميمون بن قيس ، يكثر فى شعره ذكر : اليرندج ، والديابوذ ، وإستار ، والإسفنط ، والبستان ، والبوصى ، والبرجان ، والجلسان ، والبنفسج ، والمرزجوش ، وغير ذلك . كما يشيع فى شعر عدى بن زيد ذكر : الإبريق ، والجؤذر ، والخوان ، والدخدار ، والمرزبان ، وغير ذلك .

ولا نطيل فى ذكر الأمثلة من شعر الشعراء ، فى تلك العصور القديمة ، فإنك إن طالعت شعر أحدهم ، استوقفك فيه هنا وهناك ، لفظة من تلك الألفاظ المعربة .

وقد طال الأمد على كثير من هذه الألفاظ فى الجاهلية ، وألف الناس استعمالها ، وصارت جزءا من لغتهم ، وربما نسوا أصلها فى كثير من الأحيان ، وجاء القرآن الكريم ، فأنزله الله تعالى بهذه اللغة العربية ، التى

(٤) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وفى ٢٢٩

أصبح بعض هذا المعرب من مقوماتها ، فجاء فيه شيء من تلك الألفاظ ،
التي عرّبها القوم من لغات الأمم المجاورة .

وكان السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، يدرك ذلك تماما ؛
فقد « روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ، في أحرف كثيرة
(من القرآن) أنه من غير لسان العرب ؛ مثل : سجّيل ، والمشكاة ،
واليّم ، والطور ، وأباريق ، وإستبرق ، وغير ذلك^(٥) » .

ولكن قول الله سبحانه وتعالى ، في القرآن الكريم : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا » وقوله تعالى : « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » ، جعل طائفة
من مفكرى الإسلام ، تذهب إلى إنكار وقوع المعرب في كتاب الله ؛ فهذا
أبو عبيدة معمر بن المثنى ، يقول : « من زعم أن في القرآن لسانا سوى
العربية ، فقد أعظم على الله القول^(٦) » .

كما يقول أبو بكر بن الأنباري : « وقال بعض المفسرين : صرّهن
معناه : تَطَّعَ أَجْنَحَتَيْنِ ، وأصله بالنبطية : صِرِيّة . ويحكى هذا عن مقاتل
ابن سليمان ، فإن كان أثر هذا عن أحد من الأئمة ، فإنه مما اتفقت فيه
لغة العرب ولغة النبط ؛ لأن الله عز وجل ، لا يخاطب العرب بلغة العجم ؛
إذ بين ذلك في قوله جل وعلا : إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ^(٧) » .

وقد وازن أبو عبيد القاسم بن سلام ، بين رأى شيخه أبي عبيدة ،
ورأى السلف الصالح ، وانتهى إلى القول بعربية هذه الألفاظ ، بعد أن عرّبها
العرب ؛ فقال : « فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ، ولكنهم ذهبوا
إلى مذهب ، وذهب هذا إلى غيره . وكلاهما مصيب إن شاء الله ؛ وذلك
أن هذه الحروف ، بغير لسان العرب في الأصل ، فقال أولئك على

(٥) المعرب ، للجواليقي ٥ وانظر : المزهري ٢٦٨/١

(٦) المعرب ، للجواليقي ٤ والمزهري ٢٦٦/١ والصاحبي ٥٩

(٧) الأضداد ، لابن الأنباري ٣٨

الأصل ، ثم لفظت به العرب بالسنتها ، فعربته فصار عربيا بتعريبها إياه ، فهي عربية في هذه الحال ، أعجمية الأصل^(٨) .

كما يقول ابن عطية : « فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ ، أنها في الأصل أعجمية ، لكن استعملتها العرب وعربتها ، فهي عربية بهذا الوجه . وما ذهب إليه الطبري من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة ، فذلك بعيد^(٩) » .

ولكن الشيخ أحمد شاكر ، يواصل في العصر الحديث ، حملة أبى عبيدة في القديم ، على من يقول بوقوع المعرب في القرآن ، ولا يعجبه حتى المعتدلون منهم ، كأبى عبيد في قوله السابق : « فهي عربية في هذه الحال أعجمية في الأصل » ، والأزهري الذي يرى أن الاسم قد يكون أعجميا ، فتعربه العرب ، فيصير عربيا^(١٠) .

ويصم الشيخ شاكر ، القول بوقوع المعرب في القرآن ، بأنه « قول ينبو عنه التحقيق ، وإنما ذهب إليه من ذهب ، إعظاما لما روى عن بعض الأقدمين في ألفاظ قرآنية ، أنها معربة ، وعجزا عن تحقيق صحة الرواية ، وعن تحقيق صحة هذه الحروف في كلام العرب ، ثم تقليداً لأولئك القائلين ، وجمعاً بين القولين ، زعموا^(١١) » .

وراح الشيخ شاكر يتعقب الجواليقي ، في كتابه : « المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم » ، ويحاول أن يعثر على اشتقاق عربى ، للكلمات التى ذكرها الجواليقي ، فى هذا الكتاب ، معتسفا الطريق فى محاولاته تلك تارة ، وغافلا عن سنن اللغات فى الاقتراض عن غيرها تارة أخرى . ومن أمثلة ذلك قوله فى التعليق على أن « الاستبرق » فارسى

(٨) المعرب للجواليقي ٥ وانظر : المزهري ٢٦٩/١ والصاحبي ٦١

(٩) انظر : مقدمتان فى علوم القرآن ٢٧٨

(١٠) تهذيب اللغة ٢٦٩/١٤ ولسان العرب (تنر) ١٦٣/٥

(١١) مقدمة المعرب ، للجواليقي ص ١١

معرب : « هكذا زعم كثير من أهل اللغة ، أنها معربة ، وليس في القرآن معرب سوى الأعلام^(١٢) » .

وفي التعليق على أن « التثور » فارسي معرب ؛ يقول : « وقد ذهب أكثر المفسرين ، إلى أن الكلمة أعجمية . ونحن نخالفهم في هذا ، ونرى أنها عربية ، وأن هذا البناء إن كان نادراً ، فليس دليلاً على أنه خارج عن لغتهم ... قال أبو منصور الأزهري : قول من قال : إن التثور عمت بكل لسان ، يدل على أن الاسم في الأصل أعجمي ، فعربت بها العرب ، فصار عربياً على بناء فُعُول . والدليل على ذلك ، أن أصل بنائه : تثر ، ولا نعرفه في كلام العرب ... ووجود الكلمات في بعض اللغات الأخرى بهذا المعنى ، لا يدل على نقلها إلى العربية منها ، بل لعلها نقلت من العربية إليها ... والعربية من أقدم اللغات في الدنيا^(١٣) » .

كما يعلق على أن « الدينار » معرب من الفارسية ، بقوله : « ونحن عند رأينا الذي ذهبنا إليه فيما مضى ، أن ليس في القرآن من غير العربية شيء . وهذا الحرف في لغة العرب قديم ... ومقاربة اللغة الرومية إياه في اللفظ ، لا يدل على أن العرب أخذوه عنهم ، بل يحتمل أنه منقول إليهم عن العرب^(١٤) » .

ويطول بنا القول ، لو ذهبنا نعدد الأمثلة ، التي تدل على تعصب الشيخ أحمد شاكر ، ضد القول بوقوع المعرب في القرآن ، وهو تعصب لا مبرر له ، إذ الكلمة المعربة تصبح - كما قلنا من قبل - عربية ، باستعمال العرب إياها على مناهجهم في لغتهم ، غير أن ما دعا العلماء إلى القول بعدم أصالتها في العربية ، أنها تدل على شيء لم يكن له وجود في الأصل ، في البيئة العربية ، وإنما هو وافد مع اسمه إلى تلك البيئة ، كما وفدت علينا في العصر الحديث كلمات مثل : تليفون ، وراديو ، وتليفزيون ، مع أجهزتها التي

(١٢) المعرب ، للجواليقي ص ١٥

(١٣) المعرب ، للجواليقي ص ٨٤

(١٤) المعرب ، للجواليقي ص ١٤٠

سميت بها ، وكذلك مثل : أسبرين ، وسلفاديازين ، وأنتروفيوفورم ، وغيرها من أسماء الأدوية ، وما إلى ذلك من الأشياء التي وردت إلينا مع أسمائها من الخارج ؛ لأن « المفردات التي تقتبسها لغة ما ، عن غيرها من اللغات ، يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل هذه اللغات ، أو برزوا فيها ، أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها ... وهلم جرّاً ، فمعظم ما انتقل إلى العربية ، من المفردات الفارسية واليونانية ، يتصل بنواح مادية أو فكرية ، امتاز بها الفرس واليونان ، وأخذها عنهم العرب^(١٥) » .

وهكذا نرى أنه من العبث إنكار وقوع المعرب ، في العربية الفصحى ، والقرآن الكريم . وقد وضع العلماء علامات ، يعرف بها المعرب في العربية ، استنتجوها من مقارنة نسج الألفاظ العربية ، بنسج هذه الألفاظ المعربة . ونلخصها هنا فيما يلي^(١٦) :

- ١ - اجتماع الصاد والجيم ؛ مثل : جص ، وصنجة ، وصولجان .
- ٢ - اجتماع الجيم والقاف ؛ مثل : المنجنيق ، والجوالق ، والجرموق .
- ٣ - اجتماع الباء والسين والتاء ؛ مثل : البستان .
- ٤ - وقوع الراء بعد النون ؛ مثل : نرجس ، ونرسيان .

- ٥ - وقوع الزاي بعد الدال ؛ مثل : المهندز .
- ٦ - خلو الكلمة الرباعية والخماسية من حروف الذلاقة (فر من لب) ؛ مثل : عقجش^(١٧) .
- ٧ - خروج الكلمة عن الأوزان ؛ مثل : إبريسم .

وتنتهج العربية نهجا معيناً في تعريب الألفاظ الأعجمية ، وذلك على النحو التالي :

- ١ - إبدال الأصوات التي ليست من أصوات العرب ، إلى أقربها

(١٥) علم اللغة ، لعلى عبد الواحد وافي ٢٣١

(١٦) قارن : المعرب للجواليقي ١١ - ١٢ والمزهر للسيوطي ٢٧٠/١ وتهذيب الألفاظ العامية

٢٢ - ٢٣ والاقتراح للسيوطي ١٣ وفقه اللغة لعلى عبد الواحد وافي ٢٠٠

(١٧) راجع كذلك : سر صناعة الإعراب ٧٤/١

مخرجا ؛ لئلا يدخل في كلامهم ما ليس من أصواتهم . فمما غيروه من الأصوات : ما كان بين الجيم والكاف (ك) ، وربما جعلوه كافا ، وربما جعلوه جيما ، وربما جعلوه قافا ،^(١٨) وأبدلوا الحرف الذى بين الباء والفاء (P) فاء ، وربما جعلوه باء^(١٩) .

٢ - تغيير بناء الكلمة إلى أبنية العربية . فمما ألحقوه بأبنيتهم : « دِرْهَم ، ألحقوه بهجرع^(٢٠) . وكان الفراء يقول : « بينى الاسم الفارسى أى بناء كان ، إذا لم يخرج عن أبنية العرب^(٢١) » .

٣ - ترك اللفظ الأعجمى على حاله ، إذا كان موافقا لمنهج العربية فى الأصوات والصيغ ، أو بنية الكلمات . هذا هو منهج العربية فى التعريب ؛ فهى « لغة إذا دخلتها كلمة أجنبية عنها ، قلق موضعها ، حتى تأخذ وزن كلمات اللغة وهيئة حركاتها ؛ لتشاكلها وتمائلها وتألف معها ؛ لذلك تراهم يشذبون الكلمات الأعجمية الطارئة التى لم تأت على أوزان العرب ، بالحذف والإبدال ، حتى تلائم الأسلوب العربى^(٢٢) » .

وليس الاقتراض من اللغات الأجنبية ، مقصورا على الألفاظ فحسب ، بل يكون الاقتراض فى المعانى كذلك ، فعند الاقتراض « هناك طريقان ممكنان ، فإما أن تأخذ اللغة المقترضة الكلمة ، وتخضعها لقوانينها الصيغية والصوتية ، وفى تلك الحالة يكون عندنا كلمة مقترضة . وإما أن تترجم اللغة المقترضة ، وحدات الكلمة المقترضة ، ترجمة حرفية إلى كلمة وطنية ، وفى تلك الحالة يكون عندنا ترجمة مقترضة . والكلمة الإنجليزية : expression مأخوذة من الكلمة اللاتينية : expressio فهى لذلك كلمة

(١٨) العرب للجواليقى ٦

(١٩) العرب للجواليقى ٧

(٢٠) العرب للجواليقى ٨

(٢١) العرب للجواليقى ٩

(٢٢) مولد اللغة للعامل ٦١

مقترضة . أما الكلمة الألمانية Ausdruck فهي ترجمة مقترضة ، بمعنى الكلمة اللاتينية^(٢٣) .

وقد يسود الأعجمي الدخيل في لغة العرب ، فيغطي على مقابلة العرب ، ويشيع استعماله ، حتى يتوارى إلى جانبه اللفظ العربي ، ويندر استعماله . ومن أمثلة ذلك استعمال العرب : « الإبريق » ، مكان : « التامورة » ؛ و « الهاون » مكان : « المهراس » ؛ و « الطاجن » مكان : « المقل » ؛ و « الأشنان » مكان : « الحرض » ، و « الميزاب » مكان : « المثعب » ؛ و « المسك » مكان : « المشموم » ؛ و « الجاسوس » مكان : « الناطس » ؛ و « التوث » مكان : « الفرصاد » ؛ و « الأترج » مكان : « المُنْثَك » ؛ و « الكوسج » مكان : « الأثْط » ؛ و « الكَبَر » مكان : « اللَّصَف » ؛ و « الياسمين » مكان : « السَّمسِق » ؛ و « اللوبيا » مكان : « الدجر » ؛ و « الباذنجان » مكان : « الحدج » ؛ و « الرصاص » مكان : « الصرْفان » ، و « الخيار » مكان : « القَتَد »^(٢٤) .

وتعامل العرب اللفظ المعرب ، معاملة العربى فى الاشتقاق منه ؛ فمثلا : كلمة : « لجام » ، اشتق منها فى العربية : أَلْجَم ، وتَلَجَّم ، والفرس مُلْجَم ، وغير ذلك . وبماثل هذا تماما ، ما يحدث الآن فى اللغة العامية ، حين تستعير بعض الكلمات من الإنجليزية وغيرها ، فتشتق منها أفعالا ، وتجمعها جموع تكسير عربية ، وغير ذلك ؛ فكلمة : nervous مثلا ، اشتق منها فى العامية العربية : (نرفز) ، و (نرفزة) ، و (ينرفز) ، و (متنرفز) .. إلخ ؛ وكلمة : table صارت فى العامية : (طبلية) ، وجمعت على : (طبالى) ، وغير ذلك .

ويقول عبد القادر المغربي : إن « الكلمات العربية ، التى وقعت للعرب ، فعربوها بألسنتهم ، وحولوها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظهم ،

(٢٣) أسس علم اللغة لما ريو . پاى ١٥٧

(٢٤) انظر : المزهر فى علوم اللغة ٢٨٣/١ - ٢٨٤

تصبح عربية ، فيجرب عليها من الأحكام مايجرى على تلك ، فتتوارد عليها علامات الإعراب ، إلا في بعض الأحوال ، وتعرف بأل ، وتضاف ويضاف إليها ، وتثنى وتجمع ، وتذكر وتؤنث . وفوق ذلك كله تصرف أهل اللغة في الكلمة المعربة ، وإعمالهم مباضع الاشتقاق في بنيتها^(٢٥) .

وقد وقف اللغويون العرب بالتعريب ، عند عصور الاحتجاج ، وهي تلك الفترة السعيدة ، التي تشمل الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أمية ، وتعدّ بجميع ما فيها عربية فصحي ، وما عداها مما جاء بعدها مؤنث لا يصح ، يستوى في هذا : التطور والتعريب الجديد .

وتقوم من آن لآخر صيحات ، تنادى بضرورة أن نسير على طريقة العرب ، في تعريب ما نحتاج إليه ، من ألفاظ اللغات المعاصرة ؛ ومن هؤلاء عبد القادر المغربي ، الذي ألف في ذلك كتابا ، وتتلخص فكرته فيه في أن « الكلمات الدخيلة الدالة على الأحداث والمعاني ، لا تعتبر فصيحة ، ولا يكون استعمالها من الحسن في شيء ، وذلك لأن في اللغة ما يسدّ مسدّها ... ولكن هناك اختراعات ، أوجدتها قوم من غير أبناء لغتنا ، ووضعوا من كلمات الأحداث والمعاني ، التي تشتق ويشتق منها - ما يتعلق باستعمال تلك الاختراعات ، ويدل على طرق الانتفاع بها ؛ اخترعوا : الأوتوموبيل مثلا ، وسموه بهذا الاسم ، فنحن معشر العرب ، نأخذُه ونأخذ اسمه ، كما أخذ أسلافنا المنجنيق واسمه من لغة اليونان . ومخترعوا الأوتوموبيل أنفسهم ، وضعوا كلمات آخر ، للدلالة على أفعال وأعمال تتعلق به ، مما لا يمكن أن يكون موجودا في لغتنا ، مادام الأوتوموبيل نفسه ، ما كان معروفا لدى أهلها ، وواضعي كلمتها^(٢٦) » .

وقد وقف مجمع اللغة العربية في مصر ، من هذه القضية ، موقف المتشدد ؛ فلم يجز إلا تعريب الألفاظ الفنية والعلمية ، التي يعجز عن إيجاد

(٢٥) الاشتقاق والتعريب ٤٨

(٢٦) الاشتقاق والتعريب ٧٤

مقابل لها في العربية . وقد لخص الدكتور على عبد الواحد وافي ، موقفه ذلك أحسن تلخيص ؛ فقال^(٢٧) : « أما ما استخدمه المولدون في مختلف العصور ، وما أدخله بعض المحدثين في العصر الحاضر ، أو يرى إدخاله في العربية ، من كلمات أجنبية تتعلق بالاختراعات ، أو بالمصطلحات العلمية والفنية ، فقد رأى مجمع اللغة العربية عدم جواز استعماله ؛ « لأن في العربية غنية عنه ؛ ولأن في بطون معجماتها مئات الألوف من الكلمات المهجورة ، الحسنة النغم والجرس ، الكثيرة الاشتقاق ، مما يصلح أن يوضع للمسميات الحديثة ، بدون حدوث اشتراك ؛ لأن بعضها من مראقد الإهمال والنسيان ، يصيرها كأنها موضوعة وضعا جديدا » . وقد عني المجمع بتطبيق قراره هذا ، فوضع عددا كبيرا من الأسماء العربية لمسميات حديثة ، جرت العادة باستخدام كلمات أجنبية في التعبير عنها . غير أنه قد احتاط للحالة التي قد تدعو فيها ضرورة قاهرة ، إلى استخدام لفظ أعجمي ، في الشؤون العلمية والفنية ، ويتعذر إيجاد لفظ عربي يحل محله ، فأجاز في هذه الحالة فقط ، استخدام اللفظ الأعجمي ، بعد صقله بالأساليب الصوتية العربية . وإليك نص قراره بهذا الصدد : « يجز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية ، عند الضرورة ، على طريقة العرب في تعريبهم » . ويقول الدكتور وافي : وقد شرح المغفور له أستاذنا الشيخ أحمد الإسكندري ، هذا القرار ، بما يفيد قصر الرخصة التي يتضمنها ، على حالات الضرورة التي أشرنا إليها ، حيث يقول : « فعبارة القرار تقتضي إجازة استعمال بعض الأعجمي في فصيح الكلام ، وتقييده بالنظ (بعض) ، دون جنس الألفاظ ، يفيد أن المراد الألفاظ الفنية والعلمية ، التي يُعجز عن إيجاد مقابل لها ، لا الأدبية ، ولا الألفاظ ذات المعاني العادية ، التي يتشدد بها بعض مستعجمة زماننا ، من أبناء العرب » .

وفي رأيي أن اللغة لا تفسد بالدخيل ، بل حياتها في هضم هذا

(٢٧) فقه اللغة ، لعلي عبد الواحد وافي ٢٠١ - ٢٠٢ .

الدخيل ؛ لأن مقدرة لغة ما على تمثّل الكلام الأجنبي ، تعدّ مزية وخصيصة لها ، إذا هي صناعته على أوزانها ، وصبته في قوالها ، ونفخت فيه من روحها ، وتركت عليه بصماتها ؛ « فالتعريب إذن ضرورى لحياة العلم ، ومثى كانت القيود الموضوعة له ، هي كما بينا من قبل ، فلا خوف منه على كيان اللغة ، فإنما اللغة قائمة بحروف معانيها وأفعالها وصرفها ونحوها ، وبيانها وشعرها ، وخصائصها التي تمتاز بها ، لا يبضع مفردات غريبة عنها ، قد التجأت إليها ، فكسيت بكسائها ، وطليت بطلائها ، حتى أصبحت منها وعليها^(٢٨) » .

والحق أن مشكلة تعريب ألفاظ العلم ومستحدثات الحضارة ، هي مشكلتنا الحقيقية في العصر الحديث . ومجامعنا العلمية لم تستطع حتى الآن ، معالجة هذه المشكلة معالجة حاسمة ، فإنها تنتظر حتى يشيع اللفظ الأجنبي على كل لسان ، وتستخدمه العامة والخاصة ، ثم تقوم قيامة المجامع العلمية ، وتحاول البحث عن لفظ عربى بديل ، وبذلك يولد هذا اللفظ ميتا ، لاشتهار اللفظ الأعجمى وشيوعه على الألسنة . وكمن ألفاظ وضعتها المجامع اللغوية ، لمستحدثات الحضارة ، غير أنها لم تتجاوز أبواب هذه المجامع ؛ فمثلا : المذياع للراديو ، والخيالة للسينما ، والمأوى للبنسيون ، والطارمة للكُشْك ، والملوَّحة للسيمافور ، والمرناة للتليفزيون ، وغير ذلك - ألفاظ ولدت ميتة ؛ لهذا السبب الذى ذكرته .

وفى رأى أنه لو صاحب دخول المخترع الأجنبي إلى البلاد العربية ، وضع لفظ عربى له ، وعناية وسائل الإعلام والصحافة بالدعاية له ، لقضى على الكثير من مظاهر هذه المشكلة من أساسها . وإنك لتعجب حين ترى الألمان يقومون بمثل ما ننادى به هنا ، ومعظم المخترعات لها عندهم أسماء ألمانية خالصة ، فالتليفون مثلا هو عندهم : Fernsprecher والتليفزيون : Fernsehen وغير ذلك . وفى قدرتنا النسج على هذا المنوال ، للحفاظ على عروبة لغتنا . والله الموفق .

الباب الخامس

من قضايا اللغة ومشكلات العبرية

الفصل الأول

قضية الإعراب

يرى جميع النحاة العرب ، إلا أبا علي محمد بن المستنير ، المعروف بقطرب (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) أن حركات الإعراب ، تدل على المعاني المختلفة ، التي تعتور الأسماء ، من فاعلية أو مفعولية أو إضافة أو غير ذلك ؛ فيقول أبو القاسم الزجاجي (المتوفى سنة ٣٣٧ هـ) في ذلك : « فإن قال قائل : قد ذكرت أن الإعراب داخل في الكلام ، فما الذي دعا إليه واحتجج إليه من أجله ؟ فالجواب أن يقال : إن الأسماء لما كانت تعتورها المعاني ، وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافاً إليها ، ولم يكن في صورها وأبنيتها ، أدلة على هذه المعاني ، بل كانت مشتركة ، جعلت حركات الإعراب فيها ، تنبئ عن هذه المعاني ، فقالوا : ضرب زيد عمراً ، فدلوا برفع زيد على أن الفعل له ، وينصب عمرو على أن الفعل واقع به . وقالوا : ضرب زيد ، فدلوا بتغيير أول الفعل ، ورفع زيد ، على أن الفعل ما لم يسم فاعله ، وأن المفعول قد ناب منابه . وقالوا : هذا غلام زيد ، فدلوا بخفض زيد ، على إضافة الغلام إليه . وكذلك سائر المعاني ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ، ليتسعوا في كلامهم ، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعاني^(١) . »

كما يقول الزجاجي أيضاً : « وأصل الإعراب للأسماء ، وأصل البناء للأفعال والحروف ؛ لأن الإعراب إنما يدخل في الكلام ، ليفرق بين الفاعل والمفعول ، والمالك والمملوك ، والمضاف والمضاف إليه ، وسائر ذلك

(١) الإيضاح في علل النحو للزجاجي ٦٩ وعنه في الأشباه والنظائر للسيوطي ٧٨/١

مما يعتور الأسماء من المعاني ، وليس شيء من ذلك في الأفعال ولا الحروف^(٢) .

وكذلك يقول ابن فارس اللغوى : « فأما الإعراب فبه تميز المعاني ، ويوقف على أغراض المتكلمين ؛ وذلك أن قائلًا لو قال : (ما أحسن زيد) غير معرب ؛ أو (ضرب عمرو زيد) غير معرب ، لم يوقف على مراده . فإذا قال : ما أحسن زيداً ، أو ما أحسنَ زيدٌ ، أو ما أحسنُ زيدٍ ؟ أبان بالإعراب عن المعنى الذى أراده . وللعرب فى ذلك ما ليس لغيرها ، فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني^(٣) » .

وهذه نظرة سليمة ؛ فإن الجملة التالية ، إذا كانت غفلا من الإعراب ، احتملت معانى عدة ، فإن أعربت نصت على معنى واحد :
أكرم الناسُ محمداً - أكرم الناسَ محمداً - أكرمُ الناسِ محمداً - أكرمِ الناسَ محمداً !

أما « قطرب » ، فإنه يرى وحده أن هذه الحركات ، جىء بها للسرعة فى الكلام ، وللتخلص من التقاء الساكنين ، عند اتصال الكلام ؛ فيقول : « وإنما أعربت العرب كلامها ؛ لأن الاسم فى حالة الوقف يلزمه السكون للوقف ، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً ، لكان يلزمه الإسكان فى الوقف والوصل ، وكانوا يبطئون عند الإدراج ، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك ، جعلوا التحريك معاقبا للإسكان ؛ ليعتدل الكلام ، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ، ومتحركين وساكن ، ولم يجمعوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ، ولا فى حشو بيت ، ولا بين أربعة أحرف متحركة ؛ لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون ، وفى كثرة الحروف المتحركة

(٢) الجمل للزجاجى ٢٦٠

(٣) الصاحبى فى فقه اللغة ١٩٠ وانظر كذلك : لمع الأدلة ، لابن الأنبارى ١٠٩

يستعجلون ، وتذهب المهلة في كلامهم ، فجعلوا الحركة عقب الإسكان^(٤) .

هذا هو رأى قطرب ، وهو رأى لم يسبقه به أحد - فيما نعلم - ولم يتابعه عليه غيره من اللغويين أو النحويين ، فيما عدا أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ، في كتابه القيم : « من أسرار اللغة^(٥) » ، ويظهر أنه تأثر برأى قطرب هذا ؛ إذ أشار إليه ناقلاً إياه عن كتاب : « إحياء النحو » ، لإبراهيم مصطفى .

وقبل أن نشير إلى تفصيل نظرية الدكتور أنيس وناقشها ، نود أن نذكر هنا أن رفع الفاعل ، ونصب المفعول ، وجر المضاف إليه ، وما أشبه ذلك ، كان من الحقائق المسلّمة ، التي لم يشكّ فيها واحد من النحاة القدماء ؛ ولذلك قالوا في ردّهم على قطرب : « لو كان كما زعم ، لجاز خفض الفاعل مرة ، ورفع آخرى ونصبه ، وجاز نصب المضاف إليه ، لأن القصد في هذا ، إنما هو الحركة تعاقب سكوناً يعتدل به الكلام ، وأى حركة أتى بها المتكلم أجزأته ، فهو مخير في ذلك ، وفي هذا فساد للكلام ، وخروج على أوضاع العرب ، وحكمة نظام كلامهم^(٦) » .

أما الدكتور إبراهيم أنيس ، فقد بدأ بمقدمة طويلة ، بين فيها كيف كان للنحاة سلطان على الشعراء والأدباء ، وأنهم لم يصادفوا من يهاجمهم إلا في النادر ، من أمثال : « ابن مضاء القرطبي » ، الذي ألف كتاباً ، تصدّى فيه لدحض علل النحاة . ثم يذكر الدكتور أنيس أن المحاولة الثانية ، كانت محاولة إبراهيم مصطفى في كتابه : « إحياء النحو » ، وأنها كانت محاولة تعليمية ، لتيسير تلك القواعد الإعرابية على الناشئين .

(٤) الإيضاح للزجاجي ٧٠ وعنه في الأشباه والنظائر للسيوطي ٧٩/١ وانظر رأى قطرب كذلك

في : مسائل خلافية للعكبري ٩٥

(٥) في الفصل الذي عقده لذلك بعنوان : « قصة الإعراب » - الطبعة الثالثة ص ١٨٣ - ٢٥٨

وممن تأثر به « فؤاد ترزى » في كتابه : في أصول اللغة والنحو ١٨٧ - ١٨٨

(٦) الإيضاح للزجاجي ٧١ وعنه في الأشباه والنظائر للسيوطي ٧٩/١

ثم انتقل الدكتور أنيس بعد ذلك ، إلى البحث عن آثار هذا الإعراب في اللغات السامية الأخرى ، غير أنه لم يتعرض للإعراب في الأكادية والحبشية والأوجاريتية مع أن هذه اللغات الثلاث ، من أهم اللغات السامية في موضوع الإعراب - كما سنعرف فيما بعد - واستأثرت العبرية ببحثه في أقل من صفحة ، وقال إنها استأثرت ببحث المستشرقين كذلك ، وعلل اعتقادهم في وجود الإعراب في اللغات السامية « بتأثرهم بما حدث في فروع الفصيلة الهندية الأوربية ، فقد عرفوا أن الوضع الإعرابي ، الذي يسمى : case - ending كان شائعا في لغاتهم القديمة ، كاليونانية واللاتينية ، وأنه قد فقد من اللغات الأوربية الحديثة ، كالإنجليزية والفرنسية ، فتصوروا أن ما حدث في التطور التاريخي للفصيلة الهندية الأوربية ، قد تمّ مثله في الفصيلة السامية^(٧) » .

وبعد أن استعرض الدكتور أنيس إعراب اللاتينية باختصار ، قال : « ولعل أهم فرق بين رموز الأسماء في اللاتينية ، وبين حركاتنا الإعرابية ، أن الرموز اللاتينية لا تسقط مطلقا ، من نهاية الأسماء حين الوقف عليها ، كما يحدث غالبا للحركات الإعرابية في لغتنا ، مما يجعلنا نرجح أن حركاتنا الإعرابية ، ليست رموزا لغوية ، تشير إلى الفاعلية أو المفعولية ، أو غير ذلك^(٨) » .

وبعد أن درس ظاهرة الوقف ، في اللغة العربية ولهجاتها ، بشيء من التفصيل ، خرج علينا الدكتور أنيس ، بنظريته الجديدة ، في تفسير ظاهرة الإعراب في اللغة العربية . ولنلخص نظريته فيما يلي :

١ - ليس للحركة الإعرابية مدلول ، فلا تدل الحركات الإعرابية ،

(٧) من أسرار اللغة ٢٠٢

(٨) من أسرار اللغة ٢٠٦ - ٢٠٧ ويذهب الدكتور داود عبده (أبحاث في اللغة العربية ١٢٦) كذلك إلى أن الحركات في أواخر كلمات العربية ، لم تكن تدل على فاعلية أو مفعولية أو نحوها ، ويظن « أنها كانت في الأصل جزءا من الكلمة ، وأنها كانت حركة واحدة في جميع الحالات ، التي تقع فيها الكلمة » غير أنها اختلفت بعد ذلك ، باختلاف اللهجات .. إلى غير ذلك من الظنون ، التي لا دليل عليها !!

على فاعلية ، أو مفعولية ، أو إضافة ، أو غير ذلك .

٢ - هذه الحركات لا تعدو أن تكون حركات ، يحتاج إليها في الكثير الغالب ، لوصل الكلمات بعضها ببعض ، بمعنى أنها حركات للتخلص من التقاء الساكنين ، عند وصل الكلام ، وأن معنى الفاعلية والمفعولية ، لا يستفاد من هذه الحركات ، وإنما من موقع كل من الفاعل والمفعول في الجملة العربية . وحاول الدكتور أنيس - تبعاً لذلك - أن يثبت نظاماً معيناً للجملة العربية القديمة ، يلي فيها الفاعل الفعل ، ويسبق المفعول .

٣ - هناك عاملان تدخلان في تحديد حركة التخلص من التقاء الساكنين ، أولهما : إيثار بعض الحروف لحركة معينة ، كإيثار حروف الحلق للفتحة مثلاً ، وثانيهما : الميل إلى تجانس الحركات المتجاورة ، أو ما يسمى : Vowel Harmony .

٤ - سمع النحاة القدماء هذه الحركات ، فأخطئوا تفسيرها ، حين عدّوها علامات على الفاعلية والمفعولية وغيرها ، في حين أنها لا تعدو أن تكون حركات وصل بين الكلمات .

٥ - وحين اعتقد النحاة أنها حركات إعرابية ، حركوا أواخر الكلمات التي لا داعي إلى تحريكها ، لتطرد قواعدهم ؛ فقالوا مثلاً : « الرجل قائم » بضم اللام من « الرجل » ، وكان يكفي أن يقال : « الرجل قائم » بتسكين اللام ؛ إذ لا توجد ضرورة تدعو إلى تحريكها .

٦ - الحالات التي ليس فيها ما يدعو إلى تحريك الآخر ، جاءت في النثر والشعر على سواء ، ولا يؤثر ذلك على وزن الشعر من الناحية الذوقية ، وإن كان يخالف ما يشترطه العروضيون في بعض الأحيان ؛ مثل بيت أبي ذؤيب الهذلي :

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا أُمَّ عَمْرٍو وَأَصْبَحَتْ

تُحَرِّقُ نَارِي بِالشَّكَاةِ وَنَارُهَا

فيرى الدكتور أنيس أن « كلمة : (تحرق) قد حرك آخرها ، دون ضرورة

ملحّة ، وأن إنشاد البيت بغير هذه الحركة ، لا يكاد يؤثر في موسيقاه أو وزنه ، وكل الذى يترتب على مثل هذا الإنشاد ، أن تصبح (مفاعيلن) : (مستفعل) . وهذا التغيير الطفيف ، وإن لم يقل به أهل العروض ، فيما أظن ، لا يكاد يؤثر في وزن البيت شيئاً ، يشهد بهذا أصحاب الأذان الموسيقية المرفهة^(٩) .

٧ - أما المعرب بالحروف ، فكانت إحدى صوره تخص قبيلة معينة ، والصور الأخرى تخص قبائل أخرى ، ولكن النحاة جمعوا كل هذه الصور ، وخصوا كل صورة منها بحالة إعرابية معينة ؛ فهو يفترض مثلاً أن هناك قبائل عربية ، كانت تنطق المثنى بالياء في جميع الحالات ، ثم تطورت هذه الياء فصارت ألفاً ، عند بعض القبائل في جميع الحالات ، ولم يفهم النحاة سر الموضوع ، فجمعوا بين الصورتين ، وخصّوا الأولى بحالتى النصب والجر ، كما خصوا الثانية بحالة الرفع .

تلك هى نظرية الدكتور إبراهيم أنيس ، فى تفسير الإعراب فى العربية الفصحى . ونحب قبل أن نناقشها ، ونبين أن الإعراب كما يعرفه النحاة ، من خصائص اللغات السامية - أن نشير إلى أن نظريته هذه لم تلق قبولا لدى أى باحث من الباحثين ، بل انبرى أحدهم للرد عليه ، وهو الدكتور مهدي الخزومي^(١٠) . ومن أبرز الاعتراضات التى أثارها ، أن نظرية الدكتور أنيس ، لا تستطيع أن تفسر اختلاف اللهجات العربية فى الوقف ؛ مثل لهجة أزد السراة ، الذين إذا وقفوا على المرفوع ، نطقوا بضمته وأطالوها ، فكأنما هى واو ، وإذا وقفوا على المكسور أطالوا كسرتة ، فكأنما هى ياء ، فيقولون فى الجملتين : هل جاء خالد ؟ وهل مررت بخالد ؟ : خالدو ، وخالدى ، حين يريدون الوقف^(١١) ؛ فيقول الدكتور الخزومي : « فإذا

(٩) من أسرار اللغة ٢٥٢

(١٠) فى كتابه : « مدرسة الكوفة ومنهجها فى دراسة اللغة والنحو » ص ٢٤٩ - ٢٥٦

(١١) انظر : كتاب سيبويه ٢٨١/٢

لم تكن الحركات أعلاما لمعان قصد إليها المتكلم ، بل لم تُعَدُّ أن تكون حركات يحتاج إليها في الكثير من الأحيان ، لوصل الكلمات بعضها مع بعض ، فكيف يفسر الوقف على : خالد في لغة من ينتظر (وهي لغة أزد السراة) ؟ ولماذا كانت الدال مرفوعة ومنصوبة ومخفوضة في الجمل الثلاث ؟ ولماذا لا تكسر لتنسجم حركة الدال مع حركة اللام قبلها ؟ ... وعليه فإن القول بأن الحركات ، إنما هي سدّ للحاجة إلى وصل الكلمات بعضها ببعض ، وأنها ليست أعلاما للمعاني التي قصد إليها المتكلم ، قول لم يحالفه التوفيق^(١٢) .

وكان كلام الدكتور المخزومي قصيرا في جملته ، كما أنه لم يشير إلى اللغات السامية الأخرى ، التي تعارض أصالة الإعراب فيها ، نظرية الدكتور أنيس تماما ، كما سنيين ذلك فيما بعد^(١٣) .

ولم يكن الدكتور أنيس ، هو أول من شك في حقيقة الإعراب ، وفسّره هذا التفسير ؛ فقد ذكرنا في بداية حديثنا رأى قطرب ، في أن الإعراب لم يدخل في اللغة العربية للدلالة على المعاني ، وإنما دخل تخفيفا على اللسان ، ورأينا كيف ردّ اللغويون هذا الكلام ، ولم يأخذ به واحد منهم .

ومن المستشرقين من تشكك قبل الدكتور أنيس ، في اللغة العربية الفصحى ، وفي أهم خصائصها ، وهو الإعراب كذلك . ومن هؤلاء « كارل فوللرز »^(١٤) Karl Vollers الذي كان يرى أن النص الأصلي للقرآن ، قد كتب بإحدى اللهجات الشعبية ، التي كانت سائدة في الحجاز ، والتي لا يوجد فيها كما لا يوجد في غيرها تلك النهايات المسماة

(١٢) مدرسة الكوفة ٢٥١

(١٣) انظر ردا آخر قصيرا للدكتور صبحي الصالح ، في كتابه : دراسات في فقه اللغة ص ١٢٦

وانظر كذلك : فقه اللغة المقارن ، للدكتور إبراهيم السامرائي ١٢١

(١٤) في كتابه : Volkssprache und Schriftsprache in alten Arabien « اللغة الشعبية واللغة

الأدبية في الجزيرة العربية القديمة » - شتراسبورج ١٩٠٦

بالإعراب ، وأنه انتقل إلى هذا النص فيما بعد ، الشكل الأدبي للغة العربية ، الذى هو عليه الآن . وهو يرى أن العربية الفصحى ، التى رواها لنا النحويون العرب ، والتى توجد فى القرآن ، كما احتفظ بها الشعر فى موازينه - هذه العربية يراها « فوللرز » مصنوعة ، وهو ينكر على الإطلاق أن تكون هذه اللغة ، كانت حية فى مكة ، على عهد النبی محمد ﷺ ، كما يشك أن يكون البدو الذين خرج من بينهم الشعراء ، كانوا يتكلمون هذه اللغة .

ومن المتشككين كذلك : « پاول كاله » Paul E . Kahle فى فصل من كتابه : « الذخائر القاهرية » Die Kairoer Genisa بعنوان : « نص القرآن العربى » ، يقول فيه : « جمع نص القرآن ، بعد وفاة النبی ﷺ ، بمدة وجيزة فى عام ٦٣٢ م ، وأخذ شكله النهائى فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٦٣٣ - ٦٥٥) ، وهنا قامت مشكلة : كيف يقرأ هذا النص ويرتل ؟ فقد ولد محمد ﷺ ، وانحدر - كمعظم مواطنيه - من القبيلة العربية : (قريش) . وكانت اللغة العربية التى يتكلمها ، هى لغة المواطن المثقف فى مكة . والنص القرآنى الخالى من الضبط بالشكل ، يعكس بوضوح اللغة العربية ، التى كانت تتكلم فى مكة . غير أن العرب كانوا قد تعودوا أن يعدّوا اللغة البدوية ، نموذجاً للنطق الصحيح ، فهذه اللغة نظم الشعر العربى الجاهلى ، وكان كل عربى مزهواً بذلك . وإذا كانت كلمة الله لا يصح أن ترتل بلغة ، أقل مستوى من أية لغة أخرى ، فقد بدأت فى العواصم الإسلامية ، فى ذلك العصر المبكر - فى الكوفة والبصرة والمدينة ومكة - دراسة نشيطة للشعر البدوى ، فكان الرجال المهتمون بهذا النمط فى اللغة العربية ، يذهبون إلى جيرانهم من البدو ، ويجمعون ما أمكنهم من أشعارهم ، وما يتصل بها من الحكايات ، وهى فى الغالب أخبار عن الحروب الصغيرة ، التى جمعت تحت عنوان : أيام العرب . وقد اتخذت المادة التى جمعت بهذه الطريقة ، أساساً للعربية النموذجية ، التى ابتدعها النحويون ، ثم حذيت لغة القرآن على نمطها ، ومع

ذلك لم تغيّر كتابة المصحف ، بل ابتدعت طريقة ، تضاف فيها علامات مختلفة إلى النص ، لضمان صحة القراءة .

ثم يقول ياول كاله : « ولم تذكر كتب القراءات بوجه عام ، شيئاً عن النشاط المبكر للقراء ؛ فقد ضاعت أو أهملت تلك الكتب التي ذكرت شيئاً عن هذا النشاط ، فيما عدا خبراً ، عثرت عليه مؤخرًا ، ويمكن أن يرى من خلاله ذلك التطور » .

ويظن « ياول كاله » أنه عثر على بغيته ، في اقتباس عن الفراء ، وجدته في مجموعة مخطوطة بمكتبة « تشستر بتي » Chester - Beatty رقم ٧٠٥ وفيه : « قال الفراء : وقد رأينا أهل القراءة ، الذين يعرفون الكتاب والسنة ، من أهل الفصاحة ، اجتمعوا على أنه نزل بأفصح اللغات ، فاعترض في ذلك أقوام ممن ينظر في الأشعار وأيام العرب ، فقالوا : إنما فضل القرآن من فضله ، لما أوجب الله من تعظيم القرآن ، فإذا صرنا إلى الفصاحة وجدناها في أهل البوادي . واختلفوا في ذلك ؛ فقال أهل الكوفة : الفصاحة في أسد ؛ لقرب جوارهم منهم . وقال أهل البصرة : الفصاحة في عليا تميم وسفلى قيس من عكل وعقيل . وقال أهل المدينة : الفصاحة في غطفان ؛ لأنهم جيرانهم . وقال أهل مكة : الفصاحة في كنانة بن سعد ابن بكر وثقيف . فأحببنا أن نردهم بالآثار والقياس والاعتبار ، إلى تفضيل لغة قريش على سائر اللغات ... قال : وسمع عمر بن الخطاب رجلاً يقرأ : عتّى حين يريد : حتى حين ، فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : عبد الله بن مسعود . قال : فكتب إلى عبد الله : إن القرآن نزل بلغة قريش ، ولم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئه الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، وقال أبو بكر الصديق رحمه الله : إن إعراب القرآن ، لأحبّ إليّ من حفظ بعض حروفه^(١٥) ... وقال ابن مسعود : جَوّدوا القرآن ، وزَيّنوه بأحسن

(١٥) في الإيضاح للزجاجي ٩٦ : « وقال أبو بكر وعمر : تعلم إعراب القرآن أحبّ إلينا من تعلم حروفه » . وانظر بعض الأحاديث المماثلة في إيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنباري ١٥ - ٢٢ والزينة لأبي حاتم الرازي ١١٧/١

الأصوات ، وأعربوه فإنه عربى ، والله يحب أن يعرب » .

وقد علق « كاله » على كلمة : « إعراب » فى نص أبى بكر الصديق ، بقوله : « الإعراب يعنى : الحركات فى أواخر الكلمات العربية ، طبقا لقواعد العربية الفصحى » . وقد استنتج « كاله » من ذلك أن « الإلحاح على طلب قراءة القرآن بالإعراب ، لا يبدو معقولا ، إلا إذا كان يقرأ فى الواقع بدون إعراب ، وأريد له أن يقرأ بالإعراب ، الذى عُذَّ فى وقت متأخر ، من مظاهر الصحة اللغوية » .

وهو مخطئ فى استنتاجه ذلك ؛ لأن الإعراب بمعناه الاصطلاحي ، لم يكن معروفا فى أيام أبى بكر وابن مسعود . ومعنى كلمة : « إعراب القرآن » فى هذه الأحاديث - إن لم تكن مزيفة - هو الوضوح والبيان فى قراءة القرآن الكريم .

وإذا كان هذان المستشرقان : « فوللرز » و« كاله » ، يريان هذا الرأى الغريب فى العربية الفصحى والإعراب ، فإن كثيرا من المستشرقين ، قد دافعوا عن أصالة الإعراب فى العربية ، مثل : « نولدكه » Th . Nöldeke الذى يرى فى مقالة له بعنوان : « ملاحظات على لغة العرب القدامى^(١٦) » : « أنه من غير المعقول أن يكون محمد ﷺ ، قد استخدم فى القرآن ، لغة تخالف كل المخالفة ، تلك اللغة التى كانت شائعة فى مكة آنذاك ، وأن يكون قد اعتنى بالإعراب هذه العناية ، وقومه لا يستخدمون هذا الإعراب فى كلامهم » . كما يرى نولدكه : « أن شعر ذلك العصر ، كان يمثل لغة البدو ، التى كانوا يتحدثون بها فى ذلك الوقت ، والتى ظلوا يتحدثون بها زمنا طويلا بعد ذلك ، ولا يغير من هذه القضية شيئا ، أن لغة الشعر بها بعض الاختلاف عن لغة الحياة العامة ، وأن الشاعر ما كان يضطره وزن الشعر وأسلوبه ، إلى الإتيان بتعبيرات خارجة

عن المؤلف ، وغير ذلك من الأمور التي لاحظها كذلك قدامى اللغويين العرب ، وسجلوها بدقة » .

ويستطرد « نولدكه » في مقاله هذا إلى أن « فتسشتاين Wetzstein كان يرى هو أيضا ، أن لغة الشعر مصنوعة تماما ؛ فقد درس العربية الحديثة ، وتأثر بها إلى درجة أنه أصبح يرى أن القواعد ، التي نطالب بها من يريد التحدث بالعربية الفصحى ، عديمة الجدوى . ولم يذهب (فوللرز) إلى هذا الحد من التفكير بالنسبة للعربية ، ولكنه كان يرى أن اللغويين العرب ، قد جمعوا عناصر الإعراب بمهارة فائقة وأكملوها » .

ويرى « نولدكه » كذلك أنه « من الخطأ الشنيع ، الاعتقاد بأن اللغة الحية في عهد النبي محمد ﷺ ، لم يكن فيها إعراب ؛ فإن العلماء في عصر هارون الرشيد ، قد وجدوا الإعراب بكل دقائقه لدى البدو . ولكن ظاهرة الوقف الشائعة كثيرا في الحديث اليومي ، قد عوّدت الأذن على سماع الصيغ الحالية من الإعراب ، فاستطاع أحد الشعراء استخدامها ، عند اتصال الكلام كذلك ، وعلى الأخص في صيغة المضارع ، التي لا تتلاءم كثيرا مع وزن الشعر^(١٧) » .

كما يرى « نولدكه » في الفصل الذي كتبه عن « لغة القرآن » في كتابه : « مقالات جديدة في علم اللغات السامية^(١٨) » أنه « لو كان النبي ﷺ ، أو أحد معاصريه من المؤمنين ، قد نطق بالقرآن دون إعراب ، لكان من غير الممكن أن تضع الروايات الخاصة بذلك ، دون أن يبقى لنا آثار منها » .

وأخيرا يرى « نولدكه » كذلك ، أن « لهجة شديدة الانحراف عن عربية النحاة ، لا يناسبها مطلقا بحور الشعر المعروفة^(١٩) » .

(١٧) انظر : Nöldeke, Zur Grammatik 10

(١٨) Noldeke, Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft

(١٩) اللغات السامية ، لنولدكه ٧٥

ويقول المستشرق « يوهان فك » J. Fück : « قد احتفظت العربية الفصحى ، في ظاهرة التصرف الإعرابى ، بسمة من أقدم السمات اللغوية ، التى فقدتها جميع اللغات السامية - بانستناء البابلية القديمة - قبل عصر نموها وازدهارها الأدبى . وقد احتدم النزاع ، حول غاية بقاء هذا التصرف الإعرابى ، فى لغة التخاطب الحى ، فأشعار عرب البادية - قبل الإسلام وفى عصوره الأولى - ترينا علامات الإعراب مطردة ، كاملة السلطان ، كما أن الحقيقة الثابتة ، من أن النحويين العرب كانوا - حتى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى على الأقل - يختلفون إلى عرب البادية ، ليدرسوا لغتهم ، تدل على أن التصرف الإعرابى ، كان فى أوج ازدهاره آنذاك ، بل لا نزال حتى اليوم ، نجد فى بعض البقايا الجامدة من لهجات العرب البداءة ، ظواهر الإعراب^(٢٠) » .

ويقول المستشرق « برجشتراسر » G . Bergsträsser : « والإعراب سامى الأصل ، تشترك فيه اللغة الأكادية ، وفى بعضه الحبشية ، ونجد آثارا منه فى غيرها أيضا^(٢١) » .

ونصل الآن إلى موقفنا من الإعراب ، ونظرية الدكتور أنيس فى تفسيره ، فنقول إن الإعراب فى العربية ، كان - كما يقول النحاة العرب - يدل على المعانى ، من الفاعلية والمفعولية وغيرها ، ولم يكن حركات وصل بين الكلمات ، كما يرى الدكتور أنيس . ودليلنا على ذلك عدة أمور :

أولا : وجود الإعراب كاملا فى بعض اللغات السامية القديمة ، كالأكدية ، وتشمل اللغتين : البابلية والآشورية فى عصورهما القديمة . وهذا قانون « حَمُورابى » (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق م) ، المدون باللغة البابلية القديمة ، يوجد فيه الإعراب ، كما هو فى اللغة العربية الفصحى تماما ،

(٢٠) العربية ، ليوهان فك ١٥

(٢١) التطور النحوى ، لبرجشتراسر ١١٦

فالفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، وعلامة الرفع الضمة ، وعلامة النصب الفتحة ، وعلامة الجر الكسرة ، تماما كما في العربية ؛ ففي الفقرة الأولى من هذا القانون ، نقرأ الجملة التالية : šummā awēlum awēlam ubbirma بمعنى : « إذا اتهم إنسان إنسانا » ؛ ففي هذه الجملة نجد awēlum الأولى بمعنى : « إنسان » في حالة الفاعل ، وهي مرفوعة بالضمة . أما الميم الأخيرة ، فهي في الأكادية ، تقابل التنوين في اللغة العربية ، و awēlam الثانية في حالة المفعول ، وهي منصوبة بالفتحة ، وبعدها التميم كذلك .

وفي الفقرة الخامسة من قانون حمورابي : šummā dayānum dinam iddin بمعنى : « إذا حكم قاض حكما » ؛ فكلمة : dayānum بمعنى : « قاض » في حالة الفاعلية ، وهي مرفوعة بالضمة ، وكلمة : dinam بمعنى : « حكم » في حالة المفعولية ، وهي منصوبة بالفتحة .

وفي الفقرة ١٩٥ من هذا القانون : šummā maru abāšu imtaḥas بمعنى : « إذا ضرب ابن أباه » ، نجد كلمة : abāšu بمعنى : « أباه » ، وهي في حالة المفعولية ، منصوبة بالألف ؛ لأنها من الأسماء الخمسة ، تماما كما في العربية .

ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل إن المثني وجمع المذكر ، يماثلان في الإعراب : المثني والجمع في العربية ، فيرفع المثني بالألف ، وينصب ويجر بالياء ، التي تحولت إلى كسرة طويلة مماله ، بعد انكماش الصوت المركب ، كما حدث في اللهجات العربية الحديثة ، في مثل : « مَرَكِبَيْن » ؛ فيقال في الأكادية مثلا : īnān بمعنى : (عینان) في حالة الرفع ، و īnēn في حالتی النصب والجر . أما جمع المذكر ، فإنه يرفع بالواو ، وينصب ويجر بالياء ؛ فيقال مثلا : šarrū بمعنى : (ملوك)

في حالة الرفع ، و sarri في حالتى النصب والجر^(٢٢) .

وقد اختلطت حالات الإعراب ، في العصور المتأخرة للأكادية . ويرجح المستشرقون أن الإعراب ، كان قد زال من الاستعمال الحى في تلك العصور ، وأن ما يوجد منه مختلطا في الكتابة ، سببه محاولة تقليد الكتاب ، للكتابات القديمة^(٢٣) .

وتوجد حالات الإعراب كذلك ، في اللغة الأوجاريتية ، وهى - كما عرفنا من قبل - إحدى اللغات السامية ، المكتشفة حديثا في منطقة : « راس شمرا » على الساحل الشمالى لسوريا ، وهى مكتوبة بالخط المسمارى ، غير أنه يسير فيها على النظام الأبجدى ، ولا يوجد بها رموز لضبط الحركات ، إلا في الرمز الدال على صوت همزة ، فإن هذا الرمز له ثلاث صور ، ونجد في هذه الكتابات الأوجاريتية ، أن الكلمة إذا كانت منتهية بالهمزة ، صورت الهمزة فيها بإحدى الصور في حالة الرفع ، وبالصورة الثانية في حالة النصب ، وبالصورة الثالثة في حالة الجر^(٢٤) .

بل إن اللغة الحبشية ، تكفى هى أيضا للتدليل على أصالة الإعراب ، ودلالته على المعانى في اللغة العربية ؛ إذ تظهر في الحبشية حالة النصب ، التى تطابق من الناحية الإعرابية ، نظيرتها في اللغة العربية ، إلى حد كبير .

ففى الحبشية يقال مثلا : wa'aḳamka lōtū kīdāna بمعنى : « وأقمت له عهداً » . وكذلك : re'īku ḥatī'ata بمعنى : « رأيتُ »

(٢٢) لا نريد الخوض في تفاصيل اللغة الأكادية ، وحالات الإعراب فيها ، ويكفى أن نحيل الباحث ، على أحد المؤلفات المهمة في قواعد اللغة الأكادية ، للمستشرق : « فون سودن » W.von Soden وهو : Grundriss der akkadischen Grammatik « الأساس في قواعد الأكادية » - روما سنة ١٩٥٢ م .

(٢٣) انظر : فقه اللغات السامية لبروكلمان ١٠٢

(٢٤) انظر كتاب « جوردون » : C.H.Gordon, Ugaritic Manual, Roma 1955 وانظر

كذلك : S.Moscatti, An Introduction, 95 .

خطيئة» ، وكذلك مثل : fatarka lā'lēhū mōta بمعنى : « كتبت عليه الموت^(٢٥) » .

ويقول نولدكه : « وهذه حركة الفتح ، في نهاية الماضي للغائب المذكور ، تلك الحركة التي ضاعت من اللهجات العربية الحديثة ، لا تزال موجودة في لغة من اللغات السامية ، ابتعدت فيما عدا ذلك عن أخواتها الساميات بعداً كبيراً ، ونعنى بها اللغة الأمهرية في الحبشية ، ولم يبق من هذه الفتحة في اللغات السامية الأخرى ، إلا آثار ضئيلة (ولا سيما عند الاتصال ببعض ضمائر النصب) . ونحن نعدّ هذه الفتحة من مسائل الإعراب ، تماماً كأي حركة إعراب أخرى^(٢٦) » .

هذا ، وفي اللغات السامية الأخرى ، عدا الأكادية والأوجاريتية والحبشية ، بقايا حقيقية وأخرى مظنونة ، من حالات الإعراب ، التي كانت موجودة في اللغة السامية الأم ، غير أن المقام لا يتسع لتفصيل القول فيها هنا^(٢٧) .

ثانياً : القرآن الكريم ، الذي وصل إلينا متواتراً ، بالرواية الشفوية الموثوق بها جيلاً بعد جيل ، وصل إلينا معرباً . ولا نظن أحداً يعتقد أن النبي ﷺ ، كان لا يحرك أواخر الكلمات في تلاوته لنص القرآن الكريم ، إلا حيث اقتضته ضرورة وصل الكلمات ، أو بعبارة أخرى ، حيث أراد التخلص من التقاء الساكنين عند اتصال الكلام ، فمن غير الممكن ، ورواية القرآن الكريم إلى هذا الحد من التواتر ، أن نظن أن النبي ﷺ ، كان يتلو قوله تعالى في سورة القلم : « ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون » ، بتسكين أواخر كلمات :

(٢٥) انظر كتابنا : نصوص من اللغات السامية ، ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢٦) انظر : Th.Nöldeke, Einige Bemerkungen, ZA, Bd. xii 172 .

(٢٧) أشار إلى هذه البقايا « بروكلمان » C. Brockelmann في كتابه المشهور : Grundriss der vergleichenden Grammatik, I 459-766 .

القلم - بنعمة - ربك - وإنك - خلق ، حيث لا يوجد ما يدعو إلى تحريكها من الناحية الصوتية . إننا نعتقد أن ذلك لم يحدث ، ولو حدث لوصلت إلينا روايات عن ذلك . وقد كان « نولدكه » على حق ، عندما رأى - في قوله الذى سبق أن ذكرناه هنا - أنه « لو كان النبی ﷺ ، أو أحد معاصريه من المؤمنين ، قد نطق بالقرآن دون إعراب ، لكان من غير الممكن أن تضع الروايات الخاصة بذلك ، دون أن يبقى لنا آثار منها » .

ثالثا : الرسم القرآنى ، الذى نقل إلينا متواترا ، يؤيد وجود الإعراب فى العربية الفصحى ، وأنه ليس من اختراع النحاة ، وإلا فكيف نفسر وجود الألف فى الخط العثمانى ، فى حالة المنصوب المنون . وإننا إذا نظرنا مثلا فى قول الله تعالى : « وما الله بغافل » ، وقوله : « ولا تحسبن الله غافلا » ، عسر علينا فهم السرّ فى تحريك اللام فى : (غافل) الأولى بالكسرة ، وفى الثانية بالفتحة ، لو أن الأمر لا يعدو الانسجام الموسيقى ، والضرورة الصوتية . ومثل ذلك فى قوله تعالى : « إنا وجدناه صابرا نعم العبد » وقوله : « أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » ، وغير ذلك .

وقد تنبه إلى هذه النقطة ، الدكتور على عبد الواحد وافي ، فقال : « وإن فى رسم المصحف العثمانى نفسه ، مع تجرّده من الإعجام والشكل ، لدليلا على فساد هذا المذهب - وذلك أن المصحف العثمانى ، يرمز إلى كثير من علامات الإعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنون ...) ، وعلامة إعراب المنصوب المنون (رسولا ، شهيدا ، بصيرا ...) وهلم جراً . ولا شك أن المصحف العثمانى ، قد دُوّن فى عصر سابق بأمد غير قصير ، لعهد علماء البصرة والكوفة ، الذين تنسب إليهم هذه المذاهب الفاسدة ، اختراع قواعد الإعراب^(٢٨) » .

رابعا : الشعر العربى بموازينه وبحوره ، لا يقبل نظرية الدكتور إبراهيم

(٢٨) فقه اللغة ، لعل عبد الواحد وافي ٢٠٩ .

أنيس ، بحال من الأحوال ، ويكفى أن تقرأ بيتا كبيت بشر بن أبي خازم :

فَكَأَنَّ ظُغْنَهُمْ غَدَاةً تَحْمَلُوا

سُفْنٌ تَكْفَأُ فِي خَلِيجٍ مُغْرِبٍ^(٢٩)

بتسكين أواخر كلماته ؛ لتدرك إلى أى حد يفقد البيت وزنه الشعري ، ووقعه الموسيقى على النفوس .

خامسا : هذه الأخبار الكثيرة ، التي وصلت إلينا ، والتي تدل على فطنة العلماء ، في الصدر الأول ، إلى هذه الحركات الإعرابية ومدلولها ، وعيهم من يحيد عنها ، ممن فسدت ألسنتهم ، بمخالطتهم للأعاجم . ونحن وإن كنا نشك في صدق بعض هذه الأخبار ، لما يبدو فيها من مسحة التكلف والصنعة ، فإننا نرى في جملتها دلالة صادقة ، على وجود الإعراب في الكلام وشعور هؤلاء القوم به ، قبل أن يخرج النحاة بنظرياتهم على الناس .

فقد كتب كاتب لأبي موسى الأشعري ، إلى عمر بن الخطاب :

« من أبو موسى » . فكتب إليه عمر رضى الله عنه : « سلام الله عليك ، فاضرب كاتبك سوطا ، واحداً ، وأخر عطاءه سنة^(٣٠) » .

ويروى عن أبي الأسود الدؤلى ، أنه سمع رجلا يقرأ : « أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ » ، بكسر اللام ، فقال : « لا أظن يسعنى إلا أن أضع شيئا أصح به نحو هذا^(٣١) » .

ويروى أن أبا الأسود الدؤلى ، جاء إلى زياد بالبصرة ، فقال : إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم وتغيرت الألسنة ، أفتأذن لى أن أضع للعرب

(٢٩) ديوانه ق ٤/٧ ص ٣٥

(٣٠) مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوى ٦ ونور القبس المختصر من المقتبس للمرزبانى ٣ وانظر :

إيضاح الوقف والابتداء ، لابن الأنبارى ٢٥

(٣١) مراتب النحويين ٨ وأخبار النحويين البصريين للسيرافى ١٢ ونور القبس ٤ والفهرست لابن

النديم ٦٦ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ٣ وإنباه الرواة للقفطى ٥/١

كلاما يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ قال : لا ، فجاء رجل إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وترك بنونا . فقال زياد : توفي أبانا وترك بنونا . ! ادع لي أبا الأسود ، فقال : ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم (٣٢) .

ويروى أن ابنة أبي الأسود ، قالت لأبيها يوما : يا أبت ما أحسن السماء . قال : أي بُنيّة ، نجومُها . قالت : إني لم أرد أي شيء منها أحسن ، وإنما تعجبت من حسنها . قال إذن فقولي : ما أحسن السماء ! (٣٣)

كما يروى أن ابنته قالت له : يا أبت ، ما أشدّ الحرّ - في يوم شديد الحرّ - فقال لها : إذا كانت الصقعاء (أي الشمس) من فوقك ، والرمضاء من تحتك . قالت : إنما أردت أن الحرّ شديد . قال : فقولي إذن : ما أشدّ الحرّ (٣٤) .

وقال رجل للحسن البصري : يا أبو سعيد ، فقال له : كسب الدوانيق شغلك عن أن تقول : يا أبا سعيد (٣٥) .

ودخل رجل على زياد ، فقال له : إن أيينا هلك ، وإن أيينا غصبنا على ميراثنا من أبانا ، فقال زياد : ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك (٣٦) .

ومثل ذلك حدث لسليمان بن عبد الملك ، فقد قام إليه رجل ، وقال : أصلح الله الأمير ، إن أيينا هلك ، فوثب أخانا ، وأخذ ما لنا ، فقال

(٣٢) أخبار النحويين البصريين ١٣ وطبقات النحويين للزبيدي ١٤ ونزهة الألباء ٥ وإيضاح الوقف والابتداء ٤٢ - ٤٣

(٣٣) أخبار النحويين البصريين ١٤ ونزهة الألباء ٥ وإنباه الرواة ١٦/١

(٣٤) أخبار النحويين البصريين ١٤ وطبقات النحويين للزبيدي ١٤ وإنباه الرواة ١٦/١

(٣٥) نور القبس المختصر من المقنيس للمرزباني ٣ وإيضاح الوقف والابتداء ٥٨

(٣٦) عيون الأخبار ، لابن قتيبة ١٥٩/٢

سليمان : فلا رحم الله أباك ، ولا عافى أخاك ، ولا ردّ مالك . السَّوْط !!
فلما أخذه السوط قال : بِسْمِ اللَّهِ . قال سليمان : دعوه ، فلو كان تارك
اللحن ، ترك الساعة^(٣٧)

ودخل على عبد العزيز بن مروان ، رجل يشكو صهراً له ، فقال : إن
خَتْنِي فعل كذا وكذا . فقال له عبد العزيز : ومن خَتْنِكَ ؟ قال : الخَتَّان
الذى يختن الناس . فقال عبد العزيز لكتابه : ويحك ، بم أجابني ؟ فقال :
أيها الأمير إنك لحنّت - وهو لا يعرف اللحن - كان ينبغي أن تقول :
من خَتْنُكَ ؟^(٣٨)

ومرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، على قوم يسيئون الرمى ،
فقرّعهم ، فقالوا : إنا قوم متعلمين ، فأعرض مغضباً ، وقال : والله لخطؤكم
في لسانكم أشدّ علىّ من خطئكم في رميكم^(٣٩) .

واستأذن رجل على إبراهيم النخعي ، فقال : أبا عمران في الدار ؟
فلم يجبه ، فقال : أبا عمران في الدار ؟ فناداه : قل الثالثة وادخل^(٤٠) .
ومثل ذلك يروى عن الحسن البصري ؛ إذ قرع عليه الباب رجل ،
وقال : يا أبو سعيد ، فلم يجبه ، فقال : يا أبا سعيد ، فقال الحسن : قل
الثالثة وادخل^(٤١)

كل هذه الروايات وأمثالها ، تدلنا على وجود الإعراب ، كما يعرفه
النحويون في العربية الفصحى ، كما تدلنا من جانب آخر ، على أنه لم يكن
لغة سليقة لكل من تكلم العربية ، بدليل وقوع اللحن الإعرابي في كلام
هؤلاء القوم ، ومعظمهم من الموالى .

(٣٧) نور القيس المختصر من المقتبس للمرزباني ٣ ومعجم الأدباء لياقوت ٨٦/١

(٣٨) نور القيس المختصر من المقتبس للمرزباني ٣

(٣٩) معجم الأدباء ٦٧/١ وإيضاح الوقف والابتداء ٥٠

(٤٠) معجم الأدباء ٦٨/١

(٤١) معجم الأدباء ٧٩/١

سادسا : ومما يؤيد رأينا في أن الإعراب ليس مصنوعا ، أن العلماء في عصر هارون الرشيد ، كانوا يسمعون به بكل دقائقه من الأعراب الذين كانوا يلقونهم . وهذا هو سيبويه ، يروى في كتابه كثيرا عنهم ، مثل قوله (٤٢) :

- ١ : ٣/١٤٧ : ومن ذلك قول العرب .
 ١ : ١٢/١٥٣ : وزعم أبو الخطاب أنه سمع بعض العرب الموثوق بعربيتهم .
 ١ : ٦/١٥٦ : وسمعنا أيضا من العرب من يوثق بعربيته يقول .
 ١ : ٨/١٦١ : وهذا مثل بيت سمعناه من بعض العرب الموثوق به يرويه .
 ١ : ٥/١٩٨ : وسمعنا العرب الموثوق بهم .
 ١ : ١/٢٠٢ : سمعنا ذلك ممن يوثق به من العرب .
 ١ : ١١/٢١٠ : وسمعنا بعض العرب الموثوق بهم .
 ١ : ١٩/٢١٤ : كذا سمعنا العرب تنشده .
 ١ : ١٠/٢٢٧ : ولو أن هذا القياس لم تكن العرب الموثوق بعربيتهم تقوله ، لم يلتفت إليه ، ولكننا سمعناها تنشد هذا البيت جرّاً ... سمعنا من العرب من يرويه ، ويروى القصيدة التي فيها هذا البيت ، لم يلقنه أحد ، هكذا .
 ١ : ١٤/٢٥٠ : كذا سمعناه من العرب .
 ١ : ١٨/٢٥٨ : حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب ، عمن يوثق به من العرب .
 ١ : ٨/٢٧١ : وحدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربيته ... وحدثني أبو الخطاب أنه سمع من يوثق بعربيته من العرب .
 ١ : ١٨/٣٠٧ : وزعم لي بعض العرب .
 ١ : ٨/٤٥١ : وسمعنا عربيا موثقاً بعربيته .

(٤٢) وانظر أيضا : فهارس كتاب سيبويه ، للشيخ عزيمة ٣٦ - ٤١

١ : ٨/٤٧٥ : وحدثني من لا أتهم ، عن رجل من أهل المدينة موثق به ، أنه سمع عربيا يتكلم .

ويزعم أبو زيد الأنصاري (المتوفى سنة ٢١٤ هـ) أنه هو المعنى بمثل عبارة سيبويه : « وسمعنا الثقة من العرب^(٤٣) » .

وهذا ابن جنى فى القرن الرابع الهجرى (المتوفى سنة ٣٩٢ هـ) ، يروى عنه أن البدو كانوا لا يزالون ينطقون بالإعراب فى عصره ؛ يقول ابن جنى : « وعلى نحو ذلك ، فحضرني قديما بالموصل أعرابي عقيلي جوثنى تميمي ، يقال له محمد بن العساف الشجرى ، وقلما رأيت بدويا أفصح منه ، فقلت له يوما شغفا بفصاحته ، والتذاذا بمطاولته ، وجريا على العادة معه فى إيقاظ طبعه ، واقتداح زند فطنته : كيف تقول : (أكرم أخوك أباك) ؟ فقال : كذلك ، فقلت له : أفنقول : (أكرم أخوك أبوك) ؟ فقال : لا أقول : (أبوك) أبدا . فقلت : فكيف تقول : (أكرمنى أبوك) ؟ فقال : كذاك . قلت أأستترعم أنك لا تقول : (أبوك) أبدا ؟ فقال : أيش هذا ؟ اختلفت جهتا الكلام ! فهل قوله : اختلفت جهتا الكلام ، إلا كقولنا نحن : هو الآن فاعل ، وكان فى الأول مفعولا ؟ فانظر إلى قيام معانى هذا الأمر فى أنفسهم ، وإن لم تقطع به عبارتهم^(٤٤) » .

ونختم حديثنا فى هذه النقطة ، بما قاله الدكتور على عبد الواحد وافي : « وإذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد ، تواطئوا جميعا على اختلاق الإعراب ، فإنه لا يمكن أن نتصور أنه تواطأ معهم عليه ،

(٤٣) سيبويه ١ : ١٣/٣٣١ ويقول السيرافي : « وذكر أبو زيد النحوى اللغوى ، كالمفتخر بذلك بعد موت سيبويه ، قال : كل ما قاله سيبويه : وأخبرني الثقة فأنا أخبرته » (أخبار النحويين البصريين ٣٧) . ويقول ياقوت : « وكان سيبويه إذا قال : سمعت الثقة ، يريد به : أبا زيد الأنصاري (معجم الأدباء ٢١٥/١١ وانظر : الاقتراح ٢١) .

(٤٤) معجم الأدباء ١٠٥/١٢ وهو فى الخصائص ٧٦/١ ؛ ٢٥٠/١ مع اختلاف فى الرواية . وانظر حوار آخر لابن جنى مع الشجرى هذا ، فى معجم الأدباء ١٠٦/١٢ - ١٠٩ .

جميع العلماء من معاصريهم ، فأجمعوا كلمتهم ألا يذكر أحد منهم شيئا ما ، عن هذا الاختراع العجيب ، ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد ، على أنها ممثلة لقواعد لغتهم ، ويحتذوها في كتاباتهم ، اللهم إلا إذا كان علماء البصرة والكوفة ، قد سحروا عقول الناس واسترهبوهم ، وأنسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها ، فجعلوهم يعتقدون أن ما جاءوا به من الإفك ، ممثل لفصيح هذه اللغة^(٤٥) » .

★ ★ ★

وفيما يلي نشير إلى رأى المستشرقين في تفسير حركات الإعراب في اللغات السامية . وقد كتب في ذلك منهم كل من « وليم رايت » W . Wright في كتابه : « محاضرات في النحو المقارن للغات السامية » Lectures on the Comparative Grammar of the Semitic Languages (كمبردج ١٨٩٠ م . ص ١٤٣) ، و « كارل بروكلمان » في كتابيه : « فقه اللغات السامية » Semitische Sprachwissenschaft (ليبزج ١٩٠٦ م . ص ١١١ - ١١٢) ، وكتاب : « الأساس في النحو المقارن للغات السامية » Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen (برلين ١٩٠٨ م - ١ - ٤٥٩ - ٤٦٠)

وخلاصة رأيهما أنه من الجائز أن تكون اللغة السامية الأم ، كانت تفرق بين حالة الرفع ، بوصفها حالة تحديد للمسند إليه ، وربما للمسند أيضا ، باللاحقة (u) ، وحالة الجر ، بوصفها حالة تحديد للاسم ، باللاحقة (i) ، وأخيرا حالة النصب ، بوصفها حالة تحديد للفعل ، باللاحقة (a) . والأصل الأول لكل لاحقة ، لا يعرف على وجه التأكيد ، وربما يكون الشكل الكامل لللاحقة الخاصة بالنصب ، هو : (hā) الموجودة في الحبشية في الأعلام ، ولا سيما أعلام الأشخاص مثل :

(٤٥) فقه اللغة ، لعلي عبد الواحد وافي ٢٠٨

(re'iku yeṣhākḥā) بمعنى : « رأيت إسحاق » . وقد تكون (hā) هذه متصلة بسبب وثيق بـ (hā) الإشارية ، التي لا تزال تستخدم في العربية للتنبيه ، وفي العبرية للتعريف في أول الكلمة ، وفي الآرامية للتعريف في آخرها ، بعد سقوط الهاء منها ، في هذه اللغة الأخيرة . وتدل هذه الهاء في الحقيقة ، على التوجه نحو شيء ما .

وقياسا على تفسير حالة النصب ، قد تكون لاحقة الرفع ، مختصرة من الضمير : « هو » ، أى أصل : « الملك » = الملك + هو !

وأخيرا ، فبالنسبة إلى لاحقة الجر ، ليس الافتراض نهائيا ، أن تكون لها صلة بياء النسب ، التي أصابها التطور هنا ، فحذفت وبقيت الكسرة قبلها .

وعلى أى حال ، لم يقطع المستشرقون برأى ، وذلك لغموض الأصل ، وعدم وضوح الحجة والبرهان على رأى بعينه . وقد وجد تفسيرهم هذا لأصل حركات الإعراب من ينتقده ، ويذهب إلى أنه فروض ، دعا إليها تأثر المستشرقين بنظام لغاتهم ، وسبيل الإعراب والتصريف فيها^(٤٦) .

★ ★ ★

أما متى ضاع الإعراب نهائيا من اللغة العربية ، في الكلام الحى ، فلا نستطيع أن نقطع في ذلك برأى . وقد صدق « نولدكه » حين قال في مقالته السابق الذكر : « ملاحظات على لغة العرب القدامى » : « لسنا نعرف - بسبب قصور الرواية - إلى متى بقى الإعراب ، أو بعضه في القبائل العربية ؛ فإن سكان مكة الذين اختلطوا ، منذ عصر مبكر في الإسلام ، بعناصر أجنبية ، وكذلك سكان المدينة الذين تفرقوا عنها منذ يوم الحرّة - هؤلاء جميعا ، لم يحتفظ منهم إلا عدد قليل ، بالشكل القديم للغة ، ابتداء من النصف الثانى للقرن الأول الهجرى . أما فقدان البدو

(٤٦) من هؤلاء : إبراهيم مصطفى في كتابه : إحياء النحو ٤٥

لظاهرة الإعراب على مرّ السنين ، فهو أمر حدث مثله في تاريخ اللغات البشرية^(٤٧) »

ويعلل « نولدكه » في مقاله المذكور ، لضياع الإعراب من اللغة العربية ، فيرى أن الوقف على الكلمات العربية بالسكون ، في كثير من الأحيان ، كان من الأمور التي ساعدت على فقدان الإعراب من الكلام^(٤٨) ، كما يرى أن ثبات وضع الكلمات في الجملة ، جعل فقدان الإعراب ، غير مؤثر في وضوح المعنى .

وهو وإن كان على حق في القضية الأولى ، فقد أخطأ في القضية الثانية ؛ لأن جملة مثل : « ضرب محمد عليا » يمكن أن تقال في العربية الفصحى بأوجه أخرى ، مثل : « ضرب عليا محمد » ، أو « محمد ضرب عليا » ، أو « عليا ضرب محمد » ، تبعا لاختلاف المقصود من الكلام . وهكذا نرى أن وضع الكلمات ، غير ثابت في الجملة العربية القديمة ، وساعد على هذه الحرية في وضع الكلمات في الجملة ، ظهور الإعراب الذي كان يوضح وظيفة الكلمة في اللغة ، ولولا ظهور الإعراب لاختلط الأمر في الكثير من الأحيان ، فلو أسقطنا الإعراب من جملة : « ضرب محمد عليا » مثلا ، لاختلط علينا الأمر ، فلم نعرف الفاعل من المفعول .

ومثل ذلك في آية : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ »^(٤٩) ، وآية : « أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ »^(٥٠) ، وآية : « وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ »^(٥١) ، فلو أسقطنا الإعراب من هذه الآيات ، لجاز أن يكون المعنى في الآية الأولى : أن الله يخشى العلماء من عباده ، وفي الثانية أن الله

(٤٧) انظر : Th.Nöldeke, Einige Bemerkungen, ZA xii 177

(٤٨) انظر كذلك : اللغات السامية ٨٠

(٤٩) سورة فاطر ٢٨/٣٥

(٥٠) سورة التوبة ٣/٩

(٥١) سورة البقرة ١٢٤/٢

برىء من المشركين ومن رسوله ، وفي الثالثة أن إبراهيم هو الذى ابتلى ربه ، وكل ذلك غير مراد ، بل هو كفر فى بعضه .

لهذا كله نرى أن الإعراب ، كان من الأمور التى تساعد على حرية بناء الجملة العربية ، وأن الجملة العربية ، لهذا السبب ، كانت تقال بأوجه عدة . وهذا هو ما كان الزجاجى يقصد إليه فى النص الذى اقتبسناه من كتابه « الإيضاح » قبل ذلك ، وهو قوله : « ... وكذلك سائر المعانى ، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ، ليتسعوا فى كلامهم ، ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك ، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه ، وتكون الحركات دالة على المعانى » . فلما فقد الإعراب ، كان الواجب أن يلزم بناء الجملة نظاما واحدا ، وهو ما حدث فى اللهجات العربية الحديثة ؛ فإن جملة : « ضرب محمد عليا » مثلا ، أصبحت فى اللهجات الحديثة : « محمد ضرب على » ، بتقديم الفاعل ، والتثنية بالفعل ، ثم الإتيان بالمفعول به .

★ ★ ★

الفصل الثاني

مشكلة الخط العرني وأوهام اللغويين

قد يتعجب بعض الناس ، حين يرانا نعالج موضوع الخط العرني ومشكلاته ، في إطار موضوعات فقه اللغة العربية ، ويرى أن اللغة التي تكون موضوع هذا العلم ، إنما هي اللغة المنطوقة ، وليست اللغة المكتوبة . غير أن الذي دعانا إلى ذلك ، هو أن اللغويين العرب القدامى ، قد تأثروا في بعض الأحيان بالصورة المكتوبة ، وغفلوا عن النطق ، فوقعوا لذلك في أوهام كثيرة في قواعدهم وقوانينهم وأحكامهم اللغوية .

وسوف نعالج هنا أحد هذه الأوهام ، وهو أثر الخط العرني ، في نظرة هؤلاء اللغويين ، إلى أصوات العلة العربية ، وهي التي تسمى في الإنجليزية : Vowels وتُعرّف بأنها الأصوات المجهورة ، التي يحدث في تكوينها أن يندفع الهواء في مجرى مستمر ، خلال الحلق والفم ، وخلال الأنف ، معهما أحيانا ، دون أن يكون هناك عائق ، يعترض مجرى الهواء اعتراضا تاما ، أو تضيق لمجرى الهواء ، من شأنه أن يحدث احتكاكا مسموعا .

ويعرّفها « دانيال جونز » D. Jones بأنها « أصوات مجهورة ، يخرج الهواء عند النطق بها على شكل مستمر ، من الحلق والفم ، دون أن يتعرض لتدخل الأعضاء الصوتية ، تدخلا يمنع خروجه ، أو يسبب فيه احتكاكا مسموعا^(١) » .

وما عدا هذه الأصوات في اللغة ، هي ما تسمى بالأصوات

(١) انظر : D.Jones, An Outline of English Phonetics, 97

الصامتة ، أو ما يطلق عليها بالانجليزية : Consonants . وأصوات العلة في العربية الفصحى ، هي ما سماه نحاة العرب بالحركات ، وهي الفتحة والضمة والكسرة ، وكذلك حروف المد ، كالألف في : « قال » ، والواو في : « يدعو » ، والياء في : « القاضى » .

ولم تحظ أصوات العلة ، من قدامى اللغويين العرب ، بمثل ما حظيت به الأصوات الصامتة من العناية بها ، فإنهم على الرغم من إسهامهم في علاج تلك الأصوات الصامتة ، واعتدادهم بها أصواتا مستقلة متميزة ، رأيناهم يعالجون أصوات العلة علاجا سطحيًا ، وينظرون إليها على أنها تابعة للأصوات الصامتة ، لا تستقل بنفسها في النطق تماما ، كاستقلال الأصوات الصامتة .

ويعبر ابن جنى عن ذلك بقوله : « إن الحرف كالحلّ للحركة ، وهي كالعرض فيه ، فهي لذلك محتاجة إليه^(٢) » ، كما يقول : « لما كان الحرف قد يوجد ولا حركة معه ، وكانت الحركة لا توجد إلا عند وجود الحرف ، صارت كأنها قد حلتّه ، وصار هو كأنه قد تضمّنّها^(٣) » . كما يرى سيويه أن الحرف أقوى من الحركة ؛ فيقول : « لأنهم إذا فصلوا بين المذكر والمؤنث بحرف ، كان أقوى من أن يفصلوا بحركة^(٤) » .

وقد أوقعهم في هذا الخطأ ، أن الكتابة العربية ، لا ترمز إلى الحركات - أو أصوات العلة - القصيرة ، في بنية الكلمة ، وإنما توضع رموزها في الخط فوق الحرف أو تحته ، فتوهموا لذلك أنها تابعة للحرف ، وليست رمزا لصوت مستقل تمام الاستقلال ، لا يقل في شأنه عن رمز الحرف للأصوات الصامتة .

وقد وقعوا في خطأ آخر ، حين عدّوا حروف المد ، وهي الألف

(٢) سر صناعة الإعراب ٣٢/١

(٣) سر صناعة الإعراب ٣٧/١

(٤) كتاب سيويه ٢٩٥/٢

فى مثل : « قام » ، والواو فى مثل : « يدعو » ، والياء فى مثل : « القاضى » - أصواتا صامتة ؛ ولذلك وضعوا قبل الألف علامة الفتحة ، كما وضعوا قبل الواو علامة الضمة ، وقبل الياء علامة الكسرة ، فى حين أن الألف والواو والياء ، فى مثل هذه المواقع ، علامات لأصوات : الفتحة الطويلة ، والضمة الطويلة ، والكسرة الطويلة . وقد وقعوا فى هذا الخطأ أيضا ، بسبب أن الخط العربى يرمز للحركات الطويلة ، بـرمز فى داخل بنية الكلمة ، بعكس الحركات القصيرة .

وهذا العيب فى الخط العربى ، يرجع إلى أصوله التى أخذ منها ، وهو الخط النبطى ، الذى كان منتشرا فى شمالى الجزيرة العربية ، فى الحيرة والأنبار وغيرهما ، قبل مجىء الإسلام . والنبط قوم من الساميين ، كانوا يتكلمون لهجة آرامية ، من تلك اللهجات الآرامية ، التى كانت شائعة فى سوريا والعراق فى ذلك الوقت ، وقد اشتقوا خطوط أبجديتهم من الخط الفينيقي ؛ فقد وضع الفينيقيون - وهم من الأقوام السامية القديمة - نظاما من الرموز لأبجديتهم ، ورثها عنهم بعض شعوب العالم القديم ، بعد أن أحدثوا فيها بعض التغييرات ، على مرّ الزمان .

وعلى الرغم من أن أصوات العلة ، قصيرها وطويلها ، أوضح فى السمع من الأصوات الصامتة بكثير ؛ فإن هؤلاء الساميين ، لم يرمزوا لها فى خطوطهم منذ البداية ، سواء فى ذلك القصير منها والطويل ؛ فكلمة : « كتاب » مثلا ، كانت تكتب : « كتب » ، و « عمود » كانت تكتب : « عمد » و « جميل » كانت تكتب : « جمل » وهكذا^(٥) .

ثم حدث تطور صوتى فى اللغة ، ترتب عليه أن اكتسب بعض رموز الأصوات الصامتة ، صفة الدلالة على أصوات العلة الطويلة ؛ فقد كانت الألف فى الأصل رمزا للهمزة فى مثل : « أكل » و « رأس » و « ملأ »

(٥) يلاحظ أن هذه الأمثلة لتقريب الأمر فى الأذهان ؛ إذ لم يحدث ذلك فى الخط العربى ، وإنما حدث

فى الخط السامى القديم .

مثلا ، كما كان كل من حرفي الواو والياء رمزا للصوت الصامت ، في مثل : « ولد » و « يكتب » و « يوم » و « بيت » وغير ذلك . ثم حدث أن ضاعت الهمزة في غير أول الكلمة ، وتحول الصوت المركب (aw) و (ay) في مثل : « يَوْم » و « بَيْت » إلى حركة طويلة : (ō) و (ē) . ومع حدوث هذا التطور في النطق ، كان الخط ثابتا ، فكان الناطق ينطق مثلا : rās ، ويكتب : « راس » ؛ كما ينطق : yōm ويكتب : « يوم » ؛ وينطق : bēt ويكتب : « بيت » ... إلى غير ذلك .

وهكذا بعد أجيال ، بدا للناس كأن الألف رمز للفتحة الطويلة ، إلى جانب أنها رمز للهمزة ، مع أنها كانت في الأصل رمزا للهمزة فحسب ، ومثل ذلك ظنه الناس في الواو والياء ، أنهما رمزان للضمة الطويلة والكسرة الطويلة ، إلى جانب أنهما رمزان لصوتَي الواو والياء الصامتين .

وعندما استقر ذلك في الأذهان ، استعيرت هذه الرموز للدلالة على الحركات الطويلة ، في الكلمات التي لم يكن فيها أصلا مثل تلك الرموز ؛ وذلك مثل : « كتاب » و « عمود » و « جميل » وغيرها ، غير أن ذلك لم يحدث في أول الأمر بصفة مطردة . وعندما أخذ العرب الخط من النبط ، وجدوهم قد وصلوا إلى هذه المرحلة ، ولهذا فإننا نلاحظ آثار عدم الاطراد هذا ، في الخطوط العربية القديمة ، كالخط العثماني الذي كتب به المصحف ، على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ ففيه كلمات مثل : « أموال » و « كلاله » وغيرهما ، كتبت : « أموال » و « كللة » بدون الألف ، ومثل : « يدعو » و « يأتي » ، كتبت : « يدع » و « يأت » مع عدم وجود جازم قبل هذه الأفعال^(٦) . وعلى الرغم من تعميم استخدام هذه الرموز الثلاثة - فيما بعد - للدلالة على الحركات الطويلة ، ظلت في الكتابة العربية بقايا للنظام القديم في الخط ؛ وإننا لا نزال حتى الآن نكتب : « هذا » و « ذلك » و « لكن » بدون ألف المد .

(٦) انظر أمثلة وتفصيلات لذلك ، في معاني القرآن للفراء ٢٠٠/١ - ٢٠١

أما رموز الحركات القصيرة ، الموجودة في الخط العربى حاليا ، فهى من عمل : « الخليل بن أحمد » اللغوى المشهور ، فى القرن الثانى الهجرى . ولم يكن الخليل بن أحمد أول من فكر فى ضبط الكتابة العربية بالحركات القصيرة ؛ فقد سبقه إلى ذلك « أبو الأسود الدؤلى » من علماء القرن الأول الهجرى .

وكانت العناية بالقرآن الكريم ، وصيانتة عن اللحن ، هى التى دعت العلماء فى الصدر الأول للإسلام ، إلى البحث عن طريقة ، تمنع من يتلو النص القرآنى ، من الوقوع فى اللحن ، بسبب خلوه من رموز الحركات . وتنسب الروايات الإسلامية إلى أبى الأسود الدؤلى ، أنه كان أول من فكر فى وضع رموز للحركات ، يضبط بها الرسم القرآنى ، الذى كان يخلو من هذه الرموز ؛ فيروى عن المبرد أنه قال : « لما وضع أبو الأسود الدؤلى النحو ، قال : ابغوا لى رجلا ، وليكن لِقْنًا ، فطلب الرجل ، فلم يوجد إلا فى عبد القيس ، فقال أبو الأسود : إذا رأيتنى لفظت الحرف فضممت شفتى ، فاجعل أمام الحرف نقطة ، فإذا ضممت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتنى قد كسرت شفتى ، فاجعل أسفل الحرف نقطة ، فإذا كسرت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين ، فإذا رأيتنى قد فتحت شفتى ، فاجعل على الحرف نقطة ، فإذا فتحت شفتى بغنة ، فاجعل نقطتين^(٧) » .

وكانت تلك النقط الخاصة بالشكل ، تكتب بصبغ يخالف لون المداد ، الذى كتبت به الحروف ونقط إعجامها ، فكان ذلك يشق على الكاتب ، إذ كان يتحتم عليه ، أن يكتب بقلمين ومدادين مختلفين ، حتى جاء الخليل بن أحمد ، فوضع الشكل الذى نكتب به حتى الآن ؛ يقول المبرد أيضا : « الشكل الذى فى الكتب من عمل الخليل ، وهو مأخوذ من صور الحروف ، فالضمة واو صغيرة الصورة فى أعلى الحرف ؛ لئلا

(٧) انظر : المحكم فى نقط المصاحف ، للدانى ٦ وإيضاح الوقف والابتداء ٤٠ - ٤١

تلتبس بالواو المكتوبة ، والكسرة ياء تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف^(٨) .

ومع أن الخليل بن أحمد ، قد وضع هذا الشكل المريح ، فإن العلماء غبروا زمانا طويلا ، لا يجرون على استخدامه في ضبط النص القرآني ، ويفضلون عليه نقط أبي الأسود الدؤلي ، اتباعا للسلف ، ويسمون ضبط الخليل : « شكل الشعر » ، وكل ذلك لصيانة القرآن الكريم ، عن أن يتعاوره المتعاورون بالتبديل والتغيير . وهذا هو أبو عمرو الداني (المتوفى سنة ٤٤٤ هـ) يقول : « وإنما جعلنا الحركات المشبعت ، نقطا مدورة على هيئة واحدة وصورة متفقة ، ولم نجعل الفتحة ألفا مضجعة ، والكسرة ياء مردودة ، والضمة واوا صغرى - على ما ذهب إليه سلف أهل العربية ؛ إذ كن مأخوذات من هذه الحروف الثلاثة ، دلالة على ذلك - اقتداء منا بفعل من ابتدأ النقط من علماء السلف ، بحضرة الصحابة رضی الله عنهم ، واتباعاً له ، واستمساكا بسنته ؛ إذ مخالفته مع سابقته وتقدمه لا تسوغ ، وترك اقتفاء أثره في ذلك ، مع محله من الدين ، وموضعه من العلم ، لا يسع أحدا أتى بعده^(٩) » !! كما يقول الداني كذلك : « وترك استعمال شكل الشعر ، وهو الشكل الذي في الكتب ، الذي اخترعه الخليل ، في المصاحف الجامعة من الأمهات وغيرها ، أولى وأحق اقتداء بمن ابتدأ النقط من التابعين ، واتباعا للأئمة السالفين^(١٠) » .

ومع هذه المعارضة الشديدة لطريقة الخليل ، في ضبط الخط العربى ؛ فقد عمت هذه الطريقة ، وطغت على طريقة أبي الأسود الدؤلي ، واستخدمت كذلك في ضبط النص القرآني ، ولا نزال نستخدمها حتى اليوم .

(٨) المحكم في نقط المصاحف ، للداني ٧

(٩) المحكم في نقط المصاحف ، للداني ٤٢

(١٠) المحكم في نقط المصاحف ، للداني ٢٢

ولم يكتف الخليل بن أحمد ، بوضع هذه الرموز للحركات القصيرة فحسب ، بل إن كثيرا من الرموز الأخرى ، التي نستخدمها في الكتابة إلى يومنا هذا ، من صنعه كذلك ؛ مثل : رمز السكون ، وهو عبارة عن رأس خاء صغيرة ، اختصاراً من كلمة : « خفيف » بمعنى : غير محرك^(١١) . وكذلك : رمز الشدة ، وهو مختصر من كلمة : « شديد^(١٢) » . حتى رمز الهمزة الذي نستخدمه اليوم ، لم يكن معروفا في الكتابة قبل الخليل ، وقد اقتطع من رأس العين^(١٣) ؛ ولذلك يسمى في بعض الأحيان : « القطعة » ، ولعله اقتطعه من العين لقرب الهمزة من العين في المخرج^(١٤) . ويقول السيوطي : « وأول من وضع الهمز والتشديد الخليل^(١٥) » . أما رمز الهمزة القديم ، فهو الألف^(١٦) . غير أن انتشار الخط في الحجاز ، تم على نطاق واسع بين القرشيين ، الذين لم يكونوا يهزمون في كلامهم^(١٧) ، فكان يترتب على تركهم الهمز ، نشوء حركات طويلة ، يتحدد نوعها باختلاف أماكن ورودها في الكلمة ، فكان الحجازيون ينطقون مثلاً : « راس » و « بير » و « يومن » و « سما » ؛ وفي ذلك يقول ابن جنى : « اعلم أن الألف التي في أول حروف المعجم ، هي صورة الهمزة ، وإنما كتبت الهمزة واواً مرة وباء أخرى ، على مذهب أهل الحجاز في التخفيف . ولو أريد تحقيقها البتة ، لوجب أن تكتب ألفا على كل حال^(١٨) » . كما يقول أحمد بن محمد الرازي : « وأما الهمزة المحققة ،

(١١) المحكم في نقط المصاحف ، للداني ٥٢

(١٢) المحكم في نقط المصاحف ، للداني ٤٩

(١٣) المحكم في نقط المصاحف ، للداني ١٤٧

(١٤) تاريخ الأدب ، الحفنى ناصف ٧٦ ويسمى الأسترايادى في شرح الشافية ٣/٣٢٠ : العين

البترء .

(١٥) الإتقان في علوم القرآن ١٧١/٢

(١٦) انظر للتعبير عن الهمزة بالألف ، ولو كانت مكتوبة بالياء : كتاب ما تلحن فيه العوام ،

للكسائى ٢٩ وفي المغرب للجواليقي ١٣ : « باب الهمزة التي تسمى الألف » .

(١٧) انظر : شرح الشافية للأسترايادى ٣/٣١ وشرح مراح الأرواح ٩٩

(١٨) سر صناعة الإعراب ١/٤٦

فأصلها أن تكتب على صورة الألف اللينة ، وإنما تكتب مرّة واواً وأخرى ياءً ، على مذهب التخفيف^(١٩) .

وعندما ابتكر الخليل رمزا للهمزة - لتستكمل به الكتابة العربية عدتها ، في مطابقتها للنطق العربي الفصيح ، الذى استعار التزام الهمز فى الكلام من لهجة تميم - لم يُرد أن يغيّر الرسم الإملائى ، الذى كان قد استقر وشاع ، فاخترع هذا الرمز الجديد ، واقتطعه من رأس العين ، ووضع فى الكلمة حيث وجد له حاملا ؛ فالحامل له فى : « رأس » الألف ، وفى : « بئر » الياء ، وفى : « يؤمن » الواو ، وفى : « سماء » لا يوجد حامل ؛ فوضع الهمزة لذلك على السطر بلا حامل .

وليس هذا الذى نقوله دعوى بلا سند ، فكل النصوص العربية القديمة ، التى وصلت إلينا فى البرديات المختلفة ، تخلو من رمز الهمزة الذى نعرفه تماما^(٢٠) ؛ لأن الرمز القديم لها ، وهو الألف ، اكتسب عند الحجازيين صفة الدلالة على الفتحة الطويلة ، مع أنه الرمز الأصلى للهمزة ، ولو أن الخط شاع وانتشر أول الأمر ، فى بيئة تستخدم الهمز فى كلامها ، كبيئة تميم مثلا ، لوجدنا الهمزة تصور بصورة الألف دائما ، فى أى موقع من الكلمة . ويؤيدنا فى رأينا هذا ابن يعيش ، إذ يقول : « ... والصواب ما ذكره سيبويه وأصحابه ، من أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفا ، أولها الهمزة ، وهى الألف التى فى أول حروف المعجم ، وهذه الألف هى صورتها على الحقيقة ، وإنما كتبت تارة واواً وأخرى ، على مذهب أهل الحجاز فى التخفيف ، ولو أريد تحقيقها لم تكن إلا ألفا على الأصل ، ألا ترى أنها إذا وقعت موقعا ، لا تكون فيه إلا محققة ، لا يمكن فيه تخفيفها - وذلك إذا وقعت أولا - لا تكتب إلا ألفا ، نحو : أعلم ، أذهب ، أخرج . وفى الأسماء : أحمد ، إبراهيم ، أترجة ... وأمر آخر يدل على أن صورة الهمزة صورة الألف ،

(١٩) الحروف ٥٦ وسر صناعة الإعراب ٤٦/١

(٢٠) انظر مثلا : A.Grohmann, From the world of Arabic Papyri

أن كل حرف سمّيته ، ففي أول حروف تسميته لفظه بعينه ، ألا ترى أنك إذا قلت : باء ، ففي أول حروفه باء ، وإذا قلت : تاء ، ففي أول حروفه تاء ، وكذلك جيم ودال وسائر حروف المعجم ؛ فكذلك إذا قلت : ألف ، فأول الحروف التي نطقت بها همزة ، فدل ذلك أن صورتها صورة الألف^(٢١) .

ولسنا نريد هنا الخوض في تفاصيل نشأة الخط العربى وتطوره ، وإنما يهمننا هنا أن نشير إلى أن الخط العربى بصورته الحالية ، كان من الأسباب التى أدت باللغويين القدامى ، إلى عدّ أصوات العلة أصواتا ثانوية ، بالنسبة للأصوات الصامتة . ويدلّك على هذا أيضا : ذلك الجدل ، الذى يثيره ابن جنى حول الحركة القصيرة ، أهى قبل الحرف ، أو معه ، أو بعده ؟ وبدلا من أن يلجأ إلى التجربة ، أخذ يستخدم منطق أرسطو ، فى التدليل على أن الحركة القصيرة تقع بعد الحرف ، مثلها فى ذلك مثل حروف المدّ ، وهى الألف والواو والياء ؛ فيقول : « واعلم أن الحركة التى يتحملها الحرف لا تخلو أن تكون فى المرتبة قبله ، أو معه ، أو بعده ؛ فمحال أن تكون الحركة فى المرتبة قبل الحرف ، وذلك أن الحرف كالمحل للحركة ، وهى كالعرض فيه ، فهى لذلك محتاجة إليه ، ولا يجوز وجودها قبل وجوده . وأيضا لو كانت الحركة قبل الحرف ، لما جاز الإدغام فى الكلام أصلا ، ألا ترى أنك تقول : قطع ، فتدغم الطاء الأولى فى الثانية ، ولو كانت حركة الطاء الثانية فى الرتبة قبلها ، لكانت حاجزة بين الطاء الأولى ، وبين الطاء الثانية . ولو كان الأمر كذلك ، لما جاز إدغام الأولى فى الثانية ؛ لأن الحركة على هذه المقدّمة ، مرتبتها أن تكون قبل الطاء الثانية ، بينها وبين الأولى . وإذا حجز بين الحرفين حركة ، بطل الإدغام . فجواز الإدغام فى الكلام ، دلالة على أن الحركة ليست قبل الحرف المتحرك بها ؛ فقد بطل بما ذكرناه ،

(٢١) شرح المفصل ، لابن يعيش ١٢٦/١٠ وانظر كذلك : سر صناعة الإعراب ، لابن جنى

أن تكون حركة الحرف في الرتبة قبله ، وبقي أن تكون معه أو بعده ، وفي الفرق بينهما بعض الإشكال . فالذى يدل على أن حركة الحرف في المرتبة بعده ، أنك تجدها فاصلة بين المثلين أو المتقاربين ، إذا كان الأول منهما متحركاً ؛ فالمثلان نحو قولك : قصص ، ومضض ، وسرر ، وخضض ، ومرر ، وقدد ؛ فلولا أن حركة الحرف الأول في هذين المثلين بعده ، لما فصلت بينه وبين الذى هو مثله بعده ، ولو لم تفصل لوجب الإدغام ؛ لأنه لا حاجز بين المثلين ، فإن ظهر هذان المثلان ، ولم يدغم الأول منهما فى الآخر منهما ، فظهورهما دلالة على فصل واقع بينهما ، وليس ها هنا فصل البتة ، غير الحركة المتأخرة عن الحرف الأول^(٢٢) .

أما أبو على الفارسي ، فإنه لم يتصور إمكان استقلال الحركة بالنطق ، ولم يستطع أن يفرق بين الحرف الصامت والحركة ، هذه التفرقة ؛ فكان يرى أن « الحركة تحدث مع الحرف » ؛ يقول ابن جنى : « واستدل أبو على على أن الحركة تحدث مع الحرف ، بأن النون الساكنة إذا تحركت ، زالت عن الخياشيم إلى الفم ، وكذلك الألف إذا تحركت انقلبت همزة ؛ فدل ذلك عنده ، على أن الحركة تحدث مع الحرف . وهو لعمري استدلال قوى^(٢٣) » .

وقد فات أبا على الفارسي ، أن الذى يزول عن الخياشيم إلى الفم ، هو الحركة وليست النون ، وأن الذى يتحرك هو الهمزة ، وليست ألف المد ؛ لأن ألف المد حركة طويلة ، والحركة لا تحرك .

حقاً يحمد لابن جنى ، أنه فطن إلى العلاقة بين ما يسمى بالحركات القصيرة ، وحروف المد ؛ فقال : « اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد

(٢٢) سر صناعة الإعراب ٣٢/١

(٢٣) سر صناعة الإعراب ٣٧/١ ومع تحمس ابن جنى لرأى أستاذه أبى على الفارسي هنا ، ووصفه دليله بأنه « استدلال قوى » ، فإنه لم يرض هذا الرأى فى كتابه : الخصائص (٣٢٤/٢) ، وردّ استدلاله هناك فانظره .

واللين ، وهى الألف والياء والواو ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحركات ثلاث ، وهى الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء ، والضمة بعض الواو . وقد كان متقدمو النحويين ، يسمون الفتحة الألف الصغيرة ، والكسرة الياء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة . وقد كانوا فى ذلك على طريق مستقيمة ؛ ألا ترى أن الألف والياء والواو ، اللواتى هن حروف توائم كوامل ، قد تجدهن فى بعض الأحوال ، أطول وأتمّ منهن فى بعض ؛ وذلك قولك : يخاف وينام ، ويسير ويطير ، ويقوم ويسوم ، فتجد فيهن امتداداً واستطالةً ما ، فإذا أوقعت بعدهن الهمزة ، أو الحرف المدغم ، ازددن طولاً وامتداداً ؛ وذلك نحو : يشاء ويداء ، ويسوء ويهوء ، ويجىء ويفىء . تقول مع الإدغام : شابة ودابة ... أفلا ترى إلى زيادة المدّ فيهن ، بوقوع الهمزة والمدغم بعدهن ، وهن فى كلا موضعين يسمين حروفاً كوامل ، فإذا جاز ذلك ، فليست تسمية الحركات حروفاً صغاراً ، بأبعد فى القياس منه . ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف ، أنك متى أشبعت واحدة منهن ، حدث بعدها الحرف الذى هى بعضه^(٢٤) . »

كما يقول ابن جنى كذلك : « الضمة قد تجرى مجرى الواو ، وهى واو صغيرة ، كما أن الكسرة ياء صغيرة ، والفتحة ألف صغيرة . وهذه الحروف عن هذه الحركات تنشأ متى كنّ مدّات ، نحو : رسالة وصحيفة وعجوز^(٢٥) . »

هذا ما يقوله ابن جنى ، ومنه نفهم أنه أحسّ ، كما يحسّ علماء الأصوات من المحدثين ، أن الفرق بين الحركات وحروف المد ، ليس إلا فرقاً فى الكمية والزمن ، الذى يستغرقه نطق كل واحد منهما ؛ فإنك تقول : « ضَرَبَ » ، ثم تطيل الزمن الذى تستغرقه فى نطق الفتحة بعد الضاد ،

(٢٤) سر صناعة الإعراب ١٩/١

(٢٥) المنصف لابن جنى ٢١٣/١ وانظر كذلك : الخصائص ٣١٥/٢

فتصير الكلمة : « ضَارَبَ » . ومثل ذلك في : « ضُرِبَ » المبني للمجهول ، و « ضُورِبَ » ، و « مساكن » و « مساكين » ، وأشباه ذلك . وقد أحسَّ بعض العلماء ، بازدواج وظيفة رمزي الواو والياء ، في الكتابة العربية ، واختلافهما إذا كانتا رمزين للضمة الطويلة والكسرة الطويلة ، عنهما إذا كانتا رمزين للواو والياء من الأصوات الصامتة ؛ فقال الأزهري : « والواو والياء إذا جاءتا بعد فتحة قويتا ، وكذا إذا تحركتا كانتا أقوى . ومن تبيان ذلك أن الألف اللينة ، والياء بعد الكسرة ، والواو بعد الضمة ، إذا لقيهن حرف ساكن ، بعدهن سقطن ... والياء والواو بعد الفتحة ، إذا سكنتا ولقيهما ساكن بعدهما ، فإنهما يتحركان ولا يسقطان أبدا ؛ كقولك : لَوِ انْطَلَقْتُ يا فلان^(٢٦) » .

كما يقول المبرد : « تقول إذا بنيت فُوعِلَ من سرت : سُوِيرَ . فإن قال قائل : هلا أدغمت الواو في الياء ، كما قلت في لَيَّة وأصلها : لَوِيَّة ... ؟ فالجواب في ذلك : أن واو (سُوِيرَ) مدَّة ، وما كان من هذه الحروف مدًّا ، فالإدغام فيه محال ؛ لأنه يخرج من المدِّ ، كما أن إدغام الألف محال . والدليل على أن هذه الواو مدَّة ، أنها منقلبة من ألف ، ألا ترى أنها كانت : (سَايَر) ، فلما بنيت الفعل بناء مالم يسم فاعله قلت : سُوِيرَ ، فالواو غير لازمة^(٢٧) » .

فقد أحسَّ هذان العالمان الجليلان ، أن الياء والواو في مثل : « ولد » و « يقع » و « لون » و « بيت » ، غيرهما في مثل : « عبوز » و « قتيل » وغيرهما ، فهما من فصيلة الأصوات الصامتة ، في الأمثلة الأربعة الأولى ، بعكس المثالين الأخيرين ، فهما فيهما من فصيلة أصوات العلة الطويلة ، وهي ما سماه علماء العربية ، بحروف المدِّ .

(٢٦) تهذيب اللغة ، للأزهري ٥٢/١

(٢٧) المقتضب للمبرد ١٧٢/١

وقد أدى هذا الازدواج في وظيفة الرموز الثلاثة : « الألف والواو والياء » في الخط العربى - إلى أن عدّهم اللغويون العرب ، في حالة دلالتهم على الحركات الطويلة ، في مثل : « هابونى » hābūnī مثلا - أصواتا صامتة (Consonants) فهم ينظرون إلى الألف والواو والياء في هذا المثال ، نظرتهم إلى الأصوات الصامتة تماما ، في حين أنها هنا علامات للحركات الطويلة : ī/ū/ā .

وقد أثرت تلك النظرة الخاطئة - التى تعتمد على الخط لا على النطق - فى أحكام اللغويين العرب فى كثير من قواعدهم ، وعلى الأخص فى أبنية اللغة (الصرف) ، وأوزان الشعر .

فمن أمثلة ذلك فى المجال الأول ، أنهم يقولون فى المضارع المعتل الآخر ، عند جزمه فى مثل : « لم يَدْعُ » و « لم يَحْشَ » و « لم يَرْمِ » أنه مجزوم بحذف حرف العلة ، فهم هنا ينظرون إلى الخط لا إلى النطق ، ولو نظروا إلى النطق لقالوا إنه مجزوم بتقصير الحركة ؛ فبدلا من : (ū) فى المثال الأول : (يدعو) ، يوجد فى حالة الجزم : (u) وبدلا من : (ā) فى المثال الثانى : (يخشى) ، يوجد فى حالة الجزم : (a) ، وبدلا من : (i) فى المثال الثالث : (يرمى) يوجد فى حالة الجزم : (i) فى نهاية الفعل .

كما أنهم يقولون فى مثل : « لم يَمُتْ » إن أصله : « يَمُوتُ » ، فحين جزم بالسكون ، التقى ساكنان : التاء والواو ، فحذفت الواو للتخلص من التقاء الساكنين . وهم هنا ينظرون إلى الخط من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، يعدّون الواو حرفا مشكلا بالسكون ، فى حين أنها فى هذه الحالة علامة على الضمة الطويلة ، والضمة حركة ، والحركة لا توصف بالسكون . ولو نظروا إلى النطق ، ودرسوا نظام المقاطع فى اللغة العربية ، لعرفوا أنه بعد جزم مثل هذا الفعل بالسكون ، أصبح عندنا مقطعان ، الثانى منهما زائد فى الطول (ya + mūt) ، وهو غير مقبول فى العربية فى هذه

الحالة^(٢٨) ، وعندئذ تقصّر حركة هذا المقطع ، فتصير الكلمة : (ya + mut) . وهذا هو السرّ في تقصير حركة الفعل الماضي الناقص ، عند اتصاله بتاء التأنيث ، مثل : « رَمَتْ » ، وأصله : « رَمَاتٌ » ، وغير ذلك .

وقد أدى جهل اللغويين القدامى ، بنظام المقاطع في اللغة ، ونظرتهم إلى رموز الحركات الطويلة ، على أنها حروف صامتة مشكلة بالسكون ، إلى بنائهم موازين الشعر العربى على متحرك وساكن ؛ فهم يتحدثون عن الأسباب والأوتاد والفواصل في الشعر ، ويقسمون السبب إلى خفيف وثقيل ؛ فالخفيف عندهم : ما تكون من متحرك وساكن ؛ ومن أمثلته عندهم : « لَمْ » و « لا » مثلا ، فهم يعدّون الألف في : « لا » حرفا صامتا مشكّلا بالسكون ، تماما كالميم في : « لَمْ » ، في حين أنها في : « لا » علامة للفتحة الطويلة ، والفتحة الطويلة حركة ، وهى لذلك لا توصف بأنها ساكنة .

والواقع أننا هنا في : « لَمْ » و « لا » ، أمام ما يسمى في علم الأصوات : بالمقطع الطويل : (lam) و (lā) ، غير أنه في الأول مقطع طويل مغلق ، وفي الثانى مقطع طويل مفتوح ، وهما من الناحية الموسيقية ، شىء واحد من ناحية الطول ، بعكس المقطع القصير ، في مثل : (وَ) wa . ولو أنهم فطنوا إلى ذلك ، لبنوا موازين الشعر على المقاطع القصيرة والطويلة ، وأراحونا من هذه الاصطلاحات العروضية الكثيرة المحيرة ، من أمثال : الخن ، والوقص ، والقبض ، والعصب ، والكف ، وغير ذلك . وإننا إذا رمزنا للمقطع الطويل بالرمز : (-) ، وللقصير بالرمز : (٧) ، لتمكّنا في هذه الحالة ، من أن نقول في بحر « الطويل » مثلا : إنه يتكون من المقاطع التالية :

— — — ٧ / — — ٧ / — — — ٧ / — — ٧ — — — ٧ / — — ٧ / — — — ٧ / — — ٧

(٢٨) انظر لنظام المقاطع في العربية كتابنا : لحن العامة والتطور اللغوى ٥٠

أى أننا يمكن أن نقول : إن بحر الطويل يتكون من : (مقطع قصير + مقطعين طويلين + مقطع قصير + ثلاثة مقاطع طويلة) ، مع تكرار ذلك أربع مرات . وبدلاً من هذه الاصطلاحات الطويلة ، الخاصة بالزحافات والعلل عند العروضيين ، يمكن أن يقال هنا : إن المقطع الثانى من المقاطع الطويلة فى هذا البحر ، يمكن أن يقصر كذلك ، فتصير (٧ - -) . إلى : (٧ - ٧) . كما تصير (٧ - - -) إلى (٧ - ٧ - ٧) أى أنه يمكن كتابة وزن الطويل ، على النحو التالى :

— ٧ — ٧ / ٧ — ٧ / — ٧ — ٧ / ٧ — ٧ — ٧ — ٧ — ٧ / ٧ — ٧ / — ٧ — ٧ / ٧ — ٧ — ٧

ومن هذه الأمثلة - وغيرها كثير - نرى كيف أن اللغويين العرب كانوا ينظرون فى بناء قواعدهم إلى الخط العربى ، لا إلى النطق . ولا يعيب هذا الخط العربى ، الذى عرفنا من قبل نشأته ومراحل تطوره ، بقدر ما يعيب مناهج اللغويين القدامى ، فى تأثرهم بالصورة المكتوبة ، فى كثير من الأحيان ، وإهمالهم النواحي الصوتية . وما الخط فى جميع اللغات إلا وسيلة ناقصة ، للتعبير عن الصورة السمعية الحية ، كما يذهب إلى ذلك علماء الأصوات من المحدثين ..

وقد فطن إلى هذا العلامة ابن خلدون ، فقال : « كان الخط العربى لأول الإسلام ، غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ، ولا إلى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش ، وبعدهم عن الصنائع . وانظر ما وقع لأجل ذلك فى رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير مستحكمة فى الإجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ، ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ... ولا تلتفتن فى ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين ، من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ، ليس كما يتخيل ، وأن لكلها وجهها . ويقولون فى مثل زيادة الألف فى : لأذبحنه ، أنه تنبيه على أن الذبح لم يقع ، وفى زيادة الياء فى : بأيد ، أنه تنبيه على كمال القدرة

الربانية ، وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض . وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص ، في قلة إجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال ، فنزهوهم عن نقصه ، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته ، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه . وذلك ليس بصحيح^(٢٩) »

هذا ويعجبني في نهاية هذا الفصل ، قول « كانتينو » : « وأما النحاة العرب ، فقد أطلقوا اسم (حرف) على كل صوت بسيط من الكلام ، سواء أكان حرفا (Consonant) بالمعنى الحقيقي للكلمة اليوم ، أم حركة طويلة ، كحرف المد واللين . ويمكن في نظام الكتابة العربية ، أن تغفل الحركات القصيرة ، وإذا ما أثبتت كان ذلك بواسطة علامات صغيرة مساعدة ، تكتب فوق الحروف أو تحتها ، وتدعى (حركات) ، وهو جمع حركة ؛ فلفظ (حركة) لا يقابل لفظ (حرف) ، بل لفظ (سكون) ، أى انعدام الحركة وهكذا ... فإنه يمكننا القول ، بأن نظام الكتابة العربية هذا ، قد طمس بعض الشيء عند النحاة العرب ، معالم المقابلة الأساسية ، بين الحروف والحركات ، طمسا جعلهم لا يعيرون هذه المقابلة ، الأهمية الرئيسية التى لها فى الواقع^(٣٠) » .

كما يقول كذلك : « إنهم يطلقون الحركة ، ويقصدون (حركة الحرف) . ويدل هذا اللفظ دلالة واضحة ، على أنهم كانوا يعتبرون الحركة القصيرة ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحرف السابق لها ، فالحركة القصيرة هى إذن عندهم مجرد ذيل للحرف . وقد أضفى هذا الاعتبار شيئا من الغموض ، على كامل نظريتهم الصوتية^(٣١) » .

ثم يتحدث عن نظام الحركات ، الذى وضعه الخليل بن أحمد ،

(٢٩) مقدمة ابن خلدون ٤٦٧ - ٤٦٨

(٣٠) دروس فى علم أصوات العربية ٢٠

(٣١) دروس فى علم أصوات العربية ١٤٨

فيقول : « ورغم ما في هذا النظام من وضوح وسهولة ، فقد قل استعماله فيما عدا القرآن ، اللهم إلا إذا أرادوا ضبط كلمة من الكلمات ، فبقيت الكتابة العربية ، كأنها ضرب من الاختزال ، يجب فهمه أولاً كي تتسنى قراءته . وذلك عيب من أكبر عيوب الخط العربي^(٣٢) » .

ولا يعنينا هنا البحث عن وسائل إصلاح هذا الخط ، والقضاء على عيوبه ، فقد ذاع وانتشر ، وكتب به تراث ضخم ، وأى تفكير في إصلاح عيوبه ، لا يصح أن يغفل هذا التراث . والله أعلم .

★ ★ ★

(٣٢) دروس في علم أصوات العربية ١٧٣

الفصل الثالث

مشكلة تعليم العربية

يشكو كثير من الناس ، من ضعف مستوى الدارسين في اللغة العربية ، بمدارسنا وجامعاتنا ، وتلك مشكلة مزمنة ، طال عليها الأمد ، وحارت العقول في البحث عن علتها ، والإشارة إلى موطن الداء فيها ... وأقصى ما كانت تمتد إليه يد الإصلاح في هذه المشكلة ، هو الكتب المدرسية ، والمصطلحات النحوية ، ثم يعجب المصلحون ، حين يرون هذا الإصلاح ، لم يؤت ثماره المرجوة ، ويشاهدون انحدار المستوى يوما بعد يوم ، كأننا أمام بئر ينضب ماؤها بالتدريج ، ولا شيء يرفدها ، ويصلح من شأنها . ولو استمر الحال على ذلك ، لجاء يوم قريب تشيع فيه الأمية بين حملة الشهادات العليا .

ولقد جمعتني منذ أعوام جلسة في القاهرة ، مع أحد المستشرقين الألمان ، فذكر لي أنه التقى ببعض خريجي الجامعة عندنا ، فتعجب من أنهم لا يقيمون جملة عربية ، ولا يدرون شيئا عن تراثهم ، ولم يقرءوا للجاحظ ، أو لابن قتيبة ، أو للمبرد ، أو لغيرهم من أعلام العربية ، وتلك للأسف حقيقة مفعجة !

هذه المشكلة بتلك الصورة ، مشكلة تعلّم اللغة الأدبية - لم يُعانِ منها شعب كما تعاني الأمة العربية في أيامنا هذه ، وهي مشكلة متعددة الجوانب ، ولست أدعى أنني سأحيط هنا بجميع نواحيها ، ولكنني سأتناول بالتحديد أربع نقاط بالبحث ، أولها : لماذا نهتم بالعربية الفصحى ؟ وثانيها : هل العربية لغة صعبة ؟ وثالثها : كيف ينتقى مدرس العربية ؟ وكيف يعدّ ؟ ورابعها : ما الطريق الأمثل إلى تعلم العربية ؟

لماذا نهتم بالعربية الفصحى ؟

للعربية الفصحى ظرف خاص ، لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ، وهذا الظرف يجعلنا نرفض ما ينادى به بعض الغافلين والمغرضين ، من ترك الحبل على الغارب للعربية الفصحى ، لكى تتفاعل مع العاميات ، تأخذ منها وتعطى ، كما يحدث فى اللغات كلها ... حقا إن اللغة كائن حيّ ، تتطور على ألسنة المتكلمين بها ، فينشأ من هذا التطور اختلاف بين لغة عصر والعصر الذى سبقه . وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الجديد ، وبعد فترة يصبح قديما ما كان بالأمس جديدا ، فيتصارع مع جديد آخر ، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر . غير أن كل جديد لا يظهر فجأة ، ولا يقضى على القديم بين يوم وليلة ، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر ، غير أن الانتصار يكون فى النهاية للشكل الجديد . تلك سنة الحياة ، وتاريخ اللغات جميعها يشهد بهذا ، ولا نعرف لغة على ظهر الأرض ، جمدت على شكل واحد مئات السنين .

غير أن العربية الفصحى ، لها - كما قلنا - ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ، ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودوّن بها التراث العربى الضخم ، الذى كان محوره هو القرآن الكريم ، فى كثير من مظاهره . وقد كفل الله لها الحفظ ما دام يحفظ دينه ، فقال عز وجل : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ولولا أن شرفها الله عز وجل ، فأنزل بها كتابه ، وقِيضَ له من خلقه من يتلوه صباح مساء ، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان - لولا كل هذا لأُمست العربية الفصحى لغة أثرية ، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ، ولسادت اللهجات العربية المختلفة ، فى نواحي الأرض العربية ، وازدادت على مر الزمان بُعْداً عن الأصل الذى انسلخت منه .

هذا هو السر الذى يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى ، بما يحدث فى اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات ، فى شكلها

الحاضر ، لا يتعدى قرنين من الزمان ، فهي دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطي ، ولا تجد في كل ذلك حرجا ؛ لأنها لم ترتبط في فترة من فترات حياتها بكتاب كريم ، كما هي الحال في العربية .

فاهتمامنا بالعربية ، يجب أن يكون نابعا من هذا المنطلق ، وهو ارتباطها بالدين الإسلامي والتراث العربى . وإذا أصبح هذا المنطلق واضحا في أذهان القائمين على تعليم العربية ، لم يجنح بهم الخيال يوما ، إلى الاعتقاد بأن إجادة تعليم هذه اللغة ، سيقضى على لغة الحديث اليومى تماما ، فليس من اللازم أن يستخدم الناس جميعا ، هذه اللغة الأدبية في أحاديثهم ، بل إن هذا أمر يكاد يكون مستحيلا ، ولم يحدث في أى عصر من العصور ؛ فمن القواعد المقررة عند علماء اللغة ، أنه يستحيل على مجموعة بشرية ، تعيش في مساحة أرضية شاسعة ، أن تصطنع في حديثها اليومى لغة موحدة ، تخلو من اختلاف صوتى ، أو دلالى ، أو اختلاف في البنية أو التراكيب .

إن هذه قضية ليست في حاجة إلى برهنة ، فاللغات التى تعيش بيننا الآن ، تعاني من هذه الظاهرة ، ولا يمكن تجنبها في أية لغة من اللغات . وإنما الذى يمكن أن يحدث عن طريق التعليم الجاد للعربية ، هو أن تقترب المسافة بين العاميات والفصحى ، وأن نقرأ تراثنا الأدبى ونتمثله ، ونستمد منه عظمة الماضى ، وعدة الحاضر ، وأمل المستقبل ؛ أما فيما عدا ذلك ، فيمكن للموهوبين الذين يصبح في مقدورهم محاكاة هذه اللغة الأدبية ، وما أكثرهم عندئذ - أن يحاكو هذه اللغة في أحاديثهم وكتاباتهم ، على اختلاف درجاتهم في ذلك .

هل العربية لغة صعبة ؟

يسود بين جمهرة المثقفين العرب ، شعور مدمرّ بأن لغتنا الجميلة ، العربية الفصحى ، لغة معقدة القواعد ، صعبة التعليم ، كثيرة الشذوذ

فى مسائلها وقضاياها ، بحيث تجعل من تعلمها ، أو استخدامها والتحدث بها ، عبئا ثقيلا على أهلها .

ولقد انتهز المغرضون هذه الفرصة ، وأخذوا يصيدون فى الماء العكر ، ويدعون إلى استخدام العامية ، وهجر الفصحى أو خلطها بالعامية ، وهى دعوة حمل لواءها منذ فترة طويلة ، المعادون للإسلام وأهله ؛ فادعوا أن إعراب العربية الفصحى ، أمر عسير التعليم ، ليصرفوا المسلمين عن منبع دينهم ، وعماد شريعتهم ، ودستور حياتهم ، وهو القرآن الكريم ، الذى أنزله الله عز وجل ، بهذه العربية الفصحى .

والحق أن هذا الإعراب ، الذى يوصف بأنه معقد وصعب ، لا تنفرد به العربية الفصحى وحدها ، بل إن هناك لغات كثيرة ، لا تزال تحيا بيننا ، وفيها من ظواهر الإعراب المعقد ، ما يفوق إعراب العربية بكثير ؛ فهذه هى اللغة الألمانية مثلا ، تقسم أسماءها اعتبارا إلى مذكر ومؤنث ، وجنس ثالث لا تعرفه العربية ، وهو : « المحايد » ، وتضع لكل واحد من هذه الأجناس الثلاثة ، أربع حالات إعرابية ، هى حالات : الفاعلية ، والمفعولية ، والإضافة ، والقابلية . وهذه الحالة الأخيرة ، لا تعرفها العربية ، وهى إعراب المفعول الثانى ، فهى من حالات المفعولية فى العربية ، وليست حالة خاصة فيها . تلك هى حالات إعراب الاسم المفرد المعرف فى الألمانية . والمفرد المنكر له أربع حالات أخرى ، وكذلك الجمع المعرف والجمع المنكر .

وبناء الجملة فى اللغة الألمانية ، له نظام صارم ، فالفعل يحتل فيها المرتبة الثانية دائما ، إلا فى الجمل الفرعية ، كالجمل التعليلية مثلا ، فإن الفعل يؤخر فيها إلى نهاية الجملة . وإن من يشكو من كثرة جموع التكسير فى العربية ، وغلبة الشذوذ على قواعد هذا الجمع فيها ، سيحمد للعربية الاطراد النسبى فى هذه القواعد ، إذا درس اللغة الألمانية ، ورأى كثرة صيغ هذه الجموع فيها ، وفقدان القاعدة التى تخضع لها تماما ، إلى درجة أن كل كتاب فى تعليم قواعد الألمانية ، تبدأ صفحاته الأولى بهذه العبارة : « احفظ

مع كل اسم ، أداة تعريفه ، وصيغة جمعه ؛ لأنه ليست هناك قاعدة لذلك .

فليست العربية إذن ، بدعا بين اللغات ، في صعوبة القواعد ، غير أن شيئا من هذه الصعوبة ، يعود بالتأكيد ، إلى طريقة عرض النحويين لقواعدها ، فقد خلطوا في هذه القواعد بين الواقع اللغوي والمنطق العقلي ، وبعثوا عن وصف هذا الواقع إلى المماحكات اللفظية ، وامتألت كتبهم بالجدل والخلافات العقيمة ، فضل المتعلم وسط هذا الركام الهائل من الآراء المتناقضة في بعض الأحيان . والحقيقة أن القواعد الأساسية ، لنحو اللغة العربية ، يمكن أن تستخلص في صفحات قليلة ، مصفاة من هذا الحشو ، الذى لا طائل وراءه .

كيف ينتقى مدرس العربية وكيف يعد ؟

يمثل مدرس العربية حجر الزاوية ، فى هذه المشكلة التى نعالجها ، وإليه يوجه اللوم عادة فى الوصول إلى هذه النتيجة ، التى وصل إليها تعليم العربية فى بلادنا . ولسنا هنا نتهم المعلمين ، أو ننتقص من قدرهم ، وبينهم كل مربٍّ فاضل ، يحترم مهنته ، ويخلص فى أداء واجبه ، غير أننا نودّ الإشارة إلى ظاهرة خطيرة ، انتشرت واستفحل أمرها فى الأعوام الأخيرة ، ذلك أننا نرى ضعاف حملة الثانوية العامة ، تقذف بهم مكاتب التنسيق ، إلى كليات الآداب ، ومعاهد العربية مرغمين ، أو يلجئون هم إليها ، وفى حلوقهم غصة ، بعد أن توصل أمامهم أبواب الكليات الأخرى . وإنك لتعجب حين تلقى بين طلبة كليات الطب والعلوم والهندسة ، نوابغ فى العربية ، يقولون الشعر ، ويتذوقون الأدب ، على حين ترى الكثير ممن يدرسون العربية ، لا يكادون يقيمون جملة ، وبينهم وبين العربية عدا .

ولست أنسى فى هذا المقام ، رحلة أشرفت عليها ، من طلبة قسم اللغة العربية بآداب عين شمس ، إلى إحدى ضواحي القاهرة ، وهناك كانت المطارحات الشعرية بعض تسليتهم ، وقد دخل بينهم فى أثنائها شابان

غريبان ، أظهرها براعة فائقة في هذه المطارحات ، وحين سألتهما : أنتما من طلبة العربية ؟ قالوا : لا ، بل من طلبة الطب !

وهذا الطالب ، الذى توصله الظروف المختلفة ، إلى كليات الآداب ، غالباً ما يبحث فيها عن أى قسم سوى قسم اللغة العربية ، حتى إذا لفظته سائر الأقسام لجأ إلى هذا القسم ، وفى نفسه مرارة ، وفى قلبه حسرة . وتؤدى نظم الامتحانات الحالية ، بما فيها من التعويض والجبر ، ولجان الرأفة ، والنقل بمواد ، وغير ذلك ، إلى أن يتخرج هذا الطالب الأعرج ، لينشر الجهل بين صفوف التلاميذ ، ويقذف إلى الجامعة بأجهل منه .

إننا نأسى ، ونحن نرى المستوى الثقافى ، يترنح على أيدي هؤلاء الطلاب ، ومهما صنع أستاذ الجامعة ، فإنه فى حاجة إلى أعوام وأعوام ، لكى تخصب هذه الأرض المجربة ، وتؤتى أكلها ، وإلا فماذا يفعل فى هذه الخامة الرديئة ، فى بضعة أعوام قليلة ، وسط الإلحاح على تخرج الأعداد الكبيرة ، لسد حاجة المدارس إلى المعلمين ؟!

أما آن الوقت لكى ننظر إلى تعليم العربية ، فى المدارس والجامعات ، نظرة الجذ ؟ أليس فى الإمكان أن نتقى طالب العربية ، من بين ذوى الاستعداد ، والموهوبين من حملة الثانوية العامة ، بعد إغرائهم بمكافآت شهرية سخية فى أثناء الدراسة ، وراتب كبير بعد التخرج ؟ ثم نصقلهم صقلاً ، ونُعدهم إعداداً طيباً ، بعيدين عن نظام الجبر والتعويض ، ولجان الرأفة .

إن هذا المدرس الذى نريده ، فى حاجة كبيرة إلى ثقافة عربية واسعة شاملة ، ودراسة واعية صابرة لعيون تراثنا العربى ؛ فإن من عنده الكثير يستطيع أن يعطى وأن يبذل ، ومن عنده القليل لا يعطى شيئاً . ولقد غفلنا عن هذه الحقيقة زمناً ، رأينا فيه من ينادى فى بعض لجان تطوير التعليم فى مصر ، بأن يقتصر فى إعداد المدرس على تلقينه كتب اللغة العربية ، التى

تدرس في مراحل التعليم العام ، وأنه لا داعي لأن يدرس علم الأصوات اللغوية ، أو النظريات المختلفة لفقه اللغة ، أو التيارات الأدبية العالمية ، أو العروض والقوافي ؛ لأن ذلك - في زعمهم - لا يفيد المدرس في عمله المستقبل ، في مدارس التعليم العام !

أما آن الوقت كذلك ، لكي ندرك أهمية المرحلة الابتدائية ، في بناء الكيان التربوي السليم للطفولة البريئة ، فنكف عن امتهان معلم هذه المرحلة ، ونؤمن بما آمنت به بعض الدول المتقدمة ، من وضع خيرة المعلمين في هذه المرحلة ؟ إن الحديث عن معلم المرحلة الابتدائية ، حديث ذو شجون ، فإننا ما زلنا نظن أن تعليم الطفل أهون أنواع التعليم ، وأدى هذا إلى أننا أصبحنا نقيس مقدار المعلم ، بعمر الطفل الذي يتولى تربيته وتعليمه ، صعوداً وهبوطاً ، فمعلم الإعدادي أكثر احتراماً من معلم الابتدائي ، وأقل مركزاً من مدرس المدارس الثانوية ... وهي فكرة ساذجة ، مدمرة لنفس هذا المعلم ، الذي وضعنا بين يديه هذه العجينة اللينة - طفل اليوم ، ورجل المستقبل ؛ ليجعل منه مواطناً صالحاً ، أو شيطاناً مardاً .

إن الدول المتحضرة ترعى هذا المعلم ، وتعدّه حجر الأساس في العملية التربوية كلها ، وتختاره من أكفأ المدرسين في المراحل الأخرى ، وتغدق عليه المال وتكرمه ؛ ليعيش في حالة استقرار وقناعة ، ومعظم معلمى المرحلة الأولى ، في كثير من الدول المتحضرة ، يحملون أرقى شهادات علم النفس والتربية ، لكي يتسنى لهم فهم تلك البراعم الصغيرة ، فيلقنوها العلم ، وهم قريبون إليهم ، يلتصقون بهم ، ويلعبون معهم .

نعم .. فهذه المرحلة هي أهم المراحل ، وهي التي يجب فيها الطفل على مدارج القراءة ، ويعشق فيها الكتاب ، أو يكرهه ، ويقبل على اللغة ، أو يمتقها إلى الأبد ..

الطريق الأمثل إلى تعلم العربية :

كثير البحث عن السر في إخفاقنا حتى الآن ، في تعليم العربية

الفصحى لأبنائنا ، كما ينبغي ، فلم تفلح مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا عموماً ، في إنشاء علاقة الود بين المتعلمين وهذه اللغة ، ولم تنجح في غرس حب القراءة في النشء منذ الصغر .

ولعل السبب في ذلك ، يرجع بعضه إلى اعتقاد الكثيرين منا ، بأن في تعليم قواعد اللغة تعليماً للغة . وتفكيرنا في الأمر على هذا النحو ، كتفكير من يعلم قواعد العروض ، لكي ينشئ شاعراً ، أو كتفكير من يحفظ صفحتين ، في قواعد قيادة السيارات ، ثم يظن أنه بهذا الحفظ وحده ، قد أصبح سائقاً ماهراً ، فإن اهتمامنا بتعليم القواعد النحوية ، في مرحلة مبكرة من حياة الطفل ، جعلنا نظن أن مقياس إجادة اللغة ، هو البراعة في حفظ المصطلحات النحوية ، والتفتن في عدّ مسوغات الابتداء بالنكرة ، ومجىء الحال معرفة ، وأحوال الصفة المشبهة ، وما إلى ذلك .

كل هذه الأمور وأمثالها ، يرددها التلميذ ، في هذه السن المبكرة بلا وعي ، ثم ينساها عقب الفراغ من الامتحان ، ولا يبقى في ذهنه منها إلا التندر على صعوبة اللغة العربية ، وما لاقاه في تعلمها من عناء ومشقة . وإنني لست بهذا أخط من أهمية قواعد اللغة ، ولا أقلل من قدرها ، في الوقوف على سر اللغة والتمكن منها ، ولكنني أحذر من وضعها في المقام الأول ، ونسيان الفطرة التي جبل عليها الإنسان في تعلم اللغة . خذ لغة التخاطب مثلاً ، وانظر كيف يتعلمها الطفل ؟ إننا لا نشرح له أية قاعدة من قواعدها ، ولكن الذي يحدث هو أننا نتكلم ، والطفل يحاكي ويقلد ، حتى إذا أخطأ ، لا يجد من حوله يشرحون له القاعدة ، وإنما يكررون الصواب أمامه ... وهكذا ، وعن هذا الطريق وحده ، يلم الطفل بتراكيب اللغة ومعانيها ، حفظاً وفهماً ، ويهضم كل ذلك ثم يقيس عليه ، ويكتمل نضج لغة الخطاب لديه ، في وقت قصير ، دون أن يعلم شيئاً عن قواعدها وقوانينها وضوابطها .

وإذا كان هذا هو المنهج الفطري في تعلم اللغة ، فلماذا لا نفيد منه

فى تعلم العربية الفصحى ؟ حقا إن العربية الفصحى ، لا يتكلمها الناس فى كل وقت حول التلميذ ، كما نتحدث بالعامية أمام الطفل . ولكن هناك طريقا آخر يقوم مقام السماع ، وهو طريق القراءة ، قراءة النصوص الأدبية القديمة ، وما نسج على نخطها فى العصور المختلفة ، قراءة واعية صابرة ، مع حفظ الكثير والكثير جدا ، من هذه النصوص الجيدة ، شعرا ونثرا ، وعلى رأس هذه النصوص جميعها بالطبع ، نص القرآن العظيم . وفى هذه الحالة تتكون الملكة القادرة على محاكاة هذه النصوص ، والنسج على منوالها .

ولقد نادى بمثل ذلك العلامة « ابن خلدون » فقال فى مقدمته : « ووجه التعليم لمن يتغنى هذه الملكة ، ويروم تحصيلها ، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم ، الجارى على أساليبهم ، من القرآن والحديث ، وكلام السلف ، ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم ، وكلمات المولدين أيضا فى سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور ، منزلة من عاش بينهم ، ولقن العبارة منهم ^(١) » .

هذا ما قاله ابن خلدون . وإنه لا شئ أجدى على من يريد تعلم لغة ما ، من الاستماع إليها ، والقراءة الكثيرة فى تراثها ، وحفظ الجيد من نصوصها . وإذا كنا أمام الفصحى ، لا ننعى بالوسيلة الأولى ، وهى الاستماع ، إذ أكثر ما نسمعه عامى أو فصيح ملحون ، أو ملء بالخطأ ، أو ركيك العبارة ، ضحل المضمون ، فلا تزال أمامنا فرصة الإفادة ، من القراءة الواعية للنصوص الجيدة ، وعندئذ تتكون السليقة اللغوية عند أبناء العربية ، وتجربى ألسنتهم بالفصحى العذبة ، وتأتى دروس القواعد ، فتتظم هذا الكيان اللغوى ، الذى نما وترعرع ، فى ظل النصوص .

وإذا كان للقراءة هذا الجانب العظيم من الأهمية ، فى الوصول إلى اكتساب السليقة اللغوية ، فإن الكتاب المدرسى ، تبرز أهميته القصوى

(١) مقدمة ابن خلدون ٦٥٤

في هذا المجال . وفي تصوري أن الكتاب المدرسي الجيد ، هو الذي يكون ملائماً لسن الطفل ، وقريباً من لغته ، كما تكون موضوعاته وأمثله ، متصلة بالبيئة التي يعيش فيها هذا الطفل . وكل هذه الأمور تتفاوت الجهات المسؤولة ، عن الكتب المدرسية ، في البلاد العربية ، في مراعاتها قدر الطاقة .

غير أنني أتناول هنا ناحية خطيرة ، في إعداد هذا الكتاب ، أجدها مسئولة عن بعض الضعف ، الذي نعاني منها في لغتنا العربية ؛ ذلك هو ما درجنا عليه ، من كتابة كثير من الكلمات ، عارية عن الضبط بالشكل ، في الكتاب المدرسي المقرر ، في تلك الفترة المبكرة من حياة الطفل ؛ فقد يستطيع هذا الطفل أو ذاك ، أن ينطق كلمة سمع نطقها ، وتعلمه في مدرسته ، غير أنه يقف عاجزاً مكتوف الأيدي ، أمام كلمة أخرى ، لم يقرأها من قبل ، حتى وإن عرف حروفها وهجاءها ؛ ذلك لأن رموز نصف الأصوات في الكلمة مفقود تماماً ، وهي رموز الحركات ، فحروف مثل : (ك ت ب) ، لا يدرى الطفل كيف تنطق ؛ لأنها تحمل عدة أوجه من القراءة ، بسبب عدم ضبطها بالحركات . وهذا معوّق كبير عن القراءة ، يزيد من كراهية الطفل للتعليم ، ويحبط العملية التعليمية .

وإننا لنعجب حقاً من نهائنا في طباعة هذه النصوص ، بلا شكل أحيانا ، وبعض الشكل أحيانا أخرى ؟ إننا بهذا الخط الخالي من التشكيل ، نفهم أولاً ، لكي نقرأ قراءة صحيحة ، وفي كل لغات العالم ، يقرأ الناس ليفهموا ، وإن هذا الخط الخالي من التشكيل ، هو المسئول عن الخطأ في ضبط بنية الكلمة ، فلماذا لا نقضى على هذه الآفة الخطيرة ، بتشكيل جميع الكتب المدرسية ، حتى مراحل متأخرة تشكيلاً كاملاً ، فيتعود التلميذ على النطق السليم ، لأبنية الكلام ، وهو ما لا يضبط بقاعدة في كثير من الأحيان ، ولابد فيه من السماع ؟

هذا هو دور القراءة الواعية ، في تعلم اللغة الفصحى . ولكن هل فقدنا حقاً الوسيلة الأصلية في تعلم اللغة ، وهى : السماع ؟ إن وسائل الإعلام السمعية (الراديو والتليفزيون) يمكن أن تسهم بدور فعال ، فى الوصول إلى نتيجة مرضية فى تعلم الفصحى ، غير أن الذى يحدث للأسف الشديد ، هو طغيان العاميات فى كل يوم على الإذاعات العربية ، فتخسر الفصحى إحدى قلاعها الحصينة ، وتفتوت الفرصة الذهبية ، لتعلم اللغة عن طريق السماع .

إنك لتعجب حين ترى بعض المتعلمين ، ينطق اللغة الأجنبية على وجهها الصحيح ، حتى إذا رام الحديث بالعربية الفصحى ، تلثم واربتك ، وأخطأ ولحن ، وصحّف وحرّف ، وخلطها بالردىء من الأساليب العامية ، كمن يخلط عملاً صالحاً بآخر سيئ ، وما ذلك إلا لأنه لا يسمع الفصحى ، إلا فى حجرة الدراسة أحياناً ، حتى إذا خرج إلى الشارع ، ملأت العامية سمعه وبصره فى كل مكان ، فخلطت عليه أمره ، وردّته عن الفصحى أيّما ردّ ، وعاقته عن تملك زمامها ، والسيطرة عليها .

ولقد كان الأمل كبيراً ، فى أن تقوم وسائل الإعلام المختلفة ، بسدّ هذا النقص ، وتقويم هذا الميل فى ميزان الفصحى والعامية ، فلا يقتصر سماع الطالب للفصحى ، على دروس المدرسة ، بل تحيط به لغتنا الجميلة من كل مكان ، وتأخذ عليه جهاته الأربع ، فتتمكن من قلبه ، ويجرى بها لسانه ، وتصير لغة سليقة له .

كان الأمل كبيراً ، فى أن يدير الطالب مفتاح المذياع مثلاً ، فلا يسمع إلا الفصحى فى كل شيء : فى النشرات ، والتعليقات ، والبرامج والتمثيلات ، والأغاني والسهرات . ولكن الذى يحدث فى كثير من الإذاعات العربية ، هو طغيان اللهجات المحلية على برامجها وأغانيها وتمثيلاتها ، فإذا سألت المشرفين على هذه الإذاعات ، والقائمين على التخطيط فيها ، عن أسباب هذه العلة ، التى أزمنت وطال عليها الأمد ، سمعت منهم حجة غريبة ، وعلة عجيبة ؛ ذلك أنهم يقولون : إن الجمهور يريد البث باللغة العامية ، وينفر من البرامج الفصيحة !

وينسى هؤلاء القوم أن وسائل الإعلام ، يجب أن تكون مُوجَّهة لا مُوجَّهة . وهذا يعنى أنها لا يصح أن تتملق عواطف الجمهور ، أو تجرى وراء نزواته ، بل يجب أن توجهه وتأخذ بيده ، وتقوده إلى حيث تريد ، فلهذا السبب وجدت ، ومن أجله تعمل ، فلا يصح أن تنسى وظيفتها الأصلية ، وتنساق خلف تحقيق الرغبات الجامحة ، للجمهور الكسول .

لقد كان المطربون والمطربات فى العصر العباسى ، يتغنون بالشعر العربى الفصيح ، فيذيعون هذا الشعر ، ويعملون على رواج سوق الأدب ، ونشر الفصحى بين الناس ، ولقد تُعْنَى فى عصرنا الحديث ، بالقصائد الطوال ، من الشعر الفصيح ، فما ازورّ عنه الجمهور ، ولا ملّ الاستماع إليه .

نعم ... قد يقال : إن نسبة كبيرة من الجماهير العربية ، من الأميين الذين لا يعرفون هذه الفصحى ولا يفهمونها ، فلا يصح أن نخاطبهم بلغة تعلو عن مستواهم ، أو نوجههم بأسلوب ، لا يلقى عندهم صدى أو قبولا .

ولكن ... من قال إن العربية الفصحى ، تعنى التفرع والتشديق واختيار الألفاظ الحوشية ، والأساليب الغريبة فى اللغة ؟ إن هذا الجمهور نفسه ، هو الذى يستمع إلى خطبة الجمعة ، بالفصحى السهلة ، يفهمها ويعيها ، ولا ينفر منها .

وليكن ما يقوله هؤلاء صوابا ... أفصحّ أن نجعل النصيب الأوفر ، من البرامج بالعامية من أجل الأميين ؟ إن ما يحدث من طغيان العامية ، فى الأغاني والتمثليات والبرامج فى الإذاعات العربية ، لا نظير له فى أية إذاعة أوربية مثلا ، مع كثرة اللهجات المحلية هناك ، وما ذلك إلا لأن أصحابها ، آمنوا بالوظيفة الأولى للإذاعة ، وهى التوجيه لا الانقياد !

★ ★ ★

مركز جمع الكتاب

١- المراجع العربية

- ١ - أبحاث في اللغة العربية ، للدكتور داود عبده - بيروت ١٩٧٣ م .
- ٢ - الإبدال ، لأبي الطيب اللغوى - تحقيق عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦٠ م .
- ٣ - الإبدال والمعاقبة والنظائر ، للزجاجى - تحقيق عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦٢ م .
- ٤ - الإبل ، للأصمعى (ضمن الكنز اللغوى فى اللسن العربى) تحقيق هفنى - ليبزج ١٩٠٥ م .
- ٥ - أبنية الأسماء والأفعال والمصادر ، لابن القطاع الصقلى - تحقيق أحمد عبد الدايم - رسالة دكتوراه بدار العلوم ١٩٨٠ م
- ٦ - أبنية الفعل فى اللغات السامية ، للدكتور رمضان عبد التواب - مجلة كلية اللغة العربية بالرياض - العدد الرابع (١٩٧٤) ص ٥٥ - ٦٨
- ٧ - ابن السكيت اللغوى ، لمحى الدين توفيق - بغداد ١٩٦٩ م .
- ٨ - أبو زكريا الفراء ومذهبه فى النحو واللغة ، للدكتور أحمد مكى الأنصارى - القاهرة ١٩٦٤ م .
- ٩ - أبو على الفارسى ، للدكتور عبد الفتاح شلبى - القاهرة ١٣٨٨ هـ .
- ١٠ - الإتياع ، لأبي الطيب اللغوى - تحقيق عز الدين التنوخى - دمشق ١٩٦١ م .
- ١١ - الإتياع والمزاوجة ، لابن فارس - نشر برونسو - جيسن ١٩٠٦ م .
- ١٢ - الإتيان فى علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطى - القاهرة ١٣٦٨ هـ .

- ١٣ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسي - نشردى غويه - مطبعة بريل ١٩٠٦ م .
- ١٤ - الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم - القاهرة (مطبعة الإمام بلا تاريخ) .
- ١٥ - إحياء النحو ، لإبراهيم مصطفى - القاهرة ١٩٥٩ م .
- ١٦ - أخبار النحويين البصريين ، للسيرافي - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي وطه الزيني - القاهرة ١٩٥٥ م .
- ١٧ - أدب الإملاء والاستملاء ، للسمعاني - نشر فايسفيلر - ليدن ١٩٥٢ م .
- ١٨ - أدب الكاتب ، لابن قتيبة الدينوري - تحقيق جرونرت - ليدن ١٩٠٠ م .
- ١٩ - الأزمنة والأمكنة ، للمرزوقي - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٣٢ هـ .
- ٢٠ - الأزمنة والأنواء ، لابن الأجداني - تحقيق الدكتور عزة حسن - دمشق ١٩٦٤ م .
- ٢١ - أساس البلاغة ، للزمخشري - طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٢ م .
- ٢٢ - أسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيبويه ، للدكتور رمضان عبد التواب - مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (١٩٧٤) ٢/٤٩
- ٢٣ - أسماء خيل العرب وفرسانها ، لابن الأعرابي - نشر ليثي دلاقيدا - ليدن ١٩٢٨ م .
- ٢٤ - الأشباه والنظائر في النحو ، لجلال الدين السيوطي - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .
- ٢٥ - الاشتقاق ، لابن دريد الأزدي - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٢٦ - الاشتقاق ، لأبي بكر بن السراج - تحقيق محمد صالح التكريتي - بغداد ١٩٧٣ م .
- ٢٧ - الاشتقاق ، لعبد الله أمين - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٢٨ - اشتقاق الأسماء ، للأصمعي - تحقيق الدكتور رمضان

- عبد الثواب ، والدكتور صلاح الدين الهادى - القاهرة ١٩٨٠ م .
- ٢٩ - الاشتقاق والتعريب ، لعبد القادر المغربى - القاهرة ١٩٤٧ م .
- ٣٠ - إصلاح المنطق ، لابن السكيت - تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٣١ - أصول الكلمات العامية ، لحسن توفيق العدل - القاهرة ١٨٩٩ م .
- ٣٢ - الأضداد ، لأبى بكر بن الأنبارى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الكويت ١٩٦٠ م .
- ٣٣ - الأضداد ، لأبى حاتم السجستاني (ضمن ثلاثة كتب فى الأضداد) - نشر هفتر - بيروت ١٩١٣ م .
- ٣٤ - الأضداد ، لابن الدهان - نشر الشيخ محمد حسن آل ياسين - بغداد ١٩٦٣ م .
- ٣٥ - الأضداد ، لابن السكيت (ضمن ثلاثة كتب فى الأضداد) نشر هفتر - بيروت ١٩١٣ م .
- ٣٦ - الأضداد ، للصاغاني (ضمن ثلاثة كتب فى الأضداد) - نشر هفتر - بيروت ١٩١٣ م .
- ٣٧ - الأضداد فى كلام العرب ، لأبى الطيب اللغوى - تحقيق الدكتور عزة حسن - دمشق ١٩٦٣ م .
- ٣٨ - الأضداد فى اللغة ، لمحمد حسين آل ياسين - بغداد ١٩٧٤ م .
- ٣٩ - الأضداد ، لقطرب - نشر كوفلر ، فى مجلة : إسلاميك ١٩٣٢ م .
- ٤٠ - إعجاز القرآن - للباقلاني - تحقيق السيد أحمد صقر - القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٤١ - إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ، لابن خالويه - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٤١ م .
- ٤٢ - أعلام الكلام ، لابن شرف القيروانى (ضمن سلسلة الرسائل النادرة) القاهرة ١٩٢٦ م .
- ٤٣ - الأفعال ، للسرقسطى - تحقيق الدكتور حسين محمد شرف - القاهرة ١٩٧٥ م وما بعدها .
- ٤٤ - الأفعال ، لابن القطاع - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .

- ٤٥ - الاقتراح فى علم أصول النحو ، لجلال الدين السيوطى - خيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٩ هـ .
- ٤٦ - الإكليل ، للهمدانى - الجزء العاشر - تحقيق محب الدين الخطيب - القاهرة ١٣٦٨ هـ .
- ٤٧ - ألف باء ، لأبى الحجاج البلوى - القاهرة ١٢٧٨ هـ .
- ٤٨ - الألفاظ الكتابية ، للهمدانى - القاهرة ١٩٢٢ م .
- ٤٩ - الأمالى ، لابن الشجرى - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٩ هـ .
- ٥٠ - الأمالى ، لأبى على القالى - بولاق ١٣٢٤ هـ .
- ٥١ - إنباه الرواة على أنباه النحاة ، للقفطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٠ - ١٩٧٣ م .
- ٥٢ - الإنصاف فى مسائل الخلاف ، بين النحويين البصريين والكوفيين ، لأبى البركات بن الأنبارى - تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ٥٣ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لابن هشام - تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٤٩ م .
- ٥٤ - الأيام والليالى والشهور ، للفراء - تحقيق إبراهيم الإيبارى - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٥٥ - الإيضاح فى علل النحو ، للزجاجى - تحقيق مازن المبارك - القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٥٦ - إيضاح الوقف والابتداء فى كتاب الله عز وجل ، لأبى بكر بن الأنبارى - تحقيق محبى الدين رمضان - دمشق ١٩٧١ م .
- ٥٧ - البارع فى اللغة ، لأبى على القالى - قطعة مصورة نشرت بعناية فولتون - لندن ١٩٣٣ م .
- ٥٨ - البارع فى اللغة ، لأبى على القالى - نشر هاشم الطعان - بيروت ١٩٧٥ م .
- ٥٩ - البحر المحيط ، لأبى حيان الأندلسى - مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ٦٠ - البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ م .

- ٦١ - بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، للفيروزابادى - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٧٣ م .
- ٦٢ - بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، لجلال الدين السيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٥ م .
- ٦٣ - بلاد العرب ، للغدة الإصفهاني - تحقيق الشيخ حمد الجاسر والدكتور صالح العلى - الرياض ١٩٦٨ م .
- ٦٤ - البيان والتبيين ، لأبى عمرو الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٥٠ م .
- ٦٥ - التأليف فى خلق الإنسان من خلال معاجم المعانى ، للدكتورة وجيهة السطل - دمشق ١٩٧٦ م .
- ٦٦ - تأويل مشكل القرآن ، لابن قتيبة - تحقيق السيد أحمد صقر - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٦٧ - تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي - القاهرة ١٣٠٦ هـ .
- ٦٨ - تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة ، لحفنى ناصف - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٦٩ - تاريخ الطبرى = تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٩ م .
- ٧٠ - التاريخ العربى القديم ، لهومل وآخرين - ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٧١ - تاريخ اللغات السامية ، لإسرائيل ولفنسون - القاهرة ١٩٢٩ م .
- ٧٢ - التذكير والتأنيث فى اللغة ، مع تحقيق رسالة أبى موسى الحامض فيما يذكر ويؤنث من الإنسان واللباس ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٧٣ - التشبيهات ، لابن أبى عون - تحقيق محمد عبد المعيد خان - كمبردج ١٩٥٠ م .
- ٧٤ - تصحيح الفصيح ، لابن درستويه - تحقيق عبد الله الجبورى - بغداد ١٩٧٥ م .
- ٧٥ - التضاد فى ضوء اللغات السامية ، للدكتور ربحى كمال - بيروت ١٩٧٢ م .

- ٧٦ - التطور النحوى للغة العربية ، لبرجشتراسر - أخرجه وصححه وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٢ م .
- ٧٧ - التعريف والإعلام ، للسهيلى - القاهرة ١٩٣٨ م .
- ٧٨ - تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٧٩ - التكملة ، لأبى على الفارسى - تحقيق كاظم بحر المرجان (رسالة ماجستير) مخطوط .
- ٨٠ - التكملة والذيل والصلة ، لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية للصاغانى - تحقيق عبد العليم الطحاوى وآخرين - القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٩ م .
- ٨١ - التلخيص فى معرفة أسماء الأشياء ، لأبى هلال العسكرى - تحقيق الدكتور عزة حسن - دمشق ١٩٦٩ م .
- ٨٢ - تلقيب القوافى ، لابن كيسان (ضمن جرزة الحاطب وتحفة الطالب) - نشررايت - ليدن ١٨٥٩ م .
- ٨٣ - التنبيه على حدوث التصحيف ، لحمزة الإصفهاني - تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين - بغداد ١٩٦٧ م .
- ٨٤ - التنبيهات على أغاليط الرواة ، لعلى بن حمزة البصرى - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٨٥ - التهذيب فى أصول التعريب ، للدكتور أحمد عيسى - القاهرة ١٩٢٣ م .
- ٨٦ - تهذيب الألفاظ ، لابن السكيت - نشر لويس شيخو - بيروت ١٨٩٥ م .
- ٨٧ - تهذيب الألفاظ العامية ، للشيخ محمد على الدسوقي - القاهرة ١٩١٣ م .
- ٨٨ - تهذيب اللغة ، لأبى منصور الأزهري - تحقيق عبد السلام هارون وآخرين - القاهرة ١٩٦٤ - ١٩٦٧ م .
- ٨٩ - الجمل للزجاجى - نشر العلامة ابن أبى شنب - باريس ١٩٥٧ م .
- ٩٠ - جمهرة اللغة ، لابن دريد الأزدي - تحقيق كرنكو - حيدر آباد الدكن بالهند - ١٣٤٤ - ١٣٥١ هـ .
- ٩١ - جواهر الألفاظ ، لقدامة بن جعفر - تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٣٢ م .

- ٩٢ - الجيم ، لأبي عمرو الشيباني - تحقيق إبراهيم الإيباري وآخرين - القاهرة ١٩٧٤-١٩٧٥ م .
- ٩٣ - جيمية هميان بن قحافة السعدي في وصف الإبل - جمعها وحققها وعلق عليها الدكتور رمضان عبد التواب - مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢٧) فبراير ١٩٧١ م .
- ٩٤ - حاشية الشريف الجرجاني على الكشف - القاهرة ١٩٤٨ م .
- ٩٥ - الحروف ، لأحمد بن محمد الرازي - ضمن ثلاثة كتب في الحروف تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٢ م
- ٩٦ - الحروف ، للخليل بن أحمد - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٩ م .
- ٩٧ - الحروف ، لأبي نصر الفارابي - تحقيق محسن مهدي - بيروت ١٩٦٩ م .
- ٩٨ - حماسة أبي تمام ، بشرح التبريزي - نشر فرايتاج - بون ١٨٢٨ م .
- ٩٩ - الحماسة للبحترى - نشر كمال مصطفى - القاهرة ١٩٢٩ م .
- ١٠٠ - الحماسة البصرية ، لصدر الدين البصري - تحقيق مختار الدين أحمد - حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٦٤ م .
- ١٠١ - حلية الفرسان وشعار الشجعان ، لابن هذيل الأندلسي - تحقيق محمد عبد الغني حسن - القاهرة ١٩٤٩ م .
- ١٠٢ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، لعبد القادر البغدادي - بولاق ١٢٩٩ هـ .
- ١٠٣ - الخصائص ، لابن جني - تحقيق محمد علي النجار - القاهرة ١٩٥٢-١٩٥٦ م .
- ١٠٤ - خلق الإنسان ، للأصمعي (ضمن الكنز اللغوي في اللسان العربي) نشر هفتر - ليزج ١٩٠٥ م .
- ١٠٥ - خلق الإنسان ، لثابت بن أبي ثابت - تحقيق عبد الستار فراج - الكويت ١٩٦٥ م .
- ١٠٦ - خلق الإنسان ، للزجاج - تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي - بغداد ١٩٦٣ م .
- ١٠٧ - الخيل ، للأصمعي - نشر هفتر في مجلة : SBWA - ثينا ١٨٩٥ م .

- ١٠٨ - الخيل ، لأبى عبيدة معمر بن المثنى - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٥٨ هـ .
- ١٠٩ - دراسات فى فقه اللغة ، للدكتور صبحى الصالح - بيروت ١٩٧٠ م
- ١١٠ - دراسات فى فقه اللغة العربية ، للدكتور السيد يعقوب بكر - بيروت ١٩٦٩ م .
- ١١١ - دراسات فى اللغة ، للدكتور إبراهيم السامرائى - بغداد ١٩٦١ م .
- ١١٢ - درة الغواص فى أوهام الخواص ، للحريرى - مطبعة الجوائب باستانبول ١٢٩٩ هـ .
- ١١٣ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلانى - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٤٨ - ١٣٥٠ هـ .
- ١١٤ - الدرر اللوامع على جمع الهوامع ، للشنقيطى - القاهرة ١٣٢٨ هـ .
- ١١٥ - دروس فى علم أصوات العربية ، لجان كانتينو - ترجمة صالح القرمادى - تونس ١٩٦٦ م .
- ١١٦ - دلالة الألفاظ ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١١٧ - دور الكلمة فى اللغة ، لأولمان - ترجمة الدكتور كمال بشر - القاهرة ١٩٦٢ م .
- ١١٨ - ديوان الأخطل - نشر أنطون صالحانى - بيروت ١٨٩١ م .
- ١١٩ - ديوان إبراهيم بن هرمة - تحقيق محمد نفاع وحسين عطوان - دمشق ١٩٦٩ م .
- ١٢٠ - ديوان الأدب ، للفارابى - تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر - القاهرة ١٩٧٤ - ١٩٧٨ م .
- ١٢١ - ديوان الأعشى = الصبح المنير فى شعر أبى بصير - تحقيق جاير - لندن ١٩٢٨ م .
- ١٢٢ - ديوان امرئ القيس - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٢٣ - ديوان بشر بن أبى خازم - تحقيق الدكتور عزة حسن - دمشق ١٩٦٠ م .
- ١٢٤ - ديوان جران العود الثميرى ، برواية أبى سعيد السكرى - القاهرة ١٩٣١ م .

- ١٢٥ - ديوان الحطيئة - تحقيق نعمان أمين طه - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ١٢٦ - ديوان حميد بن ثور الهلالي - صنعة عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٥١ م .
- ١٢٧ - ديوان الخرنق أخت طرفة - تحقيق الدكتور حسين نصار - القاهرة ١٩٦٩ م .
- ١٢٨ - ديوان ذى الرمة - تحقيق كارليل هنرى هيس - كمبردج ١٩١٩ م .
- ١٢٩ - ديوان أنى دواد الإيادى ، فى كتاب : دراسات فى الأدب العربى ، تأليف غرنباوم ، وترجمة إحسان عباس وآخرين - بيروت ١٩٥٩ م .
- ١٣٠ - ديوان رؤية بن العجاج - تحقيق آهلورت - ليبزج ١٩٠٣ م .
- ١٣١ - ديوان أبى زبيد الطائى - جمعه وحققه الدكتور نورى حمودى القيسى - بغداد ١٩٦٧ م .
- ١٣٢ - ديوان زهير بن أبى سلمى ، بشرح ثعلب - القاهرة ١٩٤٤ م .
- ١٣٣ - ديوان الطرماح - تحقيق الدكتور عزة حسن - دمشق ١٩٦٨ م .
- ١٣٤ - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات - تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم - بيروت ١٩٥٨ م .
- ١٣٥ - ديوان العجاج ، برواية الأصمعى وشرحه - تحقيق الدكتور عزة حسن - بيروت ١٩٧١ م .
- ١٣٦ - ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدى - جمع هاشم الطعان - بغداد ١٩٧٠ م .
- ١٣٧ - ديوان الفرزدق - نشر عبد الله إسماعيل الصاوى - القاهرة ١٩٣٦ م .
- ١٣٨ - ديوان كثير عزة - تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٧١ م .
- ١٣٩ - ديوان كعب بن زهير = شرح ديوان كعب بن زهير ، للسكرى - القاهرة ١٩٥٠ م .
- ١٤٠ - ديوان لبيد بن ربيعة العامرى - تحقيق الدكتور إحسان عباس - الكويت ١٩٦٢ م .
- ١٤١ - ديوان مجنون ليلى - تحقيق عبد الستار فراج - القاهرة (بلا تاريخ) .
- ١٤٢ - ديوان أبى محجن الثقفى - تحقيق امتياز على عرشى - مجلة ثقافة الهند - سبتمبر ١٩٥٢ م .
- ١٤٣ - ديوان مزاحم بن الحارث العقيلي - نشر كرنكو - ليدن ١٩٢٠ م .

- ١٤٤ - ديوان مزرد بن ضرار الغطفاني - تحقيق خليل إبراهيم العطية - بغداد ١٩٦٢ م .
- ١٤٥ - ديوان ابن مقبل - تحقيق الدكتور عزة حسن - دمشق ١٩٦٢ م .
- ١٤٦ - ديوان النابغة الجعدي - تحقيق مارية نلليو - روما ١٩٥٣ م .
- ١٤٧ - ديوان النابغة الذبياني - صنعة ابن السكيت - تحقيق الدكتور شكرى فيصل - بيروت ١٩٦٨ م .
- ١٤٨ - ديوان الهذليين = شرح ديوان الهذليين للسكري - تحقيق عبد الستار فراج - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ١٤٩ - ذم الخطأ في الشعر ، لابن فارس اللغوى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٠ م .
- ١٥٠ - ربيع الأبرار ، للزنجشري - مخطوطة دمشق رقم ٣٢٦٣
- ١٥١ - رسالة في علم الخط ، للسيوطي (ضمن التحفة البهية والطرفة الشهية) استانبول ١٣٠٢ هـ .
- ١٥٢ - رسالة الملائكة ، لأبي العلاء المعري - تحقيق محمد سليم الجندي - دمشق ١٩٤٤ م .
- ١٥٣ - الركام اللغوى للظواهر المندثرة في اللغة ، للدكتور رمضان عبد التواب - المجلة العربية (السنة الثانية) العدد الأول - الرياض ١٩٧٧ م .
- ١٥٤ - الزينة ، لأبي حاتم الرازي - تحقيق حسين الهمداني - القاهرة ١٩٥٧ - ١٩٥٨ م .
- ١٥٥ - سر صناعة الإعراب ، لابن جنى - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ١٥٦ - سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي - نشر عبد المتعال الصعیدی - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ١٥٧ - ابن السكيت اللغوى ، لمحبي الدين توفيق إبراهيم - بغداد ١٩٦٩ م .
- ١٥٨ - سمط اللآلى في شرح أمالى القالى ، لأبي عبيد البكرى - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٣٦ م .
- ١٥٩ - سيرة ابن هشام = السيرة النبوية ، لابن هشام - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - القاهرة ١٩٥٥ م .

- ١٦٠ - الشاء ، للأصمعى - نشر هفتر ، فى مجلة : SBWA ثينا ١٨٩٦ م .
- ١٦١ - الشجر ، لأبى زيد الأنصارى - نشر ناجلبرج - كرشهايم ١٩٠٩ م .
- ١٦٢ - شجر الدر فى تداخل الكلام بالمعاني المختلفة ، لأبى الطيب اللغوى - تحقيق محمد عبد الجواد - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ١٦٣ - شرح اختيارات المفضل الضبى ، للخطيب التبريزى - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - دمشق ١٩٧١ - ١٩٧٢ م .
- ١٦٤ - شرح أدب الكاتب ، للجواليقى - نشر مصطفى صادق الرافعى - القاهرة ١٣٥٠ هـ .
- ١٦٥ - شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - مطبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة (بلا تاريخ) .
- ١٦٦ - شرح التصريف الملوكى ، لابن يعيش - تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة - حلب ١٩٧٣ م .
- ١٦٧ - شرح حماسة أبى تمام ، للمرزوقى - تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون - القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٣ م .
- ١٦٨ - شرح درة الغواص فى أوهام الخواص ، للشهاب الخفاجى - استانبول ١٢٩٩ م .
- ١٦٩ - شرح الشافية ، للأسترباذى - تحقيق محمد الزفزاف وآخرين - القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- ١٧٠ - شرح شواهد الشافية ، لعبد القادر البغدادى - تحقيق محمد الزفزاف وآخرين - القاهرة ١٣٥٦ هـ .
- ١٧١ - شرح شواهد الكتاب ، للأعلم الشنتمرى - على هامش كتاب سيويه - بولاق ١٣١٦ - ١٣١٧ هـ .
- ١٧٢ - شرح شواهد المغنى ، لجلال الدين السيوطى - بتصحيح الشنقيطى - القاهرة ١٣٢٢ هـ .
- ١٧٣ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، لابن الأنبارى - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٤ م .
- ١٧٤ - شرح مراحم الأرواح ، لديكنقوز - القاهرة ١٩٣٧ م .
- ١٧٥ - شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٠ م .

- ١٧٦ - شرح ابن يعيش لمفصل الزمخشري - المطبعة المنيرية بالقاهرة (بلا تاريخ) .
- ١٧٧ - شروح سقط الزند - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - القاهرة ١٩٤٥ م .
- ١٧٨ - الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الدينوري - تحقيق أحمد شاكر - القاهرة ١٩٦٦ م .
- ١٧٩ - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، لشهاب الدين الخفاجي - القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ١٨٠ - شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، لنشوان الحميري - تحقيق تترستين - ليدن ١٩٥١ - ١٩٥٣ م .
- ١٨١ - شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم ، لنشوان الحميري - مطبعة عيسى البابي الحلبي (بلا تاريخ) .
- ١٨٢ - شواهد التوضيح ، لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك النحوي - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - القاهرة ١٩٥٧ م .
- ١٨٣ - الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس اللغوي - تحقيق السيد أحمد صقر - القاهرة ١٩٧٧ م .
- ١٨٤ - الصاحبي في فقه اللغة ، لابن فارس اللغوي - تحقيق مصطفى الشويبي - بيروت ١٩٦٣ م .
- ١٨٥ - الصاهل والشاحج ، لأبي العلاء المعري - تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء - القاهرة ١٩٧٥ م .
- ١٨٦ - الصاحح للجوهري = تاج اللغة وصحاح العربية ، لأبي نصر الجوهري - تحقيق أحمد عبد الغفور عطار - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ١٨٧ - صفة جزيرة العرب ، للهمداني - تحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد النجدي - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ١٨٨ - الصناعتين ، لأبي هلال العسكري - تحقيق علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٢ م .
- ١٨٩ - طبقات فحول الشعراء ، لمحمد بن سلام الجمحي - تحقيق محمود محمد شاكر - القاهرة ١٩٥٢ م .

- ١٩٠ - العباب الزاخر واللباب الفاخر ، للصاغاني (حرف الهمزة) - تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين - بغداد ١٩٧٧ م .
- ١٩١ - عبث الوليد ، لأبي العلاء المعري - القاهرة ١٩٧٠ م .
- ١٩٢ - عثرات اللسان في اللغة ، لعبد القادر المغربي - دمشق ١٩٤٩ م .
- ١٩٣ - العرب في سوريا قبل الإسلام ، لرئيسه ديسو - ترجمة عبد الحميد الدواخلي - القاهرة ١٩٥٩ م .
- ١٩٤ - العرب قبل الإسلام ، لجرجي زيدان - القاهرة ١٩٦٦ م .
- ١٩٥ - العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ليوهان فك ، مع تعليقات المستشرق الألماني شبيتالر - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٨٠ م .
- ١٩٦ - العربية ولهجاتها ، للدكتور عبد الرحمن أيوب - القاهرة ١٩٦٨ م .
- ١٩٧ - العقد الفريد ، لابن عبد ربه - تحقيق أحمد أمين وآخرين - القاهرة ١٩٤٨ - ١٩٥٣ م .
- ١٩٨ - علم اللغة ، للدكتور علي عبد الواحد وافي - القاهرة ١٩٥٧ م .
- ١٩٩ - علم اللغة ، رأى ومنهج ، للدكتور محمود السعران - القاهرة ١٩٦٢ م .
- ٢٠٠ - العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق القيرواني - القاهرة ١٩٠٧ م .
- ٢٠١ - العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي - تحقيق الدكتور عبد الله درويش - بغداد ١٩٦٧ م .
- ٢٠٢ - عيون الأخبار ، لابن قتيبة الدينوري - القاهرة ١٩٢٨ - ١٩٣٠ م .
- ٢٠٣ - غريب الحديث ، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي - حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٦٤ - ١٩٦٧ م .
- ٢٠٤ - غريب الحديث ، لابن قتيبة الدينوري - تحقيق الدكتور عبد الله الجبوري - بغداد ١٩٧٧ م .
- ٢٠٥ - الفائق في غريب الحديث ، للزمخشري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٤٨ م .
- ٢٠٦ - الفاضل ، لأبي العباس المبرد - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٥٦ م .

- ٢٠٧ - فحولة الشعراء ، نشر الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ٢٠٨ - الفرق ، للأصمعى - نشر موللر فى مجلة : SBWA - فينا ١٨٧٦ م .
- ٢٠٩ - الفروق اللغوية ، لأبى هلال العسكرى - القاهرة ١٩٥٣ م .
- ٢١٠ - فصل المقال ، شرح كتاب الأمثال ، لأبى عبيد البكرى - تحقيق عبد المجيد عابدين وإحسان عباس - الخرطوم ١٩٥٨ م .
- ٢١١ - الفصول والغايات ، لأبى العلاء المعرى - نشر محمود زناقى - القاهرة ١٩٣٨ م .
- ٢١٢ - فعلت وأفعلت ، لأبى حاتم السجستانى - تحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية - بغداد ١٩٧٩ م .
- ٢١٣ - فقه اللغة ، للدكتور على عبد الواحد وافى - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٢١٤ - فقه اللغة وسر العربية ، للثعالبى - مطبعة الاستقامة بالقاهرة (بلا تاريخ) .
- ٢١٥ - فهرس شواهد سيويه - صنعة أحمد راتب النفاخ - بيروت ١٩٧٠ م .
- ٢١٦ - فهارس كتاب سيويه ، صنع محمد عبد الخالق عزيمة - القاهرة ١٩٧٥ م .
- ٢١٧ - الفهرست ، لابن النديم - القاهرة ١٣٤٨ هـ .
- ٢١٨ - فى الأدب الجاهلى ، للدكتور طه حسين - القاهرة ١٩٤٧ م .
- ٢١٩ - فى أصول اللغة والنحو ، لفؤاد ترزى - بيروت ١٩٦٩ م .
- ٢٢٠ - فى الشعر الجاهلى ، للدكتور طه حسين - القاهرة ١٩٢٦ م .
- ٢٢١ - فى اللهجات العربية ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٢٢٢ - القاموس المحيط ، للفيروزابادى - القاهرة ١٩١٣ م .
- ٢٢٣ - القلب والإبدال ، لابن السكيت (ضمن الكنز اللغوى فى اللسان العربى) - نشر هفتر - بيروت ١٩٠٣ م .
- ٢٢٤ - القوافى ، لأبى الحسن الأخفش - تحقيق أحمد راتب النفاخ - بيروت ١٩٧٤ م .
- ٢٢٥ - الكافى فى العروض والقوافى ، للخطيب التبريزى - نشر الحسانى حسن عبد الله - القاهرة ١٩٦٦ م .

- ٢٢٦ - الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاتة - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٢٢٧ - الكتاب ، لسيويه - بولاق ١٣١٦ - ١٣١٧ هـ .
- ٢٢٨ - الكتاب ، لسيويه - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٦ - ١٩٧٧ م .
- ٢٢٩ - الكشف ، للزحشرى - القاهرة ١٩٤٨ م .
- ٢٣٠ - اللبأ واللبن ، لأبي زيد الأنصارى (ضمن البلغة في شذور اللغة) - نشر لويس شيخو اليسوعى - بيروت ١٩١٤ م .
- ٢٣١ - لحن العامة والتطور اللغوى ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٢٣٢ - لحن العوام ، لأبي بكر الزبيدى - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٤ م .
- ٢٣٣ - لسان العرب ، لابن منظور الإفريقى - بولاق ١٣٠٠ - ١٣٠٧ هـ .
- ٢٣٤ - اللغة ، لفندريس - ترجمة عبد الحميد الدواخلى ومحمد القصاص - القاهرة ١٩٥٠ م .
- ٢٣٥ - اللغة العبرية ، قواعد ونصوص ومقارنات ، للدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٧٧ م .
- ٢٣٦ - اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام ، لأحمد حسين شرف الدين - القاهرة ١٩٧٥ م .
- ٢٣٧ - اللغات السامية ، للمستشرق الألمانى نولدكه - ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٦٣ م .
- ٢٣٨ - اللغات واللغات ، لأنستاس الكرملى - مجلة المشرق (السنة السادسة) ص ٥٢٩
- ٢٣٩ - لغويات ، للشيخ محمد على النجار - القاهرة (بدون تاريخ) .
- ٢٤٠ - المأثور عن أبى العميشل الأعرابى - تحقيق كرنكو - بيروت ١٩٢٥ م .
- ٢٤١ - ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه ، للأصمعى - تحقيق مظفر سلطان - دمشق ١٩٥١ م .

- ٢٤٢ - ما تلحن فيه العوام ، لعل بن حمزة الكسائي - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٣٤٤ هـ .
- ٢٤٣ - ما خالف فيه الإنسان البهيمية في أسماء الوحوش وصفاتها ، لقطرب - نشر جاير في مجلة : SBWA - قينا ١٨٨٧ م .
- ٢٤٤ - ما يجوز للشاعر في الضرورة ، للقرار القيرواني - تحقيق المنجى الكعبي - تونس ١٩٧١ م .
- ٢٤٥ - المباحث اللغوية في العراق ، للدكتور مصطفى جواد - بغداد ١٩٦٥ م .
- ٢٤٦ - مبادئ اللغة ، للخطيب الإسكافي - القاهرة ١٣٢٥ هـ .
- ٢٤٧ - متخير الألفاظ ، لابن فارس - تحقيق هلال ناجي - بغداد ١٩٧٠ م .
- ٢٤٨ - المثني ، لأبي الطيب اللغوي - نشر عز الدين التنوخي - دمشق ١٩٦٠ م .
- ٢٤٩ - مجالس ثعلب - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٢٥٠ - مجمع الأمثال ، للميداني - القاهرة ١٣١٠ هـ .
- ٢٥١ - مجمل اللغة ، لابن فارس - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٤٧ م .
- ٢٥٢ - محاضرات الأدباء ، للراغب الإصفهاني - بيروت ١٩٦١ م .
- ٢٥٣ - محاضرات في التاريخ والآثار - مطبوعات جمعية التاريخ والآثار - جامعة الرياض / كلية الآداب ١٩٦٩ م .
- ٢٥٤ - المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لابن جني - تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين - القاهرة ١٣٨٦ هـ .
- ٢٥٥ - المحكم في نقط المصاحف ، لأبي عمرو الداني - تحقيق الدكتور عزة حسن - دمشق ١٩٦٠ م .
- ٢٥٦ - المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، لابن سيدة الأندلسي - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - القاهرة ١٩٥٨ وما بعدها .
- ٢٥٧ - المحيط في اللغة ، للصاحب بن عباد - تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين - بغداد ١٩٧٥ م .

- ٢٥٨ - المخصص في اللغة ، لابن سيده الأندلسي - بولاق
١٣١٦ - ١٣٢١ هـ .
- ٢٥٩ - المداخل في غريب اللغة ، لأبي عمر الزاهد - تحقيق محمد عبد الجواد -
القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٢٦٠ - المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية ، لعبد المجيد
عابدين - القاهرة ١٩٥١ م .
- ٢٦١ - مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، للدكتور مهدي
الخزومي - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٢٦٢ - المذكر والمؤنث ، للفراء - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب -
القاهرة ١٩٧٥ م .
- ٢٦٣ - مراتب النحويين ، لأبي الطيب اللغوي - تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم - القاهرة ١٩٥٥ م .
- ٢٦٤ - المرصع ، لابن الأثير - تحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي -
بغداد ١٩٧١ م .
- ٢٦٥ - المزهري في علوم اللغة ، لجلال الدين السيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم وآخرين - القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٢٦٦ - مستقبل اللغة العربية المشتركة ، للدكتور إبراهيم أنيس -
القاهرة ١٩٦٠ م .
- ٢٦٧ - المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري - حيدر آباد الدكن
بالهند ١٩٦٢ م .
- ٢٦٨ - المسلسل في غريب لغة العرب ، لأبي الطاهر التميمي - تحقيق محمد
عبد الجواد - القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٢٦٩ - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، للدكتور ناصر الدين الأسد -
القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٢٧٠ - المطر ، لأبي زيد الأنصاري (ضمن البلغة في شذور اللغة) - نشر
لويس شيخو اليسوعي - بيروت ١٩١٤ م .
- ٢٧١ - معاني القرآن ، للفراء - تحقيق الشيخ محمد علي النجار -
القاهرة ١٩٥٥ - ١٩٧٢ م .

- ٢٧٢ - معانى القرآن وإعرابه ، للزجاج - تحقيق عبد الجليل شلبى - بيروت ١٩٧٣ م .
- ٢٧٣ - المعانى الكبير ، لابن قتيبة الدينورى - حيدر آباد الدكن بالهند ١٩٤٩ م .
- ٢٧٤ - معجم الأدباء ، لياقوت الحموى - نشر أحمد فريد رفاعى - القاهرة ١٩٣٦ م .
- ٢٧٥ - المعجم العربى ، نشأته وتطوره ، للدكتور حسين نصار - القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٢٧٦ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، لأبى عبيد البكرى - تحقيق مصطفى السقا - القاهرة ١٩٤٥ - ١٩٥١ م .
- ٢٧٧ - المعجمية العربية فى ضوء الألسنية السامية ، للأب مرمرجى الدومنىكى - القدس ١٩٣٧ م .
- ٢٧٨ - العرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم ، للجوالقى - نشر الشيخ أحمد شاكر - القاهرة ١٣٦١ هـ .
- ٢٧٩ - مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام المصرى - تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد - القاهرة (بلا تاريخ) .
- ٢٨٠ - مفاتيح العلوم ، للخوارزمى - القاهرة ١٣٤٢ هـ .
- ٢٨١ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لطاش كبرى زاده - حيدر آباد الدكن بالهند ١٣٢٨ - ١٣٥٦ هـ .
- ٢٨٢ - المفضليات ، بشرح أبى محمد القاسم بن بشار الأنبارى - تحقيق لايل - بيروت ١٩٢٠ م .
- ٢٨٣ - مقالة فى أسماء أعضاء الإنسان ، لابن فارس اللغوى - نشر الدكتور فيصل دبدوب - دمشق ١٩٦٧ م .
- ٢٨٤ - مقاييس اللغة ، لابن فارس اللغوى - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٣٦٦ - ١٣٧١ هـ .
- ٢٨٥ - المقتضب ، لأبى العباس المبرد - تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٨ م .
- ٢٨٦ - المقدمة ، لابن خلدون - القاهرة ١٣٢٧ هـ .

- ٢٨٧ - مقدمة لدراسة فقه اللغة ، للدكتور محمد أحمد أبو الفرج - بيروت ١٩٦٦ م .
- ٢٨٨ - مقدمتان في علوم القرآن : مقدمة كتاب المباني ، ومقدمة ابن عطية - نشر آرثر جفري - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٢٨٩ - المقصور والممدود ، لأبي البركات بن الأنباري - نشر الدكتور عطية عامر - ستوكهلم ١٩٦٦ م .
- ٢٩٠ - المقصور والممدود ، لنفطويه - نشر الدكتور حسن شاذلي فرهود - مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض (المجلد الرابع) ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م .
- ٢٩١ - المقصور والممدود ، لابن ولاد - نشر بولس برونله - ليدن ١٩٠٠ م .
- ٢٩٢ - المتع في التصريف ، لابن عصفور - تحقيق فخر الدين قباوة - حلب ١٩٧٠ م .
- ٢٩٣ - الممدود والمقصود ، لأبي الطيب الوشاء - تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٧٩ م .
- ٢٩٤ - مميزات لغات العرب ، لحفنى ناصف - القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٢٩٥ - من أسرار اللغة ، للدكتور إبراهيم أنيس - القاهرة ١٩٦٦ م .
- ٢٩٦ - المنجد في اللغة ، لكرام التمل - تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباقي - القاهرة ١٩٧٦ م .
- ٢٩٧ - المنصف ، لابن جنى ، بشرح التصريف للمازني - تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين - القاهرة ١٩٥٤ م .
- ٢٩٨ - المنقوص والممدود ، للفراء - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٢٩٩ - الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء ، للمرزباني - تحقيق علي محمد البجاوى - القاهرة ١٩٦٥ م .
- ٣٠٠ - مولد اللغة ، للشيخ أحمد رضا العاملى - بيروت ١٩٥٦ م .
- ٣٠١ - النبات ، لأبي حنيفة الدينورى - نشر لوين - ليدن ١٩٥٣/قيسبادن ١٩٧٤ م .
- ٣٠٢ - النبات والشجر ، للأصمعى (ضمن البلغة في شذور اللغة) - نشر

- هفنز ، ولويس شيخو اليسوعى - بيروت ١٩١٤ م .
- ٣٠٣ - نثر الدرر ، للوزير أبى سعد الآبى - مخطوطة كوبر يلى رقم ١٤٠٣
- ٣٠٤ - النثر الفنى فى القرن الرابع ، للدكتور زكى مبارك - القاهرة ١٩٥٧ م .
- ٣٠٥ - النخلة ، لأبى حاتم السجستانى - تحقيق المستشرق لاغومينا - روما ١٨٩١ م .
- ٣٠٦ - نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، لأبى البركات بن الأنبارى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٣٠٧ - نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها ، لابن الكلبي - نشر ليثى دلاقيدا - ليدن ١٩٢٨ م .
- ٣٠٨ - نشوء اللغة ونموها واكتهاها ، للأب أنستاس مارى الكرملى - القاهرة ١٩٣٨ م .
- ٣٠٩ - نصوص من اللغات السامية ، مع الشرح والتحليل والمقارنة ، صنعة الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٧٩ م .
- ٣١٠ - النقائض = نقائض جرير والفرزدق - تحقيق بيفنان - ليدن ١٩٠٥ - ١٩٠٧ م .
- ٣١١ - نقد الشعر ، لقدامة بن جعفر - تحقيق بونيباكر - ليدن ١٩٥٦ م .
- ٣١٢ - النهاية فى غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير - تحقيق محمود الطناحى - القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٥ م .
- ٣١٣ - النوادر فى اللغة ، لأبى زيد الأنصارى - نشر سعيد الشرتونى - بيروت ١٨٩٤ م .
- ٣١٤ - نور القبس المختصر من المقتبس ، للمرزبانى - اختصار الحافظ اليعمورى - تحقيق رودلف زلهام - فيسبادن ١٩٦٤ م .
- ٣١٥ - الهمز ، لأبى زيد الأنصارى - نشر لويس شيخو اليسوعى - بيروت ١٩١١ م .
- ٣١٦ - الوحوش ، للأصمعى - نشر جاير فى مجلة : SBWA - فينسا ١٨٨٨ م .
- ٣١٧ - الوساطة بين المتنبى وخصومه ، لعل بن عبد العزيز الجرجانى - تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٤٥ م .

٢- المراجع الأجنبية

- 1 — Abdel-Tawab, Das Kitāb al-Ġarīb al-Muṣannaf von Abu Ubaid und seine Bedeutung für die national-arabische lexikographie, Diss. München 1962.
- 2 — A. Bloch, Vers und Sprache im Altarabischen, Basel 1946.
- 3 - C. Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen Sprachen, Bd. I-II, Berlin 1908-1913.
- 4 - C. Brockelmann, Semitische Sprachwissenschaft, Leipzig 1906 .
- 5 - C. Brockelmann, Syrische Grammatik, Leipzig 1955.
- 6 — W. Gesenius, Hebräische Grammatik, völlig umgearbeitet von E. Kautzsch, 28. Auflage, Leipzig 1909.
- 7 — C.H. Gordon, Ugaritic Manual, Roma 1955.
- 8 — A. Grohmann, From the world of Arabic Papyri, Cairo 1952.
- 9 — D. Jones, An Outline of English Phonetics, Cambridge 1947.
- 10 — P.E Kahle, Die Kairoer Genisa, Berlin 1962.
- 11 — H. Kofler, Reste altarabischer Dialekte, WZKM, Wien 1940-1942.
- 12 — F. Krenkow, The Beginnings of Arabic Lexikography till the time of al-Jauhari, with special refrence to the work of Ibn Duraid, JRAS, Centenary Supplement 1924.
- 13 — Enno Littmann, Vorislam.-arab. Inschrift, ZS, Bd. vii 1929.
- 14 — Lommel, Wie studiert man Sprachwissenschaft, Frankfurt/M.

- 15 — S. Moscati, An Introduction to the comparative grammar of the semitic Languages... by S.Moscati, A. Spitaler, E.Ullendorff and W. von Soden, Wiesbaden, 1964.
- 16 — S. Moscati, Die altsemitischen Kulturen, Stuttgart 1961.
- 17 — Th. Nöldeke, Einige Bemerkungen über die Sprache der alten Araber, ZA xii 171-187.
- 18 — Th. Nöldeke, neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft, Strassburg 1910.
- 19 — Th. Nöldeke, Zur Grammatik des classischen Arabisch, bearbeitet und mit zusätzen versehen von A. Spitaler, Darmstadt 1963.
- 20 — F. Praetorius, Aethiopische Grammatik, New York 1955.
- 21 — C. Rabin, Ancient West Arabian, London 1951.
- 22 — Répertoire chronologique d'Epigraphie Arabe, Le Caire 1931.
- 23 - W. von Soden, Grundriss der akkadischen Grammatik, Roma 1925.
- 24 — A. Spitaler, Arabisch, in Linguistica Semitica Presente e Futuro, Roma 1961.
- 25 — K. Vollers, Volkssprache und Schriftsprache in alten Arabien, Strassburg 1906
- 26 — St. Wild, Das Kitab al-Ain und die arabische Lexikographie, Wiesbaden 1965.



فهرس الموضوعات

مقدمة الطبعة الثانية (٣) .

مقدمة الطبعة الأولى (٥) .

تمهيد (١) بين فقه اللغة وعلم اللغة : معنى فقه اللغة - معنى علم اللغة - ما يقابلهما عند علماء الغرب - صلة كل واحد منهما بالآخر - متى ظهرت كلمة « فقه اللغة » في العالم العربي الحديث - فقه اللغة وعلم اللغة في الجامعات العربية (٩ - ١٢) .

(٢) جهود علماء العربية في فقه اللغة : فقه اللغة للثعالبي - الصاحبى في فقه اللغة - فكرتا : الأصول والنحت في مقاييس اللغة - الخصائص - المزهرة في علوم اللغة - جهود المحدثين من العرب ، في التأليف والترجمة في موضوعات فقه اللغة وعلم اللغة (١٣ - ٢٢) .

الباب الأول : في أولية اللغة العربية :

الفصل الأول : اللغة العربية واللغات السامية : فصيلة اللغات السامية - أول من أطلق عليها هذا الاسم - نقد تقسيم التوراة للشعوب - الأكادية وموطنها وآدابها واكتشافها وحل نقوشها - الكنعانية - الأوجاريتية واكتشافها - العبرية والعهد القديم - قصيدة دبورة - السنى البابلى - الترجوم - العبرية في العصر الهلنى - كتاب ابن سيرة وإستير والجامعة - العبرية الوسيطة والحديثة - خطابات تل العمارنة - المؤابية ونقش ميشع - الفينيقية واليونية - الآرامية ونقوشها - آرامية العهد القديم - آرامية جزيرة الفيلة - ترجمون أنكلوس - السامرية - المنداعية - السريانية - اللهجات الآرامية الحديثة - الحبشية الجعزية - الأمهرية - العربية الجنوبية والشمالية - شجرة اللغات السامية - نماذج من الخطوط السامية وأبجدياتها (٢٣ - ٣٧) .

الموطن الأصلي للساميين : المذهب الإفريقي - المذهب الأرمني - المذهب البابلي - المذهب العربي - الأدلة على أن الجزيرة العربية هي المهد الأول للساميين (٣٨ - ٤٢) .

اللغويون العرب واللغات السامية : الخليل بن أحمد والكنعانية - أبو عبيد القاسم ابن سلام والسريانية - ابن حزم الأندلسي والعبرية والسريانية - الإمام السهيلي والسريانية - أبو حيان الأندلسي والحبشية (٤٢ - ٤٥) .

خصائص اللغات السامية : اعتمادها على الأصوات الصامتة - الثلاثي هو الأساس - غلبة أصوات الحلق والأصوات المفخمة - الحدث التام والحدث الذى لم يتم - التركيب وبعدها عنه (٤٥ - ٤٦) .

أهمية الدراسات السامية للعربية : الفائدة الحضارية والفائدة اللغوية - أمثلة لفوائد المقارنة : الثوم والفوم - ثاب وتاب - ليس - الأجوف والناقص - اطمأن - اسم - انفعل واتفعل فى اللهجات العربية الحديثة (٤٦ - ٤٩) .

الفصل الثانى : النقوش العربية الشمالية : الثمودية واللحيانية والصفوية - جهود المستشرق « إنو لينان » فى جمع هذه النقوش ودراستها - خصائص هذه النقوش - صلتها بخط المسند - أحد النقوش الصفوية وقراءته - رأى الدكتور عبد الرحمن الأنصارى فى النقوش الثمودية - نقش النخاعة وقراءته - نقش زيد وقراءته - نقش حران وقراءته - نقش أم الجمال وقراءته - هذه النقوش خليط من العربية وغيرها - ما فيها من غير العربية - ما فيها من خصائص العربية ليس كافيا لمعرفة أولية العربية - رأى المستشرق شيبثالر - رأى الدكتور إبراهيم أنيس - الأمل فى حفريات المستقبل (٥٠ - ٦٣) .

الفصل الثالث : مشكلة توثيق النصوص : قضية الشك فى الشعر الجاهلى - أول من تشكك مرجليوث - الدكتور طه حسين وكتابه فى الشعر الجاهلى - ردود علماء المسلمين عليه - الدكتور ناصر الدين الأسد وضروب الشعر الجاهلى (٦٤ - ٦٨) .

الباب الثاني : في العربية الفصحى واللهجات : تمهيد :

الفرق بين اللغة واللهجة - نظرية الأمواج - رأى أنطوان ميه -
علاقة اللغة باللهجة - خلط اللغويين العرب بينهما - أهمية
دراسة اللهجات العربية القديمة - صعوبة دراسة هذه اللهجات
(٦٩ - ٧٥) .

الفصل الأول : ظروف تكون العربية الفصحى وخصائصها : اللغة الفصحى
واللهجات - العلاقة بينهما في نظر : نولدكه ، وجويدي ،
ونلليو ، وفيشر ، وفوللرز ، وبروكلمان ، وفستشتاين ،
ولاندبرج ، ومارسيه - الفصحى هي لغة البدو عند علماء
العربية - اللغة الأدبية واللغة الشعبية - نشأة الفصحى قبل
الإسلام - الظروف الدينية والسياسية والاقتصادية ، التي أدت
إلى تكوّن الفصحى - صفات الفصحى العربية : لغة فوق
مستوى العامة - رأى الأصمعي - القرآن الكريم وأعلى
مستويات الفصاحة - رأى الباقلاني - الفصحى لا تنتمي إلى
لهجة بعينها - لغة قریش تسهم في خصائصها بنصيب كبير -
الهمز وانماؤه إلى لهجة تميم - رأى الدكتور أنيس - خلو الشعر من
الخصائص اللهجية - الشواهد الشاذة وموقفنا منها - الأدب
الشعبي - تنقل الشعر على ألسنة الرواة - وضع النحويين
للشواهد - التصحيف والتحريف - الفصحى ليست لغة سليقة
لكل العرب - رأى الدكتور أنيس - الإقواء واللحن (٧٦ -
٩٥) .

السليقة اللغوية ومصادر الاحتجاج : معنى السليقة عند القدماء والمحدثين -
رأى ابن خلدون - الاحتجاج بالقرآن الكريم وقراءته الشاذة -
الحديث الشريف وموقف النحويين واللغويين منه - السبب
الحقيقي في انصراف النحاة الأوائل عن الاستشهاد بالحديث -
لغة بلحارث بن كعب وشواهداها - علاقتها بالسامية الأم -
الاحتجاج بالشعر وطبقات الشعراء - وقوفهم بالشعر عند زمن
معين وإطلاقهم المكان - النثر والقبائل التي يحتج بكلامهم -

قوائم الفارابي وابن خلدون للقبائل الفصيحة - مقاييس اللغويين
 للأخذ عن القبائل - منهج البصريين والكوفيين في هذه القضية -
 خلطهم الفصحى باللهجات - نقد منهج الفريقين (٩٥ -
 ١٠٧) .

الفصل الثاني : لولا القرآن ما كانت عربية : القرآن الكريم محور الدراسات
 العربية - نشأة المعاجم قرآنية - تفسير ابن عباس للقرآن
 بالشعر - الشعر ديوان العرب - لولا القرآن ما روى الشعر -
 نشأة النحو قرآنية - أبو الأسود الدؤلي ووضع النحو - علوم
 البلاغة في خدمة القرآن الكريم - مجاز القرآن لأبي عبيدة -
 الرسم الإملائي وضبط المصحف - الفلك والرياضيات والعلوم
 الطبيعية وأثر الإسلام فيها (١٠٨ - ١١٥) .

الفصل الثالث : ألقاب اللهجات العربية : تقديس اللغويين لغة قريش وازدراؤهم
 اللهجات الأخرى - تلقيهم اللهجات العربية بألقاب مختلفة -
 المسئول عن هذه الألقاب رجل من جرم في مجلس معاوية -
 اختلاف المصادر في رواية خبر الرجل الجرمي وتحرير هذا الخبر -
 التوفيق بين الآراء في نسبة اللقب الواحد إلى أكثر من قبيلة -
 الاستنطاء وشواهد تفسيره - التضجع وتفسيره - لا صلة
 للتضجع بالإضجاع - التثلة والسامية الأم والركام اللغوي - الرثة
 بين العجلة في الكلام واللثغة في اللسان - العلاقة بين الرثة
 والخلخانية - الشنينة وعلاقتها بالكشكشة - الطمطممانية
 وشواهدا وتفسيرها - العجرفية وغموضها - العججعة
 وشواهدا وتفسيرها - عكس ظاهرة العججعة في اللهجات
 الحديثة - العنينة وعلاقتها بالمبالغة في تحقيق الهمز - الغمغمة في
 رأينا محرفة عن العججعة - مجمع اللغة العربية يوافق على اقتراحى
 بحذف هذا اللقب من ألقاب اللهجات العربية - الفحفحة
 ليست ظاهرة عامة - الفراتية وعلاقتها بالرثة والخلخانية -
 القطعة والترخيم - الكسكسة والكشكشة وشواهدهما - الأصل
 فيهما - قانون الأصوات الحنكية - الامتداد الحديث

للظاهرتين - الجيم الفصيحة تطور في نفس الاتجاه - تطور
الظاهرة وشنشنة الين - رأى غريب لكاتينو في تفسير
الظاهرة - اللخلخانية وغموض اللقب - علاقتها بالرثة
والفراية - الوتم والتطور الصوتي - الوكم وقانون المماثلة - الوهم
وإجراء القياس لطرد الباب على وتيرة واحدة - ليس المراد حصر
خصائص اللهجات العربية (١١٦ - ١٥٤) .

الباب الثالث : بين الشعر والنثر :

الفصل الأول : خصائص الكلام بين الشعر والنثر : ضرورة الفصل بين لغة الشعر
ولغة النثر في وضع القواعد - رأى المستشرق شبيتالر - كتاب
« بلوخ » في الشعر واللغة في العربية القديمة - أنواع المقاطع
وتواليها على نظام معين في النثر والشعر - الشعر لا يقبل توالى
المقاطع القصيرة - أمثلة تطبيقية - القدماء أمام هذه المشكلة
(١٥٥ - ١٦٢) .

الفصل الثانى : ضرورة الشعر والخطأ في اللغة : تكلف اللغويين والنحويين في
تعريف الضرورة وتخريجها - رأى أبى هلال العسكري - موقف
ابن جنى من بعض الضرورات - الإقواء خطأ في النحو لا في
الموسيقى - نقاد الشعر يعكسون القضية - الدليل على
وهمهم - ضرورة تسكين المتحرك وشواهدا - موقف سيويه
ومن بعده من شواهد التسكين - تغيير المبرد للشواهد - الرواة
تصلح أشعار القدماء - ضرورة تحريك الساكن وشواهدا -
تكلف ابن جنى في تخريجها - ضرورة تقصير الحركات الطويلة
وشواهدا - الخط العربى مبنى على الوقف - الشذوذ في الخط
القديم وتكلف القدماء في تفسيره - ضرورة إطالة الحركات
القصيرة وشواهدا - أمثلة أخرى للضرورة الشعرية - فطنة
بعض اللغويين إلى أثر الضرورة في اللغة (١٦٣ - ١٩٢) .

الفصل الثالث : أثر الوزن الشعري في أبنية العربية : وزن (افعال) والشعر
العربى - المقاطع الصوتية ونقد نظرية اللغويين في التقاء
الساكنين - رأى المبرد في جواز (افعال) في بحر المتقارب ونقد
رأيه - أثر الشعر في تحول (افعال) إلى (افعال) بإقحام

الهمزة - دراسة لأمثلة هذه الظاهرة ، وربط معناها بالثلاثي في كل مادة - وزن (افعال) ليس خاصا بالألوان - تطور (افعال) إلى (افعلّ) ومذهب تميم في المبالغة في تحقيق الهمز - أمثلة هذا التطور - تطور (افعال) إلى (افعلّ) وتسهيل الهمز - أمثلة هذا التطور - أمثلة أخرى لأثر الوزن الشعري في نشوء صيغ جديدة في العربية (١٩٣ - ٢٢٦) .

الباب الرابع : الثراء اللغوي في العربية :

الفصل الأول : المعاجم العربية ، نظرة تاريخية : أنواع المعاجم - المخارج الصوتية والتقليبات - الترتيب الأبجدي بحسب الأصل الأول أو الأخير للكلمة - الترتيب الموضوعي - الرسائل اللغوية الصغيرة ونواة المعجم العربي - أخذ اللغة عن البدو وسياحة اللغويين في الصحراء العربية - جهود الأصمعي في الرسائل اللغوية : الإبل - الخيل والمؤلفات فيه - الشاء - الوحوش والمؤلفات فيها - الفرق بين الإنسان والحيوان - خلق الإنسان والمؤلفات فيه - النبات والشجر والمؤلفات فيه - كتب تنسب إلى الأصمعي وليست له - كتب الأضداد التي وصلت إلينا - شجر الدر لأبي الطيب اللغوي والمؤلفات المماثلة - كتب الإتياع - المثني لأبي الطيب اللغوي - كتب القلب والإبدال - جهود أبي زيد الأنصاري في الرسائل اللغوية : المطر - الهمز وسبب التأليف فيه - اللبأ واللبن - النوادر في اللغة وما وصل إلينا منها - جهود الفراء في الرسائل اللغوية : الأيام والليالي والشهور - تراث المقصور والممدود - تراث المذكر والمؤنث - معاجم المعاني : الغريب المصنف وأثره في المعاجم العربية - الألفاظ الكتابية - جواهر الألفاظ - متخير الألفاظ - التلخيص في معرفة أسماء الأشياء - مبادئ اللغة - فقه اللغة وسر العربية - المخصص في اللغة - كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ . المعاجم العربية الكبرى عبر التاريخ : العين للخليل بن أحمد - الجيم لأبي عمرو الشيباني - جوهرة اللغة لابن دريد - ديوان الأدب للفارابي - البارع للقالى - تهذيب اللغة للأزهري -

المحيط في اللغة للصاحب بن عباد - مجمل اللغة ومقاييس اللغة
لابن فارس - الصحاح للجوهري - المحكم لابن سيدة - أساس
البلاغة للزمخشري - شمس العلوم لنشوان الحميري - التكملة
للصاغاني - لسان العرب لابن منظور - المصباح المنير للفيومي -
القاموس المحيط للفيروزآبادي - تاج العروس لمرتضى الزبيدي -
عيوب المعاجم العربية (٢٢٧ - ٢٨٩) .

الفصل الثاني : الاشتقاق وتوليد الصيغ : معنى الاشتقاق عند علماء الغرب ،
واللغويين العرب - أنواع الاشتقاق - الاشتقاق العام ، وموقف
البصريين والكوفيين منه - هذا النوع قياسي - غلو ابن فارس في
سماعيته - غلو ابن دريد في اشتقاق الأعجمي من العرب - رأى
ابن السراج - مذهب ابن فارس في الأصول الاشتقاقية - الاشتقاق
الأكبر وولوع ابن جنى به - الفرق بينه وبين طريقة الثقاليب عند
الخليل بن أحمد - أصحاب مذهب الثنائية في العربية : أنستاس
ماري الكرملي - مرمجي الدومنكي - النظرية الثنائية في ميزان النقد
(٢٩٠ - ٣٠١) .

النحت في اللغة : تعريف النحت - هو من ضروب الاشتقاق - السبب في
نشوء النحت - أنواع النحت - مذهب ابن فارس في الرباعي
والخماسي ، وأن بعضها منحوت - ذهب إلى هذا الخليل بن
أحمد كذلك - تكلف ابن فارس في كثير من الأمثلة -
وسائل أخرى لنشوء الرباعي لم يفتن إليها القدماء - العربية
تعرف النحت ولا تعرف التركيب (٣٠١ - ٣٠٧) .

الفصل الثالث : ظاهرة الترادف والاشتراك اللفظي والتضاد في العربية :
أولاً : الترادف : تعريف المترادف - اختلاف اللغويين في جواز وقوعه في العربية -
مبالغة الأصمعي وابن خالويه فيه - معارضة ابن الأعرابي ،
وثعلب ، وأبي علي الفارسي ، وابن درستويه ، وابن فارس في
وقوعه - ابن درستويه يفتن إلى العوامل التي تؤدي إلى
الترادف - من أنكر والترادف من الأدباء - أبو هلال
العسكري وكتابه : « الفروق اللغوية » - أبو هلال يذكر
بعض المترادفات في كتابيه : « التلخيص » و « المعجم في

بقية الأشياء » بلا فروق - أسباب كثرة المترادف في العربية :
 اللهجات - الصفات - التطور اللغوي - الاقتراض -
 شروط المترادف عند المحدثين - فائدة المترادف
 (٣٠٨ - ٣٢٤) .

ثانيا : الاشتراك اللفظي : تعريفه - وقوع الخلاف حول وجوده - ابن درستويه
 وأبو علي الفارسي ينكران وجوده في أصل الوضع - معاني
 كلمة العجوز في العربية - عوامل نشأة المشترك اللفظي :
 المجاز ومعاني كلمة : « عين » - اللهجات - الاقتراض -
 التطور اللغوي - لا وجود للمشارك اللفظي إلا في معاجم
 اللغة - أثر المشترك اللفظي في التورية والتأليف في المشجر
 والمداخل والمسلسل (٣٢٤ - ٣٣٦) .

ثالثا : التضاد : تعريفه - ابن درستويه ينكر التضاد - أصل التضاد في العربية -
 شروطنا في كلمات الأضداد - العوامل التي تؤدي إلى التضاد
 في اللغة : عموم المعنى الأصلي - التفاضل - التهمك -
 الخوف من الحسد - التطور اللغوي - المجاز والاستعارة -
 احتمال الصيغة الصرفية للمعنيين - عرض لكتابي :
 « ردسلوب » و « جيسى » في الأضداد في العربية
 (٣٣٦ - ٣٥٧) .

الفصل الرابع : التعريب وألفاظ الحضارة : اتصال العرب في الجاهلية بالأهم
 المجاورة - أثر الاحتكاك بين الشعوب في اللغة - أمثلة لتأثر
 العربية باللغات المجاورة - مذهب أبي عبيدة وأبي بكر بن
 الأنباري في إنكار وقوع المعرب في القرآن الكريم - محاولة أبي
 عبيد القاسم بن سلام التوفيق بين الآراء - حملة الشيخ أحمد
 شاکر على الجواليقي - الاقتراض من اللغات المجاورة حقيقة
 واقعة - علامات المعرب - منهج العربية في التعريب - اقتراض
 الألفاظ والمعاني - غلبة المعرب على العربي أحيانا - تطويع
 العربية للمعرب والاشتقاق منه - تعريب مصطلحات الحضارة
 في العصر الحديث - رأي مجمع اللغة العربية في التعريب -
 مذهبنا في هذه القضية : تعريب اللفظ بمجرد ظهور

المستحدث الحضارى ، وقبل شيوع اسمه الأعجمى على الألسنة ! (٣٥٨ - ٣٦٨) .

الباب الخامس : من قضايا اللغة ومشكلات العربية :

الفصل الأول : قضية الإعراب : رأى جمهرة النحاة فى دلالة الإعراب على المعانى - رأى قطرب فى أن الإعراب حركات جىء بها للسرعة فى الكلام والتخلص من التقاء الساكنين - الدكتور إبراهيم أنيس يتابع قطرباً على رأيه - تفصيل نظرية الدكتور أنيس - بعض المستشرقين يتشككون فى حقيقة الإعراب - فوللرز - باول كاله - فتسشتاين - نولدكه يرد على المتشككين - أدلتنا على دلالة الإعراب على المعانى : اللغات السامية كالأكدية والحبشية والأوجاريتية - تواتر قراءة القرآن الكريم بالإعراب - الرسم القرآنى - موازين الشعر العربى - أخبار اللحن - سماع العلماء من البدو - تفسير المستشرقين للحركات الإعرابية - قضية ضياع الإعراب من الفصحى وسببها - نقد رأى نولدكه فى ثبات أجزاء الجملة العربية القديمة (٣٦٩ - ٣٩٥) .

الفصل الثانى : مشكلة الخط العربى وأوهام اللغويين : صلة المشكلة بالدرس

اللغوى - خلو الخط العربى من رموز الحركات وأثره فى أوهام اللغويين - تاريخ الخط العربى ومشكلة الضبط بالشكل - رموز القراءة كلها من عمل الخليل بن أحمد - جدل ابن جنى حول موضع الحركة من الحرف - وهم أنى على الفارسى فى القول بأن الحركة تحدث مع الحرف - فطنة ابن جنى إلى العلاقة بين الحركات القصيرة وحروف المد - ازدواج وظيفة الواو والياء فى الخط العربى - أثر هذا الازدواج فى أوهام القدامى فى الصرف والعروض - الخط وسيلة ناقصة للتعبير عن الصورة السمعية الحية - وجوب تأسيس القواعد على المنطوق لا على المكتوب (٣٩٦ - ٤١٢) .

الفصل الثالث : مشكلة تعليم العربية : كثرة الشكوى من ضعف الدارسين فى

اللغة العربية - بعض المستشرقين يلحظ ذلك - المشكلة معقدة وجوانبها متعددة - لماذا نهتم بالعربية الفصحى ؟ ارتباط

الفصحى بالقرآن الكريم - الازدواج اللغوى أمر لا مفر منه -
 هل العربية لغة صعبة ؟ صعوبة إعراب الفصحى لا تنفرد به
 العربية - بعض الصعوبات سببه انشغال النحاة العرب بالجدل
 العقيم عن وصف الظاهرة اللغوية - كيف ينتقى مدرس العربية
 وكيف يعد ؟ ضعاف حملة الثانوية العامة هم الذين يدخلون
 أقسام اللغة العربية ودار العلوم - الموهوبون وذوو الاستعداد
 اللغوى لا يتخصصون فى العربية - المرحلة الابتدائية أهم
 مراحل التعليم وأخطرها - العناية بمعلم هذه المرحلة واجب
 وطنى - الطريق الأمثل إلى تعلم العربية - حفظ النصوص
 وفهمها لا حفظ القواعد - رأى ابن خلدون فى تعلم اللغة
 العربية - الكتاب المدرسى يجب أن يضبط بالشكل الكامل -
 وسائل الإعلام ودورها فى نشر الفصحى - الإذاعة والتلفزيون
 يقومان بدور التوجيه لا الانقياد ! (٤١٣ - ٤٢٦) .

مراجع الكتاب : ١ - المراجع العربية (٤٢٧ - ٤٤٦) .

٢ - المراجع الإفرنجية (٤٤٧ - ٤٤٨) .

فهرس الموضوعات (٤٤٩) .
